

د. محمد حجي
كلية الاداب/الرباط

عقدت وزارة الشؤون الثقافية ندوة علمية بالرباط، فيما بين 21 و25 محرم عام 19/1402 ـ 23 نونبر 1981، حول تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان ابن حيان، شارك فيها أساتذة من جامعات الشرق والغرب، أسهموا جميعا بعروض قيمة وتدخلات مفيدة ألقت أضواء كشافة على حياة شيخ المؤرخين الأندلسيين أبي مروان حيان بن خلف بن حسين ابن حيان القرطبي، المتوفي عام 469هـ/1076م، وآثاره الباقية أو المفقودة، وعلى تاريخ الأندلس في عصره بصفة خاصة، وفي العصور الإسلامية الأخرى عامة. وكانت النية متجهة في البداية إلى إصدار الحصيلة الثمينة لهذه الندوة في كتب ضمن منشورات الوزارة، لكن ذلك لم يتيسر، وقر العزم أخيرا على إصدارها في قسمين ضمن سلسلة مجلة **المناهل.**

يحتوي القسم الأول على دراسات تتعلق بشخصية ابن حيان وآثاره (☆) وتتناول حياته وثقافته وكفايته الأدبية والتاريخية، وأفكاره الدينية

(●) لم يراع في ترتيب هذه الدراسات عند طبعها، لا الأهمية ولا الترتيب الذي قدمت به في الندوة، وإنما روعي تجانس وترابط وتسلسل الموضوعات.

والسياسية ومنهاجه فيما حبر وحرر، وما حمد من صراحته أو أخذ عليه من شتم ووقيعة، بالإضافة إلى نصوص مختارة من آثار قلمه أشبعت شرحا وتحليلا ونقدا تهم جوانب التاريخ السياسي والاجتماعي والحضاري للغرب الإسلامي حتى منتصف القرن الخامس الهجري.

وقد عرفت الدكتورة عائشة عبد الرحمن في عرض مسهب ممتع بابن حيان من خلال ما قاله عنه من عرفوه ومن أنكروه من العرب والمستعربين، ومن خلال قراءتها قراءة جديدة لما بقي من كتابيه **المقتبس والمتين**، مستخلصة المميزات البارزة في مرويات هذا المؤرخ وإنشاءاته، توثيقا وموهبة واستيعابا.

وتوسع الدكتور إحسان عباس في طريقة ابن حيان في الكتابة التاريخية، وما يمتاز به ككاتب مترسل مع أعيان العلماء والأدباء والساسة في عصره، وكمؤرخ يتكئ على المؤرخين السابقين في **المقتبس**، ومؤرخ مبدع في **المتين والبطشة الكبرى**، مع ما يتسم به أسلوبه من متانة، وأفكاره من دقة وصراحة، مدحا وتشريفا للحماة المصلحين، وقدحا وتسفيها للخونة المجرمين، في نماذج مختارة واستنتاجات محكمة.

وتناول الأستاذان الدكتور مصطفى الشكعة والدكتور حازم عبد الله خضر ظاهرة الازدواجية الأدبية - التاريخية عند ابن حيان، وخصائصه الفنية، والتزامه كتابة تاريخ بلاده الأندلس دون غيرها من الأقطار الإسلامية.

واهتم الدكتور محمد مفتاح والدكتور عبد الرحمن علي الحجي بجانب المنهجية عند ابن حيان، فتحدث الأول عن منهجية ابن حيان في تاريخ الأدب ونقده، واهتمامه بالإطارين الجغرافي والاجتماعي، وتحرره من مذهب

التقليد والتسليم والاتباع السائد في الأندلس ولو أنه لم يسلم منه تماما، والثاني عن منهجية ابن حيان فيا وصل الينا من كتاباته أسلوبا وفكرة ليخلص إلى القول بأن ابن حيان لم يؤلف إلا كتابا واحدا هو **المتين**، وما عداه أقسام منه أو مختصرات.

وتحدثت الدكتورة وداد القاضي عن الفكر السياسي لابن حيان بعد أن ذللت عقبات تعترض دارس فكر ابن حيان : ضياع أجزاء من تاريخه، ونقله عمن سبقه من المؤرخين في **المقتبس** بخاصة، وعدم احترافه الكتابة في السياسة، فبينت خضوع الفكر السياسي لابن حيان إلى عامل الزمن المتقلب الذي عاش فيه والمكان الأندلسي الذي لم يغادره قط. ثم استعرضت ملامح هذا الفكر السياسي الناتجة عن تصور ابن حيان ضرورة ارتكاز حكم أرض الإسلام «الأندلس» في حضرة دار الجماعة «قرطبة» سيرا مع طبيعة التاريخ الإسلامي، ملاحظة أنه لا يتحدث عن «الخليفة» ولكن عن «ولاة الأمر بالأندلس»، محددة بإسهاب المهمات الأربع الكبرى التي كان ابن حيان يتطلبها في الخليفة أو الإمام : عسكرية، وإدارية، ومدنية، وشخصية.

وتطرق الأستاذ عبد الله كنون والدكتور علي عبد العظيم إلى الجانب الأخلاقي عند ابن حيان، فقرر الأول ضلاعة ابن حيان وسعة أفقه الأدبي والتاريخي، لكنه ركز على نقطة الضعف التي تفرد بها عن جمهرة المؤرخين العرب، وهي : «الذم والطعن والتشنيع على الناس» مشيرا إلى سبق ابن بسام في انتقاده، ورادا على من انتصروا لابن حيان أو اعتذروا عنه، أو نحوا نحوه كابن حزم وابن خاقان؛ في حين تأول الثاني انتقادات ابن بسام لمؤرخنا على أنها أشبه بالمدح منها بالقدح، مستدلا بطائفة من أهاجي ابن حيان لمعاصريه.

وتأتي بعد ذلك مجموعة أخرى من العروض اعتمدت نصوصا من كلام ابن حيان في موضوعات خاصة، في مقدمتها العرض الشيق للدكتور أحمد مختار العبادي حول ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة 330هـ/942م، حيث هجموا على إقليم سرقسطة بشمال الأندلس أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، واستولوا على عدة مدن إلى أن انسحبوا من تلقاء أنفسهم. وقد قارن الدكتور العبادي نص ابن حيان بنصوص أخرى معاصرة، ورجع إلى مصادر متعددة إسلامية وأوربية ليستنتج دقة ابن حيان وصدقه في هذا النص النادر.

وتعرض كل من الدكتور الحبيب الجنحاحي والدكتور التهامي الراجي إلى النظم في الأندلس اعتمادا أساسا على **مقتبس** ابن حيان، فبحث الأول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية خصوصا أيام عبد الرحمن الناصر، من إقطاع مدني وعسكري، وزراعة وجباية ومكوس وضرب السكة، إضافة إلى ذكر الفآت الاجتماعية المختلفة، من الأسرة الحاكمة، ورجال الدولة، وأصحاب الخطط الإدارية والعسكرية، والعامة من أهل المهن والتجار والفلاحين الصغار، والرعاع أو الدهماء، واهتم الثاني بالنظم الإدارية في دولة بني أمية بالأندلس، مبتدئا بترتيب رجال الدولة حسب مراتبهم في مجالس العلم والأعياد واستقبال الرؤساء، والأسباب المبيحة لمخالفة الترتيب، ثم أصناف سكان الأندلس من إسبانيين إسلاميين، وعرب عدنانيين وقحطانيين، وبربر من مختلف القبائل، وأخيرا الإداريين من أمناء وفقهاء وقضاة وجند وحشم، وأصحاب الصلاة والطراز والعرض والمظالم والمواريث وغيرهم.

واهتم الدكتور عبد الهادي التازي والأستاذ عبد القادر زمامة بمسألة العلاقات المغربية ـ الأندلسية، فذكر الأول أسباب اهتمام أمويي الأندلس

بالعدوة المغربية إلى نزولهم بسبتة عام 931/319 حيث قاومهم الأدارسة، وربط ذلك بالتشيع الذي فشا في المنطقة بسبب الفاطميين، وانقسام المغرب عند ضعف الأدارسة إلى تبعية لتونس أو قرطبة؛ بينما عمد الثاني إلى عبارة «أهل العدوة» التي تعنى في الأندلس المغاربة من برانس وبتر، وتدل في المغرب على الأندلسيين بمختلف أجناسهم وقبائلهم، وحديث ابن حيان عن أهل العدوة وصلتهم بالأندلس قبل الصراع مع الفاطميين وبعده، وسياسة خلفاء قرطبة تجاه العدوة المغربية، وبخاصة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر، وما كان من استجلاب أهل العدوة لضمهم إلى جيش قرطبة.

وألقى الدكتور عبد السلام الهراس نظرة عجلى على ما كتبه ابن حيان عن مأساة الأندلس في عصره انطلاقا من تهاون الحكم المستنصر بولاية العهد وإسنادها إلى ولده في سن الصبا دون مشيخه الإخوة وفتيان العشيرة، وارتكابه من أجل ذلك سلسلة من الجرائم السياسية انتهت بالقضاء عليه وعلى غيره من القادة، وأتاحت المجال للفتنة العظمى.

كما تحدثت الدكتورة ابتسام مرهون حسن الصفار عن «**المستخرج من تاريخ ابن حيان**» وهو عبارة عن نصوص منقولة عن ابن حيان في كتب متفرقة تقوم حاليا الدكتورة ابتسام بجمع شتاتها وترميمها في كتاب واحد بعد تحقيقها وتصنيفها حسب الموضوعات، بالرغم على السلبيات والصعوبات التي تعترض سبيلها، وضربت لذلك أمثلة.

ذلك مجمل القسم الأول من الندوة نقدمه اليوم كإسهام في التعريف بشخصية مؤرخ الأندلس الكبير أبي مروان ابن حيان.

د. محمد حجي

الرباط في فاتح صفر عام 1404/1983.11.7

خطاب
الدكتور سعيد ابن البشير وزير الشؤون الثقافية في الحفلة الافتتاحية للقاء العلمي حول، "تاريخ الأندلس وابن حيّان"

د. سعيد ابن البشير

إن المغرب سعيد كل السعادة أن يستقبل على أرضه هذه الصفوة من رجال الفكر ممن تجمعهم آصرة أو علاقة بالأدب الأندلسي على العموم وعلى الخصوص بابن حيان، الذي خلف لنا هذا التراث الجليل الذي يزداد جدة على مر الأيام.

وإن المغرب إذ يقيم اليوم هذا الإحتفال بابن حيان، ليعبر عن اعتزازه بشخصية استطاعت أن تقدم لنا ملامح من تاريخ شامل مستوعب لفترات زاهية عاشها الغرب الإسلامي.

لقد كان ابن حيان من أهم الجسور التي ربطت ديار الأندلس ليس فقط ببلاد المغرب والمشرق، ولكن بالعالم الغربي كذلك، حيث أمكن للثقافات المتنوعة أن تشهد أيام ازدهارها وأن تعيش فترات الأخذ والعطاء.

وإذا كنا لا نزال نتطلع إلى اليوم الذي نتوفر فيه على سائر النصوص الضائعة من آثار ابن حيان، فإن ما ظهر لحد الآن من افاداته التاريخية، ليعطينا فكرة صادقة عن مكان الرجل بين رجال العلم والفكر والسياسة.

وإذا كان معظم الذين تناولوا ابن حيان، اهتموا به من ناحية تضلعه في التاريخ والجغرافية ومن ناحية هوايته الأدبية أو النقدية، فإن لابن حيان جانبا فقهيا وقانونيا وإداريا يستحق منا التنويه.

إن ابن حيان لم يكن مجرد كاتب يروي التاريخ وحسب، ولكنه كان مثال الرجل الذي مارس المسؤولية السياسية، ومن ثمة وجدناه يمزج في حولياته بين التاريخ الثقافي والسياسي، وبين التشريعات الخليفية والتعامل الدولي.

إن أبرز معالم تفكير ابن حيان السياسي كان يتجلىفي الاعتداد بنفسية الجماعة، ويد الله مع الجماعة، ولهذا كنا نلمس شعوره بالمرارة والحسرة، وهو يتحدث عن خصوم وحدة الإمبراطورية، وعن زعماء الحركات الإنفصالية في البلاد. وهذا وحده يدل على أن الرجل كان ذا مبدأ وخلق وعقيدة، فقد ظل في كل ما كتبه حول النزاعات الإنشقاقية شاهرا سلاحه ضد الأنانيين والمتربصين معتبرا في الإنفصال ظاهرة تدل على التخلف وضيق الأفق.

وقد تجلت حاسة ابن حيان القانونية والإدارية فيا قدمه من معلومات بهذا الصدد، تكوّن وحدها منجما علميا وتراثا حضاريا يفوق الوصف، فقد اهتم المؤرخ الأندلسي بأمر المراسيم الملكية والاستقبالات الرسمية أيام عيد الفطر وعيد الأضحى، واهتم بنظام استقبال السفراء المبعوثين من الأمراء المسيحيين والمسلمين مما أصبح تشريعا معمولا به في سائر البلاطات الملكية، حتى في الإمارات الأروبية ذاتها.

لقد كان ترتيب التشريفات يعطي معنى الصبغة الشرعية لتقدم فريق على فريق وأولوية هذا على ذلك، وكنا نقف من خلال هذا البروتوكول على أطر الدولة بكاملها، بما في ذلك صاحب الشرطة العليا والوسطى والصغرى، وبما في ذلك الفقهاء وأهل الشورى والأمناء، علاوة على أصحاب المهن وأرباب الصنائع وأهل الشطرنج.

لقد ظل ابن حيان حريصا ـ في كل عيد، وفي كل مناسبة عارضة ـ على أن يقدم صورة ناطقة بعظمة الدولة وقوة أجهزتها، لم ينب وصف العيد السابق عن وصف العيد اللاحق، ولم ينب وصف استقبال سفير سجلماسة عن استقبال سفير برشلونة أو سفير القسطنطينية.

وفي كل الحالات، نجد ابن حيان يلتزم التمسك بالصمت وعدم افشاء محضر اللقاءات السياسية التي تتم بين السفراء والخلفاء.

وقد كان من أبرز ما اهتم به ابن حيان نظام الجرايات والخلع والصلات وكذلك أصناف الجند وقطع الأسطول، والعَلَم الذي يعتبر رمزا لكيان الدولة.

ولقد أعطى فكرة مدققة عن إدارة البريد ونظام نقله من مدينة إلى مدينة، بل ومن قارة إلى أخرى، بما في ذلك أجور سعاة البريد ووسائط النقل !

وقد عرف كيف يقدم جهاز القضاء على عهده، حيث ميز بين القاضي، وقاضي الجماعة، وقاضي القضاة، وكل هؤلاء كانوا ينتقلون بكل سهولة من المدن الأندلسية إلى المدن المغربية والعكس، يطبقون أحكام المذهب المالكي هنا وهناك.

ولنشر ولو في كلمات وجيزة إلى بعض جوانب هـذا المجـال القضـائي، وما يعبر عنه من تقدم سياسي، ورقي اجتماعي.

لقد أبرز ابن حيان مركز القاضي بالنسبة للحـاكم والمحكوم، وإذا كنـا نعتبر اليـوم أن من أبرز مظـاهر سـلامـة القضـاء أن يكـون مستقـلا، فـإن القـاضي في قرطبـة كان يحكم مستنيرا بهـدى القرآن والسنـة، ومستعينـا في أحكامه القضائية برأي الفقهاء المشاورين مما جعل القضاء يتسم ـ إضافة إلى الإستقلال عن سلطة الولاة ـ بطابعين أساسيين :

أولهما : أن الأحكام كانت تصدر عن قاض واحـد، ولكن القضـاء كان جماعيا مع ذلـك، وفعلا فـإذا كان دور المشـاورين يقتصر على ابـداء رأي لا يعد ملزما للقاضي بل هو رأي استشاري فقط، فإن القاضي لا محالـة متـأثر بهذا الرأي، آخذ بعين الاعتبار تحليل المشاورين لعناصر النازلـة واطمئنـانهم إلى النص الفقهي في تـأويلـه وتطبيقـه على النـازلـة المعروضـة على نظر القاضي.

وثانيهما : أن نظام المشاورين، هو في حد ذاتـه نظـام طريف ومفيـد للغاية. فقد خرج عن المألوف في الأنظمة القضائية إذ أنه جمع بين الاجتهاد القضائي والاجتهاد الفقهي، وجعل من لقـائهما خـدمـة للقضـاء والمتقـاضين وخدمة للفقـه الـذي يلتحم فيـه الفكر والعمل بتفـاعل وتكامل، ممـا يبعـد الفكر الفقهي عن النظريات البحتة ويشد العمل القضـائي في نفس الوقت إلى القواعد الفقهية الأساسيـة، وهـذا مـا ظهر في بعض الأنظمـة القضـائيـة الحديثة.

وهكـذا ـ كما يقـول الشـاطبي ـ فـإذا كان شرع اللـه حيث مـا كانت المصلحة فإن نظام المشاورين قد سـاعـد القضـاء على ضمان اللقـاء والتلاحم

بين القواعد في أصولها ومصالح الناس،كما يعبر عنها الواقع الاجتماعي في حركته الدائمة.

وتحدث ابن حيان عن نظام الوزراء ودرجاتهم، والوصفاء ومراكزهم، وعن كل هذه الجوانب قدم ابن حيان بأسلوبه الموثق المدقق معلومات لا يستغني عنها المدونون للإدارة الإسلامية على عهد الدولة الأموية، بل يحتاج إليها المدونون لتاريخ الدولة المغربية.

وإلى جانب هذا نجد ابن حيان يبرز نقاط الخلاف بين المذاهب الإسلامية، وخاصة منها المذهب الشيعي والمذهب السني، اللذين كانا على طرفي نقيض في الجناح الغربي للعالم الإسلامي.

وهكذا نشعر بأننا أمام شخصية تتمتع بحاسة فقهية مرهفة إلى جانب أنها معلمة تاريخية بالحجم الذي عرفنا.

لقد كان إحياء ذكر ابن حيان يعني بالنسبة إلينا، التنويه بمزايا عالم جليل قدم للمكتبة العربية أتقن وأحكم مؤلف عن تاريخ الأندلس والمغرب.

ونعتقد أن ابن حيان بما تناوله كتابه من إشارات وإفادات في شتى مناحي التاريخ، هو الذي هيأ الجو لابن خلدون الذي قدم لنا بدوره موسوعته الكبرى في علم التاريخ وعلم الإجتماع، الأمر الذي يمكن أن نستشفه من خلال الإطراء البالغ الذي أضفاه ابن خلدون على ابن حيان في بداية مقدمته.

لقد أعطى ابن حيان للتاريخ أبعاده السياسية والإجتماعية والعلمية والفنية والقانونية، واهتم أيضا بالمؤسسات ومركزها في المجتمع وتأثيرها عليه، ولقد كتب في كل هذا بالإضافة إلى جمال التعبير بلغة بليغة تمتاز بقوة الأسر وبإيحاء ذكي ينم عن حس رقيق وإدراك لعمق الأشياء والأحداث.

وما من شك في أن اللوحة التي رسمها ابن حيان عن مجتمع الأندلس وعلاقاته والتي أبرز فيها عناصر التأثير على الواقع السياسي والإجتماعي، لا شك أن هذا العمل هيأ الجو لاستخلاص العبر، فبعد أربعة قرون جاءنا ابن خلدون بالقواعد والسنن التي ينبغي استخلاصها من تاريخ الأمم في حياتها السياسية والإقتصادية والإجتماعية. وهاهي شمس المقدمة تضيء الطريق لمنطسكيو الذي كتب روح القوانين بعد أربعة قرون من غياب ابن خلدون.

إننا نفهم لماذا أحس ابن خلدون بواجبه العلمي والأخلاقي في أن يذكر ابن حيان في المقدمة بكلمات الإعجاب والتقدير. وندرك اليوم أيضا لماذا نجتمع في هذا اللقاء العلمي الكبير لتوجيه تحية الإكبار إلى ابن حيان شيخ مؤرخي الأندلس،بعد أن قطعت قافلة التاريخ مسافة الزمان الذي يبعدنا بحوالي ألف سنة عن حياة ابن حيان ولكنه مع امتداده لا يزيدنا إلا قربا من هذا الفكر الثقافي الوضاء.

ومن حسن حظ المغرب، أن ظلال ابن حيان ما انفكت تخيم على الأسرة العلمية بالمغرب، وهكذا لم ينقطع الاقتداء به، والسير على منهجه، عبر الأجيال والسنين، من العهد المرابطي إلى العهد العلوي.

وإن وزارة الشؤون الثقافية إذ تنوه بالسادة الاساتذة الباحثين الذين درسوا ابن حيان، ليطيب لها أن تعلن، انها تخصص في نطاق جائزة الحسن الثاني للمخطوطات جائزة سنوية لكل من وافاها بمخطوطات جديدة تتعلق بتاريخ ابن حيان، وتتعهد إضافة إلى ذلك، بطبع ما يرد عليها من تلك الوثائق.

ولا أحتاج إلى أن أشير في النهايـة إلى السـادة المتخصصين في الشؤون الأندلسية أن عناية الوزارة قد توجهت بصفة خاصـة إلى ابن حيـان مقرون بـالأنـدلس لميزة خـاصـة أيضـا، وهي أنـه أرخ لعصر ملـوك الطـوائف عن مشاهدة وعيان، فالمعروف في الشذرات المنقولـة عن كتـابـه المتين أنـه يسـد كثيرا من الثغرات التي ترجـع الغمـوض عن بعض جـوانب هـذا العصر، ولا شك أن ـ مدارسة ـ هذا الجانب من شأنها أن تثري الـدراسـات الأنـدلسيـة المعاصرة بفضل الرصيد الأندلسي الـذي يتوفر لـدى هـذه النخبـة من كبـار الأسـاتذة الذين نصبوا أنفسهم لإبراز تاريخ هـذا العصر، وإخراجـه من حيز الغموض إلى النور.

أيها السـادة :

إننـا إذ نجـدد الترحيب بكم، نعبر عن تقـديرنـا الكبير لمـا وصلنـا من نتاجكم القيم الرفيع، ممـا يزيـد في اثراء موضوعنـا،وممـا سنخصص لـه مجلدا سيكون بإذن الله في متناول القارىء.

وإذا كان شكر المتفضل مما تقتضيه الأريحية فإننـا ـ بإسمكم ـ نتقـدم بالشكر الجزيل لصاحب الجلالة الملك الحسن الثـاني الـذي كان السـنـد لهذا اللقاء العلمي الرفيع، راجين من الله أن يديم توفيقـه ويرعـاه بعينـه التي لا تنام.

د. سعيد ابن البشير

أبو مروان ابن حيان القرطبي وتاريخ الأندلس

في قراءة جديدة

د. عائشة عبد الرحمن
جامعة القرويين/فاس

دليل

مدخل : سبق المستشرقين إلى العناية بدراسة ابن حيان وتراثه ـ مكانته عند السلف من المؤرخين والنظار المغاربة، وعند الدارسين المحدثين.

(1) ـ المقتبس، والمتين

ـ العنوان المميز لكل من الشطرين المتكاملين لتاريخه الكبير ـ ايراده لمروياته وأخباره فيهما.

(2) ـ توثيق مرويات ابن حيان ومدوناته

ـ ترميم الخروم والطمس والتآكل في مخطوط المقتبس من مصارده، شاهد على إيراده نقوله بنصها في المصادر.

ـ مقابلة مرويات له على أصولها، وثقت نقوله.

ـ التزام ابن حيان أدق ضوابط المنهج النقلي في الإسناد والرواية وتحرير صيغ التحمل والأداء، جعلت من مروياته وثائق تاريخية.

ـ وهو في المتين شاهد عصره، حجة فيه ومصدر له.

(3) ـ التاريخ موهبته وهويته، وعلمه ومدرسته

ـ سجل لنفسه صفة (المؤرخ) في خطبة تاريخه الكبير. وفي التاريخ وحده، عرف ذاته ووجد نفسه وحقق وجوده.

ـ مع بيانه العالي وامتلاكه سر الحرف والكلمة، لم يصير التاريخ أدبا محضا، بل قرر أن التاريخ علم.

ـ علمية التاريخ جعلته لا يغض من الكرامات والرؤى، ولا يزدرى التفسير الأسطورى، وله دلالته الصادقة على عقلية البيئة ووجدانها، وموقفها من الظواهر والأحداث، وتعبيرها عن هموم الجماعة ومواجدها وأمانيها.

(4) ـ مع أبي مروان ابن حيان، في تاريخ الأندلس :

ـ استوعب تاريخ الأندلس قراءة، وشاهد رؤية وسماع، لكنه في التدوين استخلص ما يعطى التاريخ تفسيره ومنطقه.

ـ ميزانه العلمي للتاريخ، النظر إلى الأحداث والوقائع من حيث هي مقدمات لنتائج، وآثار لعلل، وإرهاص بما هو متوقع، بمقتضى السنن الثابتة في حياة الأمم والجماعات.

ـ علامات المراحل الكبرى لتاريخ الأندلس، مفسرة بأسبابها وعللها، وموجهة إلى النتائج والعواقب.

(5) ـ مؤرخ قرطبة والأندلس في مركز الأحداث، ومع ملوك الطوائف.

ـ لم يدرك ابن حيان عصر الدولة الكبرى في عظمتها وعزها ومنعتها. بل استقبل الحياة بقرطبة في الدولة العامرية، وفيها محيت رسوم الخلافة، وبدأ احتضار المملكة المؤثلة، فكانت دولتهم بداية النهاية.

- لم يخرج من قرطبته في رجة الزلزال، بل أقام بها يرصد الأحداث، حيث تكون، في متجهها إلى قرطبته : مركز الأحداث وكبرى الحواضر، ومطمح ملوك الطوائف، ومرمى بصر العدو.

- وأراه كان يؤرخ للأندلس في تاريخه لقرطبة التي فرضت حضورها في كل ما قرأت له.

- بعد تمزق الدولة الموحدة، تشبث برجاء في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقاياها، وفيها رمق من حياة : لم تخرج من ديار الإسلام ولم تتعطل فيها شعائره.

- مع الطبقة الأولى من ملوك الطوائف، كان تعامله غير مغلوب الرجاء. وتغير موقفه منهم إيذان بالقنوط، وعلامة على الطريق لانحدار عصرهم إلى الهاوية، لا محالة.

خاتمة :

«البدايات عنوان النهايات»

توصية، ورجاء.

- استكمال ما ضاع من قطع (المقتبس) من النقول منه، وتجريد ما في النقول من (المتين) المفقود، على ما يرد على هذه النقول من ملاحظات.

- ما يرجى لهذا الملتقى المشهود برباط الفتح، من تصحيح موضع أبي مروان ابن حيان فينا، والتوجيه إلى إعادة النظر في أحكام لنا مرسلة، أطلقناها ونطلقها دون حذر أو احتياط، اقتصارا على المعروف لنا من تراثنا، ولم نحط علما بما غاب عنا.

بسم الله الرحمن الرحيم

«فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال».

صدق الله العظيم

مدخل :

أدين لأستاذنا الرئيس الوزير «الحاج محمد أبا حنيني» بهذه القراءة الجديدة لتاريخ الأندلس مع أبي مروان ابن حيان القرطبي، بعد أن لبثت زمانا لا ألتفت إلى هذا المؤرخ العظيم، إلا أن يمر بي لماما فيما أشتغل به من تراث المغرب الكبير.

صرفني عنه أن لم يكن من شيوخ السلف المغاربة الأئمة، الذين قدمتهم المدرسة الإسلامية إلى تلاميذها، وأنا منهم، في مرحلة الطلب، وزودتنا بكتب لهم أمهات في علوم العربية والإسلام، ومنها في التاريخ (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون).

بعد مرحلة الطلب الأولى، التفت إلى أبي مروان ابن حيان، في مطالعاتي مع أبنائي طلاب الدراسات العليا بجامعة القرويين، ولم أشتغل به، لعلمي أن تاريخه الكبير الذي يكثر النقل منه، لم يصل إلينا. والنقول منه تأتي غالبا مختصرة ومقتضبة، بتصريح ناقليها، مشتتة مبعثرة تبعا لنهجهم في التصنيف. ومنها ما يأتي مضمنا، ومدرجا مع ما لغيره.

وليس في مرويات الحافظ أبي بكر ابن خير بفهرسته، ذكر لتاريخ ابن حيان، وهو شيخ لأعلام من شيوخه، روى عن ثلاثة منهم عن ابن حيان ثلاثة كتب كبار في اللغة والأدب :

(الفصوص. لأبي العلاء صاعد البغدادى نزيل قرطبة، وكتاب الألفاظ ليعقوب بن السكيت، وكتاب إصلاح المنطق، له) (1).

وحاجي خليفة، المعدود فين ذكروا تاريخ ابن حيان، كتب في كشف الظنون ما صورته : (المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، عشر مجلدات : لابن حماد... الأندلسي المتوفي سنة .... اختصر فيه كتابه الكور على الدور والأمد على الأبد. وقال اليافعى : المقتبس للشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله (كذا) محمد بن عمران بن موسى المرزبانى. وقيل لأبي مروان حيان بن خلف المتوفى سنة تسع وستين وأربعمائة. ومختصره جذوة المقتبس، لأبي عبد الله محمد بن فتوح الحميدى، المتوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة) !

هذا إلى أن القدر الذي جاء عن ابن حيان، في كتب الطبقة الأولى من مترجيه، لا يسعف على تمثل شخصيته وتقدير تاريخه. أخص بالذكر أبا عبد الله الحميدى، وهو من معاصريه، كتب عنه في (جذوة المقتبس) بضعة أسطر، لم يزد عليها ابن عميرة الضبي في (بغية الملتمس)...

أقول هذا على استحياء. اقرارا مني بوضع ابن حيان المغمور فينا، قبل أن يسبقنا إليه الأجانب المستشرقون، منذ أكثر من قرن، في بحوث ودراسات لهم عن ابن حيان، تقصاها الزميل الأستاذ الدكتور محمود مكي، في دراسته القيمة التي مهد بها للقطعة التي حققها من (المقتبس).

وسبقونا كذلك إلى العناية بالبحث عن تراثه، والتعريف بما عثر عليه منه. ونشر الراهب الإسباني «ملتشور أنطونيا» في باريس سنة 1937

---

1) ابن خير، الفهرسة : (326، 329، 332) على التوالي...

القطعة التي وجدها من المقتبس، في الخزانة البودلية بأكسفورد. واستنسخ المستشرق الإسباني «فرانسسكو كوديرا» قطعة عثر عليها بقسنطينة في الجزائر، وأودع نسخته مكتبة المجمع الملكي بمدريد. ثم ظهر أن أصلها في قسنطينة ضاع، وبقيت نسخة كوديرا من هذه القطعة المفقودة، حققها الزميل الأستاذ عبد الرحمان الحجي، ونشرت في بيروت : 1965.

وعرف المستشرق الفرنسي «ليفي بروفنسال» بقطعتين من المقتبس في خزانة القرويين، صور أولاهما وبعث بها في سنة 1938 إلى جامعة الاسكندرية تمهيدا لتحقيقها ونشرها. ثم استردها قبل وفاته سنة 1958 بسنين، ومن وقتئذ لم يوقف على أثر لمصورته ولا لأصلها في خزانة القرويين، قاله الأستاذ الدكتور مكي في التمهيد للقطعة الفاسية الأخرى التي حققها، ونشرت في بيروت سنة 1973. ثم نشر في مدريد سنة 1979 (الجزء الخامس من المقتبس، بعناية المستشرق الإسباني «ب، شالميتا» وشارك في الضبط والتحقيق، المستشرق كورينطي والأستاذ محمد صبح (طبعة المعهد الإسباني العربي للثقافة، وكلية الآداب بالرباط).

هذه القطع المنشورة، والمعرف بها، من (المقتبس) وضعت بين أيدي الدارسين مادة أصيلة لجديد من البحوث في أبي مروان ابن حيان. تاطها الأستاذ الجليل «الحاج محمد أبا حنيني» بمن تفضل فدعاهم، تكليفا وتشريفا، إلى هذا الملتقى المشهود في الرباط. فأتاح لي، من حيث لم أحتسب، قراءة جديدة لتاريخ الأندلس، مع أبي مروان ابن حيان القرطبي.

قبل هذه القراءة الجديدة، لم أكن تبينت بوضوح، أن الأئمة من العلماء بتاريخ الأندلس، اعتزوا بالتاريخ الكبير لأبي مروان ابن حيان،

وعدوه من مفاخرهم. وأن الجهرة من مؤرخى الأندلس بعده، يئولون إليه وينقلون منه، قلما يعدونه فيما أرخ، مع التنويه به والإقرار له بالإمامة والرياسة.

الفقيه الأصولى الإمام، الحافظ النسابة «أبو محمد ابن حزم» وهو من أصحاب أبي مروان وأقرانه، ذكره في رسالته المشهورة في فضائل علماء الأندلس وجليل مصنفاتهم، قال :

«... ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس، تأليف أبي مروان ابن حيان، نحو عشرة أسفار. من أجل كتاب في هذا المعنى. وهو في الحياة بعد، لم يتجاوز الاكتهال» (2).

والراجح أن هذا الثناء من أبي محمد ابن حزم، هو ما أشار إليه الحافظ الإمام «أبو عبد الله الحميدى» في الفقرة الموجزة التي ترجم بها لأبي مروان ابن حيان القرطبي، قال :

«صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس وملوكها، وله حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد. ذكره أبو محمد على بن أحمد ـ هو ابن حزم ـ وأثنى عليه. وأدركناه بزماننا» اهـ (3).

---

2) نفح الطيب : 122/2 ط الازهرية بالقاهرة سنة 1302 هـ.

ومعروف أن الرسالة كتبها أبو محمد ابن حزم، راد على رسالة لأبي علي ابن الربيب القيرواني، كان قد بعث بها إلى الكاتب الوزير «أبي المغيرة ابن حزم، عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن القرطبي». فتولى أبو محمد ابن حزم الرد عليها، لوفاة ابن عمه أبي المغيرة. وقال في ديباجة الرسالة : «... فتناولت الجواب المذكور، بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات، رحمنا الله وإياه. فلم يكن لقصده بالجواب معنى، وقد صارت المقابر له مغنى...»

خلافا لما في ذخيرة ابن بسام (ق 1 111/1 ـ 116) من وصول كتاب ابن الربيب إلى أبي المغيرة ابن حزم، ورده عليها برسالة مطولة.

3) الحميدى : جذوة المقتبس : 200 ت 397 ط القاهرة 1966.

ونقل «أبو الحسن ابن سعيد» في (المغرب) رسالة أبي محمد ابن حزم وذيل عليها فقال عن ذكر ما لعلماء الأندلس من كتب جليلة :

«... وأما التواريخ، فكتاب ابن حيان الكبير المعروف **بالمتين**، في نحو ستين مجلدة. وإنما ذكر ابن حزم كتاب (المقتبس) وهو في عشر مجلدات. و(المتين) يذكر فيه أخبار عصره ويمعن فيها مما شاهده. ومنه ينقل صاحب الذخيرة..» نقله المقرى مع رسالة ابن حزم (4).

ونقل في (النفح) بعد تذييل ابن سعيد، ما حكاه سماعا من والده موسى بن عبد الملك، عن المناظرة التي جرت بحضوره في مجلس صاحب سبتة «أبي يحي بن أبي زكرياء، الحفصي» بين أبي الوليد الشقندى وأبي يحي ابن المعلم الطنجى، في المفاضلة بين البرين وفيها قال الشقندى مفاخرا بأعلام الأندلس :

«وهل لكم في علم التاريخ كابن حيان، صاحب المتين والمقتبس ؟» (5).

وأبو الحسن ابن بسام في خطبة (الذخيرة) يصرح بأن كتابه «إنما هو لسان منظوم ومنثور». وأما ما اتصلت به الرسائل والأشعار، أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار، فعول فيه على ابن حيان، لم يذكر معه أحدا غيره. قال :

---

4 ـ 5) نفح الطيب : 135/2، 141.

«وعولت في ذلك على تاريخ أبي مروان ابن حيان، فأوردت فصوله ونقلت جمله وتفاصيله. فإذا أعوزني كلامه وعزني سرده ونظامه، عكفت على طللي البائد وضربت في حديدي البارد..» (6).

ثم استهل متن الذخيرة بقوله في المدخل :

«... وسينخرط في سلك ما أوشح به هذا التصنيف، من تلخيص التعريف بأخبار ملوك الجزيرة وسرد قصصهم المأثورة ووقائعهم المبيرة المشهورة لابن حيان، فصول من غرائبه وجمل وتفاصيل من عجائبه. لأني إذا وجدت من كلامه فصلا قد أحكمه أو خبرا قد سرده ونظمه، عولت على ما وصف ووليته خطة ما سطر وصنف، إقرارا بالفرق وإعفاء لنفسي من معارضة من أحرز بأفقنا في وقته قصبات السبق، وبرز في زمانه على جميع الخلق. وأكثر ما يمر في هذا الكتاب من هذا الباب فعلى **تاريخه الكبير** عولت، ومن خط يده أكثر ما نقلت. وتحريت جهدي اقتضاب ما طول وتخفيف ما ثقل وإجمال ما شرح وفصل. على أنه لم يخلص إلي من غمامه إلا قطرة...» (7).

وكذلك عول عليه جمهرة من أرخوا بعده للأندلس وحواضرها وأعلامها، فلما عدلوا عنه فيما أرخ له، وإن ضموا إليه غيره في مصادرهم.

وتداول غير واحد منهم، قول ابن حيان في أحداث وقعة بطرنة، سنة 455 التي لم يؤرخ لها ابن حيان : «لم يقع إلي خبر وقعة بطرينة في كتاب ابن حيان، فكنت أوليه حكمه وأعتمد فيه وصفه الرائق ونظمه» (8).

---

6 ـ 7) الذخيرة، ق 1 : 7/1، 23 ط أولى. الجامعة المصرية.

8) ابن عذارى : البيان المغرب 153/3، والمقري في النفح : 573/2.

والمقرى، وهو يكثر في النفح من ابن حيان منفردا أو معه غيره، جمع في فصل مسهب ما وقف عليه من أخبار «عبد الرحمن بن معاوية الأموي المرواني، الداخل» وختمه بقوله :

«قال أكثر هذا، مؤرخ الأندلس الثبت الثقة، أبو مروان ابن حيان» (9).

وفي أخبار «عبد الرحمن الناصر» ذكر جامع قرطبة وبناء الزاهر وقال :

«فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان» (10).

ونقل فيما نقل من نوادر دهاء «المنصور ابن أبي عامر» حكاية جوهرى من تجار المشرق قصده بجوهر نفيس أخذ منه ما اختار، ورد الصرة إلى الجوهرى، فاختطفتها حدأة قرب القصر، تظنها لحما، ثم ألقت بها في النهر. قال المقرى بعد نقل صفحات عن المنصور، من تاريخ ابن حيان :

«ثم ذكر هذا المؤرخ قصة الجوهرى التي قدمنا نقلها من مغرب ابن سعيد، ولكن رأينا إعادتها بلفظ هذا المؤرخ لأنه أتم مساقا..» (11).

ولست على أي حال بسبيل تجريد الشواهد على تعويل مؤرخى الأندلس وأخبارييها على ما دون أبو مروان ابن حيان في تاريخه الكبير العمدة. فما يأتي منها في سياق هذا البحث، يكفي.

☆ ☆ ☆

وأما **الباحثون المحدثون**، وجلهم مستشرقون، فمجمل القول في تقديرهم لابن حيان، ما استهل به الزميل الدكتور مكى تمهيده للمقتبس :

---

9 ـ 11) نفح الطيب : (73/2، 535/2، 192/1) على التوالى.

«يتفق الكثيرون من الباحثين على أن أبا مروان حيان بن خلف بن حيان، من أعظم مؤرخي الإسلام. وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس، بل والغرب كله : الإسلامي والمسيحي منه على السواء، طوال العصور الوسطى، ولا نستثني من هذا الحكم إلا فيلسوف التاريخ أبا زيد عبد الرحمن ابن خلدون الذى يعتبر في تاريخ الفكر الإنساني كله، ظاهرة غريبة فذة» (12).

ويندرج تحت هذا الحكم العام، تفصيل لمزايا ابن حيان والخصائص التي تفرد بها وأهلته في تقديرهم لهذه المكانة العليا، مع ما أضافه الزميل الباحث المحقق، من تعقب واستدراك، مما يأتي في موضعه من بحثنا.

(1) المقتبس، والمتين
العنوان المميز لكل منهما

جريت هنا في التميز بين (المقتبس والمتين، لابن حيان) على المشهور من أن أولها لما سبق زمانه، ويشهد لذلك ما وصل إلينا من قطعه ومن النقول منه، وأما (المتين) ففيه أحداث عصره.

وإن تكن آثار ابن حيان، في حاجة إلى بحث خاص ينظر فيما يلقانا بصددها من اضطراب :

فابن حزم، ذكر لابن حيان (تاريخه الكبير، في نحو عشرة أسفار) وقال ابن سعيد : أن ما ذكره ابن حزم هو المقتبس، وكتابه الكبير المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدة، ذكر فيه أخبار عصره قال : «ومنه ينقل صاحب الذخيرة».

---

12) المقتبس، تحقيق د. مكي : 7 تمهيد.

وابن بسام في نقوله منه بالذخيرة، يذكره أحيانا باسم (المتين) وأحيانا بـ (التاريخ الكبير) والغالب على المشارقة، ذكر الكتابين كليهما (في تاريخ الأندلس) دون تحديد لكل منهما بمجال (13).

والمحدثون، من المستشرقين ومعهم الدكتور مكي، على أن المقتبس لما سبق عصر ابن حيان، ابتداء من فتح الأندلس إلى الدولة العامرية، والمتين لأحداث عصره، من تلك النهاية إلى آخر ما أدركه وأرخ له من عصر ملوك الطوائف (14).

وانفرد الأستاذ حجي بالقول بأن (المقتبس، وهو مكون من عشرة أجزاء، يتحدث فيه عن تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي، حتى زمن المؤلف، عصر الطوائف» (15).

خلافا للمعروف لنا من (المقتبس) وكل النقول منه، ومن (المتين) تاريخه الكبير :

(المقتبس) ـ موصولا به أخبار الدولة العامرية، في قول (16) ـ يؤرخ للأندلس من الفتح الإسلامي إلى الفتنة الحالقة، سنة 399 هـ، و(المتين) يؤرخ لما بعدها، إلى سقوط أموية الأندلس سنة 422، ثم لما أدركه ابن

---

13) ابن خلكان في الوفيات (218/2) والصفدي في الوافي (49/1) وحاجي خليفة في الكشف (1584/2) وذكره باسم : المتين، والبغدادي في هدية العارفين (341/1) وانفرد بأن : المقتبس في تاريخ الأندلس في عشرين مجلدا.

14) مقدمة الدكتور مكي، للقطعة التي حققها من المقتبس : 29 ـ 72.

15) مقدمة الأستاذ عبد الرحمن حجي للقطعة التي حققها من المقتبس : 14.

16) رجح عندي أن الأولى ضم أخبار الدولة العامرية إلى المتين، مدخلا إليه ومقدمة، على ما يأتي بيانه في موضعه.

حيان من عصر ملوك الطوائف وأرخ له، إلى ما قبل وفاته سنة 469 هـ، سؤال خطر على بالي، أول ما تهيأت لهذه القراءة الجديدة : لماذا خص ابن حيان كلا من الكتابين بعنوان مميز ؟ فالكتابان متكاملان : يبدأ المتين من حيث انتهى المقتبس. وموضوعهما واحد. أو هما شطرا تاريخه الكبير، ما قبل زمنه، وما كان في زمنه، فكان له أن يأخذ عنوانا واحدا مشتركا في شطر أول يتلوه الشطر الآخر، على نحو ما نجد لمؤرخينا الكبار، كالطبرى وابن الأثير والذهبي وابن كثير وابن خلدون : يؤرخ كل منهم لماض لم يدركه، حتى زمانه. وتتتابع مجلدات تاريخه نسقا بعنوان واحد، جامع مشترك، إلا أن يكون اختصارا لتاريخه الكبير، كالعبر للذهبي، مختصر تاريخ الإسلام، له.

«ابن حيان» تفرد فيما أعلم، والله أعلم، بالعدول عن هذا النهج التقليدي المألوف، فأعطى كل شطر من تاريخه الكبير عنوانا خاصا، وليس ثانيهما اختصارا للأول، بل هو مكمل له.

وذلك ما لم يتعرض له أحد ممن فرقوا بين الكتابين، لكن من غير هذا الوجه، فيما قرأت.

وجهني هذا التميز، إلى فرق جوهري بينهما :

(المقتبس) عنوان لتاريخ عصر سابق، عول فيه على ما اقتبس من مصنفات لمن قبله. والاقتباس يعفيه من استيعاب كتب سابقيه جميعا، ومن نقل كل ما في مصادره التي ارتضاها. ويعطيه حرية الاختيار لما يأخذ وما يدع. بالميزان الذي يحكم مدوناته التاريخية. ثم لا تكون العهدة على الرواة في مقتبسه، **إلا بتوثيق مروياتهم وصحة نقلها وصدق إيرادها.**

و(المتين) تاريخ لما أدرك من أحداث زمانه، وهو فيه شاهد رؤية وسماع. يملك من وسائل التلقى المباشر ما لم يكن متاحا له في (المقتبس) فكان أن سمى تأريخه لما شهد وسمع : (المتين) إشعارا باستيثاقه مما دون من مشاهداته، وتثبته مما تلقاه سماعا أو مكاتبة، من رواية شهود للأحداث، يدون منها ما يدخل في (المتين) بميزانه الضابط لمدوناته التاريخية، ما اقتبس منها وما تلقى مباشرة.

ويختلف تبعا لهذا الفرق الجوهرى :

إيراده لمروياته وأخباره، في المقتبس والمتين

هو في المقتبس ناقل مسند، وفي المتين شاهد موثق

والذين رجع إليهم في مصادره المعتبرة للمقتبس، ليسوا سواء في رواية الخبر الواحد، يرويه أحدهم على وجه ويرويه غيره على وجه آخر، وإن تماثلوا أو تقاربوا في مواضعهم عنده من الثقة والاعتبار، بقرينة تعويله عليهم في مقتبسه. ومن ثم يلقانا، في الغالب على ما بين أيدينا من متن المقتبس، إيراد الخبر الواحد بأكثر من رواية، مع تحرجه من الترجيح بينها إلا إذا ظهر له وجه للترجيح فيذكره. كالذى في (ذكر مهلك نصر الخصى الكبير) قال : (17)

«وفي هذه السنة ـ 236 هـ ـ هلك أبو الفتح نصر الخصى، صفيّ الأمير عبد الرحمن بن الحكم ـ بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ـ المقدم على جميع خاصته المدبر لأمر داره، المشارك لأكابر وزرائه في تصريفه ملكه، وكان هلكه شبيه الفجأة في عقب شعبان من هذه السنة، أرق ما كان في

17) العذر في الاثقال على العرض بنقل هذا الخبر بطوله، حاجتى إليه ـ وإلى مثله مما أنقل بعد ـ فيما يلي من البحث.

غلوائه وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه، أرهب ما كان الناس له وأخوفهم لعدوانه، إذ نال من أثرة مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه وإشراكه له في الرأي مع جلة وزرائه، وطوعه إلى ما يخالفهم فيه، فوق ما ناله خادم خاص مع أمير رشيد سمع عنه..

«وكثر القول في السبب الذي أراده ـ كذا، ولعله : أرداه ـ والخوض فيما أتاه. **فكان أوضح ذلك** ما ذكره أبو بكر ابن القوطية، **قال :**

«كان نصر الخصى الجرىء المقدم الوساع الفهم، قد غلب على قلب مولاه الأمير عبد الرحمن، واستظهر على حراصة مكانه لديه، بانقطاعه إلى حظيته طروب، أم عبد الله، الغالبة عليه من بين جميع نسائه، وحطه في شعبها وبما لأته إياها على ما تسعى له من تقديم ولدها عبد الله للأمر، بعد الأمير أبيه، على جميع الأراجح الأكبرين من ولده، متى حان حينه. فخالص السيدة تشديدا وأخلصت له، فاستوى له بذلك أمره، وأصبح ملك عبد الرحمن في يده يدبره كيف يشاء فلا يرد أمره. قد أجهد سعيه آخر أمده في جهره وسره، بالتنويه بعبد الله، ابن سته طروب، والإشادة بذكره واستمالة طبقات الناس بالرغبة والرهبة إليه، والعمل على اختزان الخلافة عن أخيه محمد، بكر والده الأمير عبد الرحمن ـ بن الحكم الربضي ـ ومفضلهم المشار إليه، إلى خالفتهم ابن طروب هذا، وسوقها إليه. يتأتى لذلك ويأتيه من جميع أبوابه، والقضاء يبعده عنه ويسد دونه طرقه، وهو يرصد لوجبة ؟ الأمير عبد الرحمن مولاه ليقضى في عبد الله قضاءه، فيملى لعبد الرحمن ويستأخر يومه، فيشق ذلك على الخصى ويرهب فوته، حتى سولت له نفسه اغتيال مولاه عبد الرحمن وإلطاف التدبير عليه، كيما يتمكن من تقديم عبد الله مكانه، ولا يرهب الخلف عليه لكثرة أنصاره من أهل الدار

وغيرهم، وفشو صنائعه فيهم. فيتم له بابن طروب الاحتواء على الملك، ويؤخر عنه محمد المرشح له، وغيره مما يطمع فيه.

«فوثق في ذلك بالحراني الطبيب، وكان في عداد صنائعه، وقدر منه، مع الوفاء، الشره إلى ما يبذله له. فخلا به وذكره بأياديه لديه... وقال له : هل لك في إحراز حسن رأيي للأبد وحوز جزيل صلتي للآخر ؟ فقال له الحرانى : هذه المنية التي لا وراءها طلبة، فمن لي بنيلها ؟ فقال له : هذه ألف دينار معجلة بين يدي الجرى بالحاجة، واعمل لي سؤر الملوك الذي يدني الأجل ويقلب الدول، ودعنى لمكافأتك إن انقضت حاجتي فوالله لأتجاوزن بها ظنك».

ويمضي ابن حيان في نقل رواية ابن القوطية لمهلك نصر : يتظاهر الطبيب بالقبول، ويجهز للخصى خلطة باسم الدواء المسهل، أثقل فيها السم ـ كما رسم الخصى ـ لكنه يدس ضرة طروب إلى الأمير، ليحذر من شربه. ويأتي الخصى ويغرى الأمير بشرب الدواء، فيتعلل عليه، ويلح نصر فيحمله الأمير قسرا على شربه، فكان في ذلك هلكه.

بعد رواية ابن القوطية، نقل ابن حيان رواية أخرى، قال :

«وحكى الحسن بن محمد بن مفرج في كتابه، قصة مهلك نصر هذا فقال : كان السبب في مهلك نصر الفتى الكبير، الغالب على الأمير عبد الرحمن بن الحكم، المظاهر لسيدته طروب حظية الأمير عبد الرحمن، على سوق الملك إلى ولدها منه، عبد الله، المعزو إليها. أن عبد الرحمن التوى بها معا فى تقديم عبد الله على محمد أخيه، أكبر ولده المرشح من بينهم للأمر، لصدق نفسه على كون ما بينهما في الرجاحة والفضل، وتغليبه لرأيه فيه على هواه لمعصيته لحظيته طروب، فلما أعيا عليها وعلى نصر ظهيرها

لفته عن ذلك، شق ذلك على نصر وفكر في سوء عاقبتـه مع محمـد إن خلص له الأمر، وقد كشف وجهه في صدره عنه. فذهب إلى احتيال ـ اغتيـال ؟ ـ الأمير مـولاه، كيما يتمكن من نصب عبد اللـه ودحر محمـد. فـأتى الأمير من بـاب طبيب الأمير المعروف بـالحراني وكان يثـق بـه، فخـلا بـه..» وذكر مساومته على دس السم القاتل في شراب الأمير، وتظاهر الطبيب بالقبول.

«واتفـق أن شكا الأمير إلى نصر فتـورا يجـده، فـأشـار عليـه بـالـدواء المسهل، وكان من عـادتـه، وأوصل إليـه طبيبـه الحراني فوافقـه على ادخـال الدواء وحد له تقديه ورسم لـه التوحش لإدخـالـه ليوم سماه. فتقـدم الأمير إلى نصر بإدخـال الحراني إلى خزانـة الطب، وتمكينـه مما يريـد من أخلاط دوائه ليقيه على حده، فشرع «الحراني» في ذلك، و«فجر» ثقة الأمير، تطالعـه بوصاياه. فأمكنت الحراني منها فرصة أوحى إليها بشـأن الـدواء وسـألهـا أن تحذر الأمير من شرب الدواء، ففعلت ذلك خفية، فحذر الأمير... فلمـا غـدا به نصر في اليوم الذي فارقه عليه، أظهر الأمير الانكسار عنه ووصف عائقـا يمنعه منه، وأمر لحينه نصرا بشربـه، فكأنـه توانى إذ لم يستعـد لـه، فـأكرهـه عليه...» (18).

مثـال آخر لمـا أورده ابن حيـان، مما تعـددت فيـه الروايـات، بغير ترجيح. وهو الغالب على مروياته في متن المقتبس.

في (ذكر من استعان به الأمير محمد بن عبد الرحمن، من وزرائه وأكابر خدمته) روى ابن حيان :

«وذكر معاوية بن هشام الشبينسي، قال :

---

18) ابن حيان : المقتبس 8 ـ 15. تحقيق د. مكي.

«مما يؤثر من كريم أفعال الأمير محمد في مواليه وأهل خدمته. وركوبه سنن سلفه في إحياء بيوتات الشرف في دولتهم وإجراء الأيادي عندهم، أنه لما توفي الوزير الكاتب حامد بن محمد الزجالى، تشوف إلى خطة الكتابة العليا التي كانت في يده، قوم من جلة الموالي من الوزراء وغيرهم، وخاطبه كثير منهم يعرضون عليه أنفسهم لتقلدها. فأعرض عنهم وأمر في البعثة في عبد الملك بن عبد الله بن أمية، فقلده الكتابة ولم يكن يكمل لها. فاعتدى به الوزير هاشم بن عبد العزيز، أثير الأمير محمد من وزرائه، لفضل تحككه بأصحابه وبغيه على مناوأته، فقدح فيه عند الأمير وكره إليه استكتابه على قلة أدبه، ووصفه بالتعرى من البلاغة وقلة المعرفة بأدوات الكتابة، وكثر عليه في تنقصه. فقال له : مهلا يا هاشم، فقد علمنا أنك ما قلت إلا بالنصيحة لنا والرغبة في رفعة خدمتنا. غير أن مذهبنا أن نقصر لخططنا، هذه النبيهة، على أبناء موالينا و أهل السوابق في خدمتنا، وأن نخلفكم فيمن بعدكم بما خلفنا به فيكم من قبلكم. ولو كنا فارقنا هذا المذهب لما اتصلت النعم في صلحاء موالينا وذوى القدمة في خدمتنا، ولا ستولى على هذه أهلُ التحرك من أبناء السوق وأبناء الناس أولى الأعراق الدنية، فترذل وتسوء منها العاقبة.... فاعتذر له هاشم من قوله، وتشكر فعله واستكرم رأيه، واعترف بصواب تدبيره وجميل مذهبه، وأقصر عن ذكر ابن أمية. على أن الذى بينهما بقى على اشتداده وتأكد في باطنهما...»

قال ابن حيان : وقد **اختلف** الفقيه الحسن ابن مفرج في خبر ابن أمية هذا على **غير مساق** معاوية بن هشام، **وبغير لفظه**، قال :

«لما ولى الأمير محمد، عبدَ الملك بن عبد الله بن أمية الكتابة من ذاته بغير طلب منه ولا دعوى معرفة، ولم يكن لديه من آلاتها ما يتسور به

عليها، صدق الأمير عن نفسه فاستعفاه منها وأقر له بالعجز عنها. فاستحلاه محمد وقال له : قد وقفنا على قولك، ولم نأت تقليدك بالعجز، عن جهل بك، وإنما قدمك عندنا خلتان : نصح، وتصحيح في سرك وجهرك، رجونا بها قيامك بما قلدناك. وقد أبحنا لك الاستعانة عليه بأهل المعرفة واليقظة من أهل الصناعة، فتغير منهم من تثق به وتتورك عليه بحسن المناب عند من تحت إشرافك، فنحن نأمر بالتوسع له وإجراء الرزق له، ونحن على ذلك معينوك بافتقاد ما تكتب به عنا والإصلاح لما عسى أن تقع فيه أو يختلط عليك، حتى تركب الطريقة وتبصر الخدمة إن شاء الله تعالى.

«فحسده على الخطة لشرفها من رأى نفسه أولى بها لاستكمال أدواتها، فطولب عليها، وكان أشد الناس في ذلك هاشم بن عبد العزيز : يثير سقطاته ويتبع هفواته ويشنع عليه، والأمير محمد بفطنته يتغافل له. فلما طال الصبر عليه دعا هاشما فقال له : قد أكثر أهل خدمتنا وأكثرت في هذا الكاتب، تذكرون جهله وقدامته. وقد ضمنا إليه من الكتاب من يستعين به ويستظهر على خدمته بمكانه. وإنما حسبنا بأننا نقفو بخدمتنا ونسلك مراتبنا التي استمررنا عليها، من وضعها في أهلها وتوريثها ذوي الهمة فيها، دون الاعتذار فيهم بنقصان أداة أو بتخلف كفاية. وإذا كنا لا نخلف آباءكم فيكم ولا نخلفكم في أبنائكم، فعند من نضع إحساننا ونرب معروفنا ؟ عند أبناء القزازين والجزارين والحجامين وأشباههم من الغاضين للهيئة المخلين بالأبهة ؟ لأنت يا هاشم أحق الناس بالحض على ذلك وتصويب الرأي فيه، والعدول عن معايبه والإزراء عليه، لما ترجوه من مثله في ولدك وعقبك.

«فاستحياه هاشم وأكب على يده فقبلها، واستجهد في شكره والتصويب لرأيه وقال : لما يؤتي الله كلا من عباده من الفهم والمعرفة

وسداد الرأي وحضور العصمة، بقدر منزلته عنده وحسب مكانه لديه وسعده، جعل الله الخلافة بمنزلة ليس فوقها إلا النبوة. فن رآه الله أهلا لتفضيله على جميع خلقه، والذي آتاه الله سيدى الأمير من سعة العلم والحلم ورحب الصدر وانشراحه ونور العقل ونقاوته، دليل على قدر منزلته عنده ورفعة محله لديه. ولا غرو أن قصرت بنا عقولنا وقعد بنا اختبارنا، إذ لسنا نجرى من إرث النبوة وعظمة الحكمة على ما أجرى الله فيه الأمير وآثره به من الحكمة. فليعذر في الزلل وليتجاوز عن الخطل، فإنه لو اخذنا بأدنى عثرة من عثراتنا لم يمش على الأرض ماش منا، وإنما معولنا على سعة تجاوزه وكريم صفحه. فقال له : يا هاشم، من اقتعد السرعة أودت به إلى الهفوة. ولو أننا أصغينا إلى أقوال الوشاة لكنا شركاءهم في الزلل وقسماءهم في العجلة. فهلا عليك ورويدا بك، فإنك إن تعجل يعجل عليك» (19).

☆ ☆ ☆

على هذا النهج، مرويات ابن حيان في مقتبسه.

خلافا لمتينه : هو فيه شاهد عصره ومؤرخه، لا يحتاج إلى إيراد عدة روايات لخبر، أو إثبات مصدر لأخبار ووقائع هي منه بمرأى ومسمع. إذ هو مصدر لتاريخ عصره وبلده، ما شهده منه وما بلغه أو سمعه. ولا عليه إن لم يصرح بأنه عاين ما سجله من أحداث قرطبة، مقره الدائم، وبخاصة ما كان منها مشهودا من عامة القرطبيين. إلا أن يرى وجها لإثبات وجوده

19) ابن حيان : المقتبس، 143 ـ 146 تحقيق د. مكى.

وانظر نقول ابن حيان، من لفظ الرازى في تاريخه : (ذكر أثر الخليفة الناصر لدين الله في حماية السنة وإنكار البدعة) في (الجزء الخامس من المقتبس : 20، 24، 30) شالميتا. ثم، فيه أيضا، غزوات الناصر من سنة 300 إلى سنة 327 هـ.

مع من شهدوا الحادث أو الموقف. كالذى نقل ابن بسام من خطه في مقتل «الوزير ابن القطاع، عيسى بن سعيد»، وقد أعظم الناس قتله وسار منهم إلى الزاهرة خلق عظيم ينظرون إلى رأسه معلقا ببابها.

«قال ابن حيان : وكنت في جملة من نظر إليه، واستبنت الضربة بخده الأيمن» (20).

مقتل الوزير ابن القطاع، كان سنة 397 هـ، بسيف المظفر عبد الملك ابن أبي عامر، وأبو مروان ابن حيان وقتئذ في العشرين من عمره. فذلك، والله أعلم، وجه إثباته رؤية رأس القتيل، مع «خلق عظيم من أهل قرطبة».

ومثله، وصف ابن حيان لموكب المظفر بن المنصور العامرى يوم خروجه من قرطبة إلى آخر غزوة له :

«عهدى به يوم فصوله لغزوته سنة **ثمان وتسعين**، التي احتفل فيها لشانجه بن غرسية، قومس قشتاله، واستكثر فيها من العدة والعدد. فبرز على جواد من مقر باته المنسوبة... ولبوس درع فضية مطرزة بالذهب، وعلى رأسه خوذة مثمنة الشكل محددة الرأس مرصعة الطرق بدر فاخر، واسطته حجر ياقوت أحمر مرتفع القيمة. قد لزم وسط الجيش وطرح الشعاع على سنة وجهة، **فما رأى الناس** بعده ملكا يعدله في البهاء والبهجة..» (21).

ونقل ابن بسام «من خط أبي مروان ابن حيان» أنه كان فيمن حضر بيعة المستظهر بالله، عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، بجامع قرطبة سنة 416 هـ.

---

20) الذخيرة : (1). 107/1.

21) الذخيرة : ق 4 ـ 60/1. ومنه نقله الدكتور مكى في تمهيده للمقتبس (30).

البيعة يوم مشهود، لا يحتاج ابن حيان في تأريخه لها، إلى النص على حضورها. لولا أنه لم يكن مع العامة في أبهاء الجامع، بل في المقصورة الخاصة، حيث أتيح له أن يطلع على ما ليس متاحا للكافة : عبد الرحمن بن هشام، كان أحد ثلاثة من البيت الناصري، مرشحين للبيعة. أرجحهم سليمان بن المرتضى بالله، وقد سبق إلى الجامع «لا يشك في تمام الأمر له، وأصحابه يرتقبون مجيء ابني عمه ـ المرشحين معه ـ وقد أبطآ ليحصلوهما عنده. فبينما نحن على ذلك، والقلق باد، إذ غشيتنا ضجة وزعقة هائلة ارتج لها الجامع واضطرب لها من في المقصورة. فإذا عبد الرحمن بن هشام قد وافى شرقي الجامع في خلق عظيم من الجند والعامة، وقد تكنفه أميرا الدائرة، محمود وعمير، في رجالهما، شاهرين سيفيهما أمامه لهجين باسمه. فراع الوزراء ذلك وألقوا، للوقت، بأيديهم وخذلتهم حيلهم. ودخل المقصورة عبد الرحمن فبويع لوقته... وكان أحمد بن برد قد تقدم في عقدها باسم سليمان بن المرتضى، فبشره وحك اسمه، وكتب اسم عبد الرحمن مكانه. فكان ذلك من عجائب الدنيا» (22).

☆ ☆ ☆

ابن حيان، مصدر كذلك **بالمعاصرة** لما استفاض من أخبار ديار الأندلس، وما هو منها بسبب، لا يحتاج إلى إثبات مصادره لها. على مبعدة من مقر إقامته بقرطبة. ويأتي منها في خلاصة البحث. وصفه المفصل لكائنة سقوط بربشتر، قرب سرقسطة، سنة 456 هـ، وقد طرق الناعي بها قرطبته. «فصك الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة».

---

22) الذخيرة : ق 1 ـ 35/1 والخبر بنصه في بيان ابن عذارى : 136/3 ـ 137.

وقال في فصل من تاريخه الكبير في صفة أهل طليطلة وقد خرجوا لعـــدوهم في ثيـــاب زينتهم : «فلم يرع الأسماع إلا ورود الخبر بمـــا صكها» (23).

وقال في جيشان النصرانية بموت الحكم المستنصر : «وخرجوا على أهل الثغور **فجاء صراخهم إلى باب قرطبة**» (24).

ومثلها، في النقول من المتين، كثير، مما أرخ له من أحداث وقته، دون ذكر مصدر لما هو منها على مبعدة من قرطبته.

إلا أن يرى وجها لإثبات مصدره من شهود حادث لم يشهده، لديهم من العلم بتفاصيله وخباياه، ما ليس مظنة أن يستفيض، كالذي نقله ابن بسام من خط ابن حيان، في (لمع من أخبار منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة) وهو مما أحتاج إلى نقله، بطوله.

«قال ابن حيان : وأخبرني الكاتب أبو أمية ابن هاشم القرطبي، وكان من وجوه من خرج عنا أيام الفتنة واستوطن ثغر تطيلة، وما رأيت مثله في أولى البيوتات فضلا، **قال** : اجتاز القومس شانجه بن غرسيه صاحب قشتيلة، بباب تطيلة صدر أيام الحاجب منذر، وعلينا يومئذ من قبله سليمان بن هود، صاحبه، فسلك ـ شانجه ـ مجتازا يريد طرف الثغر الأعلى للاجتماع هنالك بالقومس ريمند صاحب برشلونة، لعقد المصاهرة بينهما، والأنثى من عند شانجة، واطئا لأرضنا عن علم من «منذر» والينا، وضمان منه لكف عادية جيشه عنا. فأنكره أهل تطيلة، وهم يومئذ بحال عزة وقوة،

23) الذخيرة (3) 846/2.

24) الذخيرة (4) 62/1.

وذهبوا إلى عصيان أميرهم منذر فيه، تفاديا من وصمته. فمنى ذلك إلى الطاغية شانجه، فلما شارف البلد أرسل يستدعى قوما من أعيانهم يكلمهم في سبيله.

قال أبو أمية : **فكنت** في عدد من مضى. فدخلنا محلته يومئذ فخرصتها خيلا ورجلا زهاء ستة آلاف، ولم يكن احتفل في حشده. ووصلنا إلى مضربه فإذا هو جالس على مرتبته، عليه ثياب من ثياب المسلمين، ورأسه مكشوف أصلع كهل لم يغلب عليه الشيب بعد، أسمر اللون جميل الصورة، فكلمنا بكلام لطيف حسن بين فيه وجه سيره، وذكر ما فارق والينا عليه من المحالفة معه. فعرفناه بكره من وراءنا لاجتيازه، وذهابهم إلى التمرس به. فنهانا عن ذلك وذكر الحرب وعدواءها. فانصرفنا عنه وأدينا قوله إلى من خلفنا فلم يتقبله عوام الناس. وحملهم الأنف على أن خرجوا إلى عجل أبطأت في ساقته تحمل أزواد عسكره، يريدون نهبها عاصين للمشيخة. فأنهى إليه ذلك فصرف من أصحابه مقدار خمسمائة فارس، ثاروا في وجوه الناس فخرج البلد بأسره لدفاعهم. فحمل من الخمسمائة قطعة فولى الناس الأدبار حتى اقتحموا باب المدينة. فما رأيت في النصرانية يومئذ رجالا مثل رجاله، ولا في ملوك الطواغيت من أعدله به في ركانة مجلسه ورجولته ودهيه، وكال أدواته وصدوع كلماته، إلا ما كان من صهره وسميه شانجه بن غرسيه صاحب البشكنس الذي تفرد بالرئاسة بعده فكان مثله. بدد الله شيعتهم...» (25).

وفي ذكر الخبر عن مقتل يحيى، بن علي، بن حمود، وكان قد غلب على قرمونة، من صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى :

---

25) الذخيرة، ق 1 : 154/1 ـ 156.

«قال ابن حيان : حكى لي أبو الفتح البرزالي، **قال** : لما كان عيد الأضحى سنة ست وعشرين وأربعمائة، وانغمس يحيى ابن حمود في شربه ولهوه، سرت مع لمة من بني عمي إلى اللحاق بابن عمنا محمد بن عبد الله والقاضي ابن عباد. فوصلنا وأنبأناهما من خبر ابن حمود يحيى ولهوه، ما رأيا معه أن يوجها بجيش لقتاله. فخرج اسماعيل بن عباد مع ابن عمنا محمد بن عبد الله ـ من اشبيلية ـ في المحرم سنة سبع وعشرين بعدها، وهما في بيعة هشام بن الحكم تلك الأيام، فجئنا إلى باب قرمونة بالجيش كي نغيظ يحيى فيخرج أو يخرج أحد من قبله. وقد قدمنا سرية وكمن الجيش ناحية أخرى. وقد كنا وجهنا فوارس ليلا للسامرة بسور قرمونة، فطار الخبر إلى يحيى وهو تلك الليلة على شراب وقد أخذ منه، فنعر نعرة ووثب قائما يقول : وابياضَ بختي الليلة، وابن عباد زائري !! وأمر بالإسراج وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وبادر الخروج ليلا على باب قرمونة وأصحابه يتلاحقون، فالتأمت عدته في نحو من ثلثمائة فارس أكثرهم دغل السريرة. فمضى على وجهه مغترا يضرب إبطى أهجن خيله، معنقا إلى حينه. قال أبو الفتح : وأقول إنه على ذلك عند انتهائه، لو ضرب مصافا يقيم فيه ويقدم رجاله للحرب طائفة يمدهم بطائفة وتقف خيلهم درءا لهم، ما فارق الصواب. لكن الحين غطى على بصره فألقى بنفسه علينا في أوائل خيله، ولما تستبن الأشباح ظلمة. فانتشب الحرب غلس ذلك اليوم ووالى علينا الشدات الصعاب بنفسه، فعلمنا أنه لا ينجينا إلا الصدق».

وتابع أبو الفتح البرزالي وصف الملحمة كرا وفرا، وتدبيرا ومكيدة، كما شهدها. إلى أن شدت الجماعة شدة منكرة «فصرع يحيى وحز رأسه وطير به إلى ابن عباد بإشبيلية فخر ساجدا وسجد من حضر لسجوده، وانطبق

البلد فرحا. واستمرت الهزيمة على أصحاب يحيى - وفيهم أهل قرمونة - حتى ساء ذلك محمد بن عبد الله، وبدت عصبيته لقومه. وكلم ابن عباد في رفع السيف عنهم فأطاعه في ذلك، وتم لابن عبد الله ما أراد من حقن دماء قومه... ولم يتلعثم أن أسرع الركض إلى قرمونة دون اسماعيل بن عباد، فجاءها لوقته وقد ملك سودان يحيى أبوابها على أهلها. فدنا إلى مكان عورتها في سورها الجوفي، وقد عرفه، ففتح له. ودخل من ساعته دار يحيى وحاز جميع ما ألقاه من مال ومتاع، واشتمل على نسائه وأباح حرمه لبنيه واستحل حرامهن. واستوى في مجلسه ونصر نصرا لاكفاء له - ورد الله عليه ملكه، ثم لم يجده على ذلك شاكرا للنعمة، ولا مقصرا عن ارتكاب المعصية - وسقط الخبر على أهل قرطبة فما صدقوه من الفرح» (26).

(2) توثيق مرويات ابن حيان

التزامه أدق ضوابط المنهج النقلي في الإسناد والرواية، وتحرير
صيغ الأداء، جعل من مروياته ومدوناته وثائق تاريخية.

هنا تعرض قضية ذات خطر، يرتهن بها كل ما لابن حيان وتاريخه الكبير من قيمة : هذه النصوص التي أثقلت على العرض بنقلها من مرويات ابن حيان في مقتبسه من مصادره، وفي متينه رواية عمن سماهم من معاصريه.

هل أوردها ابن حيان بلفظ رواتها ؟ أو تصرف فيها وأعاد صياغتها بأسلوبه الأدبي الفريد ؟

---

26) الذخيرة، ق 1 : 271/1 - 273.
والبيان المغرب 188/3 - 189.

قضية ما كنت، حقا، لأشغل بها لولا حكم قاطع سبق فيها للأستاذ الزميل الدكتور محمود دمكي، في أوعب وأسخى دراسة قرأتها عن ابن حيان.

قال في مصادر ابن حيان ما نصه :

«... على أننا نلاحظ أن ابن حيان في **كل ما ينقله**، إما شفاها أو كتابة من أصدقائه حول هذه الأخبار، لم يكن يثبت ما يقولون بحرفه، **كما لم يثبت** نصوص من سبقه من المؤرخين بلفظها في **المقتبس**. بل كان يعيد كتابته بأسلوبه. ولهذا فإننا نجد الأسلوب على طول تلك الروايات وتعدد مصادرها مستويا متسقا يتفق مع خصائص كتابة ابن حيان ونثره الذى لم يقلد فيه أحدا ولا استطاع أحد أن يقلده.. ولا يمكن أن نتصور أن النصوص المنسوبة إلى أولئك الرواة، وكان بينهم فقهاء متوسطو العلم وقواد من البرابرة وأصحاب شرطة وغيرهم ـ ممن لا يفترض فيهم سمو ثقافة ولا جودة أسلوب ـ نقول أن هذه النصوص لا يمكن أن تكون من صنع أولئك الرواة، وإنما أخذ ابن حيان رواياتهم فأعاد صياغتها وفقا لأسلوبه هو ومنهجه... ولدينا على ما نقول عن ابن حيان، نص صريح يعلق به هو نفسه على خطاب الأديب ابن جابر، في وصف الإعذار الذنونى المشهور. فيقول : (هذا آخر خطاب ابن جابر إلى بوصف ذلك الإعذار، وجمله التى بسطتها من إدماجه وسبكتها من نقده) (27). فهو إذن لا ينقل رسائل

---

27) أحال الدكتور مكى هنا، على الذخيرة لابن بسام، ويلي هذه الفقرة فيها، عن وصف ابن جابر للإعذار الذنونى، قول ابن حيان : «خلا أنه سامنى ذكر مقطوعات حشا بها كتابه إلي، من صنعة صديقه عبد الله بن خليفة المصرى، تعاور المغنون في تلك الليلة الغناء بها ـ وجميعها عندى في نهاية الضعف والتخلف والتبرؤ من صنعة الشعر ـ يبغى بها توشيح هذا المشهد الجليل، فلم أسعده على ذلك، ترفيعا به عن هجنتها...» الذخيرة : (4) 135/1.
وفيه بيان لتصرف ابن حيان، فيما أسقط من كتاب ابن جابر.

مكاتبيه كا ترد إليه، بل يتخير منها ويبسط من مدمجها ويسبك من نقدها... وهكذا يقدم ابن حيان لنا بعد ذلك من **كل** هذه الروايات، **نصوصا حيانية خالصة»**. (97 ـ 98) (☆).

زاده الزميل حسما فقال في خصائص الكتابة التاريخية عند ابن حيان :

«ولم يكن لابن حيان بد في تأريخه للعصور السابقة عليه، من الرجوع إلى الكتب التي ألفت قبله. ولكنه، **على عكس** ما تصور الكثيرون، لم يكن مجرد ناقل، بل إن شخصيته القوية تهين على **كل** ما يورده. ونحس بها تطل علينا من **جميع** صفحات تاريخه التي **يسندها** إلى هذا المؤرخ أو ذاك، سواء في **أسلوب الكتابة** أو في الميزان النقدى الصارم الذى حقق به الروايات المختلفة ومحصها وقارن بينها على نحو جدير بالإعجاب» (107).

القول بأن صفحات التاريخ الكبير كلها، نصوص حيانية خالصة، مستوية متماثلة أسلوبا وصياغة، مما يمكن أن يختلف فيه فقهاء النصوص.

لكن لو صح أن مرويات ابن حيان كلها من لفظه وصياغته، لأهدر هذا الحكم، على إطلاقه، ما لمدوناته من قيمة تاريخية، بتقوله على الرواة ما لم يقولوه، وعزوه إليهم ما هو من لفظه وصياغته وأسلوبه.

وما كان علماء السلف المغاربة، بالمعروف عنهم من تشدد وصرامة في توثيق المرويات والأسانيد، ليدعوها تفوت، إن صحت، دون تجريح ابن حيان بها، وإسقاط مروياته.

☆) الأرقام هنا، وحيثما يأتي النقل من دراسة الدكتور مكي، لصفحات تمهيده للمقتبس.

وهو فيهم حيث رفعوه وأجلوه، ما علمت أحدا منهم مسه بأدنى جرح في صدقه وأمانته وضبطه. وقد قال «أبو محمد ابن حزم، الفقيه الأصولى النظار» أن كتابه التاريخ الكبير هو «من أجل كتاب ألف في هذا الباب» عنى المقتبس. وشهد «أبو عبد الله الذهبي» في (العبر) : «مؤرخ الأندلس ومسندها» وليس لابن حيان المؤرخ ما يسنده سوى مروياته ونقوله في تاريخه الكبير...

ولا أستبعد احتمال التردد في الأخذ بهذه الشهادات، ومثلها معها، حجة لما نحن بصدده.

الحجة القاطعة : هي مقابلة نقول المقتبس على مصادرها عند ابن حيان. وقد كان عدد منها بين يدي الدكتور مكي في معاناته الباهظة لترميم قطعته البالية من المقتبس، وإقامة ما اضطرب من عبارات المتن، واستكمال ما فشا فيه من طمس وقطع وخرم. واعتصار بقايا الحروف المتآكلة والسطور المشوهة والمطموسة :

ما كان فيه لمحمد بن حارث الخشنى، رحمه الزميل المحقق من (كتاب قضاة قرطبة، لابن حارث) (28).

وما كان لأبي الوليد ابن الفرضى، رحمه واستكمله من كتاب ابن الفرضى (تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس) (29).

---

28) متن المقتبس، وهوامشه للدكتور مكى : 49، 51 ـ 59، 61 ـ 65، 68 ـ 72، 143، 252 ـ 254...

29) المقتبس، المتن وهوامشه : 43، 56، 77 ـ 84، 102، 116، 127، 170، 184، 253 ـ 262.

وما كان لابن القوطية، رممه وسد فجواته من كتاب أبي بكر ابن القوطية (تاريخ افتتاح الأندلس) (30).

بل إنه رمم مرويات في (المقتبس) أعوزه فيها نقل مباشر من ابن حيان، بالمقابلة على من نقلوها من مصادره..

وما كان ليتاح له بأى حال، أن يستكمل حروفا متآكلة من ألفاظ، وكلمات مطموسة من جمل، وجملا ضاعت في قطوع المخطوط البالى، لو لم يكن ابن حيان نقل مروياته من مصادره، بنص ألفاظها لم يغير منها حرفا.

ومع هذه الكثرة الوافرة من المقابلات في عملية الترميم، لم تكد تخلو منها صفحة من مطبوعة المقتبس، لم تذكر الأستاذ الزميل **بالنصوص الحيانية** إلا مرة واحدة، فيما قيدت، حين علق على خبر مبتور بقوله :

«بقية هذا الخبر الذى أتت عليه قطوع آخر الصفحة، نقلناه عن تاريخ ابن القوطية.. ولو أن ابن حيان عودنا على أن يتصرف في النصوص التي ينقلها عمن سبقه من المؤرخين فيصوغها صياغة جديدة» (31).

قلت : ترميم الزميل المحقق، نقول ابن حيان من نصوص مصادره، بألفاظ من أسندها إليهم، لا يبدو لي معه وجه التقرير لتصرف ابن حيان في هذه النقول «عمن سبقه من المؤرخين فيصوغها صياغة جديدة» وإنما يشهد هذا الترميم، الذي لم تكد تخلو منه فقرة من مطبوعة الدكتور مكى، لإيراد ابن حيان نقوله عن المؤرخين، بنص ألفاظهم.

---

30) المقتبس، المتن وهوامشه : 31، 111 ـ 116، 131، 140 ـ 142، 170 ـ 176، 189، 317...

31) المقتبس : 172 هامش.

وكذلك رممت الحروف المتآكلة، والحروم والسقط في قطعة شاليتا من المقتبس بالمقابلة على أصول المصادر (32)، أو من مؤرخي الأندلس بعد ابن حيان، فيما نقلوا من مقتبسه (33).

وكان هذا الترميم، بحيث يغني عن مزيد قول في القضية، لولا ما ظهر لي من حاجة إلى متابعة النظر فيها، وبخاصة في القطعة التي حققها الزميل الدكتور مكي من المقتبس، ردا على ما أكده من تصرف ابن حيان، في نصوص المؤرخين قبله.

ففيما قابلت من نقول مسندة بالمقتبس، على ما تيسر لي في هذه العجالة من مصادرها، لم أفاجأ بأن النقل في المقتبس طبق الأصل في مصدره - وإن طال النقل وأشبه في ظاهره أسلوب ابن حيان، دقة وحيوية وبراعة حوار - فذلك ما لم أتردد فيه ولا تصورت غيره.

الذى فوجئت به، هو أن قراءتى لمتن المقتبس في طبعته المحققة، لم يصح لى ضبط سياقها وتحرير أسانيدها، في القدر الذى قابلته منها على أصولها في مصادر ابن حيان، إلا بعد هذه المقابلة.

وأقتصر على أقل قدر من هذه المقابلات، تقوم به الحجة على مالها من أهمية وخطر، في توثيق مرويات ابن حيان، والتوجيه إلى ما يرجى من استكمال تاريخه الكبير، بتجريد النقول منه.

---

32) انظر منها مثلا، صفحات : 59، 60، 62، 94 - 97، 101، 102، 128، 132... من المقتبس، الجزء الخامس.

33) انظر منها مثلا، المقابلة على نقول ابن عذارى في البيان المغرب، من المقتبس، في أكثر صفحات الجزء الخامس منه، وعلى الروض المعطار، في صفحات : 79، 103، 111 من خامس المقتبس.

من (خبر بقى بن مخلد، أبي عبد الرحمن القرطبي) مرويات في طبعة المقتبس المحققة على النسق التالي :

«.. وذكر القاضي أبو الوليد ابن الفرضى الشيخ بقى بن مخلد في كتابه في الفقهاء فقال... - وذكر نسبه وشيوخه بالمغرب والمشرق - أخبرني أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي عن عبد الله بن يونس راوية بقى بن مخلد، أن عدة الرجال الذين لقيهم بقى بن مخلد وسمع منهم مائتا رجل وأربعة وثمانون رجلا.

وأخبرنا سليمان بن أيوب، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ : قال لنا ابن أبي خيثمة، وذكر بقى بن مخلد : ما كنا نسميه إلا المكنسة، وهل احتاج بلد فيه بقى بن مخلد أن يأتي إلى هنا منه أحد ؟ أو كما قال.

أخبرنا أبو عمر ابن عبد البصير، قال : حدثنا خالد بن سعد، قال : سمعت طاهر بن عبد العزيز يقول :...

وحدثنا خالد، قال : سمعت محمد بن ابراهيم بن حيون يقول : سمعت بقيا رضي الله عنه يقول :...

وحدثنا خالد، قال : سمعت طاهر بن عبد العزيز يقول : سمعت أبا عبد الرحمن يقول :...

قال : فبقى بن مخلد هو الذي ملأ الأندلس حديثا ورواية...

وكان من الكتب التي انفرد بإدخالها بقي بن مخلد فلم يدخلها الأندلس سواه...

أخبرني عبد الله بن محمد، قال : إلى آخر الترجمة.

سبق إلى وهمي أن من هذه المرويات ـ بنسق إيرادها في طبعة المقتبس فقرات مستقلة ـ ما نقله ابن حيان من غير كتاب ابن الفرضي. وبالمقابلة على أصله، وجدتها كلها من روايته، سماعه من شيوخه بأسانيدهم. فاللفظ له في نقل ابن حيان (34).

ومثله كثير...

☆ ☆ ☆

وفي المقتبس، نقلا من ابن عبد البر، أبي عبد الملك أحمد بن محمد القرطبي، ترجمة للقاضي محمد بن سعيد، وفيها من خبره مع الفقيه «الإمام يحيى بن يحيى الليثي» ما احتجت إلى مراجعته، وليس المصدر بين أيدينا. ولم يشر الدكتور المحقق إلى أي مرجع للمقابلة.

التمسته في بعض المظان، فوجدته، الترجمة والخبر، في ترجمة يحيى بن يحيى الليثي بكتاب (ترتيب المدارك للقاضي عياض) نقلا من ابن عبد البر، وبعبارته في المقتبس، مع خلاف يسير في المساق ـ لاختلاف موضع إيرادها في المقتبس عن المدارك ـ وفي ألفاظ يسيرة تحمل على تصحيف.

النص في المقتبس :

«محمد بن سعيد، قاضي للأمير عبد الرحمن بن الحكم، لم يذكره محمد بن حارث. وذكره أحمد ابن عبد البر فقال : القاضي محمد بن سعيد... وكان معرفة للشيخ يحيى بن يحيى... فأشار به على الأمير عبد الرحمن فولاه قضاء الجماعة أول سنة أربع عشرة ومائتين فاستقل به.

---

34) ابن حيان : المقتبس 261 ـ 265 مقابلا على تاريخ ابن الفرضي : 91/1 ـ 93، الترجمة 283 ط القاهرة.

«وكان جميل المذهب في قضائه حسن السمت والهيئة، إلا أنه كان طاعة ليحيى بن يحيى لا يعدل به أحدا. وكان إذا اختلف عليه الفقهاء لم يعدل عن يحيى معدلا. فاتفق أن وقعت له قصة شاورهم فيها، تفرد الشيخ يحيى بن يحيى بقول خالفته فيه جماعتهم (مدارك : وخالفه جميعهم) فأرجأ القضاء فيه حياء من جماعتهم. وأردفته (م : وردفه) قصة أخرى شاورهم فيها بعد توقيفه للأول. وقد أغضب بذلك يحيى (م : وقد أحقده توقفه عن إنفاذ الأولى) فلما أتاه كتابه بهذه الرادفة صرفه عن رسوله (م : على رسوله) وقال له : ما أفك له ختاما ولا أشير عليه بشيء، إذ قد توقف عن القضاء لفلان بما أشرت به عليه، وعافه (م : وعابه) فلما انصرف إليه رسوله وعرفه بقوله، قلق منه وركب من فوره إلى يحيى بن يحيى فقال له : لم أظن أن الأمر يبلغ بك في توقفى عن القضاء لفلان بفتواك، هذا المبلغ الذى غيرك (م : لم أظن الأمر وقع منك هذا الموقع) وهذا مقام المعتذر إليك فسوف أقضى له غير يومى (م : غد يومى) إن شاء الله. فقال له يحيى : وتفعل ذلك صدقا ؟ قال : نعم. فقال له يحيى بن يحيى : يا هذا، هجت الآن غضبي (م : فالآن هجت غيظى) فإني ظننت، إذ خالفنى أصحابى، أنك توقفت مستخيرا لله متخيرا (م : متحريا) في الأقوال، فأما إذ صرت تتبع الهوى وتقضى برضا مخلوق ضعيف، فلا خير فيما تجيء به، ولا في إن رضيته منك. فارفع مستعفيا من ذاتك فإنه أستر لك. وإلا رفعت في عزلك. فرفع يستعفى فعزل عن القضاء» (م : فعزل) (35).

ومر بنا، بالمبحث الأول، من تقديره لحرمة لفظ الراوى، إيراده خبر تولية الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، خطة الكتابة العليا، عبد الملك

35) ابن حيان : المقتبس 62 ـ 63 ت. د. مكي. مقابلا على ترتيب المدارك للقاضى عياض، ترجمة يحيى بن يحيى الليثى : 384/3 ـ 385 ط الرباط.

بن عبد الله بن أمية، برواية معاوية بن هشام الشبنسى، نسابة أموية الأندلس، وقوله بعدها :

(وقد اختلف الفقيه الحسن ابن مفرج في خبر ابن أمية هذا، على **غير مساق** معاوية بن هشام، **وبغير لفظه**، قال :» فذكرها بطولها.

ومعها، مما أشير إليه بوجه خاص (خبر دخول الأمير محمد قصر قرطبة ليلا) بتدبير من خصيان القصر، قبل أن يعلنوا وفاة والده الأمير عبد الرحمن، وقد حذروا أن تبلغ ابنه عبد الله، من الست طروب، فيسعى سعيه ليسبق أخاه محمدا إلى البيعة، وذلك ما قرروا أن يمنعوه بالحيلة أو يقاوموه بالسيف. الخبر حافل بالمشاهد المثيرة والحوار البارع في صفحات نافت على خمس عشرة من المقتبس في طبعته المحققة، لعلها من أخصب ما في القطعة الفاسية منه، وأدقها تفصيلا وأبلغها أسلوبا، مع حبكة الإخراج وحيوية العرض.

بدأها ابن حيان بما :

«قال الحسن...» ونقل نص رواية الحسن ابن مفرج، بلفظه ومساقه. يليها بعد سطر سقط لم يمكن استكماله :

«وخلاف ما ذكره الحسن بن محمد بن مفرج، من... ما ذكر معاوية بن هشام الشبنسى من...

ومعاوية أثبت معرفة بأخبار قومه، فقال :»

وأورد ابن حيان الخبر بمساق رواية معاوية ولفظه (36).

---

36) متن المقتبس : 121 ت د. مكي.

والمقتبس ديوان مرويات ابن حيان، لتاريخ الأندلس قبل عصره. والمسندة منها هي الغالبة عليه. ويقل فيه ما نقله ابن حيان من مصادره بتضمين. ولا يلتبس التضمين عنده بالمروى بلفظ راويه. لكل خبر صيغته المحررة في التحمل والأداء.

ولا يختلف عن هذا الضبط، إيراده للمرويات في (المتين) وإن قَلَّتْ فيه بحكم المعاصرة. وتصرفه في كتاب ابن جابر في الإعذار الذنونى، منصوص عليه فيه. ومصرح فيه كذلك بوجه تصرفه : إسقاط ما حشا به ابن جابر كتابه من مقطوعات هابطة لصديق له، استهجنها ابن حيان فترفع عن ذكرها (37).

وفي تضمينه أيضا، نحتاج إلى ما احتجنا إليه في نقوله بلفظ مصادره، من مقابلة المضمون على الأصل في مصدره، لتحديد المضمن وضبط سياقه. كالذى في (ذكر مهلك نصر الخصى الكبير، سنة 236 هـ) من تضمين ابن حيان هذا الخبر :

«وذكر الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن حزم، أن نصرا هذا الذى تنسب إليه منية نصر، الأثير عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم. وكان من الفتيان المنتقين الذين خصاهم أبوه الأمير الحكم. من أبناء الناس الأحرار الذين تعبدوا ليستخدمهم داخل قصره. وأبوه المعروف بأبى الشمول من أسالمة

---

37) ابن بسام، الذخيرة : (4) 135/1.

أهل الذمة من أهل قرمونة. نال بابنه نصر هذا دنيا عريضة، وكان موته قبيل مهلك نصر ابنه بأيام. وأخبار نصر كثيرة» (38).

لم أتبين : هل الفقرة كلها مما ذكره ابن حزم ؟ أو أن المضمن منه : نسب منية نصر إلى هذا الأثير عند الأمير عبد الرحمن، دون ما يليه من خبر الخصيان. إلى آخر الفقرة ؟

ورجعت إلى (جمهرة ابن حزم)، فوجدت ما مضمونه في المقتبس. عند ابن حزم في نسب بنى أمية بالأندلس، قال في ولد هشام بن عبد الرحمن بن معاوية : «والحكم الوالى من بعد أبيه، وهو الذى أوقع بأهل الربض وقتل الفقهاء والخيار، وخصى عددا من ذوى الجمال من أهل قرطبة منهم... ومنهم نصر الذى تنسب إليه منية نصر. وكان أبوه من نصارى قرمونة، أسلم قبل الحادثة على ولده. ومنهم...» (39).

☆ ☆ ☆

في الحق أننى كنت فيا قرأت من المقتبس، وكأنى أقرأ في كتاب لأحد علماء الحديث، راسخ الدراية بمنهجهم النقلى.

فإن تكن **كل مرويات ابن حيان نصوصا حيانية خالصة،** فليست كذلك بتصرفه فيها وهيمنته على رواتها وإعادة صياغتها بأسلوبه الفريد، بل بمنهجه السوي في صدق الإيراد على القواعد المقررة في المصطلح، للرواية والنقل والأداء. لا فيا أورده مسندا بلفظ راويه فحسب، بل فيا

---

38 ـ 39) ابن حيان : المقتبس 15 (د. مكى) مقابلا على جمهرة الأنساب لابن حزم : 87 ط أولى ذخائر.

نقلـه كـذلـك بتصرف صرح بتصرفـه فيـه، ومـا أورده تضمينـا فحرر صيغـة الأداء، يتقي شبهة التدليس.

هذا المنهج الملتزم، من صدق الإيراد وضبط النقول والأسانيـد وتحرير صيغ الأداء، على المصطلح، هو ما جعل مدونـات أبي مروان ابن حيـان، في تقديرى **وثائق تاريخية.**

ولهذا مـا كان الإقرار لـه بـالإمـامـة، والحظوة بلقب مؤرخ الأنـدلس ومسندها، الثبت الثقة.

ولقب المسنـد، ممـا اختص بـه كبـار المحـدثين، واستحقــه أبـو مروان بـالتزامـه منهجهم في الأخـذ والتحمل والنقـل والأداء. على حين غلبت على كثرة غيره من المؤرخين، صفة الأخباريين، يتساهلون في الرواية، ويرسلون المرويات لا يتحرون فيها ضبط إسناد ولا تحرير أداء.

وبهذا، لا بالتصرف في مروياته وإيرادها بلفظـه وأسلوبـه معزوة إلى رواتهـا، يخلص لـه مـا نوه بـه الزميل الـدكتور مكى في خصـائص الكتـابـة التاريخية عند ابن حيان، من «الاستبلاغ في الدقـة والضبـط، فقـد فـاق في هاتين الصفتين كل من كان قبلـه. ونحن نرى ابن حيـان دائمـا، كاتبـا يخضع كل ما يقرؤه أو يشاهده أو يبلغه، لميزان نقدى علمي يبدو سابقا لعصره في تلك الأيام، حتى كأنه من نتاج العصر الحديث» (106).

وأراه في منهـج الروايـة والتـدوين، منتميـا إلى السلف من علمـاء الحديث، وأين نحن منهم في عصرنا الحديث ؟!

(3) التاريخ موهبته وهويته، وعلمه ومدرسته

مـا كان من حرص أبي مروان ابن حيـان على تـوثيـق مرويـاتـه التاريخية وصدق إيرادها، بنصها في مصادره، مرتبـط بـأن التـاريخ وحـده هو المجال الذى وجد فيه ذاته وحقق وجوده.

لو شـاء لكان أديبـا «نسيج وحـده، وكاتبـا روائيـا من الطراز الأول» بشهادة معاصرين من دارسيه. رأوا أن «كل صفحات تاريخه، ولا سيما المتين، تعتبر من أروع نماذج النثر الأندلسي على الإطلاق «وأن التـاريخ تحول على يده إلى أدب خالص محض» (40).

لكن الأدب لم يكن صناعته، ولا أراد قـط أن يكون أديبـا. والكلمـة في هذا له : حدد لنفسه المجـال الـذى خلق لـه وجبل عليـه، والعمل الـذي عرف أنـه ميسر لـه بفطرتـه ومواهبـه. قـال فيما نقـل ابن بسـام من خطبـة التاريخ الكبير بخط ابن حيان :

«وبعد فإني امروء يسرت لطلب هذا الخبر واقتفاء هـذا الأثر، أحرس شارده وأقيد نافره، وأبيت بأبوابه وأنصب لطلابه. فشغلت به دهرا وفجرت منه نهرا، صيرني تربا لعدنـان وزمـامـا على الحـدثـان، أقص أنبـاءه وأضرب أمثاله وأحصى وقائعه وأحترز مواعظه» (41).

بهذا النص، سجل بقلمه هويته في بطاقة شخصيته، ثم لم يحد عن هـذا المجال قط، فكان التاريخ علمه وحرفته، ووظيفته ورسالته، وهمه وهواه،.

---

40) تمهيد الدكتور مكي للمقتبس : 129 ـ 134.

41) الذخيرة : (ق 1) 86/2.

ابن حيان المؤرخ، شخصية متفردة بين مؤرخينا الكبار، عرف ذاته وحقق وجوده في التاريخ وحده، لم يظهر مثلهم في أكثر من مجال.

وأحسبه تفرد كذلك بأن ولى رسميا خطة إملاء التاريخ، أو إملاء الذكر، في ديوان السلطان. ما وقفت على ذكر هذه الخطة لغيره. قلده إياها أبو الوليد ابن جهور، فيما نقل ابن بسام من خط ابن حيان، قال :

«وكنت ممن جادته سماء هذا الرئيس أبى الوليد الثرة، وكرم فعله ابتداء من غير مسألة، فأقحمنى في زمرة العصابة المبرزة الخطة، مع كلال الحد وضعف الآلة. واهتدى لمكان خلتى وقد ارتشف الدهر بلالتى، بأن قلدنى إملاء الذكر في ديوان السلطان، المطابق **لصناعتى** اللائق **بتحرفى**، براتب واسع» (42). ولا يمنع تفرده بتقلد هذه الخطة الديوانية، المطابقة لصناعته اللائقة بتحرفه، أن يكون ولى خطة صاحب الشرطة، وهي من أعلى الخطط في أموية الأندلس. وقد أنكر الزميل «الدكتور مكى» أن يكون ابن حيان وليها، قال : «ورد في **إشارتين عارضتين** لابن خير والمقرى، وصف له بأنه صاحب الشرطة. ولم نجد لهذا الخبر أثرا عند من ترجموا لابن حيان، ممن هم **أولى بالثقة** من ابن خير والمقرى».

ثم لم يذكر لنا اسم واحد ممن هم عنده أولى بالثقة من الحافظ الثبت «أبى بكر ابن خير الإشبيلي» المجمع على جلالته. وهو لم يأت بهذا الوصف من عنده، في إشارة عارضة، بل في إسناد له موثق، عن شيخه «الفقيه أبى محمد ابن عتاب القرطبي» وهو من أجل أصحاب أبى مروان ابن حيان وأعيان تلاميذه. قال ابن خير :

---

42) الذخيرة : ق 1 ـ 118/2 وانظر معها تمهيد المقتبس : 44.

(كتاب الفصوص في اللغات والأخبار، لأبي العلاء صاعد عن الحسن بن عيسى الربعى البغدادى، ألفه للمنصور ابن أبي عامر رحمه الله : حدثنى به الشيخ أبو محمد ابن عتاب رحمه الله، قال : أخبرنى به الشيخ المؤرخ صاحب الشرطة أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، وكتب لي بذلك بخطه، عن أبي العلاء صاعد، مؤلفه رحمه الله» (43).

وذكره المقرى، في غير هذا السياق، فقال في زهراء قرطبة :

«وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيان صاحب الشرطة، أن مباني الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية...) إلى آخر الخبر (44).

تاريخ ابن حيان، على أي حال، هو عمله الكبير وأثره الباقي، ومناط منزلته العالية بين مؤرخي الأندلس.

☆ ☆ ☆

ولم يصح عندى القول بأن من مزاياه، أن : «تحول التاريخ على يده إلى أدب خالص محض».

ذلك ما لم يتعلق به ابن حيان، بل كرهه ونفاه. قال ـ فيما نقل ابن بسام ـ من خطبة التاريخ الكبير، وذكر التماسه ما فاته تقييده من أحداث الفتنة المدلهمة الشنعاء :

---

43) ابن خير، الفهرسة : 326.

وانظر مراتب الخاصة في مجلس الحكم المستنصر، في مراسم عيد الأضحى لسنة 362 هـ، وورود كتاب صاحب الشرطة العليا والمواريث قاضي القضاة بالمغرب محمد بن أبي عامر، يذكر تعييد الناس لديهم بالعدوة، وقيام الخطبة في المصليات هنالك... وسرور المسلمين بذلك. (المقتبس 136 ـ 138) حجى.

44) المقرى، نفح الطيب : 265/1. وانظر فيه خطة صاحب الشرطة : 101/1.

«وأنعمت البحث عن ذلك عند من بقى يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له، لزهد من قبلنا قديما وحديثا في هذا الفن، ونفيهم له من أنواع العلم» (45).

سبق بذلك، والله أعلم، إلى علمية التاريخ، والظن الشائع أن لابن خلدون فضل السبق اليها، بعد وفاة ابن حيان بثلاثة قرون ونحو نصف قرن!

ظهرت هذه العلمية راسخة في منهج إيراد ابن حيان لمروياته، وفيما نعرضه، بالمبحث التالى، من ميزانه الضابط لحركة التاريخ عنده : لا تسير بمصادفات عشواء، بل تجرى على السنن الثابتة، محكومة بقانون الأسباب والمسببات...

وعلمية التاريخ عنده، جعلته لا يغض من الرؤى والكرامات، تقديرا منه لدلالتها الصادقة على وجدان الجماعة، وموقفها من الأحداث والأشخاص كالذى نقله في المقتبس من تاريخ أبي عبد الملك ابن عبد البر القرطبي - في الفقهاء - عن كرامة أبي عثمان البلوطى، سعيد بن سليمان، من قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى، بن هشام :

قال ابن عبد البر، بسنده إلى من شهد الموقف :

«كان سعيد بن سليمان يخطب بخطبة واحدة لصلاة الجمعة طول مدته لم يبدلها. ولقد برز الناس للاستسقاء في بعض أيامه، فلما ابتدأ خنقته

45) الذخيرة : ق 1 ـ 87/2.

العبرة وأشكلت عليه الخطبة، فاختصرها وكثر من الاستغفار والضراعة ثم صلى وانصرف، فسقى الناس ليومهم» (46).

ومثله مما قرأ ابن حيان في كتاب معاوية بن هشام الشبينسى ـ في تاريخ دولة بني مروان بالأندلس ـ كرامة «أيوب العابد المستجاب» الدعوة، في المجاعة الجائحة صدر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة 207 هـ (47).

وقال في جبروت عبد الرحمن الناصر، واتخاذه الأسود إرهابا لعذابه، اتخذ لها دارا ظهر قصره بقرطبة، لها سباعون يضبطونها ويطعمونها، يفزع بها أصحاب الجرائم :

«ومما بلغنى أنه سلطها على أحد شهر خبره، إلى أن زهد فيها آخر عمره فعقرها وعطل رسمها. ولحقث مشايخ من الناس خبروا أن تلك الدار، يتحدثون عنها، ويعرف بعضهم بحديث **كرامة** لبعض صالحى الوقت، أظهر الله به فضله : وذلك أن أسدا انحل منها عن سلاسله في وقت خال غاب فيه سائسه، فخرج على وجهه ودخل إلى مسجد قرب الدار التي أفلت منها (فلما) انتهى الأسد إلى مكانه والرجل قائم يصلى، أقعى على ذنبه وأخفى زئيره ولم يتقدم نحو الرجل ولا قطع الرجل صلاته، إلى أن أتمها وتحول، فلما نظر منه، هين بذكر ربه وقام نحو الأسد فأشار إليه بكمه : (اخسأ أيها المخلوق واذهب لشأنك فليس هذا من أوطانك) فانثنى الأسد منصرفا، وسائسه قد أوفى فطلبه فأخذ بقوده ومضى به، والعبد الصالح قد عاد لصلاته» (48).

---

46 ـ 47) ابن حيان : المقتبس 51، 93 تحقيق د، مكى.

48) المقتبس : 39/5 ـ 40.

ومعه، مما كان ابن حيان فيه شاهد رؤية، ما نقل ابن بسام في خبر مهلك ابن القطاع، وزير المنصور ابن أبي عامر، ثم ابنه المظفر عبد الملك، قاتل ابن القطاع، والآمر برفع رأسه بباب الزاهرة : «قال ابن حيان : وكنت في جملة من نظر إليه، واستبنت الضربة بخده الأيمن. وكان أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوى منقطعا إلى عيسى - بن سعيد القطاع - فكان أول من أنشد عبد الملك، على سبيله من سرعة الانقلاب، شعرا يقول فيه :

فتلك هامته في الجو ناطقة تحدث الناس من آياتها عبرا
مكتوبة الوجه بالهندى يقرؤه من ليس يقرأ مكتوبا ولا سطرا

ومن أغرب ما وردت به الرؤيا بعد قتله، أن رجلا من الصلحاء رأى في النوم كأن رأسه ينشد على الخشبة التي كان عليها :

بان الخليط وشفني وجدى وبقيت أندب ربعهم وحدى

فأولت الرؤيا ببين آل أبي عامر، وصدقت بعد مديدة» (49).

ولا أراه كذلك، خلافا للقول المردد فيه، «نبذ الأساطير والأحاديث الخرافية، ورفض ما لا يتفق مع المنطق العقلى والتاريخى».

التاريخ عنده علم، وغير متصور من مؤرخ أن يحصر رؤيته في مستوى معين أو نمط متميز، فلا يسجل ما عداها مما وعاه تاريخ الشعوب والجماعات، على اختلاف بيئاتهم وتفاوت مستوياتهم. والأساطير من ميراث الشعوب العتيقة، تتطور وتتقدم وترق وتتحضر، وتبقى في شخصيتها رواسب من ميراثها القديم، متصلة بجذورها الغائرة في أعماق الماضى السحيق.

---

49) الذخيرة : (1) 107/1، والبيان لابن عذارى 35/3.

وعلمية التاريخ هي التي تدرك المنطق الفطرى للأساطير، وتقدر ما فى تفسيرها البدائى للظواهر الكونية، من رفض لتصور حدوثها عبثا بمصادفة عشواء، ومن تحدى الإنسان لواقع كريه أو محبط، بأمانى طامحة يسعف عليها خياله وتخذله وسائله.

لهذا ما كان من تسجيل «أبي مروان ابن حيان» والتاريخ عنده علم، لظواهر وأحداث لا تخضع للمنطق العقلى، والتاريخى ـ للعصريين ـ دون سخرية بها أو ازدراء لها، وإنها لتعطى دلالتها الصادقة على عقلية البيئة ووجدان الجماعة، وتفسيرها للأحداث والظواهر، بميراث البيئة أو بحدس الدفاع عن وجودها.

من ذلك ما رواه ابن حيان، تضمينا لما ذكر أحمد بن محمد الرازى، من تعظيم ملوك الطواغيت للأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم. والتماسهم السلم منه بالمهاداة «وكان أكلفهم بذلك طاغوتهم الأعظم قرلش بن لذريق صاحب الافرنجة الجبار المستبصر في دين الملكانية... وهو الذي صور المسيح بن مريم، صلوات الله عليهما، على ما ثبت له من نعته، فصاغ صورته من ثلثمائة رطل من خالص الذهب رصعها بفاخر الياقوت والزبرجد، ووضعها فوق كرسى مرصع ترصيع الصورة بفاخر الحجارة، وأجلسها عليه وأسجد لها جميع أهل مملكته. ثم دفعها إلى صاحب كنيسة الذهب يختزنها لديه. فلما انصرف إلى قصره، ضربه الله بصداع لزمه، فلم يفارقه إلى أن لفظ نفسه» (50).

---

50) ابن حيان : المقتبس 130. د. مكى.

ونقل نصا، ما

«قال الرازي : حدثني أصبغ الكاتب الاشبيلي، وكان مسنا صدوق اللهجة حافظا لأخبار بني أمية، قال : لما دخل الأمير محمد جزيرة قادس في بعض متصيداته إلى الغرب... ضربت أخبيته حول الصنم المنسوب إليها، هو من عمل الأوائل **وله شأن في الحكمة**، فنظر إليه مليا فطاف بجهاته فأراد أن يختبر قوة بنائه ويتقصى شأنه، فلم يجد ذلك إلا من قبل النار القوية. فأمر أهل الجهة بجلب الحطب إليه والإحداق به حواليه من كل جانب... ثم أمر بإيقاد النار فيه فلما تأججت واحتدمت هبت عليها ريح عاصف **من تلقاء الصنم** مزقت النار وأخمدت لهبها وصارت شعلها إلى أخبية الأمير محمد فعلقت بها واشتعل كثير منها، فارتاع محمد لهول ما عاين من ذلك هو ومن معه، ونادى فيهم بالرحيل عن مكانه ذاك، وابتدر الركوب ذاهبا عنه، ولم يكد ينجو إلا بعد أن فقد كثيرا من آلته وعدته بالنار» (51).

لم يعقب عليه ابن حيان بتفسير علمي، بل ترك له دلالته على تأثرهم بما رسخ في قابس من شأن لصنمها في الحكمة.

وقد يدون خبرا عن زعم راج وشاع، ويعقب عليه بما صح عنده، وإن بقي للزعم، على خطئه، دلالته على نفسية القوم الذين راج فيهم هذا الزعم، كخبر المائدة المنسوبة إلى سليمان، عليه السلام، ذكرها ابن حيان فيما نقل عنه من أحداث فتح طليطلة. وبعد استيفاء خبر الفتح.

«قال ابن حيان : وهذه المائدة المنوه باسمها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه الصلاة والسلام، لم تكن له فيما يزعم رواة العجم. وإنما أصلها أن العجم

---

51) ابن حيان : المقتبس 278 د. مكي.

في أيام ملكهم كان أهل الحسبة إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها، من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا برزت في أيام المناسك، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها. فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل، وتأنقت الأملاك في تفخيمها يزيد الآخر منهم على الأول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات، وطار الذكر مطاره عنها...» (52).

لم أحس في بيان ابن حيان لخطأ هذا الزعم، سخرية به، وهو على خطئه صادق الدلالة على ما تناقلته الأجيال من رواة الروم إلى عصر الفتح، من إعظام لهذه المائدة المقدسة عندهم.

وفي أخبار الفتح، نقلا من مقتبس ابن حيان، ما لقي جند الإسلام من شدة أهل ماردة ومنعة سورها، فعمل موسى بن نصير دبابة دب المسلمون تحتها إلى برج من أبراج السور واستشهد عدد منهم فسمي برج الشهداء... «قال ابن حيان، ثم دعا موسى القوم إلى السلم فترسل إليه في تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمان. واحتال في توهيمهم في نفسه : فدخلوا عليه أول يوم فإذا هو أبيض الرأس واللحية كما نصل خضابه. فلم يتفق لهم معه أمر. وعاودوه قبل الفطر بيوم فإذا هو قد قنى لحيته بالحناء فجاءت كضرام عرفج، فعجبوا من ذلك. وعاودوه يوم الفطر فإذا هو قد سود لحيته فازداد تعجبهم منه، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله. فقالوا لقومهم : إنا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاءوا ويتصورون في كل صورة أحبوا، كان ملكهم شيخا فقد صار شابا، والرأي أن نقاربه ونعطيه

---

52) نفح الطيب ١/124 ـ 127.

ما يسأله، فما لنا به طاقة. فأذعنوا عند ذلك وأكلوا صلحهم مع موسى... ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين» (53).

ابن حيان روى خبر موسى مفسرا بسببه. ولجهل القوم بالخضاب فسروه كما تصوروه بعقليتهم. وأعطى هذا التصور علة إذعانهم، وأثرها في تسليم ما ردة على شروط هؤلاء الفاتحين الذي جرى في وهم «أماثل ماردة» أنهم ليسوا من البشر...

فلم يشذ هذا التفسير الوهمي، وقد أعطى علته وأثره، عن منطق ابن حيان العقلي التاريخي، في العلل والأسباب، على ما تتدبره فيما يلي :

(4) مع أبي مروان ابن حيان في تاريخ الأندلس

- الاستيعاب، والتدوين
- ميزانه العلمي للتاريخ
- علامات المراحل الكبرى للتاريخ الأندلسي

من حيث لم أحتسب، وجدتني مع ابن حيان، في قراءة جديدة لتاريخ الأندلس، صححت فهمي الأول له وكشفت عن ثغرات فيه من عشوائية المصادفات وبغتة المفاجآت.

لم أتجه إلى ذلك قصدا، بل كان همي الشاغل أن أنظر في توثيق مرويات ابن حيان، ومفهومه لعلمية التاريخ، وفي بالي مقولات مرددة،

53) نفح الطيب : 126/1 ـ 127.

أشبه بمسلمات لا موضع فيها لتوقف أو نظر. ثم لما تابعت التدبر لما وصل إلينا من تاريخه، التماسا لميزانه فيما اقتبس ودون، ومنطقه في حركة سير التاريخ، أدركت أنني أقرأ تاريخ الأندلس من جديد.

الاستيعاب، والتدوين.

من المشهود به لأبي مروان ابن حيان، استيعابه لتاريخ الأندلس «لا يكاد يعزب عنه شيء مهما دق أو صغر، مع الإدراك الواعي لقيمة هذه الأشياء الصغيرة أو الدقيقة».

وقد قالها فيما نقل ابن بسام من خطبة التاريخ الكبير: «وبعد فإني امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر واقتفاء هذا الأثر، أحرس شارده وأقيد نافره، وأبيت بأبوابه وأنصب لطلابه. فشغلت به دهرا وفجرت منه نهرا صيرني تربا لعدنان وزماما على الحدثان....»

فهمت منها أنه استوعب التاريخ قراءة واطلاعها، مشاهدة وسماعا. لكنه لم يدون في تاريخه للأندلس كل ما قرأ أو رأى وسمع، فالمعروف لنا من الأسفار العشرة للمقتبس، قطع أربع أرخ فيها لأكثر من مائة سنة، في بضع مئات من الأوراق (المتين) أكثر تفصيلا وأرحب مجالا بلا ريب، وإن لم يصل إلينا سوى نقول من أسفاره الستين. العدد له دلالته على السعة والتفصيل، والتجزئة له بالستين هي التجزئة للمقتبس بعشرة. وقد أرخ في المتين لبضع وستين سنة، وفي المقتبس لثلاثة قرون.

ولا يقال مع ذلك إنه أودع (المتين) كل ما شاهده وسمعه وبلغه من أحداث وقته، بقرينة أن كتابه في (أخبار الدولة العامرية) أنافت أسفاره على المائة فيما ذكر لسان الدين ابن الخطيب في كتابه (أعمال الأعلام) وفي

هذه الأسفار المائة أرخ لنحو ثلث قرن، عمر الدولة العامرية (366 ـ 399 هـ) والتجزئة له بمائة سفر وأكثر، هي التجزئة للمتين بستين، وللمقتبس، المؤرخ فيه لثلاثة قرون، بعشرة أسفار.

فبأي ميزان كان ابن حيان يزن الأخبار والوقائع والأشخاص، فيما أخذ وما ترك ؟

لا أستريح إلى الغض مما ترك اقتباسه وتدوينه من مصادره. ولا أجترىء على الحكم بأن المتروك من مصادر مقتبسه، زرى القيمة أوتافه لا قيمة له. فمثل هذا لا يقال في الأعلام الذين ارتضاهم مصادر لتاريخه، وفيهم أئمة جلة، وثقات أثبات في تاريخ الفتح وأموية الأندلس وأعيانها وأنسابهم. كل منهم تحرى تدوين ماله قيمة في نظره، وكذلك ابن حيان فيما اقتبس ودون.

والتمست ميزانه الضابط لمروياته ومدوناته، فبدا لي ـ من أول وهلة ـ أنه كان يزن الأحداث بقانون السببية، فيركز على العلل والعواقب، ما تحقق منها وما هو متوقع.

تابعت هذا الملحظ بحذر، أتقى فيه بادرة الرأى، فما كاد يغيب عني في خبر من مروياته ومدوناته. وقيدت كثرة من البطاقات بشواهده، ثم عدلت عن ذلك لما تنبهت إلى أنني أقرأ تاريخ الأندلس كله، أحداثا مترابطة أكاد أبصر فيها حركة سير التاريخ من أول الفتح إلى آخر ما دونه ابن حيان من عصر ملوك الطوائف، ثم إلى النهاية الحتمية المحكومة بالسنن الثابتة، قضت بالمصير الفاجع في كارثة الضياع، بعد رحيل أبى مروان ابن حيان، بأكثر من أربعة قرون.

كان من مخضرمي عصرين هما في الواقع مجمل تاريخ الأندلس كله : عصر الدولة الأموية وعصر ملوك الطوائف. وفي مرصده بقرطبة وقف من أواخر القرن الرابع مطلا على ماض مجيد مشرق آذن بانحدار ومغيب، ومستقبلا بوادر عصر التمزق ونذره. فما كان ليستطيع أن يستقرىء ماضي التاريخ الأندلسي بمعزل عن واقعه، ولا أن يتابع أحداث الواقع مبتورا من جذوره، وإنه لعلى يقين من أن الحاضر وليد طبيعي للماضي، ووالد للمستقبل.

ولم يكن، والتاريخ همه ومشغلته، وعلمه ومدرسته، يأخذ فيه بالمصادفات والمفاجآت. وما يبدو للرؤية السطحية من عشوائية المصادفة وبغتة المفاجأة، تبين في رؤيته الثاقبة نتيجة لمقدمات قريبة وبعيدة، وأسباب ظاهرة وخفية، مضى يلتمسها ببصيرته النيرة في صبر دءوب، تستقطب عوامل القوة والعزة والمنعة في عصر «المملكة المؤثلة والخلائف الأئمة» ويتابع ببصره أحداث زمنه، مرتبطة بما قبلها ومرهصة بما بعدها. ارتباط السبب بالمسبب والمقدمات بالنتائج والعواقب :

«سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا».

☆ ☆ ☆

تقديم عرض لما قرأت لابن حيان في تاريخ الأندلس، مفسرا بعلله وأسبابه وموجها إلى آثاره وعواقبه، يعني أن أعيد كتابة هذا التاريخ كله، وذلك ما يحتاج إلى تجرد خالص يقصر عنه جهدي ولا تسعف عليه وسائلي.

أكتفي بإشارات موجزة إلى علامات المراحل الكبرى، من جمل قصار نهج ابن حيان على تقديم خلاصات فيها لما يفصل، توطئة أو خاتمة له، تستخلص الدرس وتضرب المثل وتصدع بالعبرة.

مع حركة التاريخ الأندلسي للقرون الثلاثة الأولى، تابعت المسير عبر المراحل، على هدى علامات للطريق من مقتبس ابن حيان فيما وصل إلينا منه، وفي النقول من المفقود منه :

من أول الفتح، سجل ما سجل من وقائعه المشهودة، مفسرة بأسباب لها من عنفوان مد الفتح وبسالة كتائبه المؤمنة، ويمن لوائه. وموعود النصر الإلهي له، مع مؤثرات من تحلل المجتمع الإسباني وخلل أوضاعه وفساد ملوكه وقادته (النفح 116/1).

وتتخلل الصفحات الباهرة من مشاهد الفتح الباسلة الظافرة، نقول من المقتبس لموقف «موسى بن نصير» من «طارق بن زياد»، حسدا له على ما كان له من مجد الفتوح. ثم ما لا بس هذا الموقف من فتن ومصارع، موصولة بآثارها في عصر الولاة لأموية الشام، وما استعر بينهم - من عهد هشام بن عبد الملك بن مروان، حتى سقوط الدولة سنة 132 هـ - من حروب منهكة مهلكة، وطأت لملك «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام» الداخل إلى الأندلس.

نقل المقرى في النفح :

«قال ابن حيان : ولما ألفى الداخل الأندلس ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك عاطلا، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية... وأقامهم على الطريقة. وبدأ فدون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية وجند الأجناد ورفع العماد وأوثق الأوتاد. فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته. فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته. ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها. فلذلك ما ظل عدوه أبو جعفر المنصور، بصدق حسه

وبعد غوره وسعة إحاطته، يسترجع عبد الرحمن كثيرا أو يعدله بنفسه. ويكثر ذكره ويقول : لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذى الفذ في جميع شئونه.. وعدمه لأهله ونشبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته، حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شايعة المحل نائية المطمع عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب الرعية بسياسته، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم. فاستولى فيها على أريكته ملكا قاهرا لأعدائه حاميا لذماره مانعا لحوزته، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه. إن هذا لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه...

«وجعل ابن حيان من النوادر العجيبة، موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور، في الرجولية والاستيلاء والصرامة، والاجتراء على الكبائر والقساوة، فإن أم كل منهما بربرية..» (155/1 ـ 158).

خلافة هذا المؤسس العظيم، امتدت أكثر من ربع قرن (138 ـ 206 هـ) وفيما بينه وبين سميه العظيم عبد الرحمن الناصر، تعاقب على الخلافة ستة من أمراء البيت الأموي المرواني. الأربعة الأولون منهم : «هشام بن عبد الرحمن، وابنه الحكم الربضي، وابنه عبد الرحمن الأوسط، ثم ابنه محمد» معدودون في الكتيبة الأولى من بناة الدولة الكبرى، في مرحلة ترسيخ القواعد وشد الدعائم، وتأثيل هيبة الخلافة وأبهة الملك وعز الدولة، لم يألوا جهدا في علاج الشروخ.

وتقاصر عنهم الخامس «المنذر بن محمد»، لقصر مدته (273 ـ 275 هـ) والسادس عبد الله بن عبد الرحمن ـ من حظيته الست طروب ـ لمدة ربع

قرن (275 ـ 300 هـ) اتسع فيها الخرق وأوغلت الشروخ في البنيان الذى قاومها بقوة أساسه، وعاشت المملكة على ما تستهلك من مذخور حيويتها، حتى تولاها «عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله» لتبدأ بعهده مرحلة الازدهار الكبرى التي يؤرخ لها ابن حيان بتفصيل، مجمله هذه الخلاصة الموجهة إلى علامة المرحلة، نقلها المقرى من مقتبس ابن حيان :

«.. تولاها عبد الرحمن الناصر سنة 300 هـ خلفا لجده عبد الله بن عبد الرحمن، الأوسط، بن الحكم، والأندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران العصاة المتغلبين، فأطفأ تلك النيران واستنزل أهل العصيان، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب... وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطئوه من قبله في أيام سلفه. ومدت النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم التماسا لمسالمته»..

«قال ابن حيان، وغير واحد، إن ملك الناصر بالأندلس كان غاية في الضخامة ورفعة الشأن. وهادته الروم وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر. ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم، إلا وفدت عليه خاضعة راغبة..» (النفح 171/1).

وعبد الرحمن الناصر، هو أول من لقب بأمير المؤمنين بالأندلس. وقد امتدت خلافته خمسين سنة زكية سخية مباركة، عامرة بالجهاد والكفاح ليل نهار، لم يَصْفُ له فيها أيام سرور فيا وجد بخطه، سوى أيام قيدها باليوم والشهر والسنة، عُدّتْ فكانت أربعة عشر يوما.

«توفى رحمه الله ـ أوائل شهر رمضان من سنة 350 هـ ـ أعظم ما كان سلطانا، وأعز ما كان الإسلام به».

وتلقاها من بعده ولى عهده «الحكم المستنصر» طودا راسخا سامقا، وقد هيأه للخلافة أبوه الناصر، ودربه عليها (54). فكان عهده امتدادا لعهد أبيه، عزا ومنعة وسيادة ومجدا وهيبة. وأضاف ما عد من أجل مآثره : «خزانته العامرة بمالا يوصف كثرة ونفاسة» من ذخائر المخطوطات، يستجلبها من الأقاليم القريبة والنائية، ويسخو في البذل لها، فبلغ رصيدها أربعمائة ألف كتاب، عدة فهارسها أربعة وأربعون، فيما نقل عن أبي محمد ابن حزم. قل كتاب منها لم ينظر فيه الحكم، عالم أموية الأندلس، ويقيد عليه من طرره وحواشيه ما عرف له الأئمة من العلماء المغاربة قيمته وقدره، ونفاسة نكته ونوادره.

وكانت مدة خلافته ست عشرة سنة، بلغت فيها دولة الإسلام بالأندلس أوج عظمتها، وارتفع منار حضارتها يهدى مسرى الغرب الأوروبي في ظلمات عصوره الوسطى إلى فجر يقظته وبعثه. وتوفى الحكم المستنصر، بقصر قرطبة، سنة 376 هـ عن أعظم دولة في العصر الوسيط. يظن بها وقتئذ أن لن تبيد إلى ما شاء الله...

وحُجِبَ ولي عهده هشام عن الخلافة، وتولاها من بعد المستنصر «المنصور ابن أبي عامر» لسبع وعشرين سنة، حافلة بالأمجاد والبطولات والغزوات المنصورة، لم تهزم له راية قط، إلى وفاته سنة 393 واستمرت دولته العامرية في ولديه المظفر عبد الملك ثم المأمون عبد الرحمن، إلى منتصف جمادى الآخرة سنة 399 هـ وهو على التحديد، تاريخ الفتنة المبيرة التي صدعت البنيان الشامخ ما بين عشية وضحاها، فما زال يترنح

---

54) انظر ما نقله ابن حيان، من كتاب الرازي، في تربية الناصر أولاده، وإيثاره ولي عهده الحكم، بمزيد عناية خاصة، في (خامس المقتبس : 14 ـ 17) شالميتا.

ويتداعى حتى انهار، سنة 422 هـ !

وذلك ما لم يكن يتصور إلا من بغتة المفاجآت.

حتى رجّعتُ البصر في تاريخ الأندلس بمتن المقتبس والنقول منه، فاستيقنت أن ذلك الانهيار لم يكن قط فجأة مباغتة، بل جرى على مقتضى السنن الثابتة، نتيجة لمقدمات سبقت، وعلل تراكمت حتى استشرت :

على المدى الطويل لمرحلة التأسيس وشد القواعد، لم تخطىء بصيرة أبي مروان ابن حيان، بعض شروخ في البنيان :

الفتن العصبية بين المضرية واليمانية من عرب الأندلس أيام الداخل.

وقعة الربض التي وطىء فيها حفيده الحكم الربضي، بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، أهل قرطبة وطأة شرسة؛ والفتن بينه وبين عميه «انتهزها الفرنجة فعاثوا في الثغور حتى خرج لهم فأثخن واسترد برشلونة سنة 185 هـ.

عربدة نصر الخصي الكبير الحاكم بأمره في قصر الأمير عبد الرحمن بن الحكم ودولته، ملأت الصفحات ذات العدد من مطبوعة القطعة الفاسية من المقتبس. ثم المشهد المثير لبيعة الأمير محمد بن عبد الرحمن، بتدبير خصيان القصر، خفية عن أخيه عبد الله، ابن الحظية طروب، وكتمانهم موت الأمير عبد الرحمن حتى تسلل ابنه محمد في ثلة من حراسه المسلحين، فبايعه الخصيان ثم نعوا والده، وبايع الناس.

تلاحق الفتن في عهد الأمير محمد، وحروبه التي لم تفتر مع الثائرين عليه من العصاة والمتمردين، والذين استجاشوا بهم من طواغيت النصارى، كلما أوقدوا نارا في ثغر بادر الأمير إلى إطفائها لتستعر في ثغر آخر. وانتهاء

السنين العشرين من إمارته، المؤرخ لها في فاسية المقتبس (238 ـ 267 هـ) وما تزال بقية من خلافته إلى وفاته سنة 273، وطأ لها ابن حيان في خاتمة هذا السفر من تجزئته : (كمل السفر الثاني بحمد الله تعالى، يتلوه في الثالث مبتدأ نجوم عمر بن حفصون، كبير الثوار بالأندلس).

اضطرام الفتن وخلل الثغور في عهد الأمير عبد الله بن عبد الرحمن، من الست طروب (275 ـ 300 هـ) وإيغال الصدع في البنيان الراسخ الأساس حتى جبر في مرحلة الازدهار، وطوته أمجاد الناصر والمستنصر.

وتسطع الأضواء الباهرة، فلا تخطف بصيرة المؤرخ أبي مروان ابن حيان، وهو يقتفي الآثار ويقص الأنباء. جمهرة مؤرخي الأندلس، يذكرون انقطاع الناصر، من سنة 327 هـ عن الخروج بنفسه للجهاد والغزو. وقلما اتضحت علة ذلك، على النحو الذي بينه «ابن حيان، في أحداث تلك السنة : نقل من تاريخ الرازي، تفصيل الخبر عن كسرة الخندق التي احتشد لها الناصر، جندا وعدة وسلاحا، لقتال العدو في جليقية، بما لم يحتشد بمثله ملك قبله قط. وعلى باب شنت مانكس، «جالت الحرب بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه وانكشف المسلمون انكشافا قبيحا نيل فيه منهم منال ممض، وألجأهم العدو في انحيازهم إلى خندق بعيد المهوى، إليه تنسب الوقعة، لم يجدوا عنه محيدا فتردى فيه خلق...»

قال ابن حيان بعد وصف الوقعة :

«هذا لفظ عيسى بن أحمد، الرازى، في تاريخه، على خبر هذه الوقعة التي اشتهر حديثها بالأندلس، ونالت بسلطان والمسلمين فيها حطمة عظيمة قتل فيها خلق وأسر كثير، وملك سواد العسكر وعدة السلطان وسرادقه

وآلاته السلطانية، وفيها مصحفه الخاص به، ودرعه الأثيرة لديه فلم يك يأسى على شيء من ذلك أساه عليها... وبدا من قوم من وجوه الجند نفاق لأضغان احتملوها على السلطان ففتقوا الصفوف وسارعوا في الهرب وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم...

«واشتدت على الناصر لدين الله نكبته في غزوته هذه التي لم تكن لها أخت فيما سلف من وقته، فاتهم سعده واعتكر فكره حتى خاف على نفسه، فأشير عليه بعكس همه إلى أغلب اللذة عليه، وكانت البنيان، فعاج عليه - زعموا - من يومئذ وقصد الاستغراق فيه، فأنشأ مدينة الزهراء بأسفل قرطبة، ووغل من سعة مبانيها وجلال مصانعها، فيها نعم باله وجلا فكره عما سواه، واقتصر من وقت ذلك عن الغزو بنفسه، فوكله إلى كفاته من حزمة قواده وشجعانهم، يجردهم بالصوائف كل عام لا يخل بها...» (55).

بعد عشر سنوات من تلك الحطمة، يروى ابن حيان خبر الهدية العجيبة التي أهداها «الوزير أبو عامر ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك» إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، سنة 337 هـ. نقل في (النفح) القول باتفاق المؤرخين على أنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها. مع بيان إحصائى لما فيها من ذخائر التحف وسبائك الذهب والفضة، وعجيب قطع المسك والعنبر والكافور، والقناطير المقنطرة من العود، ونوادر السلاح، والخيل العراب والبغال المسرجة بالخز، مع متخير الرقيق والجوارى.. وفوق ذلك ضيعة تدر من أمداد الزرع كذا، ومن أطنان الصخر، للبنيان، كذا، ضمت إلى ضياع أمير المؤمنين.

---

55) نشر (المعهد الإسباني وكلية الآداب بالرباط) : 7 - 15.

وانظر معه في ص (38) منه، المصرع الفاجع لإحدى جوارى الناصر بين يديه. ثم في ص (39) خبر الأسود التي اتخذها إرهابا لعذابه.

هذه المدية التي يفوت الخيال تصورها، نقلا من ابن حيان وابن خلدون بعده بقرون، لم تكن بطبيعة الحال كل ثروة الوزير ابن شهيد. وليس في خبرها ما يشير إلى مساءلته : أنى لك هذا ؟ الذي في الخبر أنها «أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا، وكان من مكافأة الناصر مهديها الوزير أبا عامر، أن زاده حظوة واختصاصا، وأسمى منزلته على سائر الوزراء وأضعف له رزق الوزارة، وثنى له العظمة فسماه ذا الوزارتين، **فكان أول من تسمى بذلك بالأندلس».** (النفح 166/2).

ثم حكاية «مرجان، كبرى حظايا الناصر وأم ولده وولي عهده الحكم»، ويالها من حكاية، ملأت ثماني صفحات من (ذكر نساء الناصر) في مطبوعة القطعة الخامسة من المقتبس (56)، وروى فيها، نقلا من (كتاب الحسن بن محمد بن مفرج القبشي) سماعه من أوثق خصيان الحريم في قصر الناصر، خبر الصفقة العجيبة التي ساومت فيها مرجان سيدتها الشريفة زوجة الناصر وابنة عمه، على ليلة له عندها بعشرة آلاف دينار، قبضتها السيدة وكتبت لمرجان صكا ببيعها هذه الليلة، تظن أن الأمر ألطف من أن يحمل على غير الدعابة والتسلية، وأنه عند ابن عمها ـ زوجها الناصر ـ يجرى مجرى أعباث النساء المضحكة، وترصدت مرجان مولاها الناصر في طريقه إلى زوجته، وعالنته في مرح وإغراء بأن الليلة ملكها شراء ! ولما قرأ الصك قضى لها بليلته المشتراة، وهجر زوجته لم يغفر لها قط تلك الصفقة المهينة الخاسرة، إلى أن ماتت مهجورة في القصر «لا سماء بكت عليها ولا أرض».

---

56) ابن حيان : خامس المقتبس : 432 ـ 438 (شالميتا).

حكاية تضاف إلى مكايد الحريم في العصور الوسطى، لا نكاد نشعر بظلها على عهد الناصر وولده الحكم، في سنى تألقه وجلال أبهته، إلا ليلة توفى الحكم بن عبد الرحمن الناصر، بقصر قرطبة، ثاني صفر سنة 366 هـ...

☆ ☆ ☆

الدولة العامرية، بداية النهاية

في تلك الليلة التي توفى فيها المستنصر، اهتز صرح المملكة المؤثلة، وليس في فتنة منتصف جمادى الآخرة سنة 399 هـ على القول الشائع.

بوفاته، تبدأ الدولة العامرية التي أفرد لها «أبو مروان ابن حيان»، مصنفا«نافت أسفاره على المائة»فيما ذكر لسان الدين ابن الخطيب في (أعمال الأعلام) ومن كتاب ابن حيان المخصوص بالدولة العامرية، الذي لم يصل إلينا، ينقل المقرى في (النفح) ما صح به فهمى لأخطر حركة انتقال بين عصرى تاريخ الأندلس كله.

كنت فيما مضى أرى الدولة العامرية شطرا من الدولة الأموية الكبرى وامتدادا لمملكتها التى مات عنها المستنصر أعلى ما تكون صرحا وأجل مكانة وأسنى منارا. والذى وعيته في قراءتى الجديدة لابن حيان وتاريخ الأندلس، أنها مرحلة انتقال إلى العصر الثاني المشئوم، وهي إليه أقرب وأدنى، منها إلى عصر «المملكة المؤثلة» التي تولاها ثمانية من أمراء

البيت الأموي، لم ينته أحد منهم قط مقتولا أو مخلوعا، ولا منفيا أو سجينا في قصر الخلافة مغلول الحركة مسلوب السلطان.

ولم تتخلف السنن :

هزة المنصور ابن أبي عامر لملكتهم، كشفت من اللحظة الأولى عما غاب عن الرؤية القريبة لعصر التأسيس والازدهار وإعلاء الصروح، من عوامل خلل تسربت إليها فيما رصد «ابن حيان» من غلبة الخصيان وأفاعيل الجوارى وانحراف بعض القادة والوزراء وخروج العصاة المتمردين إلى العدو، وما كان من عيثه في الثغور ووطأته المنهكة.

وقبل أن يشيع الحكم المستنصر إلى مثواه، بدأ انحدار بطيء غير منظور، من ذروة القمة إلى القاع السحيق، واحتضار طويل للخلافة الأموية، لا يكاد يحس.

الأضواء الساطعة من شخصية المنصور ابن أبي عامر، حجبت حركة الانحدار، ودوى فتوحاته وانتصاراته، كتم حشرجة الاحتضار...

البداية تذكرنا بمشهد قدم العهد به سجله ابن حيان في السفر الثاني من تجزئته للمقتبس - قطعة القرويين بفاس - روى فيه خبر كتمان خصيان الأمير عبد الرحمن بن الحكم نبأ وفاته، ريثما دبروا البيعة لابنه الأمير محمد، خفية عن أخيه المتربص لها، عبد الله ابن طروب محظية والده.

مع فارق بعيد : هؤلاء الخصيان دبروا البيعة لبكر الأمير عبد الرحمن.

وخصيان المستنصر كتموا نبأ وفاته، حتى تشاوروا في مخدعه، وقرروا صرف البيعة عن ولي عهده هشام، وكان غلاما لم يتجاوز العاشرة (57)، إلى عمه ووصيه «المغيرة بن عبد الرحمن الناصر» ثم بعث كبيرا الخصيان إلى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، فنعيا إليه الحكم، سرا، وأبلغاه القرار بشأن البيعة، فقال لهما : «وهل أنا إلا تبع لكما ؟ أنتما صاحبا القصر ومدبرا الأمر» وخرج من فوره فأنفذ الوزير محمد بن أبي عامر القحطاني في ثلة من الجند، إلى المغيرة بن عبد الرحمن الناصر في داره، فقتله الوزير ابن أبي عامر خنقا. واستوثق الأمر للمصحفي فترة وجيزة، وابن أبي عامر يسايره ويمكر به ويكيد له، ويمكن لنفسه بالتفاني في خدمة «الست صبح أم الأمير هشام المؤيد بن الحكم» ـ قيل إنه بنى لها بيتا من ذهب ! ـ حتى استولى على الأمر كله.

على عهدى بأبي مروان ابن حيان، يقدم خلاصة مجملة لما يفصله في مائة سفر لأخبار الدولة العامرية، ومنه ينقل «المقرى» :

«تغلب محمد ابن أبي عامر على هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر واستولى على الدولة وملأ الناس. وبنى لنزله مدينة سماها الزاهرة ونقل إليها

---

57) ولد الحكم بقصر قرطبة في غرة رجب سنة 302 هـ، وولي الخلافة سنة 350 هـ وقد قارب الخمسين من عمره. وأمه، وأم شقيقيه عبيد الله وعبد العزيز «مرجان الرومية البشكنسية» أحظى جوارى الناصر لديه. ولم يستقل الحكم بأخص شئونه، إلا بعد وفاة أبيه، إذ جرت عادة الناصر على إخراج الذكور من أبنائه من قصر الخلافة إلى قصور خاصة، بمجرد بلوغهم، باستثناء ولي عهده الحكم «إذ لم يفسح له أبوه مجال الخروج عن القصر يوما، ولا مكنه ذلك من اتخاذ امرأة، صغيرة ولا كبيرة، استيفاء منه لشدة غيرته، وذهابا لفرط أنفة، ألا يشركه غيره في غيابته، فكان ذلك من أذل الأمور على عزة نفسه، واحتمل بفضل رجاحته ثقلا أفنى مطايب عمره، لتراخي أمر أبيه، فنال الخلافة عن عمر قالص وشهوة قابضة» وتولى عن ولده هشام صبيا صغيرا لم يبلغ العاشرة من عمره (خامس المقتبس : 16) عن الرازى، تضمينا.

خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيا بتحية الملوك، وتسمى بالحاجب المنصور. ونفذت الكتب والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة. **ومحا رسم الخلافة** بالجملة ولم يبق لهشام من رسومها أكثر من الدعاء على المنابر، وكتب اسمه في السكة والطرز. وأغفل ديوانه مما سوى ذلك. وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة وقهر من تطاول إليها من العلية. فظفر من ذلك بما أراد. وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا ستا وخمسين غزوة في أيام ملكه، لم تنتكس له راية ولا فل له جيش، وما أصيب له بعث وما هلكت له سرية. وأجاز عساكره إلى العدوة وضرب بين ملوك البربر، وضرب بعضهم ببعض، فاستوثق له ملك المغرب...

«وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا وأشد استيلاء منه، سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة (58)، بمدينة سالم، منصرفه من بعض غزواته. ودفن هنالك، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه».

وتابع «المقرى» الترجمة للمنصور : نسبه ونشأته وأصله، وسيرته وسياسته، وتفصيل غزواته المنصورة، نقلا مما «ذكر ابن حيان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية». (النفح : 185/2...)

---

58) وفاته في النفح سنة 392، وهو ما في التمهيد للمقتبس : 18.

وأرخ الحميدى وفاته سنة 393 في جذوة المقتبس 78/1 ت 121. وكذلك أرخ له الذهبي في وفيات سنة 393، قال : «مدبر دولة المؤيد بالله هشام ابن المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الأموى، لأن المؤيد بايعوه بعد أبيه وله تسع سنين، وبقى صورة وأبو عامر المنصور هو الكل في الكل.. وكان حازما بطلا شجاعا غزاء عادلا سائسا، افتتح فتوحات كثيرة وأثر آثارا حميدة. وكان لا يمكن المؤيد من الركوب ولا من الاجتماع إلا بجواريه» (العبر 56/3).

فكانت عظمة ملكه على حساب الخلافة التي «محا رسمها جملة» والملكة المؤثلة التي أسقط هيبتها وحرمتها، وحجب ولي الأمر الشرعي وعطله... ثم لم تقم لها من وقتئذ قائمة :

ترك المنصور دولته ملكا وراثيا في بنيه. وقضت السنن الثابتة بأن تسقط الدولة العامرية، هذه الشامخة الضخمة، بعد أقل من سبع سنوات :

تولاها ابنه المظفر عبد الملك، بوصية من أبيه. فجرى مجراه في الغزو والسياسة وحجب هشام المؤيد طوال سنوات حكمه التي وصفت بأنها كانت أعيادا. وسجل «ابن حيان»، شاهد رؤية، مصرع ابن القطاع وزير المنصور ثم ابنه المظفر. والرؤيا التي أولت ببين آل أبي عامر، «وصدقت إلى مديدة» (59).

في هذه المديدة، مات المظفر ثاني العامريين، في المحرم سنة 399، وقام من بعده ثالثهم وآخرهم، أخوه المأمون عبد الرحمن، المعروف بشنجول، فما دامت له سوى بضعة أشهر.

لم يكفه أن جرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام المؤيد، والاستيلاء عليه والاستقلال بالملك دونه، «بل ثاب له رأى في الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه. وقرىء كتاب ولاية العهد على الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ومشيخه الأمويين والمضريين، في يوم مشهود من شهر ربيع الأول سنة 399 هـ، وتسمى المأمون شنجول من يومئذ بولي العهد :«عبد

---

59) الذخيرة : ق 1، 103/1 ـ 107.

الرحمن الناصر لدين الله» فكان فيه حتفه وانقراض الدولة العامرية، القحطانية (60). لم يتجاوز عمرها ثلث قرن !

وتركت أرض الأندلس تميد من رجة **الزلزال**،
بعد أن محت رسوم الخلافة جملة، وقضت نهائيا على «المملكة المؤثلة».

☆ ☆ ☆

وكذلك فرغ «أبو مروان ابن حيان» من كتابه (أخبار الدولة العامرية) ليرصد في (المتين) شاهد عصر ورؤية، مسار الفتنة الشنعاء المبيرة في اندفاعها نحو المصير المحتوم لا تحيد عنه، ويقتفي آثار بقايا بائسة من الأمويين، خلفتهم الدولة العامرية في مهب الإعصار : فيما بين سقوطها بمصرع شنجول، وإعلان السقوط النهائي لأموية الأندلس (399 ـ 422 هـ) تولى الخلافة ستة أمراء من ثمالة البيت المرواني، قتل أربعة منهم أشنع قتلة، وخلع اثنان فهاما على وجهيهما في البلاد. وتقطعت إمارتهم بثلاثة أمراء من الدولة الحمودية، تقاذفوا الخلافة فيما بينهم وبين الأمويين، وفيما بينهم وبين أنفسهم. ولم يختلف المصير بهؤلاء وهؤلاء...

من خلال النقع المثار، نلمح على وميض شعاع من (المتين) علامات الطريق لمرحلة الاحتضار. في فقرات موجزة، مما عودنا ابن حيان أن يستقطب فيها الرؤية إلى مجمل ما يفصله من أحداث المرحلة.

---

60) ابن بسام، نقلا من خط ابن حيان : الذخيرة ق 1 ـ 31/1.
وانظر في هذا القسم (84/1 ـ 86) نص كتاب ولاية العهد، مع رسائل كاتبه أبي حفص ابن برد الأكبر. ومعه (البيان المغرب لابن عذاري : 42/3).

قبل أيام من مصرع المأمون العامرى شنجول، كانت المشيخة من الأمويين قررت عزل هشام المؤيد، وبايعت «محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر، المهدي بالله». فما لبث أن أظهر موت هشام المؤيد. وسخط القرطبيون حاله فتساروا فيا بينهم على خلعه، وتقديم هشام بن سليمان بن الناصر. فأعجلهم المهدي عن مرامهم بضرب عنق هشام، فاحتشد ابن أخيه سليان بن الحكم بن سليمان بن الناصر لقتال المهدي، ثأرا لعمه، وهزمه وانتزع الخلافة لنفسه، ولقب بالمستعين بالله. واستهلت سنة (400 هـ) وقرطبة تصلى نيران الحروب بين المهدي والمستعين، إلى أن كانت الجولة الفاصلة للمستعين في وقعة قنتيش، على أبواب قرطبة، بمن استجاش بهم من عسكر النصارى، في الحادى عشر من شهر ربيع الأول سنة 400، وتمت البيعة الثانية للمستعين، بعد ثلاثة أيام من الوقعة المشئومة.

نقل ابن بسام من خط ابن حيان في تاريخه الكبير:

«فقتل في هذه الوقعة عالم وأبادوا أمة. وهي وقعة قنتيش المشهورة بالأندلس، التي قطع المقال على أنه قتل فيها عشرة آلاف قتيل وأزيد والله أعلم. ومال النصارى يومئذ على المنهزمين من المسلمين فقتلوا منهم في صعيد واحد نيفا على ثلاثة آلاف..» وانبسطوا يومئذ في قرطبة يقتلون ويأسرون (61).

---

61) الذخيرة : ق 1 ـ 30/1.

وفي فقرات قصار، وطأ ابن حيان لأحداث المرحلة، بخلاصة مفسرة للأسباب والعلل، وموجهة إلى العواقب والآثار.

نقلها ابن بسام، أول الذخيرة في (ذكر البيعة الثانية للمستعين بالله سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، في قرطبة منتصف ربيع الأول سنة أربعمائة) بعد وقعة قنتيش له على المهدي، محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر :

«فملك سليمان قرطبة في دولته ست سنين وعشرة أشهر، وكانت كلها كما وصف ابن حيان : شدادا نكدات صعابا مشئومات، **كريهات المبدأ والفاتحة**، قبيحة المنتهى والخاتمة. لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور ولا فقد محذور. مع تغير السيرة وخرق الهيبة واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية وظعن الأمن وحلول المخافة. دولة كفاها ذما أن أنشأها شانجه فقشعها أد مقند، وثبتها الجلالقة ومزقتها الإفرنجة، ودبرها فاجر شقي ووزر لها خب دنى، فتمخضت عن الفاقرة الكبرى وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدنى (وأدهى ؟) مما طوى بساط الدنيا وعفى رسمها وأهلك أهلها.

«ولما تمت بيعته نفذت عنه كتب إلى نواحي الجزيرة بخبر **فتحه** قرطبة، وكانت موشحة بما توشح به كتب الفتوح الإسلامية على **أهل دار الحرب**، من وصف حال القهر وشدة السطوة والاقتدار على الفتك والاستباحة. فأفرط في ذلك إرهابا للناس بذكره وتخويفا لهم من مثله، فكان أجلب لنفار القلوب وقرف الندوب، وبعد الشرود ونبش الحقود، لما وتر جميعهم بالحادثة في قرطبتهم. فاستشعروا بغضب وانقادوا لكل من

عانده ورد أمره، من عبد أو حر، فزعا إليهم منه ويأسا من خير يجيئهم... فكان ذلك سببا في تفريق البلاد و**تملك** أصحاب **الطوائف..**» (62).

في سنة 404 هـ، شاع الخبر أن المستعين قتل هشاما المؤيد. فخرج إليه» على بن حمود الحسنى العلوى» بجنده البربر ـ وكان هشام قد عهد إليه بولاية عهده لما رآه من اضطراب أمره وما منى به قديما وحديثا من تمالؤ بنى عمه، آل الناصر، عليه وقيامهم واحدا بعد الآخر في خلعه ـ

«واقتتلوا فانهزم سليمان وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه وسيقوا أسارى إلى علي بن حمود... فضرب عنقه بيده. وظهر منه جزع شديد عند ملاحظته السيف خارت منه قواه فجثا على ركبتيه. ثم ضربت عنق الشيخ أبيه وعنق عبد الرحمن ابنه. وجعلت الرؤوس الثلاثة في طست وأخرجت من القصر إلى المحلة، ينادى عليها : هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد..» (63).

وتكرر المشهد، بصورة أو بأخرى، إلى النهاية الفاجعة لدولة بني أمية بالأندلس.

أعلن نعيها من قرطبة، في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة سنة 422 هـ، وقام ملوك الطوائف....

---

62 ـ 63) الذخيرة : ق 1. 25/1، 29 نقلا من ابن حيان.

مؤرخ قرطبة والأندلس

ـ في مركز الأحداث.

ـ مع ملوك الطوائف.

وصح من فهمي لابن حيان وتارخ الأندلس، بقاؤه في قرطبة، لم يبرحها مع كثير غيره، في زلزال الفتنة، وذيولها الفاجعة.

لم يكن بقاؤه في قرطبة حفظا لذكريات عهده بها أيام عز الخلافة ونضرة «المملكة المؤثلة». مولده بها كان في سنة 377 هـ والخليفة الشرعى «هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر» سجين في قصره ليس له من الخلافة إلا اسمها، محجوب عن الدولة والرعية بالحاجب المنصور، مغلول الحركة غير مسموح له بالركوب ولا بالاجتماع بأحد إلا بجواريه.

وتوفي المنصور أعظم ما كان ملكا وجاها، سنة 393، وأبو مروان حيان بن خلف بن حيان في السادسة عشرة من عمره، لم يتهيأ بعد لتدوين التاريخ. فلما احتشد له كانت مروياته في المنصور وعظمة دولته، عن والده أبي حيان خلف، كاتب المنصور، وعن شيوخه وطبقتهم.

من عهد المظفر ابن المنصور، بدأ ابن حيان تدوين ما كان فيه شاهد رؤية وسماع لأخبار الدولة العامرية التي ذكر في مقتل الوزير ابن القطاع

سنة 397 بسيف المظفر، الرؤيا التي أولت ببين العامرين و«صدقت بعد مديدة» بقتل المأمون عبد الرحمن بن المنصور، ثالثهم وآخرهم، سنة 399 هـ.

ولم ينفرد ابن حيان القرطبي بعشق قرطبته، دون سائر من خرجوا منها، كلهم لها عشاق، يستوي في هواها من أقام بها ومن نزحوا إلى أطراف نائية أكثر أمنا. وما عدموا أن يكونوا ادخروا مالا للسنوات العجاف، كابن حيان وأبيه.

الذى صح لى فهمه، أن طبيعة عمل (المؤرخ) أمسكته إلى قرطبة، وفيها كانت الفتنة الحالقة سنة 399 هـ، وفيها كذلك تقرر مصير الأندلس بإسقاط دولة الخلافة الإسلامية، ومنها أعلن ابتداء قيام ملوك الطوائف.

وقرطبة التي كانت أيام عز الدولة، «بساط الدنيا وجنة الأرض، وكرسي الجماعة وحاضرة الخلائف العظام الأئمة» ظلت بعد سقوط الدولة الأموية كبرى الحواضر الأندلسية، ومركز الأحداث ومتجه مسارها، ومطمح ملوك الطوائف ومرمى بصر العدو.

لهذا ما كان مقامه في قرطبة، لم يجر من هنا إلى هناك وهنالك، وراء كائنة تقع في تطيلة أو طليطلة، في سرقسطة أو اشبيليه، على نحو ما يفعل الصحافيون، يلهثون وراء الأخبار، كل همهم تسجيل «أحداث الساعة» لا يشغلهم عنها تفكير فيما مضى قبلها أو ما هو آت. بل لزم موقع «المؤرخ» يبصر الأحداث والوقائع حيث تكون، في اتجاهها إلى قرطبة، ويتقى تشتت وعيه لمنطق الوقائع، وتشتت بصره لمسار حركة التاريخ ما بين أمس واليوم والغد.

وقد أراه كان يؤرخ للأندلس في تاريخه لقرطبة التي فرضت حضورها على كل ما قرأت له، وأحسست بها ملء وجدانه : تاريخها وعمرانها، ملوكها وأعلامها، وما يتصل بها أو يصل إليها بسبب. ومنها كان مطله على ملوك الطوائف في الثغور القريبة والبعيدة، بمرمى العدو المتربص بفلول دولة الإسلام بالأندلس، يشق سبيله إلى قرطبة سربا.

ولعلي أفرغ لإمعان النظر في هذا الوجه لتاريخ الأندلس لابن حيان القرطبي، تجريدا واستقراء، إذا أذن الله تعالى وأعان.

مع ملوك الطوائف :

عاش أبو مروان ابن حيان القرطبي في ظل ملوك الطوائف، ما يقرب من نصف قرن : الشطر الثاني من حياته، عصارة العمر وخلاصة النضج والتجربة، وحصاد السنين.

وأرخ في (المتين) لنحو أربعين سنة من عصرهم البغيض «المؤذن بوشك القلعة» كان فيها شاهد العصر رؤية وسماعا.

موقفه منهم يبدو مشوبا بغموض، فيه من ظاهر التناقض ما تعقب عليه وعد من سقطاته التي لا يتأتى له فيها عذر ولا تتوجه حجة (تمهيد المقتبس 48 ـ 49).

فكان علي، بعد هذه الصحبة الطويلة له فيما قرأت من تاريخه، أن أستوضح الرؤية لهذا الموقف، لما يلقى

من ظل على شخصية «المؤرخ» وماذا يكون بغيرها ؟
وهز الثقة في (متينه) تاريخ عصره الذي هو فيه حجة
من أثبت مصادره.

فمع الذائع المعروف من سوء قالته في ملوك الطوائف، وقهره وأساه لما تفرق من شمل دولة الإسلام بالأندلس، ثبت بنص ما نقل ابن بسام من خط ابن حيان في ديباجة تاريخه الكبير. أنه أهداه إلى المأمون يحيى ابن ذى النون ملك طليطلة، وزفه إليه بغاية الاحتفال والحمد والثناء، قال في هذا الإهداء لتاريخه :

«... وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى وخبأه لولدى، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادى به إلى ذمى ومنقصتى، طويت على ذلك كشحا وأمضيته عزما. إلى أن رأيت زفافه إلى ذى خطبة سنية أتتنى على بعد الدار، أكرم خاطب وأسنى ذى همة : الأمير المؤثل الإمارة، المأمون ذى المجدين الكريم الطرفين، يحيى ابن ذى النون» (64).

وسبقت الإشارة إلى اعتزازه بخطة إملاء الذكر في ديوان أبي الوليد ابن جهور بقرطبة، ثاني ملوكها الجهوريين، نقل ابن بسام من خطه :

«قال أبو مروان ابن حيان : وكنت ممن جادته سماء هذا الرئيس الثرة، وكرم في فعله ابتداء من غير مسألة فأقحمنى في زمرة العصابة المبرزة الخطط، مع كلال الحد وضعف الآلة... واهتدى لمكان خلتى وقد ارتشف الدهر بلالتى، بأن قلدنى إملاء الذكر في ديوان السلطان، المطابق لصناعتي اللائق بتحرفى، براتب واسع» (65).

---

64) الذخيرة، ق 1 : 88/2.

65) الذخيرة، ق 1 : 118/2.

وفي الأخبار عنه، أن ملوك الطوائف، بعامة، كانت تهاديه، وأن طائفة منهم استهدوه تاريخه وأجزلوا له العطاء :

حكى «ابن سعيد» أن عبد الملك بن أبي الوليد ابن جهور، حلف أن يسفك دم ابن حيان لقوله أن أبا الوليد لا يصلح لهذا الأمر. فأحضر أبو الوليد ابنه عبد الملك وقال فيما قال : «والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن فيه سواك. أتريد أن يضرب بنا المثل في سائر البلدان بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا، مع أن ملوك البلاد القاصية والدانية تداريه وتهاديه ؟» (66).

وقال أبو الحسن ابن بسام :

«ولما تحدث بتاريخه في ملوك الطوائف بأفقنا، استشرفت طائفة منهم إلى مطالعة غرره، وعدوها من فرص العمر وغرره، واهتزوا لقطف زهره. واستهدوه إياه وأجزلوا على ذلك قراه» (67).

رجعت البصر فيما كتب «أبو مروان» قبل عصر ملوك الطوائف بعشرين سنة وأكثر، فإذا كل ما حدث من نوازل، قد توقعه وأنذر به، لم يأخذه شيء منها على غرة.

كان في عنفوان شبابه عند منبعث الفتنة المبيرة سنة 399 هـ، فألقى قلمه في ذهول الصدمة، ثم ما لبث أن استأنف ما انقطع من تأريخه. بمجرد أن زايله ذهول الصدمة. فذلك قوله في خطبة تاريخه الكبير، بعد ذكر ما اشتغل به من طلب الخبر واقتفاء الأثر :

---

66) المغرب لابن سعيد 177/1 والنقل هنا للدكتور مكي في تمهيد المقتبس : 45.

67) الذخيرة، ق 1 : 84/2.

«.. وأنسأتني المدة إلى أن لحقت يدي منبعث هذه الفتنة الشنعاء المدلهمة **المفرقة للجماعة الهادمة للمملكة المؤثلة**، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية. ففاضت أهوالها تعاظما أذهلني عن تقييدها ووهمني ألا مخلص منها، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها نفس الخناق وبلل الرماق، فاستأنفت يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها...» (68).

وفيما سبق من تأريخه لوقعة قنتيش في الحادي عشر من شهر ربيع الأول سنة 400 هـ، وبيعة المستعين بالله إثرها في منتصف الشهر، وطأ لأيام المستعين، وللمرحلة كلها، بأنها «تمخضت عن **الفاقرة الكبرى** وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى، مما طوى بساط الدنيا وعفى رسمها وأهلك أهلها...» ثم ذكر ما كان من كتب المستعين إلى نواحي الجزيرة «بخبر فتحه قرطبة، موشحة بما توشح به الفتوح الإسلامية على أهل دار الحرب من وصف حال القهر وشدة البطش والاقتدار على الفتك والاستباحة، إرهابا بذكره وتخويفا من مثله» وختم التوطئة بهذه الجملة الصادعة :

«فكان ذلك **سببا** في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف» (69).

لا شيء إذن مما حدث من تفريق الجماعة وهدم المملكة المؤثلة، لم يتوقعه من قبل وينذر به، وما كان في استطاعته ولا في استطاعة أحد من ملوك الطوائف وغيرهم، أن يغيروا مجرى سنن ثابتة لا تتبدل، فيمنعوا انهيار بنيان يريد أن ينقض، «وإذا قضى الله أمرا سبب له الأسباب» كما قال (70).

---

68) الذخيرة، ق 1 : 86/2.

69 ـ 70) الذخيرة، ق 1 : 25/1، 398/1.

وقعت الواقعة وهو مكتمل الأشد في الخامسة والأربعين من عمره، فلم تذهله الصدمة ويعطل التاريخ كا عطله في شبابه إبان الفتنة المدلهمة الشنعاء، وبقى في قرطبته يرصد الوقائع ويتابع التاريخ..

هل لي أن أقول إنه، وقد تمزقت الدولة وتفرقت الجماعة وانهار بنيان المملكة المؤثلة، تشبث برجاء في إمكان إنقاذ البقايا المبعثرة ؟

ما أرى ذلك بعيدا، فليس من طبيعة الأشياء أن ينفض يده تماما من بقايا عزيزة غالية، فيها رمق من حياة، لم تخرج من أيدي المسلمين إلى قبضة العدو؛ ولا من منطق التاريخ، وهو علمه، أن يعطل التاريخ ولم تتعطل شعائر الإسلام في حواضر ملوك الطوائف ولا أبدلت كنائس بالمساجد.

وأعانه على مغالبة اليأس، أن كانت الطبقة الأولى من ملوك الطوائف، مستهل عصرهم، مرجوين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا المملكة المؤثلة والدولة الجامعة.

ليس فيهم من هو من شذاذ الآفاق المغامرين أو السفلة الأدنياء المنبوذين، بل كانوا من ذوى القدمة والجاه والرياسة في بلدانهم. وتاريخ الأندلس يحفظ لأوائلهم مشاهد ومآثر، وعزة ومهابة، طواها أن حملوا إصر الفاقرة الكبرى، وتبعة كارثة الضياع في «القلعة» بعد أكثر من ثلاثة قرون.

مع الطبقة الأولى من ملوك الطوائف : بنى جهور بقرطبة وبنى ذى النون بطليطلة وبنى عباد بأشبيلية، كان تعامل «أبي مروان ابن حيان» غير مغلوب الرجاء. يؤرخ لهم بنزاهة وأمانة، ويثنى على مكرماتهم، فيشكر لأبي الوليد ابن جهور أن ولاه خطة إملاء الذكر في الديوان، دون مسألة، براتب واسع. ثم ينكر من أمره ما حمل ابنه عبد الملك على توعده بالقتل.

وزف إلى «المأمون يحي ابن ذى النون» تاريخه الكبير، عرفانا بجميل ما أسدى إليه من خطبة سنية أتته على بعد الدار، ثم كان مع القرطبيين حين سخطوا عليه حصار قرطبة، لما استعان به عبد الملك بن أبي الوليد ابن جهور، في صراعه مع أخيه بعد موت أبيهما. وأثنى على «المعتمد ابن عباد» أن سارع إلى نجدة أهل قرطبة ففك الحصار عنها، ثم أنكره مع القرطبيين حين احتل قرطبتهم وضمها إلى مملكته.

ولعل تبدل موقف «أبي مروان ابن حيان» من هؤلاء الملوك، علامة انحدار عصرهم الكريه إلى الهاوية، وقد أعشى أبصارهم وهج نيران الفتن التى سعرتها المطامع والأحقاد، شغلتهم بأنفسهم عن العدو المتربص بهم، ثم استعدوا به على أهليهم يهلك بعضهم ببعض، فأنالوه بأيديهم ما لم يكن لينالا منهم غصبا...

خلاصة :

«البدايات عنوان النهايات» ابن حيان

رحم الله أبا مروان ابن حيان، توفى في قرطبته سنة 469 هـ، فلم يشهد بعينيه تساقط الحواضر الإسلامية واحدة تلو الأخرى، كعقد حل نظامه، في الطريق إلى قرطبة التي قاومت طويلا إلى أن سقطت في الحادى والعشرين من شوال سنة 636 هـ لم يبق بعدها سوى غرناطة التي عاشت بآخر رمق للحياة من دولة الإسلام الكبرى، عصيت به على العدو قرونا، إلى أن سقطت في اليوم الثانى من شهر ربيع الأول لسنة 897 هـ.

وانتهت دولة الإسلام بالأندلس...

لكن أبا مروان، كتب عليه أن يشهد بداية النهاية في وقعة بربشتر سنة 456 هـ، فكتب عنها وهو يستبصر على المدى البعيد مصير الأندلس إلى «القلعة» في النهاية الفاجعة. والبدايات عنده عنوان النهايات.

من تأريخه للوقعة، في نقل النفح، أنقل هذه **الخلاصة**، تعويضا عما قصر به البحث، وضيق مجاله عن استيعاب ما قيدت من شواهد.

«قال ابن حيان : وكان تغلب العدو، خذ له الله تعالى، على بربشتر قصبة بلد برطانية، وهي تقرب من سرقسطة، سنة ست وخمسين وأربعمائة، وذلك أن جيش الأرد مليش نازلها وحاصرها، **وقصر** يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها، ووكل أهلها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يوما...» ويعد وصف مروع لأحداث الوقعة وما كان من إعطاء العدو الأمان لأهلها، ثم غدره بهم قتلا وأسرا وسبيا، واقتسام علوجه دور البلد بمن فيها من أهلها، وما فيها من متاع، قال : «وكان الفرنج، لعنهم الله تعالى ، لما استولوا على أهل المدينة يغتصبون البكر بحضرة أبيها والثيب بعين زوجها وأهلها... وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة. ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الحسان، ألوفا عدة ليهديهم إلى من فوقه. وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة، ومن الرجالة ألفين.

«قال ابن حيان : **وأختم** هذه الأخبار **الموقظة** لقلوب أولى الألباب بنادرة منها يكتفى **باعتبارها عما سواها** : وهي أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة، ملتمسا فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها، حصلن في سهم قومس من الرابطة فيها، كان يعرفه. قال : (فهديث إلى منزله فيها واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا في نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كا خلفهما ربها يوم محنته، لم يغير شيئا من رياشها وزينتها، ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته. فرحب بي وسألني عن قصدى فعرفته وجهته وأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتى على رأسه، وفيهن كانت حاجتى.

فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فين عرضناه عليك ! أعرض عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سبي وأسراى من أقاربك، فمن شئت منهم. فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أنست وفي كنفك اطمأننت، فسمنى ببعض من هنا فإنى أصير إلى رغبتك.

فقال : كأنك تشهينى ما ليس عندى ؟ يا باجه - ينادى بعض أولئك الوصائف، يريد : يابهجة، فغيره بعجمته - قومى فاعرضى عليه ما في ذلك الصندوق. فقامت إليه فأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلى، فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت توارى شخصه. ثم قال لها : أدنى إلينا من تلك التخوت. فأدنت منه عدة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر، مما حار له نظرى واسترذلت ما عندى. ثم قال لي : لقد كثر هذا عندى حتى ما ألذ به. ثم حلف بإلهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ما سمحت بها يدى، فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه، اصطفيتها لمزيد جمالها، لولادتي، حسبما كان قومها يصنعون

بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد رد لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه. وأزيدك علما بأن تلك الخودة الناعمة ـ وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية ـ مغنية والدها كانت **تشدو له على نشواته إلى أن أيقظناه من نوماته.** يا فلانة، يناديها بلكنته : خذى عودك فغنى زائرنا بشجوك. قال : فأخذت العود وقعدت تسويه وإنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها فتسارق العلج مسحه. واندفعتْ تغنى بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العلج، فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه وأظهر الطرب منه. فلما يئست مما عنده قمت منطلقا عنه، وارتدت لتجارتى سواه. واطلعت، لكثرة ما لدى القوم من السبى والمغنم، على ما طال عجبى به). فهذا فيه مقنع لمن تدبره، وتذكر لمن تذكره.

«قال ابن حيان : (قد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة مصائب **جليلة مؤذنة بوشك القلعة،** طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه قبلهم من اثارة. ولا شك عند ذوى الألباب أن ذلك (71) مما دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة، فأصبحنا من (72) استشعار ذلك والتمادى عليه، على شفا جرف **يؤدى إلى التهلكة لا محالة).**

وذكر بعده كلاما في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس، وأنهم «يعللون أنفسهم بالباطل. وأن من أدل الدلائل على جهلهم، اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية نبيهم وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم، يجوس خلال ديارهم ويستقرىء بسائط قلاعهم ويقطع كل يوم طرفا ويبيد أمة. ومن لدينا وحوالينا من

---

71) في س : (ولأشد مما أفشينا عند أولى الألباب. ما أخفيناه مما دهانا).

72) في س : (وأصبحنا).

أهل كلمتنا صوت عن ذكرهم **لهاة عن بثهم**، ما أن يُسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر لهم أوداع، فضلا عن نافر إليهم أو ماش لهم، **حتى كأنهم ليسوا منا، أو كأن بثقهم ليس بمفض إلينا.** وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالغناء. عجائب فاتت التقدير وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور. انتهى» (☆).

وقال قبله : إن بربشتر هذه تناسختها قرون المسلمين من ثلثمائة وثلاث وستين من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس، فرسخ فيها الإيمان وتدورس القرآن. «إلى أن طرق الناعي بها **قرطبتنا** صدر رمضان من السنة، **فصك الأسماع** وأطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة، وصير لكل شغلا يشغل الناس (73) في التحدث به والتساؤل عنه والتصور لحلول مثله، أياما لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل والاغترار (74) بالأمل والاستناد إلى أهل الفرقة الهمل (75)، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم وضوح الدليل. ولم تزل آفة الناس مذخلقوا، في صنفين هم كالملح فيهم : الأمراء والفقهاء : بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون. فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه، من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء

☆) الفقرتان أ. ب نقلها الدكتور مكي في عقيدة ابن حيان وآرائه السياسية من (تمهيد المقتبس 120) من مخطوطة للذخيرة بمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد وساقها فيها بتقديم ب على أ، ويفهم ذلك من مساق المقرى في النفح. ومع خلاف في ألفاظ نبهت على أهمها، مقابلة على رواية النفح (574/2 ـ 576) والحرف (س) لنقل الدكتور مكي من ذخيرة ابن بسام.

73) في س : (صير للكل شغلا تسكع الناس).

74) في س : (والاعتزاز بالأمل).

75) في س : (والاسناد إلى أمراء الفتنة الهمل).

القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق ذيادا عن الجماعة، وجريا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صُدوف عما أكده الله تعالى عليهم من التبيين، قد أصبحوا ما بين آكل حلوائهم (76) وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذ في التقية من صدقهم (77)، وأولئك هم الأقلون فيهم. فما القول في أرض فسد ملحها الذى هو مصلح لجميع أغذيتها، وما هي الا مشفية من بوارها (78) ؟ ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق وتعلية الأسوار وشد الأركان وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوأى من القائهم يومئذ بأيديهم إليه، أمورا (79) قبيحات الصور مؤذنات الصدور بأعجاز الغير :

أمور لو تدبرها حكيم إذن لنهى وحبب ما استطاعا» (80).

☆ ☆ ☆

النص من أواخر ما قرأت لابن حيان في النقول من تاريخه، كتبه وهو يستدبر الحياة في الثمانين من عمره، وهو فيه، على ما استهل به في ريعان شبابه، خطبته لتاريخه الكبير :

«وبعد فإنى امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر، واقتفاء هذا الأثر، أحرس شارده وأقيد نافره، وأبيت بأبوابه وأنصب لطلابه. فشغلت به دهرا وفجرت

---

76) في س : (ما بين آكل من حلوائهم).

77) في س : (آخذ بالفتنة في صرفهم).

78) في س : (هل هى إلا مشفية على بوارها واستئصالها ؟).

79) في س : (بأيديهم إليهم، أمور).

80) في س : إذن لنهى وهبب ما استطاعا.

منه نهرا، صيرني تربا لعدنان وزماما على الحدثان : أقصى أنباءه، وأضرب أمثاله، وأحصى وقائعه، وأحترز مواعظه...»

فهل يختلف ما حدث بعد رحيله سنة 469 هـ، إلى القلعة المستأصلة سنة 897 هـ، عما وصف هنا، يوم بربشتر، وعلل وفسر، وحذر وأنذر ؟

«لا الآخر بما انتهى إليه من الأول معتبر، ولا الغابر بما مر على الماضي مزدجر : حكمة بالغة فما تغن النذر» (81).

☆ ☆ ☆

توصية ورجاء :

لعل هذه الخلاصة، مع ما سبقها من عرض متواضع، توطىء لما أتقدم به إلى ملتقانا، هذا المشهود برباط الفتح، من توصية، ورجاء :

التوصية :

تتجه إلى ما تعلق به الدارسون قبلي، من استكمال ما غاب عنا أو ضاع من متن المقتبس، و«إعادة بناء المتين» من نقول المتأخرين منها.

وإن وردت عليها ملاحظات :

● أيسرها أن نقولهم مبعثرة مشتتة ، لا أعني في الكثرة من مصنفاتهم، بل من جهة إيراد ما هو عند ابن حيان في موضع واحد، في مواضع متفرقة

---

81) من خطبة تاريخه الكبير، نقل ابن بسام من خط ابن حيان، في الذخيرة، ق 1 : 86/2.

متباعدة من المصنف الواحد، تبعا لنهجهم في التصنيف. وبيانا لذلك، أذكر مثلا أن كتاب هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بولاية عهده للمأمون شنجول ابن المنصور ابن أبي عامر، أورده ابن بسام في المختار من (رسائل أبي حفص ابن برد الأكبر) مع ترجمته بالذخيرة، في غير سياق خبر الكتاب لا من قبل ولا من بعد. وذكر خبر بيعة المستكفي بالله، عرضا، في مقتل المرتضى بالله أول الذخيرة، ثم بعد مئات من الصفحات، ترجم للمستكفي وذكر سوآته وصغاره وقبح فجوره ـ نقلا من ابن حيان ـ بعد ترجمة ابنته ولادة، التي جاءت عرضا، كذلك، لمناسبة ذكرها مع ابن زيدون في ترجمته.

و(نفح الطيب) عامر بالنقول من المقتبس، وأخبار الدولة العامرية، وبعض المتين : مقطعة السياق متباعدة الإيراد، على المعروف من نهج «المقرى» في الاستطراد الطويل لأدنى مناسبة، والاستطراد منه بين حين وآخر، مما يباعد ما بين أول النقل من موضع عند ابن حيان، وآخره.

● النقول من مقتبس ابن حيان، تأتي غالبا مما «قال ابن حيان» بإسقاط مصادره التي لم يخل منها أي خبر من مروياته فيما وصل إلينا من مقتبسه، وذلك يقتضي معاناة مراجعتها في المعروف لنا من مصادره، ثم في مظان المصادر الأندلسية لمروياته، أو عند المتأخرين ممن نقلوا الأخبار المرسلة من مصادر عينوها.

وجه الضرورة في ذلك، توثيق مرسلات النقول، وضبط سياقها في متن المقتبس وفي النقول منه، والاستئناس بها في الترجيح بين ما اختلفت فيه الروايات والنقول، ولأمن اللبس فيما يوهم العزو إلى ابن حيان، كالذى نقلته مثلا من خبر عقد المصاهرة بين قومس برشلونة وقومس قشتالة في

حضرة سرقسطة الإسلامية، باتفاق مع واليها منذر بن يحيى التجيبي، استند إليه مستشرقون فيا نوهوا بـه من عجيب إحـاطـة ابن حيـان بـدقـائق من تـاريـخ اسبـانيـا المسيحيـة (تمهيد المقتبس 100) والخبر في متن المقتبس بين أيدينا، رواية ابن حيان عن صديقه «أبي أمية ابن هشام القرطبي» هو الذي شهد اجتياز شانجه ببلدة تطيلة، ووصف عسكره وشخصه ومجلسـه، بتفصيل ودقة. وحدث أبا مروان ابن حيـان بـه. وكالتنويـه ببراعـة الحوار وحيويـة الإخراج وحبكة الصياغة لقصة مهلك نصر الخصى الكبير، يوهم أن ذلك كله لابن حيان. وقـد نقلنـاه من متن المقتبس، روايتـه أولا بلفـظ أبي بكر ابن القوطيـة في كتـابـه، ثم عقب عليهـا ابن حيـان بروايـة الحسن بن محمد بن مفرج، نقلا من كتابه بنصه.

● النقـول من المقتبس والمتين، تـأتي غـالبـا مختصرة ومقتضبـة. صرح بذلك ابن بسام في خطبة الذخيرة وفي مـدخلهـا، وهو أهم نـاقل من (المتين) والاختصـار هـو الغـالب على نقـول أبي الحسن ابن سعيــد في المغرب، وابن خلدون في العبر، والشهاب المقرى في النفح. والاختصار على أي حال يفيـد المضمون، إلا أن تأتى النقول من ابن حيان مدرجة مع أقوال لآخرين، أو مما «قـال ابن حيـان وابن سعيـد، وابن خلـدون...» وهو كثير في نفح الطيب، على وفرة النقول فيه من المقتبس وأخبار الدولة العامرية بخاصـة، ممـا يشق معه، ويعسر، استخلاص مـا لابن حيـان ممـا لغيره، دون مراجعـات مجهـدة لكتب الآخرين، ومنها ما ليس بين أيدينا...

أردت بهـذه المـلاحظـات، التنبيـه إلى مشـاق هـذه الخـدمـة الجليلـة ومصاعبها، وبيان قيمتها وجدواها. مع الثقة في أنها ستجد من شباب العلمـاء المغاربة من ينهض بها على أصح منهج وبأسخى بذل.

ومعها مما أرجوه من عطاء هذا الملتقى، أن يكون لما يقدمه السادة الزملاء من دراسات وبحوث جديدة في أبي مروان ابن حيان، ما يوجه الرأى العام للمشتغلين منا بنشر مخطوطات من تراثنا أو دراسات فيها، إلى الحذر والتأنى فيا نتعجل إصداره من أحكام قاطعة مطلقة، استنادا إلى ما وصل إلينا من تراث في الموضوع الذي نشتغل به، دون اعتبار بما لم نطلع عليه أو لم يصل إلينا، ولعل فيه ما يرد على كثير من أحكامنا أو يقيد إطلاقها.

«ابن حيان» مثلا : غاب عنا تراثه طويلا، وسبقه إلينا «ابن خلدون» في تاريخه، وفي مقدمته الجليلة، والتعريف به ورحلته شرقا وغربا، فقطعت جمهرة دارسيه من المستشرقين ثم العرب، بأنه فيلسوف التاريخ غير منازع، ومفخرة العرب الفذة، وإمام مؤرخيهم على الإطلاق. ومنذ أكثر من ربع قرن، في سنة (1355 هـ ـ 1936 م) صدرت الطبعة المصرية المتداولة من تاريخه (العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) الطبعة مصدرة بمقالات لخمسة من أعيان الأساتذة والشيوخ، ليس فيها جميعا أى ذكر لأبي مروان ابن حيان، أو إشارة إلى تاريخه الكبير الذي ينقل منه ابن خلدون في مواضع من عبره.

وغنى عن البيان، ما نحفظه لابن خلدون من سبقه إلى وضع نظرية علم التاريخ، وقوله في مقدمته : «إن فن التاريخ محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها إلى الحق وينكبان به عن الزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع

الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالغـائب، فربمـا لم يؤمن فيه من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصواب».

وجهلنا «أبا مروان ابن حيان»، لغياب تراثـه عنـا إلى أمس القريب، فلم ندر أنه سبق ابن خلدون، بأكثر من أربعـة قرون وثلث قرن، إلى تقرير علمية التاريخ وتأصيلها في تاريخه الكبير: منهاجا وتطبيقا.

ويصدق على آخرين من سلف لنـا أئمـة، مـا يصـدق على «أبي مروان ابن حيـان، وابن خلـدون» في أحكام نطلقهـا بـالسبـق والتفرد، لمن نعرفهم، ولسنا ندرى ماذا لسابقيهم أو لمن بعدهم.

«وعلى الله قصد السبيل»

د. عائشة عبد الرحمن

طريقة ابن حيان في الكتابة التاريخية

د. إحسان عباس
الجامعة الأمريكية ـ بيروت

لعل أبرز ما يواجه قارىء ابن حيان قبل أن يتوغل في استقصاء سائر مميزات المؤرخ لديه ـ طبيعة أسلوبه، وهو أسلوب يمكن أن يوصف بأنه «متميز» على نحو ما وقبل الحديث عن العناصر التي تفرده بخصائص فارقة في موسيقى النظم وفي معالم ساطعة في المضمون ـ على حد سواء لا بد من تذكر ثلاث حقائق أولية :

1) ان ابن حيان كان كاتبا مترسلا، وقد أورد له ابن بسام (1) مقتطفات من رسائله خاطب بها بعض رجالات عصره مثل ابن عباد وابن زياد صاحب الصلاة وأبي القاسم ابن عبد الغفور والوزير أبي بكر بن زيدون، فهو قد شق لنفسه طريقة في الكتابة قبل أن يستبد به الميل إلى

---

1) الذخيرة 1 : 578 ـ 585

التاريخ، حتى أصبح عدو له عن طريقته الكتابية إذ هو «**أنشأ**» تاريخا أمرا عسيرا أو غير ضروري أو غير مستساغ في نظره.

2) انه «أنشأ» كتاب «المتين» في تاريخه للفتنة ولدول ملوك الطوائف، كما أنشأ «البطش الكبرى»، وهو كتابه الذي خصصه لتصوير نهاية الدولة الجهورية بقرطبة (2) ولعله جزء من المتين أو التاريخ الكبير، وهذا يعني ببساطة أنه لم يجد عند القيام بذلك ما يضطره إلى التخلي عن الطريقة التي وسمت كتابته، إذ كان يكتب مستعينا بتذكرة قيدها، أو عن مشاهدة أو عن استئناس بمحدث ثقة أو عن مذاكرة في مجلس «ولم يذكر أنه استعمل وثائق ديوانية».

3) انه «لم ينشىء» كتاب المقتبس، لأنه كان يأرخ فيه لفترة لم يشهدها ولا عايش من شهدها، فترة تمتد من فتح الأندلس حتى قبيل منبعث الفتنة، يتكىء فيها ـ في الأغلب ـ على مؤرخين سبقوه وعلى وثائق محفوظة في خزائن الدولة، وعلى بعض شهود السماع فهو في الجملة يتكيء على أساليب مختلفة حين ينقل عن الرازيين وابن القوطية وابن الفرضي وابن عبد ربه وابن مفرج وابن عبد البر ومعاوية الشباني ومحمد ابن حارث الخشني وغيرهم. ومن المفروض أن لا يسلم له أسلوبه الخاص إلا حين يستقل عن مصادره ويبعد عن تأثيرها. فلهذا ليس من الطبيعي أن يبحث الدارس عن خصائص ذلك الأسلوب في ما وصلنا من المقتبس وإنما عليه أن يعمد إلى رسائله الخاصة أو ما نقله ابن بسام من تاريخه الكبير، فإنه واجد فيهما ما يحقق غايته على نحو مقارب وإنما أقول «على نحو مقارب» لأن

2) الذخيرة 1 : 614

رسائله التي وصلتنا قليلة العدد، ولأن ابن بسام يصرح كثيرا وهو ينقل بأنه يتعمد الاختصار (3)، ولدى المقارنة بين نسخ الدخيرة المختلفة يجد المرء منها فئتين متفاوتتين : احداهما شديدة الإيجاز حتى لتضيع فيها المعالم المميزة لأسلوب ابن حيان، والثانية معتدلة في إيجازها، فهي لذلك أقرب إلى طبيعة الأصل (المقدر) من أختها.

ومن استقرأ ما تبقى من رسائل ابن حيان وتاريخه الكبير وجد أسلوبه ينبع عن موقفه وهو يمسك بقلم المؤرخ، وهذا يجعل أسلوبه يرتفع في الدرجة حين يتحدث عمن ينصر الجماعة أو من يقف موقفا بطوليا في الدفاع عنها، كما أنه يستعمل تعبيرات الذم الاخلاقي التي تنبىء على الادانة لكل من يقف ضدها أو من ينتزى عليها، ولهذا يكثر من استعمال ألفاظ : الملحد، الفاسق، الفسقة اللعين، الخائن، رأس المجرمين،... وما أشبه ذلك، ويتلذذ بتصوير انتصار الجماعة مثلما يرتاح إلى وصف اندحار أعدائها بأسلوب يقوم على المشاركة الإنفعالية، ويتصل بهذه الناحية حميته للدين وغيرته على المسلمين، وسأمثل على هذه الناحية بقطعة أوردها بعد أن وصف استيلاء الروم على بربشتر سنة 456 ففيها ستجد معظم عناصر أسلوبها النابعة من ذلك الموقف، يقول ابن حيان : «وقد أفشينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة، طالما حذر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من اثارة ولأشد مما أفشينا عند أولي الألباب ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع، وقد أخذنا بالتواصل والألفة، وأصبحنا من استشعار ذلك على شفى جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة، إذ قدر الله

---

3) أنظر مخطوطة الرباط رقم : 1275 (الخزانة العامة) : 156 ـ ففيها نقل عن شخص آخر اختصر تاريخ ابن حيان وهو عبد الرحمن بن عون الله.

زمانها هذا بالإضافة ما عهدناه في القرن الذي سلخناه من آخر أمد الجماعة على إدراك من لحق الذي قبله فمثل دهرنا فرس بهم الشية ما أن يباهي بقرحة فضلا عن شروخ غرة، قد غربل أهليه أشد غربلة، فسفف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفه أحلامهم وخبث ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل واقتطعهم الزيف واركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد باتقياء، ولا على معاني الغيب أقوياء، شاء من الناس هامل، يعللون أنفسهم بالباطل، من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه السلام ودهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى لظل عدوهم الساعي لاطفاء نورهم يتبجح عراص - يارهم ويستقرى بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفا منهم ويبيد أمة، ومن لدنيا وحولينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم ما أن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا ومحفل من محافلنا مذكر بهم أو داع لهم فضلا عن نافر اليهم أو مواس لهم حتى كأن ليسوا منا، أو كأن فتقهم ليس بفض الينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، بخلنا بالغناء، عجائب مغربة فاتت التقدير، وعرضت للتغير، فلله عاقبة الأمور وإليه المصير» (4).

تعد هذه القطعة قمة في تصوير الموقف الذي ذكرته : من حرص الجماعة وأسى للفرقة وانتصار للدين مما ينبىء عن روح عميقة من التدين، وقد توسل الكاتب للتعبير عن كل ذلك بأسلوب توافرت فيه المعالم التالية، أسردها حسب ظهورها.

---

4) الذخيرة 1/3 : 188 ـ 189

1 ـ الاستئناس بالتعبير القرآني «وأصبحنا من استشعار ذلك على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة... الساعي لاطفاء نورهم ولله عاقبة الأمور...» وهذا كثير لدى ابن حيان وخاصة في وصف المعارك، ومن أمثلته أيضا القوا إلى المشركين بأيديهم... إلا من نجا به أجله وقليل ما هم... لا يملك لنفسه ولا لهن صرفا ولا عدلا (5).

2 ـ اللجوء إلى عبارات تصور العودة إلى الفعل الإلهي وأثره في أحداث التاريخ من مثل : «إذ قدر الله زمانه... فلله عاقبة الأمور وإليه المصير» وهذا مبثوث على نحو كثير في كتاباته التاريخية من مثل : نظر الله إلى عباده وسلط عليه أضعف الخليقة حتى حكم الله بالظهور لأقل الطائفة عددا ليرى الله قدرته... (6) وذلك كله متصل بروح التدين التي عبر عنها بفساد الناس «لبعدهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية رسوله».

3 ـ استعمال التمثيل والصور الشعرية «فمثل دهرنا هذا فرس بهيم الشية... قد غربل أهليه أشد غربلة»، وهو كثير أيضا ومن أمثلته في مواطن أخرى : فأما غدره فالنار برأس اليقاع... فقدموا إليها كالقط القارب إرسالا دفتره الدف وتسبيحه السخف... (7).

4 ـ التكثيف بتتابع المتعاطفات أو المتوازيات : «فسفف أخلاقهم واجتث أعراقهم وسفه أحلامهم، وخبث ضمائرهم» وهو يعمد إلى هذا اللون الأسلوبي كثيرا حين يريد أن يعمق الإحساس بوضع أو موقف أو منظر، وله فيه تفنن متميز.

---

5) الذخيرة 183/3، 185، 528

6) الذخيرة 1 : 100 ـ 658

7) الذخيرة 1 : 181، 4 : 128، 1 : 591

5 ـ الركون إلى السجع إن جاء عفواً لا استكراها : «فسفف أخلاقهم، واجثث أعراقهم... شاء من الناس هامل، يعللون أنفسهم بالباطل... وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم وغفلتهم عن سد ثغرهم... فقد بخلنا عليهم بالدعاء، بخلنا بالغناء عجائب مغربة فاتت التقدير... الخ ولو قيس ابن حيان إلى كتاب عصره لكان في طليعة من لا يعتمدون السجع ولا يطلبونه، غير أن سجعه أكثر سطوعاً في رسائله الاخوانية، وفي بعض مواقف العبرة العميقة مثل قوله «وهذا زخرف من التسطير على غير حاصل، مراتب نصبت لغير طائل تنافسها طالبوها يئذ بالأمل فلم يحلوا منها بنائل (8) إلا أنه لا يلبث أن يبارح السجع إلى ما يؤثره من ازدواج.

6 ـ الاتكاء على المخزون الثقافي : «شاء من الناس هامل» فهو مستعار من قول منصور النمرى : (9)

شاء من الناس رائع هامل　　يعللون النفوس بالباطل

وهذا من أهم معالم أسلوبه، وإن كان لا يكثر منه إكثار الغالبية من كتاب عصره، ومن أمثلة ذلك لديه : «وتفرقت الظباء عليه وكان على أجل من الحرش (10). فهو يجمع بين مثلين تكاثرت الظباء على فراش، وهذا أجل من الحرش، ومنه قوله : «باتت تمخض له ليلة عن راغية البكر (11) مشيراً إلى قصة قوم صالح الدين رغا فوقهم سقب السماء وهكذا.

---

8) الذخيرة 1 : 51

9) الأغاني (دار الثقافة) 13 : 148 ـ 149

10) الذخيرة 1 : 40

11) الذخيرة 1 : 658

7 ـ الإرتياح إلى تصوير الجوانب السلبية في الفرد أو في الجماعة ومنـه في هـذه القطعـة انحـاؤه، بـالـذم على أهل زمـانـة : «فـاحتوى عليهم الجهل واقتطعهم الزيف وأركستهم الذنوب ووصمتهم العيوب...»، وقـد كان الأصل في هذا كله لا يمثل ميلا إلى الذم ـ تشفيا أو ارضـاء لروح هجـائيـة ـ وإنمـا هو، وخاصة في الحديث عن الأفراد، يمثل الدقة في إبراز جانبي الحسنـات أو السيئات. أو الأخذ الصارم بمبدأ التجريح والتعديل، وهو ما جعل ابن بسام يتهمـه بـالثلب، ولكن حين تـدبر الأمر نجـد من ابن بسـام إبرازا متعمـدا لجانب الثلب دون الجـانب الآخر، ولكن هـذا لا ينفى أن ابن حيـان كان نافذ النظر في رؤية العيوب، جريئا على ذكرها، ولو كان يستبيح اخفاءها لسكت عن عيوب ابن جهور أبي الحزم، ولم يـدونهـا بعـد أن شملـه ابنـه أبو الوليد بالإكرام.

هذه هي أهم السمات الأسلوبيـة التي تبرز في هـذه القطعـة كما تبرز في سواها فهي سمات عامة، ولكنها لا تمثل كل الخصـائص الأسلوبيـة لـدى ابن حيـان إذ أنهـا لا تبرز قـدرتـه الفـائقـة على التحليـل وإبراز صـور الصراع النفسي كما في قـولـه يصف العـلاقـة بين بـاديس بن حبـوس وزهير الفتي : «فآثر شفاء نفسه عن النظر لعاقبة أمره، واضمر الغدر، وقـدم العـذر، وأرسل رسول إلى زهير ملطفا في العتاب مستدعيا تجديد المحالفة، فسـارع زهير إلى ذلـك وأقبل نحو بـاديس إقبـال المستطيل عليـه، المصور لـه صورة اليتيم في جحره، المضطر إلى إتبـاعـه ومـوافقتــه، فصـار في تضييـع الحـزم والاغترار بالعجب، والثقة بالكثرة، والانخلاع من فضيلة الرأي وفائدة التجربـة، ضـدا للقصد الذي قصده، وآية للغابرين بعده، إذ جاء مدلا بجمعه وكثرته، أشبـه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى العـامل من عمـالـه، فقـد ترك رسوم الالتقـاء

بالنظراء المعهودة لـه ولمن قبلـه، من التوافق على المكان والإستظهـار بـآخر حدود الأعمال وغير ذلك من وجوه الحزم» (12). فهذه الفقرة لا تصور مدى فهم ابن حيان للأصول والقواعد السياسيـة في التعـامل فحسب، وإنما ترسم صراع نفسيته وتستبطن ما يجول فيها ولقد استعان الكاتب على بلوغ ذلـك بعناصر أشرت إلى بعضها في ما سبق ومنها التكثيف، ولكن هنـا لونـان من التكثيف مغـايران قليلا لما تقدم : هنـا تقوم المتـوازيـات على رص «أسماء الفاعل» متوالية : ملطفا... مستدعيا... اقبال المستطيل.. المتصور. المضطر، بحيث يجعل الجمل تتزاحم دون فرجة من راحة، كذلك هنا تكثيف المصـادر الصريحة التي لا يخفف منهـا التنويع (13)، تضييع.. اغترار.. ثقـة.. انخلاع، وبهذين اللونين من التكثيف يبدو أسلوب ابن حيان متعبا يعرض القـارىء إلى البهر، أن التكثيف يحمل في ذاتـه معنى «الايغـال» وهو لـون من ألـوان المبالغة أو الجنوح اليها، ويتبدى شغف ابن حيان بالمبالغة في التعبيرات التي تمثل أقصى الغاية في مثل قوله «فانكشفوا انكشـافـا لم يسمع بمثلـه...» فجـاء بفتكـة أسقطت كل من فتـك في الإسلام قبلـه.. وضرب بـأعلى سهم وأفـوز قدح في التجارة.. (14).

وقـد يلجـأ ابن حيـان في أسلوبـه إلى الاغراب : فيستعمـل عبـارات غريبة مثل : ابذعروا عباديد، النازلين في ضبنه، فـأبت نفسـه البخوع لـه، المتبنـك للنعماء... (15) لست أقـول أن هـذه ألفـاظ لا تجرى في الإستعمال، ولكنها ليست من المـألوف في الكتـابـة التـاريخيـة، كـذلـك يكثر من وزن

---

12) الذخيرة 1 : 656 ـ 657.

13) أنظر نموذجا لازدحام المصادر في الذخيرة 4 : 128 من قطعة في وصف الاعذار الذنوني.

14) الذخيرة 1 : 43، 187، 591

15) الذخيرة 1 : 658، 3 : 118، 18.

«استفعل»، وهذا يتصل بحرصه على التفرد بإبراز صيغ غير مألوفة أيضا مثل «ايراطه» بدلا «توريطـه» وأكثر ما يحـدث ذلـك في صيغ المصـادر والجموع. وكل ذلـك يشير إلى قـدرة لغـويـة فـذة وميـل إلى تطـويـع الألفـاظ في الاشتقاق، والقياس، وثروة معجمية بالغة.

مقطع القول في أسلوب ابن حيـان أنـه أدبي تصويري على حـظ كبير من القوة والجـزالـة وامتـداد النفس، والتفنن في اختيـار التعبير، واستطراف الألفاظ، والإغراب في اللفظ وطبيعة التركيب، إلى حد التوعر، وهذا يفضي إلى «صعوبة» أو شيء من غموض (16)، قد يكونان تحديا للقارىء وحفزا له إلى التأمل والتبصر في الجزئيات.

— 2 —

ليس من غـايـة هـذا البحث أن أتحـدث عن الصراع بين المـؤرخ والأديب لدى ابن حيان ولا أن أجيب على سؤال من يسأل : هل جاد هذا الأسلوب الأدبي على الـدقـة التـاريخيـة هل أضعف من روح الموضوعيـة أو شكـك في مـدى الانصـاف، ولكنني حين عرضت هـذه السمات الأسلـوبيـة المميزة التي وجدتها فيما «أنشأه» من تاريخ، وتمثلتها على الوجه الذي عرضتـه ذهبت استقرئها في التاريخ الذي كتبه نقلا عن مؤرخين سابقين، فوجـدت معظمها شـاهـدا هنـالـك، أعني في صفحـات الأجزاء المتبقيـة من «المقتبس» وليس من المستحسن أن أعيد ذكر جميع تلك السمات، موردا الأمثلة عليهـا، فذلك من قبيل التكرار، ولكني سأعرض هنا لبعضها رجاء أن يجزىء ذلـك عن ايرادها جميعا.

---

16) لست أتحدث هنا عن «الغموض» الذي يلازم نصوصا لابن حيان لانها لم تقرأ قراءة صحيحة.

1 ـ يجد قارىء المقتبس أن الحكم الاخلاقي والادانة الخلقية يواكبان ذكر المتزين على الجماعة، في مواطن متعددة، وها هو ابن حيان ينقل عن الرازى «فيها أهلك الله الخبيث عمر بن حفصون، جرثومة النفاق وإمام الضلالة، وكهف الخلاف وموقد نار الفتنة وملجأ أهل المعصية...» (17) (لاحظ التكثيف أيضا في حشد الصفات)

2 ـ كما يجد الإستئناس بالتعبيرات القرآنية من مثل : أرهقه وختم على قلبه، وأفاء الله عليهم مغانم كثيرة،... ثم إن الله تعالى زلزل أقدامهم... فأفرغ الله صبره عليهم وثبت أقدامهم... وأقبل بعض رؤسائهم على بعض يتلاومون...» (18) (وفي بعض هذه العبارات ادخال للفعل الالهي في مجال التاريخ).

3 ـ شيوع استعمال وزن «استفعل بكثرة» : فبادروا إلى الاستغلاق داخل حصنهم، والاستبلاغ في سحت العمارة، واستقوى عدته واستقوده على الجيش ثم استعزم على الايغال، واستندروا من كنف السلطان السعيد في أمنع الأذراء...» (19).

4 ـ التمويه بالمبالغة التي لا تحدد وإنما تهول : «في جيوش تغص بها السبل ويضيق عنها الفضاء الأوسع... في عساكر كعدد الحصي... بأنفذ عزم وأوكد حزم وأقوى نية... في أتم تعبئة وأهذب ترتيب... أرق ما كان في غلوائه وأطمع ما هو بالإحتواء على سلطانه، أرهب ما كان الناس له وأخوفهم لعدوانه...» (20).

---

17) المقتبس 5 : 138

18) المقتبس 5 : 154، 149، المقتبس (حجي) : 219، 236

19) المقتبس 5 : 172، 184، 187، 192، 184.

20) المقتبس 5 : 162، 190، 191، 192، المقتبس (مكي) 149

5 ـ الصور الشعرية : فنهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسد الحربة.... وجب بقهرهم غارب الفتنة... (21).

6 ـ الاغراب باستعمال ألفاظ أو صيغ غير مألوفة، مثل : وفروا إلى الأجبل الشمخ (بدل الجبال الشامخة)، ضخم الجزارة... لقيه كفاحا... وتوسط المأتط» (22).

7 ـ استعمال الأسلوب الرفيع (الملحمي) في وصف المعارك ومواطن الكر والفر : مثل «لحقته أريحية أثر حرك لها فرسه مجهدا له، إلى أن (حل في) سهب من الأرض لا يعرفه، فانطلق مالئا فروجه، فرداه في مهواة أقحمه اياها، فصرعه ورضه» (23)، ومثل قوله : «فدارت بينهم حرب عظيمة كأشد ما يكون بين المتحاربين، استحرث في الجلبة وتلظت، وصار المسلمون في صليها كرجل واحد في الارتقاء على المشركين والتنزى إلى قتالهم قد وطنوا على الموت وأخلصوا لله نياتهم، فأنزل الله صبره عليهم وأيدهم بملائكته وقذف الرعب في نفوس الكفرة...» (24).

هذه أمثلة وحسب، وهي قليل من كثير، ومعظمها منسوب إلى مصادر ينقل عنها ابن حيان، وهي تدفع المرء بقوة إلى أن يتساءل ما هو سر هذا التشابه وكيف يمكن تفسيره (مع تحفظ ضرورى في هذا المقام وهو أن كثيرا من صفحات الاجزاء المتبقية من المقتبس تهتم بتعداد الولاة والقضاة، وتعد صفحات لذكر حقائق مجردة لا يلائمها الأسلوب التحليلي أو

21) المقتبس 5 : 192، 212

22) المقتبس 5 : 164، 196، 197، المقتبس (حجي) :37

23) المقتبس 5 : 207

24) المقتبس 5 : 225

الوصفي المكثف، وأن هناك عددا من الوثائق والرسائل المقتبسة التي تعبر عن أسلوب كاتبيها).

إزاء هذه الظاهرة يستطيع الدارس أن يختار أحد موقفين : إما أن يقول أن هذا التشابه يدل على قسط مشترك بين ابن حيان والمؤرخين الذين ينقل عنهم، فهم مثله يحرصون على الجماعة ويدينون المنتزين عليها والواقفين في وجهها، وهم أيضا ذوو غيرة على الدين وروح دينية عميقة، وقد تأثروا بالقرآن ولديهم مخزون من محفوظ ثقافي، ولهم غرام بالتفرد الأسلوبي وهم يتأتون إلى ذلك بطرق مختلفة، ومن اختار ذلك لم يعدم أن يحس ببعض الوهن في الآراء التي يسند بها قضيتها، وإما أن يذهبا إلى أن «قال فلان» لا تعني النقل الحرفي عند ابن حيان، لا لأنه يحذف (فالحذف ضروري أحيانا وطبيعي في الوقت نفسه) وإنما لأنه يزيد شيئا من عنده على النص الذي ينقله، ويغيره بحيث يخرجه أقرب إلى أسلوبه، وهذه في حد ذاتها تهمة غير يسيرة الشأن، وخاصة إن كان بفعله هذا يتصرف تصرفا يخرجه عن مجال الحقائق التاريخية.

من أجل ذلك كله رأيت أن خير ما يوضح هذا الموقف، مقارنة ما نقله ابن حيان عن غيره بأصوله حيثما وجدت، فجمعت ثلاثة عشر نصا نقل منها واحدا عن طبقات النحويين واللغويين للزبيدى، وثلاثة عن نقط العروس لابن حزم، وثمانية عن تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، وواحدا عن تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي وقارنت نقل ابن حيان بأصول تلك النصوص ـ كما وصلتنا ـ وهذه هي النصوص المذكورة :

المقتبس : 13 ـ 14 (انطونية)

أبو محمد الأعرابي **الحجازي** : شكر ابراهيم (بن حجاج) يوما في مجلس حفله **على فضل أسداه إليه**، فقال في كلامه : تا الله أيها الأمير ما سيدتك العرب إلا بحقك ـ يقولها بالياء ـ فانكرها أبو الكوثر الخولاني وكان حاضرا فقال : يا أبا محمد ما **هذا الشذوذ** ؟ العلماء بالعربية عندنا لا يقولون إلا سودتك، فقال : يخطئون ويصحفون، السواد السخام فانتهر ابراهيم أبي الكوثر وقال : تتسورون على الاعراب في لغاتهم **وتعارضون من ينطق بالسليقية فخجل أبو الكوثر** وكتب بالخبر إلى يزيد بن طلحة العبسي (المعروف بالفصيح وكان من أشهر من بغربي الأندلس من العلماء بالعربية) فأجابه ان المعروف «سودتك» بالواو، وقال : فلعل ما ذكره الأعرابي لغة قومه، فعرض أبو الكوثر جوابه على الأمير ابراهيم **فلم يزدد الأعرابي بذلك إلا محكا ولجاجة، وشد شكيمته ابراهيم نصرة وعصبية** وأحضر يزيد ابن طلحة فوبخه وذهب إلى تثبيث قول الأعرابي، فقال له يزيد : أصلح الله الأمير ان بيان العلم ليس يجيء من جهة المغالبة، وإنما يصح بالانصاف واتباع الحقيقة، فليجبني أبو محمد عما أسأله عنه، قال الأعرابي : قل، قال يزيد : كيف تقول العرب : ساد يسود أو ساد يسيد ؟ قال الأعرابي : بل ساد يسود، قال يزيد : هذه الواو معها في الفعل فكيف تقول العرب : السؤدد أو السيدد ؟ قال : بل السؤدد، فقال يزيد : هذه الواو ثابتة في الإسم، ثم قال يزيد : أي منزلة عندكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الفصاحة؟ قال الأعرابي : فوق كل منزلة، قال يزيد : فقد تبث عندنا أنه قال تفقهوا قبل أن تسودوا، حديث لم يطعن فيه أحد **من النقاد** كما طعن في الأحاديث التي وقع فيها الغلط، فلج الأعرابي مع ذلك، كله وقال : يا أهل الأمصار ماذا صنعتم بالكلام ؟!

طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : 271 ـ 272 (طبعة ثانية)

أخبرني محمد بن عمر، أخبرني غير واحد ممن شهد ابراهيم بن حجاج وقد قال له أبو محمد الأعرابي العامرى شاكرا على شيء اصطنعه اليه : تالله ما سيدتك العرب إلا بحقك، فقال أبو الكوثر الخولاني ـ وكان حاضرا ـ يا أبا محمد العلماء عندنا بالعربية يقولون : سودتك، فقال السواد السخام يخطئون ويصحفون، فانتهره ابراهيم وقال : تتسور على الأعراب في لغاتهم فكتب أبو الكوثر إلى يزيد بن طلحة بالخبر فأجابه : المعروف «سودتك بالواو» ولعل ما ذكر أبو محمد لغة لبني عامر فلما وردت السحاءة على أبي الكوثر قال يا أبا محمد انكر الأستاذ ما ذكرت وحكى له قوله فصاح الأعرابي وهاج وبعث ابراهيم في يزيد، فلما حضر خرج عليه فقال له : أتتسور على الرجل في كلامه ؟ فقال له ابن طلحة : ان العلم ليس من جهة المغالبة ولكن من جهة الإنصاف والحقيقة، فليجبني أبو محمد عما أسأله عنه فقال له : سل، فقال يزيد : كيف تقول العرب : ساد يسود أو ساد يسيد ؟ فقال الأعرابي ساد يسود فقال يزيد هذه الواو معنا في الفعل، فكيف تقول العرب، السودد أو السيدد، فقال السودد فقال يزيد : هذه الواو ثابتة في الإسم، ثم قال : أي منزلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الفصاحة ؟ فقال الأعرابي : فوق كل منزلة قال يزيد : فقد ثبت عندنا أنه قال تفقهوا قبل أن تسودوا، وهذا حديث لم يطعن فيه أحد من علماء اللغة كما صنعوا في سائر الأحاديث التي وقع فيها الغلط، فلج الأعرابي وقال يا أهل الأنصار : ماذا صنعتم بالكلام !!

تعليق : هذان النصان متقاربان، وما بينهما من فروق لا يدل على تصرف ابن حيان في الأصل لإحراز مستوى أسلوبي خاص فيه، وكل ما صنعه فيه يتلخص فيما يلي :

1 ـ أدرج في نصه تعريفا بيزيد بن طلحة لأنه في حاجة إلى ذلك بينما الزبيدى يترجم لابن طلحة فلا يحتاج إلى هذه الزيادة.

2 ـ جعل الأعرابي حجازيا وهو عند الزبيدى عامري (وهو يتكىء في هذا على ابن الفرضي).

3 ـ غير في النص : «على شيء اصطنعه إليه» إلى : «على فضل أسداه إليه». كما غير من علماء اللغة «فجعل العبارة من النقاد» وبدلا من «فصاح الأعرابي وهاج» قال : «فلم يزدد الأعرابي بذلك إلا محكا ولجاجة».

4 ـ زاد في نصه العبارات التالية : ما هذا الشذوذ ـ وتعارضون من ينطق بالسليقية ـ فخجل أبو الكوثر ـ وشد شكيمة ابراهيم نصرة وعصبية (وهي كلها عبارات تفسيرية لا تغير بشيء في روح القصة نفسها).

5 ـ حذف ذكر السحاءة (وذلك مفهوم ضمنا).

المقتبس : 41 (انطونية)

وقد صرح الفقيه أبو محمد ابن حزم بذم هذا الأمير عبد الله... فذكر أنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع الذى كان يظهر من عفته، فإنه احتال على أخيه المنذر بن محمد على ايثاره اياه وواطأ عليه حجامه بان سم له المبضع الذى فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون فكانت منه منيته وتطوق دمه.

ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد آخر محمدا والد الخليفة الناصر لدين الله وأخاه عدوه المطرف.

ثم قتل أخوين له معا أيضا، قتل هشاما بالسيف والقاسم أخاه بالسم، إلى من قتله من غيرهم.

نقط العروس لابن حزم (الجزء الثاني من الرسائل).

المنذر : قيل سمه أخوه في مبضع فصد به (ص : 104).

عبد الله بن محمد : قتل ابنيه محمدا والمطرف (ص :88).

عبد الله بن محمد قتل أخويه هشاما بالسيف والقاسم بالسم (ص : 90).

تعليق : باستعمال ابن حيان لفظة «فذكر» أباح لنفسه ايراد المعلومات الموجزة التي أوردها ابن حزم في نقط العروس ومنحها ما يريده من التفصيلات، فابن حزم لم يقل ان الأمير عبد الله كان قتالا تهون عليه الدماء ولكن هذا مستنتج من طبيعة تصرفاته، ولم يذكر شيئا عن عفته، ولم يتحدث عن المكان الذى قتل فيه المنذر... الخ.

المقتبس (5 : 37)

وما كان عبد الرحمان الناصر لدين الله بالبعيد من جد جده الحكم ابن هشام في انهاكه في المعاصي والتباسه بالريب وعبثه في الرعايا واستهتاره باللذات وتغليظ العقوبات فهو الذي علق أولاد السودان في ناعورة قصره بدلا من الأقداس الغارفة للماء فأهلكهم واستركب رسيس الماجنة مضحكته في موكبه بسيف وقلنسوة وهي عجوز سوء فاجرة، إلى مناكير كانت له باطنة، الله أعلم بها.

نقط العروس الرسائل ابن حزم (2 : 76)

عبد الرحمان الناصر : وله تعليق أولاد السودان في الناعورة وركوب رسيس بقلنسوة وسيف في موكبه، قال أبو محمد : ورسيس هذه كانت امرأة من دار الخراج رفيعة مهيبة اتصلت بالناصر وخفت عليه حتى حمله ذلك على أن أركبها مكشوفة في موكبه بقلنسوة وسيف تقلدته، على بغل خلفه بينه وبين الأولاد في يوم سرور، وشق هكذا قرطبة على باب العطارين من الربض الغربي كله إلى الزهراء.

تعليق : يتلخص ما قام به ابن حيان ازاء نص ابن حزم هنا بما يلي :

1 ـ زاد على تعليق أولاد السودان، بأنهم وضعوا بدل الاقداس الغارفة للماء، وأن ذلك نجم عنه هلاكهم، وذلك ما لم يقله ابن حزم (وجعل الناعورة في قصره فحدد موقعها).

2 ـ وصف رسيس بأنها ماجنة مضحكة، بينما ذكر ابن حزم أنها كانت رفيعة مهيبة (لعلها رقيعة مهينة فيقارب ما يقوله ابن حيان).

ثم وصفها بأنها «عجوز سوء فاجرة» ولم يشر ابن حزم إلى سنها، أما قوله فاجرة» فإنه ترجمة لقول ابن حزم «امرأة من دار الخراج» وأسقط أنها كانت «مكشوفة» ولعله اكتفى بصفة «فاجرة» كا أهمل تفصيلات هامة ذكرها ابن حزم مثل أنها كانت على بغل، وأن اليوم كان يوم سرور، والطريق التي سلكها الموكب إلى الزهراء...

3 ـ أبهم على القارىء مهولا بقوله : «إلى مناكير كانت له باطنه الله أعلم بها» وهو شيء لم يرد له أي تلميح عند ابن حزم.

المقتبس (5 : 132)

سليمان بن عمر بن حفصون (المشهور بالبسالة) ثار على أبيه عمر بن حفصون (المنتزى على خلفاء بني أمية بكورة ريه من أرض الأندلس، فخالفه وامتنع عليه، ثم عاد لمثل ذلك) فامتنع بمدينة أبذة وحارب أباه عمر (وصمد له في القتال مواجها) فصب عليه سيفه وجرحه، فأعجب ذلك منه عمر أباه (إمام الفساق) وفخر به.

نقط العروس (الرسائل 2 : 89)

سليمان ابن عمر بن حفصون : قام على أبيه بأبذة وحاربه وصده، وكان أبوه يعجبه ذلك، ضرب أباه بالسيف في بعض حروبه فسر أبوه بذلك وافتخر به.

تعليق : أورد ابن حيان بعض تفصيلات لم يوردها ابن حزم، فوصف سليمان بأنه «المشهور بالبسالة» ومن وقف تلك المواقف استحق مثل هذا الوصف وتحدث عن انتزائين لسليمان بينما اكتفى ابن حزم بذكر واحد ولم ينس أن يصف عمر بن حفصون بأنه «امام الفساق» وهو شيء لم يذكره ابن حزم أما المقارنة بين «صمد له في القتال مواجها» وبين «صده» فتدل على أن «صمد» أدق، وأن في نص ابن حزم تصحيفا.

المقتبس (مكي) : 149

كان نصر الخصي الجرىء المقدم الوساع الفهم قد غلب على قلب مولاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واستظهر على صراحته مكانه لديه بانقطاعه إلى حظيته طروب أم عبد الله الغالبة عليه من بين جميع نسائه، وحطه في

شعبها ومالاته اياها على ما تسعى له من تقديم ولدها عبد اللـه للأمر بعد الأمير أبيه على جميع الاراجح الأكبرين من ولده متى حان حينـه، فخالص السيدة تشـديـدا وأخلصت لـه واستوى لـه بـذلـك أمره وأصبح ملـك عبـد الرحمن في يده يدبره كيف يشاء فلا يرد لـه أمر قـد أجهـد سعيـه في آخر أمده في جهره وسره بالتنويه بعبد اللـه ابن ستـه طروب والاشـادة بـذكره واستالة طبقات الناس بالرغبة والرهبة اليه والعمل على اختزان الخلافة عن أخيه محمد بكر والده الأمير عبد الرحمن ومفضلهم المشار إليـه، إلى خـالفتهم ابن طروب هذا وسوقها إليه، يتأتى لذلك ويأتيه من جميع أبوابـه» والقضـاء يبعده عنه ويسد دونه طرقه وهو يرصـد لوجبـة الأمير عبـد الرحمن مولاه ليقضي في عبد الله قضاءه فيمكن لعبد الرحمان ويستأخر يومـه فيثق ذلـك على الخصي ويرهب قوتـه حتى سولت لـه نفسـه اغتيـال مولاه عبـد الرحمن والطاف التدبير عليه كيا يتمكن من تقديم عبد الله مكانه ولا يرهب الخلف عيه لكثرة أنصاره من أهل الدار وغيرهم وفشو صنائعـه فيهم، فيتم لـه بـابن طروب الاحتواء على الملـك ويؤخر عنـه محمدا المرشح لـه وغيره ممن يطمع فيه، فوثق في ذلك بالحراني الطبيب، وكان في عداد صنائعه وقدر منه ـ مع الوفاء ـ الشره إلى ما يبذله له، فخلا به وذكره أياديه لـديـه، وتـدارس فيا ينويه له وقال له : هل لك في إحراز حسن رأيي للأبد وحوز جزيل صلتي للآخر ؟ فقال لـه الحراني : هـذه هي المنيـة التي لا وراءهـا طلبـة، فمن لي بنيلها فقال له : هذه ألف دينار معجلة بين يدى الجرى بالحاجة واعمل لي سؤر الملوك الـذي يـدني من الأجـل ويقلب الـدول ودعني لمكافـأتـك ان انقضت حاجتي فوالله لأتجاوزن بها ظنك. فأراه القبول مما بذله والقيـام بمـا كلفه، وخرج عنه وقد عدلت البدرتـان جنـاحيـه فعمل ذلـك الخلـط بـاسم

الدواء المسهل، كما رسمه له، واجهد رأيـه في تقويتـه واحتـال في أن دس في خفيـة إلى «فجر» حظيـة الأمير عبـد الرحمن ضرة طروب مع بعض من كان يستطب لها عنده من ثقات قهارمتهـا يشير لهـا على مـا دبر على الأمير من طريق العلاج ويأمرها أن تحذره من شرب مـا يـأتيـه نصر بـه أو يرسلـه، فوقاه جده بذلك، وسقى الخصي معينا له.

وقد كان الأمير شكا إلى نصر خلال ذلك خلطا تحرك به عدل لـه عن أخذ الدواء الذى من عادته، وإعداده اليوم فارقه على التوحش أمامه، فكان من توطئة نصر لذلك ما قدر أنه واقع بـه لا محـالـة، وبكر بـذلـك الخلـط المسموم إلى الأمير في اليوم الذي ربط فيه موعده فأصابه حـذرا للـذى سبق إليه، فتعلل على نصر، ووصف وعكا طـاف بـه ليلـة فنكث مرتـه فلا فضل فيها للدواء، وأشـار عليـه بشربـه إذ لم يزل كثيرا يسعـده في مثلـه، فـذهب يعتذر بعدم التوحش له، فزجره وقال : سبحان الله شيء اجتهدت لي فيـه وألطفت تركيبه تخاف غائلتـه ؟! عزمت لتشربنـه، فعلم نصر أن خلافـه لا يمكن فشربـه بين يـديـه، واستـأذنـه في الخروج إلى منزلـه فـأمره، فـانطلق يركض وركضه يزيده شرا واستغاث بـالحراني فعرفـه بمـا جرى عليـه والسم يجد به فقال له : عليك بلبن المعز فـإن شربـه يفتر عنـك ففرق غلمـانـه في طلبه فعوجل قبل أن يؤتى به ومضى لسبيله.

تاريخ افتتاح الأندلس : (96 ـ 97)

وكان لطروب أم عبد الله بن عبـد الرحمن على عبـد الرحمن بن الحكم تحكم أوجبت به صرف الأمر إلى ابنها عبد اللـه فكانت تصطنع لـذلـك أهل القصر من النسـاء والفتيان وأكثر الخدمة طمعـا في ذلـك، وكان نصر مبغضـا

لمحمد مائلا مع عبد الله ابن طروب، وكان قد مال عبد الرحمن آخر عمره إلى ابنه محمد، فشق ذلك على نصر، فأراد قتل مولاه ليقدم عبد الله ويقتل محمدا، فبعث في الحراني الطبيب وقال له : كيف رأيك في (احران) حسن رأيي ؟ فقال له ذلك الأمل لو بلغته فقال له : هذه ألف دينار واعمل لي بسون (في الأصل بشون) الملوك فلم يمكنه عصيانه وقبض الألف دينار منه وعمل البسون وأوصى إلى فخر (فجر) فاعلمها بالأمر وسألها أن تحذر الأمير من شربه.

ثم قال نصر لعبد الرحمن أن يتوحش بالدواء (؟) فأراه ذلك، فيوت به في اليوم الثاني (؟)... أمره بشربه فشربه.

ثم قصد إلى داره فبعث في الحراني فشكا إليه ما دار عليه فأمره بأخذ لبن الماعز فعجل عليه وانقضت حاجته (اقرأ حياته).

تعليق : من الواضح أن المقارنة بين النصين عسيرة لا لإضطراب النص وحسب لدى ابن القوطية، بل للتفاوت الكثير في مستوى التعبير عن الأحداث، واستعمال صيغ يتفرد بها ابن حيان، من ذلك : الجرىء المقدم (المقدام) الوساع الفهم ـ استظهر على حراصة (حراسة) مكانه لديه بانقطاعه... ـ وحطه في شعبها على جميع الاراجح الأكبرين ـ والعمل على اختزان الخلافة عن أخيه ـ وهو يرصد لوجبة الأمير ـ خرج عنه وقد عدلت البدرتان جناحيه ـ فوقاه جده بذلك ـ ووصف وعكا طاف به ليلة ونكث مرته... الخ.

كذلك فإن نص ابن حيان يتكىء كثيرا على المواقف النفسية، وضروب التلاقي والصراع (التدرج على التصميم في نفسية نصر الصراع بين

الجشع والغدر في نفس الحراني) وفي نص ابن حيان رفع متعمد لمستوى الحوار.

وهناك تحوير متعمد جعل دور طروب يبدو ثانويا بالنسبة إلى ذلك الاصرار الشديد الذى أسند إلى نصر في نص ابن حيان.

وإذا جردت نص ابن حيان من الايغال في التحليل واصطناع أسلوب خاص، ودفع بعض الظواهر إلى المقدمة دون بعضها الآخر وجدت النصين لا يتفقان إلا على الخطوط الأولى في المؤامرة وتنفيذها.

المقتبس (مكي) : 167 ـ 168

لما توفي الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث صدر دولة الأمير عبد الرحمن تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة بعده، وكدوه بالوسائل والشفاعات حتى أضجروه، فأقسم أو اعتقد ألا يوليها واحدا منهم، وعطلها مدة، ثم صيرها إلى رجل من أقادم صنائعه كان له اتصال به قبل الخلافة أحظاه لديه، اسمه سفيان بن عبد ربه، أصله من برابر بيانة، لم يكن له قدم وكانت له يقظة ومعرفة فتولى حجابته أعواما إلى أن مات فولى عبده عبد الرحمن بن غانم، ثم مات ابن غانم أيضا فصارت الحجابة إلى عيسى بن شهيد ثم إلى عبد الرحمن بن رستم يداول الأمر بينهما إلى أن مات ابن رستم فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد بقية أيام الأمير عبد الرحمن.

تاريخ افتتاح الأندلس : 83 ـ 84

ولما توفي عبد الكريم بن مغيث في صدر خلافته تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة واضطره كل واحد إلى أن لا يولي غيره، فأخذته ضجرة،

فأقسم ألا يولي واحدا منهم، وأمر بالاقراع بين الخزان، وكان الخزان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزان، وابن سبيل الملقب بالغاز وطاهر بن أبي هارون، ومهران بن عبد ربه من البربر لا قديم له، وكان له به اتصال وهو ولد، فخرجت إليه القرعة، فولي الحجابة أعواما، ثم مات فولي عبد الرحمن بن غانم، ثم مات عبد الرحمن بن غانم فصارت الحجابة بين عيسى بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم على ما ذكرناه، ثم توفي عبد الرحمن بن رستم فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد إلى أن توفي عبد الرحمن (بن الحكم).

تعليق : من الواضح أن النصين يحتفظان بتعبيرات متشابهة تماما مثل : تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة - فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد... ولكن لا يخفى أثر قلم ابن حيان في إعادته صياغة بعض التعبيرات مثل : كدوه بالوسائل، من أقادم صنائعه (صنيعة : أقادم بدلا من قدماء) أو تلطيف بعض الفجاجة في بعضها، من ذلك قول ابن القوطية «وكان له به اتصال وهو ولد» فجعله ابن حيان «كان له به اتصال قبل الخلافة أحظاه لديه»، أو إضافة بعض الصفات التي تسوغ تعيين سفيان (أو مهران) مثل «وكانت له يقظة ومعرفة» أو التدقيق في تبيان الفرع البربرى الذى إليه ينتسب وموطنه، ولكن هذا النص اخبارى لا يتضمن مواقف نفسية أو عاطفية حماسية، وهذا ما كفل بقاء التقارب بين الصيغتين على أساس السرد للأسماء. وإذا قلنا أن نص ابن القوطية قد دخل عليه الحذف والإختصار من عمل شخص غير مؤلف، وجدنا ما يدفع هذا ذلك التفصيل في ذكر الخزان والاقراع بينهم وهو شيء لم يرد في نص ابن حيان.

المقتبس (مكى) : 168

والأمير عبد الرحمن أول من ألزم هؤلاء الوزراء الإختلاف إلى القصر كل يوم والتكلم معهم في الرأي والمشورة لهم في النوازل، وأفردهم ببيت رفيع

داخل قصره مخصوص بهم يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم، يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتا يخفض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه، وإذا قعدوا في بيته أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه ـ جرى على ذلك من تلاهم إلى اليوم.

تاريخ افتتاح الأندلس : 83

والأمير عبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر والتكلم في الرأي على ما هو جار إلى اليوم.

تعليق : إن التفصيلات الكثيرة التي يوردها ابن حيان لا يقف إزاءها ما يوازيها في نص ابن القوطية، فهو قد أخبرنا أن الاختلاف إلى القصر كان يوميا، وأن هناك غرفة خاصة للإجتماعات، قد نضدت فيها الارائك للجلوس، وأن الإجتماع قد يكون عاما، وقد يقتصر على كل فرد على حدة، وأنهم لا يباحثونه بعرض آرائهم فقط في المشكلات التي ترفع إليه وإنما يطلعون على ما يكتبه من رسائل ومنشورات، ويعرفون ما يجرى في الدولة من شؤون (وقد يكون لهم تعليق على ما كتب).

هل هذه التفصيلات كانت موجودة على نحو ما ثم حذفت ايجازا ؟ لست أعتقد ذلك وإنما الذى أراه أن ابن حيان أخذ الفكرة الأصلية وهي «فكرة الشورى» ثم استند في تفصيلاته إلى ما جرت به العادة حتى أيامه في الدولة الأموية ـ العامرية بالأندلس فهو إنما يوضح «تقليدا» معينا ويرده إلى أصل نشأته. ومن غرامه بالتفصيلات أنه تحدث عما يدور بين الخليفة (الأمير) والوزراء في موضعين :

1) التكلم معهم في الرأي والمشورة لهم في النوازل.

2) يخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكتـه (ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه) الخ...

المقتبس (مكي) : 169

لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس في أنه ما خدم ملوك بني أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غايـة ولا أكرم اصطنـاعـا ولا أرعى لـذمـة، ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهـذه الصفـة، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى إلا في باب كرم الصنيعة واستتمامهـا، فلم يك يفضله درجـة، بل كان عبـد الكريم يقصر عن عيسى في بـاب قبول الهدية وتجويز المكافأة على قضاء الحاجـة فـإنـه كان يقبل ذلـك ولا يـأبـاه، وكان عيسى على الضد منـه في هـذا البـاب لا يقبل شيئـا منـه البتة وكان يهجر من عرضه إليه، ولا يرضى في من يتقلده من صنائعه ويشملـه بنعمتـه إلا بغاية التشريف والإنهاض والتخويل والإمداد.

تاريخ افتتاح الأندلس : 94

ولم يختلف مختلف من شيوخ الأندلس أنه لم يخدم بني أمية بـالأنـدلس أكرم منه (أي عيسى بن شهيد) عناية وأكثر اصطناعا (في الأصل : مطاعا). وكان عبد الكريم بن مغيث الحاجب الكاتب بهذه الصفـة إلا أنـه كان يقبل الهدية والمكافأة على قضاء الحاجة، وكان عيسى بن شهيـد لا يقبل شيئـا من ذلك، وكان عيسى بن شهيد لا يرضى في من عني به إلا بغاية التشريف.

تعليق : من الواضح مدى التقارب الشديد بين النصين، والتغيرات أو الإضافات الأسلوبية التي صنعها ابن حيان إنما جاءت للحفاظ على درجة معينة من النغمة التي تعودها في كتابته (مثلا ايراد ثلاثة تعبيرات متلاحقة بدلا من اثنتين : «أكرم غاية ولا أكرم اصطناعا ولا أرعى لذمة» أو أربعة بدلا من واحد : «بغاية التشريف والإنهاض والتخويل والإمداد». وهناك إضافات تزيد إلى المعنى ولكنها لا تغير الجوهر مثل :

1 ـ زيادة خصال عبد الكريم وأدواته على خصال عيسى وأدواته.

2 ـ هجر عيسى لكل من عرض عليه هدية أو مكافأة.

المقتبس (مكي) : 179

ألفى الأمير عبد الرحمن بن الحكم على قضاء والده الأمير الحكم، سعيد ابن محمد بشير المعافرى... فامضاه بعده ومحمد بن شراحيل المعافرى جد بني شراحيل الذي ينسب إليهم المسجد والدرب (بالربض الغربي) ثم الفرج بن كنانة (الكناني) الشذوني ثم يحيي بن معمر الالهاني الاشبيلي ثم عزله لرفع (الفقيه) يحيي بن يحيي عليه ثم الاسوار بن عقبة الجياني ثم ابراهيم بن العباس المرواني جد بني أبي صفوان هؤلاء القرشيين الوجوه بقرطبة، ثم عزله ـ زعموا ـ لكلمة خاطبته بها امرأة (تخاصمت إليه بمجلس نظره) فلم ينكرها، وذلك أن قالت له : يابن الخلائف، انظر إلى نظر الله إليك، فلم يغير عليها، فنحاها إلى الأمير موسى بن حدير الخازن الأكبر، **ورفع إليه صفحته يقول فيها : «ما ينبغي للأمير أن يشركه في سلطانه من يخاطب بمثل ما يخاطب به ويحلى تحليته»**، فذاك الذى أوجب عزله.

تاريخ افتتاح الأندلس : 80 ـ 81

فمن قضاته سعيد بن محمد بن بشير، وجده على القضاء لأبيه فامضاه بعده ومحمد بن شراحيل المعافرى جد بني شراحيل الذي ينسب إليه المسجد والدرب (وأبو عمر ابن بشير)، وفرج بن كنانة الشذوني ويحي بن معمر الالهاني الاشبيلي ثم عزله لرفع يحي بن يحي عليه، وولى الأسوار بن عقبة الجياني ثم ولي بعده جد بني صفوان القرشيين (في الأصل القرشي) ثم عزله لكلمة خاطبته بها امرأة فلم ينكرها، قالت له : يا بن الخلائف، انظر مني نظر الله إليك فلم ينكر ذلك، فذكر أنه رفع ذلك إليه موسى بن حدير الخازن الأكبر وقال له : (لا) تشرك في سلطانك من يتسمى باسمك، فهو الذى أوجب عزله.

تعليق : هذا نص يقوم على التعداد المتوالى، فكل الزيادات التي أوردها ابن حيان توضيحية، ولم يحاول التصرف في الأسلوب إلا في صيغة الخطاب الذى رفعه موسى بن حدير إلى الأمير، وفي أنه رفع إليه ذلك كتابة (لا مشافهة).

المقتبس (أنطونية) : 7

(لم يكن في قضاة عبد الله أفضل من محمد بن مسلمة ولا أشبه سيرة بالنمط الأول) استقدمه الخليفة عبد الله من موطنه بقبرة، ومنها كانت أصوله، فاستقضاه (على كره) فعدل (جهده وعف وتواضع واقتصد) فذكر من سيرة صالح القضاة.

تاريخ افتتاح الأندلس : 121

واستقدم أخاه محمد بن مسلمة من قبره، ومنها كانت أصولهم، فاستقضاه فعدل، وأذكر من سيرة القضاة الصالحين.

تعليق : يلاحظ أن ابن حيان يمهد بتوطئة - هي كالحكم المستنتج - ولا وجود لها عند ابن القوطية لأنه لا يحتاجها بل هي تفسد عليه السياق وهو يسرد أسماء القضاة.

وأن الزيادات عند ابن حيان تضيف معاني جديدة (على كره) أو تعدل سياقا أسلوبيا يكلف به : «فعدل جهده وعف وتواضع واقتصد».

المقتبس (أنطونية) : 86

كان الأمير المنذر بن محمد قد ولى أحمد بن البراء بن مالك القرشي سرقسطة وثغرها ومحاربة بني قسي (المنتزين بالثغر الأعلى) فأقره الأمير عبد الله أخوه لما ولي فعلا أمر أحمد بن البراء بالثغر واستكثر من الرجال (وعلت به الحال) وكان أبوه البراء بن مالك مقيما بقرطبة وزيرا في جملة وزراء البيت (في منطقة فضل) فنقل عنه إلى الأمير عبد الله كلام لم يوافقه، أطلقه في البيت، سمعه جميع الوزراء أصحابه أخنق الأمير عليه (وجر الاتهام إلى ابنه والي الثغور) وقد كان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبي السرقسطي، جد هؤلاء التجيبيين (المتداولين لسلطان الثغر في حالتي الانتزاء والطاعة) ذا اتصال بالأمير عبد الله وهو ولد، أيام والده الأمير محمد (وله ببلده حال رفيعة ورياسة ممهدة) فكتب إليه الأمير عبد الله سرا يأمره بالفتك بأحمد بن البراء، وبعد ولايته البلد بعده، وأنفذ له

سجله على سرقسطة وأعمالها، فأطلع أبو يحي أباه عبد الرحمن بن عبد العزيز على ذلك وشاركه فيه فأدارا على أحمد بن البراء أمرا كان فيه حتفه، ودسا عليه بعض غلمانه (ممن علما فساد ضمائرهم عليه) فقتلوه، وتولى أبو يحي محمد بن عبد الرحمن إمارة سرقسطة مكانه... الخ.

تاريخ افتتاح الأندلس : 130

وكان الأمير منذر قد ولى أحمد بن البراء بن مالك القرشي سرقسطة وثغرها محاربا لبني قسي، فعلا أمر ابن البراء ابن مالك واستكثر من الرجال (فأقره) الأمير عبد الله، وكان أبوه البراء بن مالك وزيرا في البيت، فنقل عن الوزير إلى عبد الله بعض ما غمه وخافه به لشيء أطلقه في البيت سمعه جميع الوزراء.

وكان محمد بن عبد الرحمن التجيبي، جد التجيبيين، المكنى بأبي يحي له اتصال بالأمير عبد الله وهو ولد، فكتب إليه كتابا يأمره فيه إن استطاع أن يفتك بأحمد بن البراء فليفعل، وبعث إليه في الباطن بسجله على سرقسطة وما والاها.

فأطلع أباه عبد الرحمن بن عبد العزيز على ذلك ووازره عليه فأدارا أمرا بلغا به ما أحبا بأن رشيا أعوان أحمد بن البراء فقتلوه، فلما أتي بخبر قتله عزل أباه عن الوزارة وملك التجيبيون سرقسطة من يومئذ إلى وقتهم هذا.

تعليق : ليس من خلاف جوهرى بين النصين، وما وضع بين قوسين في نص ابن حيان يكاد يكون كله زيادات توضيحية أو تفسيرية، ولكن

هذا لم يحدث تغييرا لا في روح النص ولا في نسقه، إلا عندما جاءت «ودسا عليه بعض **غلمانه**» في صورة «بأن **رشيا أعوان** أحمد بن البراء».

المقتبس (أنطونية) : 129

حسن بلاء القائد أبي العباس أحمد بن محمد ابن أبي عبدة في قيادته لجيش الأمير عبد الله بن محمد، وكرمت مقاومته في الذب عن الدولة، وقام بحروب جميع المخالفين على وفور أعدادهم، وإنما كانت عدته في حروبه ومعوله في زحوفه على نحو ثلاثمائة فارس (من مدونة الجند بقرطبة) كانوا أنجادا نخبة، فلم يجتمع مثلهم في عسكر بالأندلس، بهم اقتحم الغمرات الشديدة، وبلغ المبالغ المشهورة، ودافع أشد المخالفين وأمام المجرمين عمر بن حفصون عند انبساطه (على الغارة في أحواز قرطبة وبأكنافها المرة بعد المرة) إلى أن نازله على بابه (بقلعة ببشتر) وجلب الخيل إليه، فاشتد الأمير عبد الله بمكان قائده هذا وانتصف من أعدائه، وأخرج الجيوش من قرطبة معه إلى كثير من بلاد الأندلس (المستغلقة عليه) (فأرهب أهلها) وأورد عليه كثيرا من جبايتها.

تاريخ افتتاح الأندلس : 124 ـ 125

وصرفت القيادة إلى أحمد بن محمد بن أبي عبدة.............. فقام ابن أبي عبدة بحرب ابن حفصون وغيره من المنتزين بالأندلس، واستجلب الشجعان من كل بلد وضمهم إلى الحق (؟) فاجتمعت حوله عقدة من ثلاثمائة فارس لم يجتمع بالأندلس قبله ولا بعده مثلها، فلم يزل يدفع ابن حفصون عن استطالته وانبساطه حتى حاربه على بابه، وقوى أمر الأمير عبد الله به

حتى خرجت الصوائف من قرطبة إلى جوانب الأندلس وأورد كثيرا من جبايتها في كل عام.

تعليق : صاغ ابن حيان النص صياغة جديدة ليبدى دور قائد كبير ضد مخالفي (الجماعة) والخارجين عليها، ومنح النص نغمة بطولية «حسن بلاء... وكرمت مقاومته في الذب عن الدولة، كانوا أنجادا نخبة... بهم اقتحم الغمرات الشديدة، وبلغ المبالغ المشهورة.. فاشتد الأمير بمكان قائده وانتصف من أعدائه...» ولم يتخل عن إدراج حكمه الاخلاقي على كل من يخرج على الجماعة مثل ابن حفصون «امام المجرمين»، كما أنه اهتم بادراج زيادات توضيحية على عادته.

المقتبس (5 : 32)

ترجمة محمد بن عبد الله بن مسرة منقولة عن كتاب تاريخ العلماء «لابن الفرضي» تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي (2 : 41 ـ 43).

ترجمة محمد بن عبد الله بن مسرة.

تعليق : لا فرق بين الترجمتين إلا ما يكون أحيانا من فروق بين نسختين من كتاب واحد. (فأما الترجمة التي أوردها ابن حيان 5 : 30 لابن مسرة، وقال انها منقولة عن كتاب ابن الفرضي المصنف في علماء الأندلس، فهو وهم، وإنما نقلها من كتاب آخر لابن الفرضي وهو على الأرجح كتاب شعراء الأندلس).

وقبل أن أعرض للنتائج المترتبة على هذه المقارنة أود أن أشير إلى رأي للأستاذ ريبيرا يتصل بكتاب ابن القوطية ومؤداه أن هذا الكتاب

ليس من إنشاء ابن القوطية، وإنما هو أقرب إلى أن يكون سماعا دونه عنه بعض من كان يحضر مجالسه من المولعين بالأخبار (25)، وقد ذهب الدكتور محمود مكي إلى تصويب هذا الرأي حين قارن بين نص لابن حيان نقله عن ابن القوطية وبين النص نفسه في المصدر الأصلي فقال : «فخبر نصر الفتى الذى أورده ابن حيان هنا مثلا لا يرد في النص المطبوع إلا على صورة مقتضبة موجزة لا تكاد تتجاوز بضعة سطور بينما هو لدى ابن حيان على ما يرى من التفصيل» (26). (أنظر النص رقم : 5 في هذا البحث). وهذا رأي وجيه حقا وخاصة لو اقتصر الأمر على كتاب ابن القوطية، ولكن الخلاف بين النقل والأصل قد تجاوز هذا الكتاب إلى مصادر أخرى كما أن الأخذ به اغفال لطبيعة الأسلوب الذى يميز كتابة ابن حيان.

ولدى إجراء المقارنة يتبين لنا أن ابن حيان لا يعتمد الحذف إلا في القليل النادر (أنظر النص رقم : 6 حيث حذف ذكر الخزان والإقراع بينهم)، وانه أحيانا ينقل نقلا حرفيا فلا يكون الخلاف بينه وبين الأصل المنقول عنه إلا كالخلاف بين نسختين مخطوطتين من كتاب واحد، ولكن نص ابن حيان ـ في أغلب الأحيان ـ أضفى، وإذا اعتبرنا هذا الفرق زيادة منه وجدنا أن أكثر تلك الزيادات كانت توضيحية لا تفسد الأصل، وإنما تجعله واضحا ضمن قرائن معينة، وهو يترجم العبارة المنقولة إلى لغته مؤثرا العبارة البيانية فيستعمل : صب سيفه عليه فجرحه بدلا من ضربه بسيفه (النص رقم : 4) وقد يحتفظ بنواة الخبر ولكنه يطنب في التحليل والتفسير وبخاصة في المواقف النفسية، وضروب الصراع بين المتنافسين، حتى ليبارح

---

25) تاريخ الفكر الاندلسي : 202 والمقتبس (مكي) : 251

26) المقتبس (مكي) : 251

نقطة التركيز في النص الأصلي إلى نقطة أخرى يراها هو أعلق بمنطق التاريخ (النص رقم : 5) وكثيرا ما تكون الانتحاءات التي يؤثرها في أسلوبه كاشفة عن تصرفه ذلك وانه هو الذي يتحدث لا صاحبه المنقول عنه، ولا يخطىء الدارس أن يلحظ تعبيرات مثل «أقادم صنائعه» و«حط في شعبها» و«على جميع الأجارح الأكبرين» و«وهو يرصد لوجبة الأمير» وغير ذلك من تعبيرات كذلك من الدلالة بمكان أن نجد العبارة في الأصل بسيطة مفردة ثم أن نجدها في نص ابن حيان قد شفعت بعدة متماطفات رغبة في التقوية والتكتيف، فجملة «بغاية التشريف» تصبح «بغاية التشريف والإنهاض والتخويل والإمداد».

وقد يكون الفرق بين النصين ناشئا عن التصحيف، فقد ورد لدى ابن حزم في وصف رسيس (النص رقم : 3) كانت امرأة رفيعة مهيبة، بينما قال فيها ابن حيان «وهي عجوز سوء فاجرة» ولعل ابن حيان إنما قرأ رقيعة مهينة وبنى عليها ذلك الوصف. كذلك تحدث ابن حزم «النص رقم 4» عن ابن حفصون دون أن يميزه بنعت، ولو فعل لحط عليه أكثر مما فعل ابن حيان، ولكن النص المنقول خالي من ذلك، اما ابن حيان فلم يستطع أن يمر باسمه دون أن ينعته بـ «امام الفساق».

إن القول بأن ابن حيان يترجم أقوال الآخرين إلى لغته ويدمغها بأسلوبه، واضح تمام الوضوح في إيرادات الشهادات السماعية، وبعض مواقف الخطابة والخطاب والحوار، كقوله في استعادة موقف أحد الخطباء «إني عبد الأمير أيده الله الناشىء في نعمته المنخلع في محبته، تأدت بي همة أخذت بضبعي ورفعت ناكس طرفي وحاطني من الإعتراف ما يعجز عن مدى

بلوغ صفته التي تحسر بلاغة المنتظم في أساليب مجده» (27)، أو كقوله صياغة لحديث حدثه به رجل عطار : «ولزمني جمع من الناس حفيل بالمكان الذي صلبوا فيه بظهر الطريق، فلم يكن لي منفد في زحامهم فقعدت بالأرض حاشية منهم غاضا بصرى مستطيرة جوانحي لهول ما طرفته عيني وضممت ثيابي على مخلاة كنت أوعيت فيها أشياء من حرفتي لأتجر بها في موسم العيد فلبستني من هولي المقام وسراخ المعذبين غاشية ادهلتني، اغتنمها مني لص فطن بي فاستل مخلاتي، فلما انجلت غاشيتها فقدتها فعجبت من بون ما بين فؤادى وفؤاد سارقي في الضعف والقوة واضحى يومنا ذاك يوم هول دعر الناس دهرا» (28)، إننا لسنا بحاجة إلى التأمل الطويل لنحكم بأن هذا الأسلوب الجميل ليس هو أسلوب العطار وإنما هي براعة ابن حيان في الصياغة وقدرته في اللغة وتمرسه بالرسم الذكي للمفارقات والحالات النفسية واضحة للعيان.

هل يمكننا بكل ثقة أن ننقل هذا التصرف إلى مستوى النص المكتوب ؟ إن النماذج التي جرت فيها المقارنة لا تدع مجالا للشك في ذلك. ذلك لأن ابن حيان لم يكن يرى في نفسه محض ناقل عن الآخرين بل كان له من قدرته على التحليل والأسلوب الجميل ما يقنعه بأنه لا بد أن يعيد كثيرا مما كتبه غيره ليكون «التاريخ» متناسقا في مستوياته المختلفة فإذا قررنا أن الإساءة إلى الحقيقة التاريخية لم تكن وليدة لهذه المحاولة قررنا أننا نقرأ أيضا عيسى الرازى وعريب بن سعيد وابن مفرج واسحاق بن مسلمة ـ في أغلب المواقف الكبيرة ـ بأسلوب من نسج ابن حيان، لم تضع

27) المقتبس 5 : 174

28) المقتبس 5 : 446

فيه النواة الأصلية (إلا أن يقول ابن حيان «هذا لفظ فلان المؤرخ» (نصا) فعندئذ يجيء النقل ـ في ما أقدر ـ حرفيا) (29)، ولكن التحقق من ذلك ما يزال بعيد المنال لأن كتابات هؤلاء المؤرخين لم تزل في طي الغيب.

د. احسان عباس

---

29) أنظر المقتبس 5 ، 426 حيث يقول ، هذا اللفظ عيسى ابن أحمد في تاريخه، وقارن وصف عيسى الرازى لطليطلة 5 : 272 بوصف إسحاق بن سلمة : 274 فانك واجد شبها كبيرا بين الاسلوبين ولا كذلك النقل من خط صاعد القرطبي فأنه يمثل إلتزاما بالأصل لأنه يدور حول حقائق جغرافية تتعلق بطليطلة (ص : 278).

أبو مروان ابن حيّان
بين الأدب الإبداعي وأدب كتابة التاريخ

د. مصطفى الشكعة
جامعة عين شمس - مصر

(1)

التكامل بين الأدب والتاريخ :

كان الأدب والتاريخ مادتين متلازمتين متكاملتين منذ أن عرف المسلمون علم التاريخ، وظل هذا الترابط قائما إلى عهد زمني غير بعيد، فما من كتاب تاريخ خلا من نصوص أدبية نثرية أو شعرية، وما من كتاب أدب إلا وهو مترع بالأخبار التاريخية ملىء بالوثائق التي تؤكد واقعة أو تثبت موقفا أو توثق حادثة من أحداث التاريخ الإسلامي ذلك التاريخ الثري بالأحداث المفعم بالمواقف الحافل بالوقائع على امتداد حركة الشعوب الإسلامية في الزمان والمكان.

فمن كتب التاريخ الحافلة بالنصوص الأدبية احتفالا يكاد يضفي عليها صفات كتب الأدب : تاريخ الرسل والملوك للطبرى، مروج الذهب

للمسعودى، فتوح البلدان للبلاذرى وكذلك أنساب الأشراف له، الكامل لابن الأثير، الفخرى لابن طباطبا، بغية الطلب لابن العديم، زبدة الحلب من بغية الطلب للمؤلف نفسه، فتوح مصر لابن عبد الحكم، الولاة والقضاة للكندى، البرق الشامي للعماد الأصفهاني، الفتح القسى للمؤلف ذاته، النجوم الزاهرة لأبي المحاسن، الخطط للمقريزى، حسن المحاضرة للسيوطى، تاريخ الخلفاء لذات المؤلف، تاريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، البيان المغرب لابن عذارى، الروض المعطار للحميرى، الحلة السيراء لابن الأبار، العبر لابن خلدون، أعمال الأعلام، نفاضة الجراب، ريحانة الكتاب، وثلاثتها للسان الدين ابن الخطيب.

ومن كتب الطبقات والتراجم ذات الصفة التاريخية نذكر على سبيل المثال : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، تاريخ دمشق لابن عساكر، وفيات الأعيان لابن خلكان، الوافي بالوفيات للصفدى، فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى، الضوء اللامع للسخاوى، خلاصة الأثر للمحبي، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، الصلة لابن بشكوال، جذوة المقتبس للحميدى، بغية الملتمس للضبي، المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي لابن الأبار، روض الآس في أعلام مراكش وفاس للمقرى. هذه المجموعة من كتب الطبقات والتراجم ذات صبغة تاريخية عامة، علىأن الطريف في الأمر أن كتب الطبقات المتخصصة في فئة بعينها من الأعيان كالفقهاء من أصحاب المذاهب أو النحاة واللغويين، أو المحدثين، أو العميان كلها تفيض بالنصوص الأدبية الطريفة، مثال ذلك كتاب ترتيب المدارك في أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، وطبقات الشافعية للسبكى، وطبقات النحاة واللغويين للزبيدى،

وبغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطي، ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي.

إن كتب التاريخ والتراجم والطبقات تلك التي ذكرنا على سبيل التمثيل لا الحصر حافلة بالنصوص الأدبية من شعر ونثر. بحيث لا يستطيع باحث في الأدب أن يقف منها موقف الغفلة أو الاستغناء، حتى أن كتابا مثل تاريخ الرسل والملوك للطبري يعتبر المصدر العمدة لشعر الفتوح الإسلامية الذي كتبت فيه أكثر من رسالة جامعية.

هذا ما كان من أمر كتب التاريخ والتراجم وصلتها بالأدب واستغراقها في الاحتفال بنصوصه الشعرية والنثرية استغراقا يجعل منها ضرورة لكل باحث، وعمدة لكل دارس في ميدان البحث الأدبي.

فإذا ما التفتنا إلى أمهات الكتب الأدبية وجدناها تقابل الكتب التاريخية بالمثل، إنها مشحونة بالأخبار، مليئة بالأحداث، زاخرة بما يضفي على الحركات التاريخية ما يؤكدها ويوثقها، وفي مقدمة هذه الأمهات يأتي عيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيين، والحيوان للجاحظ، والكامل للمبرد، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ويتيمة الدهر للثعالبي، وبهجة المجالس لابن عبد البر، والذخيرة لابن بسام، والوزراء والكتاب للجهشياري، ونشوار المحاضرة للتنوخي، وصبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، والمستطرف للابشيهي، والمخلاة للعاملي، ونفح الطيب للمقري.

وإذا كان كتاب تاريخ الطبري يعتبر عمدة لكل من يشتغل في شعر الفتوح الإسلامية، فإن كتاب الكامل للمبرد، وهو كتاب أدب ولغة، يعتبر

عمدة لكل من يعنى بالبحث في تاريخ الخوارج فضلا عن أدبهم، وهكذا حسبما أسلفنا القول، نجد كتب التاريخ تسهم في امداد دارس الأدب بمادة ثرية، مثلما تسهم كتب الأدب في تزويد دارس التاريخ بأحداث سخية.

هذا ما كان من أمر كتاب الكامل للمبرد واحتفاله بتاريخ الخوارج، إلى المدى الذى جعله يخصص نصف المجلد الثالث لهم، فإذا ما عرفنا أن كتاب الكامل يقع في مجلدات أربع، كانت الحصيلة أن موضوع الخوارج ـ وهو تاريخي بالدرجة الأولى ـ قد احتل ثمن حجم الكتاب ومساحته.

وأما كتاب الذخيرة لابن بسام، فإنه على نفاسته في ميدان الدراسات الأدبية الأندلسية، حافل بروايات المؤرخين بصفة عامة، وروايات أبي مروان بن حيان بصفة خاصة إلى المدى الذي يجعل منه كتاب تاريخ-لولا أنه محسوب على كتب الأدب، ولولا أن نقولاته من ابن حيان نقول أدبية الطابع والأسلوب والإطار، لأن ابن حيان كان ـ وهذا موضوع بحثنا ـ يكتب التاريخ بأسلوب الأديب وروح الفنان.

هذا ولا ينبغى أن نغفل ما حفل به كتاب صبح الأعشى من وثائق تاريخية نادرة وإن قدمت في ثنايا الكتاب على أنها رسائل ذات طابع أدبي، تعلم الناشئة الكتابة، وتدربهم على صناعة الإنشاء.

على أن هذا القبيل من كتب الأدب التي ذكرنا لا ينبغى أن يصرف نظرنا عن الإشارة إلى بعض كتب طبقات الأدباء، والإشادة بمحتوياتها التاريخية، ويحضرنا في هذا المقام : الشعر والشعراء لابن قتيبة، وطبقات الشعراء لابن المعتز، والورقة لابن الجراح، والأوراق للصولى، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، ومطمح الأنفس للمؤلف ذاته، وخريدة القصر لعماد

الـدين الأصفهـانى، والمغرب لأبنـاء سعيـد، والمشرق في أخبـار المشرق لابن سعيد وارشاد الأريب لياقوت الرومى، وغيرها كثير.

إن هـذه المؤلفـات وإن صنفت في قـائمة الكتب الأدبيـة لأن نشـاط منشئيهـا اقتصر على الترجمـة لأدبـاء تعـاطـوا الشعر ومـارسـوا الكتـابـة على مسـاحـة الوطن الإسلامي، فقـد حفلت بـأحـداث تـاريخيـة ارتبطت بهـذا الأديب الكاتب أو ذلـك الفنـان الشـاعر، وهـؤلاء وأولئـك كانـوا مرتبطين سياسيا بالبيئـة التي يعيشون فيهـا من جـانب السلب أو نـاحيـة الإيجـاب، وتلـك بـديهيـة يعرفهـا كل الـذين أسهمـوا في ميـادين الـدراسـات الأدبيـة بالبحث أو المتابعة أو التأليف.

بقي بعـد ذلـك نوع ثـالث من أمهـات الكتب، لا هو إلى التـاريخ ينسب، ولا إلى الأدب ينتمي، وإن حمل كل كتاب منه بين دفتيه كثيرا من مواقف التاريخ وأحداثـه، وفيضـا من نصوص الأدب وأخبـار الشعراء، هـذا النوع الثـالث هـو كتب الجغرافيـة والبلـدان والرحـلات التي من أشهرهـا : المسـالك والممالك للاصطخرى، والمسالك والممالك للبكرى، ومعجم ما استعجم للمـؤلف نفســه، وأحسن التقـاسيم للمقــدسى، ونــزهــة المشتــاق للشريف الإدريسى، ورحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطـة، وصفـة جزيرة الأنـدلس للحميرى (من كتـاب الروض المعطـار) ، وصفـة جـزيرة العرب للهمــدانى، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، ومعجم البلدان لياقوت الرومى.

إن النصوص الأدبية التي تضمهـا هـذه الكتب من الخطورة بمقـام ومن الأهمية بمكان، بل أن بعضها ربما ضم بين دفتيه محتوى هاما لكتـاب مـا مِنْ تلك التي أودت بها يد الحدثان، فكما أن الذخيرة ضمت جانبا خطيرا وكبيرا

من تاريخ ابن حيان، وكما أن صبح الأعشى ضم أخطر الرسائل الأدبية السياسية في تاريخ الدول الإسلامية، وكما أن الكامل للمبرد ضم أكثر أخبار الخوارج، فإن معجم البلدان لياقوت ضم أكثر محتويات كتاب «الشعراء اللصوص» للسكرى.

(2)

التكوين الثقافي والأدبي لأبي مروان :

الرابطة اذن وثيقة بين كتب التاريخ والتراجم وكتب الأدب من حيث احتفال كل فريق منها بالفن الذي يضمه الفريق الآخر، وهذه النتيجة تدفع بنا إلى تساؤل هام هو : هل يكون ـ تبعا لذلك ـ كل أديب مؤرخا، وكل مؤرخ أديبا ؟ إن الإجابة على هذا التساؤل تقوم على النفي وليس على الايجاب، فقليلون من الذين ألفوا الكتب الأدبية يمكن أن يكونوا مؤرخين، ومن الجانب الآخر نقرر أن عددا قليلا من المؤرخين يمكن اعتبارهم أدباء، فمن الفريق الأول يمكن اعتبار ابن قتيبة وابن عبد ربه والثعالبي، ولسان الدين والمقرى مؤرخين، وأما الفريق الثاني ـ أعنى المؤرخين الأدباء ـ فعددهم قليل ويجيء في مقدمتهم ابن طباطبا، والمسعودى، وأبو مروان بن حيان والقاضي عياض، ويجيء على رأس هذا الفريق من حيث ملكته الأدبية، وتمثله للأدب العربي، والإمساك بناصية الحس التاريخي، والبراعة في صياغته وتسجيله، أبو مروان بن حيان دون منازع.

إن أبا مروان من حيث كونه شيخ المؤرخين الأندلسيين من ناحية، ومن حيث كونه واحدا من أكثر المؤرخين المسلمين نبوغا وتفوقا وتخصصا يعتبر أمرا من الوضوح لدى الدارسين والباحثين بحيث لا يحتاج إلى جدل أو نقاش، ومع ذلك فسوف نعرض بعض صفحات قليلة للميزات التي أهلت أبا مروان لأن يحتل هذه المكانة بين المؤرخين، وإنما الذى نريد أن نعرض له في هذا المقام هو جانب الأدب الإبداعى عند أبي مروان.

ليس من شك في أن الأدب، وجانب الشعر منه بصفة خاصة، ملكة تولد مع الإنسان، فما لم يخلق المرء شاعرا لا يستطيع قول الشعر، وما لم يخلق المرء ذا صوت جميل فلن يستطيع الغناء وهكذا، ولكن الملكة الأدبية أو الفنية التي تولد مع المرء تحتاج إلى ترويض وتثقيف وتدريب وتنمية وإلا كان مصيرها إلى الضياع، إن هذا هو ما صنعه أبو مروان لنفسه أو بالأحرى هو ما قد هيأته له الأسباب من عناية والده به وحدبه عليه واختيار صفوة الشيوخ لتعليمه وتثقيفه، فلما بلغ مبلغ الشباب مضى في دربه على الوتيرة نفسها، يتردد على مجالس العلم والأدب ويغترف من مناهل كانت قد أترعت علما وفاضت بأسباب كثيرة من جواهر المعارف، فقد كانت قرطبة ـ مسقط رأس أبي مروان ومحتضن جدثه بعد وفاته ـ مدينة النور بتعبير عصرنا، وعاصمة مرموقة من عواصم الثقافة في العالم الإسلامي، فضلا عن كونها العاصمة الثقافية للأندلس التي ينبغي على كل طالب علم في بقاع الأندلس أو أصقاع المغرب أن يرحل إليها ويجلس إلى علمائها ويسمع من حفاظها وأئمة اللغة ورجال الأدب في رحابها.

أما أساتذة أبي مروان الذين نعرفهم على وجه التحديد، والذين جلس إليهم وأخـــذ عنهم واغترف من فيض علمهم فهم قليلون، يجىء في

مقدمتهم والده خلف بن حسين القرطبي دارا ووفاة، الأندلسي صليبة، المتوفى سنة 427 هـ، مكفوف البصر عن عمر يناهز الخامسة والثانين، وكان أبو مروان آنذاك في حوالي الخمسين من العمر (1).

إن خلف بن حسين كان كاتب المنصور بن أبي عامر منشىء الدولة العامرية ومقيد الدولة الأموية، ومؤسس مدينة «الزاهرة» على أطراف قرطبة منافسا بها «الزهراء» التي ابتناها كبير ملوك الأندلس عبد الرحمن الناصر وقائد الجيوش المظفرة، وصاحب مجالس الأدب والسماع.

ولكن خلفا حرص على أن يورث ولده علما وقد استقر في خاطره ـ وقد تقلد بعض المناصب وعاين المحن التي يتعرض لها من هم قريبون من السلطان ـ أن مكانة العالم أسمى من مكانة الحاكم على المدى الطويل، وأن العالم أخلد في التاريخ من صاحب المنصب، خاصة إذا كان ذلك العالم مبرزا في ميدانه متفوقا على أقرانه، وقد كان أبو مروان كذلك، فكان خلف هو المعلم الأول لولده على عهد الطفولة، وكان أيضا المعلم الأخير له على عهد الكهولة، فكان خلف الشيخ الكبير يلقى بتجاريبه وحكمه وأسرار الدولة العامرية إلى ولده الفتى ثم الشاب ثم الكهل أبي مروان. لقد كان خلف كاتب المنصور وكاتم أسراره ومستودع أفكاره، وبقي في نفس موقعه من الدولة العامرية في عهد المظفر عبد الملك ابن المنصور، فحفظ الأب للابن كنزا من العلم والتجربة أكثر مما حفظ له من الجاه والمنصب والمال، وتعهده تعهدا شخصيا بحيث نجد في أكثر الصفحات التي كتبها أبو مروان عبارة : «أخبرني أبي خلف بن حسين».

---

(1) ولد أبو مروان سنة 377 وتوفي سنة 469 هـ.

أما الشيخ الثاني الذي تعهد أبا مروان بالتثقيف وحسن التكوين فهو صاعد البغدادى الأديب الكبير الذى وفد من المشرق إلى الأندلس فذاع صيته فيها، وتخاطفته ندوات الملوك والأمراء، غير أن بدايته في الأندلس كانت مع المنصور حيث قربه إليه وأجزل له العطاء، وكان صاعد حسن المسامرة عذب المحادثة لطيف الفكاهة حاضر البديهة حافظا لكثير من الأشعار والأخبار، حتى أنه ـ حسب رواية ابن حيان ـ جمع للمنصور كتابا بهذا المحتوى، أو بالأحرى جعل عنوانه «الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار» وكان المنصور لفرط أعجابه بهذا الكتاب قد أمر صاعدا أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع «بالزاهرة».

وإذا كانت الديار قد تغيرت بصاعد فأخذ يضرب في أكناف الأندلس عند هذا الأمير أو ذاك إلى أن ألقت به عصا التسيار بعيدا إلى صقلية حيث مات بها سنة 417، فإن الأمر الذى نهتم له هنا هو أن صاعدا كان أستاذا خصوصيا بلغة عصرنا لأبي مروان، لأنه قرأ عليه «كتاب الفصوص» منفردا في داره سنة تسع وتسعين وثلاثمائة (2). إن هذه المرحلة من حياة أبي مروان الثقافية وتلمذته على صاعد اللغوى تلقى ضوءا باهرا على عنايته بالكتابة الأنيقة ابتداعا، وصياغته لكتبه التاريخية بلاغة تعبير وسلاسة أسلوب.

على أننا إذا اعتبرنا أبا مروان بن حيان تلميذا نجيبا للعالم الأديب صاعد البغدادى، والتلمذة الحقة تندرج في باب البنوة، فإننا والأمر كذلك نعتبره حفيدا للعالم العظيم أبي على القالى في ميدان الدراسات الأدبية

2) الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم 541.

واللغوية والاخبارية، ذلك أن أبا مروان كان تلميذا لأحمد بن عبد العزيز بن فرج بن أبي الحباب، وهذا بدوره كان تلميذا لشيخ علماء الأندلس أبي علي القالي ومن أقرب تلامذته وأحبهم إليه، وكان عالما باللغة والأخبار، حافظا ضابطا لها، يقول عنه أبو مروان : كان متفننا في ضروب اللسان، إذا فاوهته في ذلك وجدته يقظا عالما حافظا صحيح الرواية جيد الضبط لكتبه، متقد الذهن شديد الحفظ للغة، بصيرا بالعربية، حسن الإيراد لما يحمله (3). فأبو مروان والأمر كذلك حامل لجانب كبير من التراث الأدبي واللغوى لأبي علي القالي الذي ملأ طباق الأندلس علما، والذى يعتبر كتابه «النوادر» الذى أملاه في مجلس علمه بقرطبة واحدا من أربعة كتب عدها ابن خلدون مخرجة للأديب مكونة لشخصيته الفنية، وأما الكتب الثلاثة الأخرى فهي حسبما هو مشهور : البيان والتبيين للجاحظ، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد. إن أبا مروان تبعا لهذا النسب الأدبي وارتباطه الثقافي بأبي علي القالي وحده يعتبر حاملا لربع الأدب العربي في زمانه إذا ما كانت نظرية ابن خلدون وشيوخه على جانب من تمام الصحة وكال الصواب.

وإذا كان أبو مروان قد أخذ من صاعد البغدادى جانب الأدب من شعر وأخبار، وأخذ جانب الأدب ممزوجا بعلوم اللغة من ابن أبي الحباب حامل علم أبي علي القالي، فإنه قد أخذ اللغة عن شيخ عظيم هو أبو يوسف يعقوب بن السكيت الذى توفى قبل أبي مروان بنحو قرنين وربع من الزمان، فقد توفى الأول سنة 243 قتيلا في قصر المتوكل العباسي، وتوفي الثاني في قرطبة سنة 469، غير أن أبا مروان لحرصه على اكتمال أدوات

---

(3) المصدر السابق الترجمة رقم 25.

الأدب واللغة قد درس أشهر كتـابين لابن السكيت، بل هما من أشهر كتب اللغة على الإطلاق حتى زماننا هـذا، هما كتـاب الألفـاظ، وكتـاب اصلاح المنطق، وقد نال هـذان الكتـابـان من الشهرة والعنـايـة بـأمرهما من شرح وتهذيب وتعليق واختصار ما لم ينلـه إلا القليل من كتب العربيـة، ولمزيـد من الابانة فإن دراسة هذين الكتابين أيضا كانتـا على يـد ابن أبي الحبـاب، وكان ابن أبي الحباب قد درسها على شيخـه أبي علي القـالي، الـذي كان قـد وفد على الأندلس بمجمع علوم المشارقة، غير أن القضيـة الهـامـة هنـا تتجسم في أن أبا مروان لم يكن مجرد دارس للكتابين الجليلين وحسب، وإنما صـار بعد ذلك راوية لها، جاعلا من نفسه حلقة نفيسة في تلك السلسلة الوضاءة التي اضطلعت برواية الكتـابين في الأنـدلس على الترتيب التـالي في كتـاب الألفاظ :

أبي علي القالي، ابن أبي الحباب، ابن حيان، أبي الوليد مالك بن عبـد الله العتبي، عبد الرحمن بن أحمد بن رضا المقرىء، أبي بكر بن خير.

وتقـع الحلقـة التي يمثلهـا أبـو مروان في روايـة اصلاح المنطـق في الأندلس على النحو التالي : أبي علي القـالى، ابن أبي الحبـاب، أبي مروان بن حيان، أبي عبيد البكرى، الشريف بن الأحمر القرشي، ابن خير (4).

كان ذلك هو التكوين الثقـافي والأدبي لأبي حيـان، أو بـالأحرى هو جانب منه، فقد كانت دراسات أخرى كثيرة ينبغى على الـدارس الأنـدلسى ألا يهمل شأنهـا، بل كان عليـه أن يلتزم بهـا وهو يصعـد مراقى سلم المعرفـة، منها القرآن الكريم والتفسير والحديث الشريف والفقـه، وليس من شـك في

4) الدكتور محمود على مكى : تعليقاته بهامش المقتبس صفحتى 58، 59 عن فهرسة ابن خير ص 326.

أن أبا مروان قد أصاب منها قدرا وافيا وإن لم يلتفت مؤرخوه كثيرا إلى ذلك، وتعليلنا لهذا الأمر أن هذه الدراسات كانت أساسية ومن ثم بديهية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد غلبت أخبار اهتماماته الأدبية على أخبار اهتماماته في العلوم الدينية، وإن كان من الأمور المسلم بها أن المؤرخ في الماضي لم تكن تستقيم له الأدوات في فنه ما لم يكن قد درس الحديث الشريف وبرع فيه، لفضل علم الحديث على المؤرخ في تقويم منهجه وتمهيد سبيله، وقد عاش ابن حيان في عصر نماء علم الحديث وتألقه في الأندلس.

على أن ثقافة المرء لا تكتمل أسبابها من الشيخ والكتاب وحسب، وإنما تتسع آفاق تفكيره بالمخالطة وتتشعب قنوات معرفته بالحوار مع أترابه من العلماء، خاصة إذا كان هؤلاء الأتراب من ذوى التخصصات المختلفة والمشارب المتباينة، ولقد كان الأمر كذلك بالنسبة لأبي مروان، فقد كان أصدقاؤه برغم قلة عددهم هم نجوم علماء الأندلس : أبو محمد بن حزم، أبو المغيرة بن حزم، أبو عمر بن عبد البر، أبو الوليد بن زيدون الشاعر، أبو بكر بن أبي الوليد بن زيدون، أبو حفص بن برد، أبو الوليد الباجى.

الحق انها باقة من أعلام علماء الدولة الإسلامية وأدبائها فضلا عن الأندلس، وأن مثل هذه العصبة متى اجتمعت في مكان أو زمان فإن تنوع ثقافة كل منهم، وعمق تفكيره، ورحابة أفقه، وحكمة تجربته، لابد من أن تنضح على الفريق كله علما وفكرا وفضلا، الأمر الذي يجعل كل واحد منهم علما في فنه، فريدا في فكره، فارسا في ميدانه، ولقد كانوا كلهم كذلك، ومن ثم كان أبو مروان أيضا كذلك، علما في التاريخ، فريدا في معرفته، فارسا في الأدب، حصيفا في تجربته.

لقد أثمرت هذه العبقرية التاريخية وتلك الموهبة الأدبية اللتان تميز بها أبو مروان عددا من الكتب الرفيعة قدرا، الدقيقة خبرا، المليئة عبرا، المترعة أدبا الأنيقة أسلوبا، البديعة انشاء، التي أشهرها «المقتبس من أنباء أهل الأندلس» لاشتماله على تاريخ الأندلس ابتداء من الفتح الإسلامي سنة 93 هـ إلى زمن قريب من مولده، أى نهاية خلافة «الحكم المستنصر» الذي توفي سنة 366 هـ.

وأما كتابه الثانى الذي لا يقل قيمة عن الأول فهو «المتين» وهو الكتاب الذى عرف بالتاريخ الكبير، وهو يشمل عصر أبي مروان كله، ومن ثم كان «المتين» حصيلة متابعة، وحصاد معايشة، وثمرة شهادة، فسجل فيه أبو مروان كل شؤون الأندلس السياسية والحربية والحزبية والإجتماعية والثقافية والأدبية، مع ترجمة وافية للمعاصرين له من العلماء والحكام والأدباء والوزراء والقواد، وقد رصع المؤلف كتابه هذا بمقطوعات من النثر الرفيع، وقصائد من الشعر البديع، ونحن حينما نطلق على «المتين» صفة التاريخ الكبير فإنما يأتى ذلك على سبيل الإجتهاد والترجيح، على خلاف ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن التاريخ الكبير هو جماع كتابي «المقتبس» و«المتين» إذ يكاد «المتين» يختص بفترة ملوك الطوائف ومرحلة الفتنة التي سبقتها، وهو ما يشير إليه ابن بسام صراحة حين ذكر المقدمة البليغة التي افتتح بها أبو مروان كتابه «التاريخ الكبير» الذي أهداه إلى المأمون يحي بن ذى النون (5).

وأما الكتاب الثالث فهو «أخبار الدولة العامرية» وهي دولة لأبي مروان فيها نسب وولاء، فقد كان أبوه كاتبها على عهد منشئها المنصور بن

5) الذخيرة القسم الأول الجلد 85/2 ـ 88.

أبي عامر، وفي ظلها نشأ وتربى أبو مروان، وكان رفيق دراسة لثانى أمرائها المظفر عبد الملك، بل أنهما ربيبا ثقافة ورفيقا درب علمى، إذ أن كلا منهما تتلمذ على صاعد البغدادى وابن أبي الحباب، وليس من شك في أن ما سمعه أبو مروان ابن حيان من أبيه، وما أورثه اياه من مذكرات ووثائق، وما قد شاهده أبو مروان نفسه من أحوال تلك الدولة الفتية القصيرة الأجل - فيما لو جاز أن تسمى دولة - قد مكن له من كتابة تاريخ دقيق رحيب للعامريين ودولتهم التي لم تعش غير ثلث قرن من الزمان أو قريبا من ذلك أى من بداية خلافة هشام بن الحكم المستنصر سنة 366 أو بعدها بقليل إلى إطاحة محمد بن هشام بهم وثورته عليهم سنة 399 هـ.

وأما الكتاب الرابع فهو «البطشة الكبرى» وهو عنوان يدعو إلى الإثارة، إن لم يكن مثيرا في حد ذاته، وموضوعه هو بطش المعتمد بن عباد غدرا بعبد الملك بن جهور آخر ملوك هذه الأسرة الجليلة من حكام قرطبة على زمن الطوائف، فكتاب البطشة الكبرى اذن يعنى التأريخ للنكبة التي أوقعها المعتمد بن عباد بالأسرة الجهورية، وهو آخر كتاب ألفه ابن حيان، ولما كان تاريخ استيلاء المعتمد على قرطبة هو عام 462 هـ، فإن ابن حيان يكون قد ألف هذا الكتاب وهو في الخامسة والثانين من عمره أى قبل وفاته بسبع سنين، وهو على الأرجح آخر ما خطه يراع ابن حيان من كتب، وربما كان جزءا من كتاب.

وإذا كانت ثمة ملاحظات حول كتب ابن حيان، فهي أنها كتبت كلها في تاريخ الأندلس، ولم يحاول أبو مروان لسبب أو لآخر أن يكتب في تاريخ أى قطر من أقطار العالم الإسلامي، وإنما قصر نشاطه العلمي على ذلك الأفق الحبيب إلى نفسه، القريب إلى قلبه، دون اتهامه بعصبية أندلسية

ظهرت عند غيره من علماء الأندلس وأدبائه، فإن اهتمام العالم والأديب بأمر وطنه وتاريخه لا يعني عصبية ما بقدر ما يعني لونا من الحماس الذى لا تثريب عليه فيه فإن المؤرخ المصرى الحسن بن زولاق الذى توفي قبل أبي مروان بنحو ثلاثة أرباع القرن (387 هـ) قد قصر كتابته على تاريخ مصر فألف : خطط مصر، وأخبار قضاة مصر، ومختصر تاريخ مصر، وهو مع ذلك برىء من العصبية بعيد عن التطرف، والملاحظة الأخرى عن كتب أبي مروان بن حيان تتبلور في ذلك الأسلوب الأدبي الرفيع الذى صاغ به المؤرخ العظيم موضوعات كتبه، فانتهى بنا إلى حيرة من أمره فنسائل أنفسنا هل كان ابن حيان أديبا أم مؤرخا، إن صديقنا العالم الجليل الدكتور محمود مكي لفرط إعجابه بابن حيان يقول في هذا الشأن : التاريخ معدود من العلوم، غير أنه، تحول على يد ابن حيان إلى أدب خالص (6).

إن توصيف الأستاذ الدكتور مكي لكتابات ابن حيان هو الصدق بعينه، وإن كنا نحن نضع هذا المعنى الذى قصد إليه صديقنا الجليل في صيغة أخرى، تلك هي أن أبا مروان بن حيان كان أديبا مبدعا بطبعه وتكوينه حسبما أوضحنا في الصفحات السابقة، فلما كتب التاريخ لم يبعد فيه عن طبعه، ولم يتنكب سليقته، فكان تاريخه أدبا بقدر ما هو تاريخ، وكان أدبه تاريخا ـ على الأغلب ـ بقدر ما هو أدب. ولقد اعترف ابن بسام بذلك الأسلوب الرفيع رغم حملته على أبي مروان ـ مع كونه عيالا عليه ـ ذلك أن ابن بسام كان إذا استغلق عليه فهم جملة مطموسة في مخطوط تاريخ ابن حيان وهو ينقل منه وأراد تقديمها للقارىء سليمة في نطاق

(6) مقدمة الدكتور مكي للمقتبس ص 129.

السياق عمد إلى ذلك قائلا : إنه «رقع الضحى بالغلس، وجمع بين حافر العير وجبهة الفرس» (7).

(3)

أبو مروان الأديب المنشىء :

سلف القول أن أبا مروان بن حيان قد مهد لنفسه دراسة الأدب واللغة والأخبار والأشعار، وراض نفسه على تعاطي فنون القول واصطحاب أعلام الفكر والأدب ومصاحبتهم مما جعله أديبا مبرزا وصاحب قلم بليغ وأسلوب في الكتابة رصين متين، ولو أنه تفرغ لهذا الفن دون التاريخ لكان واحدا من أبرز أدباء الأندلس، ودرة ثمينة انتظمت عقد مشاهيرهم.

لقد أحس أبو مروان هذه القدرة في نفسه فعمد إلى المشاركة في عالم الأدب والكتابة بعدد كبير من الرسائل التي تنتمي إلى النثر الفني، وكان يطلق عليها الرسائل الإخوانية، كما عمد إلى الترجمة لأعيان زمانه من العلماء والأدباء، والحكام والوزراء من خلال أسلوب أنيق موسوم بالصنعة، مزدان بالسجع، مرصع باللفظة الأنيقة، موشح بحسن الإيقاع، وكثيرا ما كان يصوغ هذه الرسائل أو تلك التراجم في إطار قصة معجبة أو رواية مطربة، لقد أنشأ أبو مروان رسائل في التهنئة والشكر والإستمناح والسياسة والهجاء. إلى غير ذلك من صنوف الشكل الفني للعمل الأدبي.

كان أحد العمال قد أصيب بنكبة ـ وما أكثر ما كان العمال يصابون بالنكبات ـ ولكن هذا العامل، الذى كان صديقا لأبي مروان ـ وحرص ابن

7) الذخيرة قسم أول مجلد 122/2.

بسام على أن يغفل اسمه ـ لقد نجا من محنته، وخلص من مصيبتـه، وخرج سالما من نكبته، فأرسل إليه أبو مروان يهنئه برسالة يقول فيها :

«كتابي عن نفس قد أشرق وجه صباحها، وهبت ريح ارتياحها، وسرى نفس السرور بما فيها بما طلع علينا من البشارة السارة بخلاصك، وجميل انفكاكك ومناصك، على حين بلغت قلوب الأوداء الحناجر، وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمت فيك باسائتها إليك كل منتسب إلى فضل، متسم باسم نبل، وإن كانت قد أصابت فيك سواد ناظرها الذي تضيء به وتتجمل، وسخت منك بحلي جيدها الذى يحق به أن تبخل، فذلك خلق لها لم نزل نصحبها عليه اضطرارا لا اختيارا، فالحمد لله الذى كفى ووفى».

إن أبا مروان بن حيان يعبر عن سروره لانزياح غمة صديقه بهذه الجمل الخلابة والمعانى العذاب، وهو طراز من النثر الفنى البهيج، ولكن معانى التهنئة وحدها ما كانت ليكتفى أبو حيان بازجائها، فمضى على رسله مكملا رسالته بصيغة من القول حكمية يوجهها إلى صديقه، يعرض عليه من خلالها عوارض الزمان ورميات الحدثان وأثر ذلك على نفسية الكريم المعدن الذى لا تزيده المحن إلا نقاء، الأصيل الشمائل الذى لا تفت الشدائد في عضده أو تنال من مروءته. يقول أبو مروان مستدركا مستأنفا غرضه :

«فأنت أعلم بمجارى الأمور، ومصائر الدهور، وأهدى إلى التسليم للمقدور، فلم تورد الأيام عليك من حوادثها المجهول النكر، ولا وردت بالفتكة البكر، ولا هاضت منك بما جنته، ولا هدت من ركنك بما أتته، بل صادفت منك الإبريز الذي لا يزيده السبك إلا تخليصا، والمبرز الذى

لا يعقبه حؤول الأحوال نكوصا، تتلقى الخطوب بصدر وساع، وصبر منفسح الباع، وتسبر الدهر بمسباره، وتعرف من مكتومه حقيقة ايراده وإصداره (8).

إن أبا مروان كان ذا منزلة رفيعة عند الكبراء، ومكانته سامية عند الوزراء، ومرد ذلك عائد إلى علمه وفضله وليس إلى مال أو منصب، فما كان أبو مروان صاحب مال، وما نعتقد أنه كان صاحب مال في كل أيامه لأنه كان يستمنح القادرين من ذى القدرة والمال، وما كان مثل أبي مروان ليفعل ذلك إلا إذا دعت الضرورة وألحت ظروف الحياة.

إن الوزير أبا بكر بن زيدون ـ ولد الشاعر الفذ أبي الوليد ـ وكان وزيرا لبنى عباد بعد أبيه، يعلم بحاجة أبي حيان إلى العون، علم ذلك من رسالة مكتوبة أو خبر منقول، فيكتب إلى الشيخ المؤرخ الأديب هذه الرسالة المترعة بالتبجيل ومعها بعض ما كان أبو مروان في حاجة إليه لنفسه وبيته ومعيشته :

«وللذي أسكن إليه من حسن قبولك، وجميل تأويلك، أقابل بالحقير، وأواجه بالتافه اليسير، ولو تاحفتك بهبة عمرى ما رأيت ذلك كفاء لقدرك، ولا وفاء ببرك، فكيف ما دونه ؟ فلك المنزلة التي لا تسامى، والجلالة التى لا توازى، وما شيء وإن جل إلا ومحتقر لك، مستصغر عند محلك» ويمضى الوزير الجليل على هذا النهج من ابداء مشاعر الإجلال لأبي مروان ومشيرا إلى الهبة التى بعث بها إليه، وكان الوزير من الحياء والأدب بحيث يبدو كما لو كان هو المستمنح لا المانح.

---

8) الذخيرة القسم الأول المجلد 2 ص 95، 96.

إن أبا مروان الكاتب المبدع، المقدر لأدب القول وجميل الصنع وكرم العطاء، يكتب إلى الوزير أبي بكر بن زيدون هذه الكلمات :

«إن لفجاءات المسرات الباغتة لآمال النفوس الحائمة صدمات تذهل الجنان، وتعقل اللسان، فمن فرح النفس ما يقتل، ومن باهر الصنع ما يذهل، ولا كمثل ما فاجأني من فضلك المبتدر ميقاته، المقتضى المزيد فيه على وفاق من إنقاض الأزودة، وخمود المصابيح المعطلة، وعنت من الظنون المخوفة بنكد السنة»، ويمضي أبو مروان في ذكر تفصيلات الهدية من زيت ودهن وقمح وغير ذلك إلى أن يقول :

«وطرقني قطار هديتك الفاجئة غداة أصبحت فيها منفضا عن الزاد، مستوفزا للارتياد، فأجلت عيني منها في حديقة مجد لم يصبها مطر، ولا تكنفها زهر، اكسبت فرحي دهشا، وأحالت بياني بلها، حتى نوولت كتابك الكريم، ونظرت في لئالئه التوم، فيالى به من اهتزاز لذكرك، وارتياح لطولك، فجوزيت أو فى جزاء المنعمين، وأوفر قرض المحسنين، بما أرحت من فكرى بكشفك عني في أديم يوم هم غام، فعمت فيه أوعيتي، وأفهقت آنيتي، مع أنك قتلت شكرى، فلا فضل فيه لمقابلة معروفك إلا امحاض الدعاء لك في حراسة مهجتك، ودوام نعمتك، واستبصار الملك الأعلى عميد الورى مستكفيك، في حسن رأيه فيك، أعاذك الله من عين الكمال، ووقاك طوارق الأيام والليال، وحفظ على زماننا ما فيك من كرم الخلال، وأنهضك بما التزمته من احناث من أقسم أن الجود في عصرنا عدم لا ينال» (9).

---

9) المصدر السابق ص 93 ـ 95.

إن قارئ هذه الرسالة وسابقتها لو أنه نظر فيها دون معرفة اسم منشئها لما خالجه أدنى شك في أن كاتبها واحد من نظراء الخوارزمي أبي بكر أو الهمذاني بديع الزمان أو الصابي أبي اسحاق أو الببغاء أبي الفرج أعلام كتاب النثر الفني في أدبنا العربي.

وكان الأدباء والوزراء والعلماء في زمان ازدهار الحضارة يتبادلون المؤلفات استهداء واستعارة، وكان كثيرون منهم لا يردون العارية غفلة ونسيانا، أو عمدا واستغفالا، ويبدو أن الوزير أبا القاسم بن عبد الغفور قد استعار من أبي مروان سفرا من تاريخه الكبير، وطال وقت لبثه لديه، وخشي عليه أبو مروان من الضياع أو الإهمال، فكتب إلى الوزير هذه الرسالة البليغة :

«ليس يخفى عليك مكان هذه الصحف المستملاة من الصدور، المستعراة من النظير، من أنفس مؤلفيها، وقلوب مصنفيها، فأبثك شأن الاهتمام بها، وناولتك يوم التقينا السفير الحقير، ختام تاريخي المهجور، سائلا علاك تصفحه كيما تكذب ما زور فيه علي، ولا محالة أن قد فعلت، ورددت وجهدت، واستأخر صرفه إلي، فحملت ذلك على نسيانك، لتقسم الأشغال لخاطرك، ولمناخ القلق بي، ويومان من هجر الحبيب كثير، ونفسي متطلعة إلى حضوره حذرا من أن يعدوك، فلا أستقيل فيه الحيرة، فتفضل بصرفه، غانما حمدى إن شاء الله.

إن هذا النص الأدبي يختلف عن سابقيه من حيث النظم الأسلوبي وليس من حيث البلاغة الإنشائية، فقد تخلى أبو مروان هنا عن الصيغة المصنوعة الملتزمة للسجع والمحسنات، وعمد إلى الاسترسال السهل الممتنع، في

غير مـا تخل عن بلاغـة الصـوغ ونصاعـة الأسلـوب وجـلال المعنى ونفـاسـة المحتوى، وكأنما أراد أبو مروان أن يبرهن لقرائه على مسار الأزمنـة أن تمكنـه من مقاليد الأقلام بمنحـه الحريـة في أن يكون منتميا إلى مـدرسـة الصنعـة الملتزمـة التي يمثلهـا من أسلفنـا ذكرهم قبل قليل من الأدبـاء وإلى مـدرسـة الإنطلاق والترسل البليغ التي يمثلها الجاحظ وابراهيم بن العباس والتوحيدى أبي حيان.

ولقـد كتب أبو مروان أيضـا في الهجـاء والهبـاء المطلق فن من القول غير شريف وقد كان قلمه يقطر سما قاتلا ومعانيه تنضح سهامـا داميـة، غير أننـا نسـارع فنقرر أن أبـا مروان لم يكن ذلـك الكاتب البغيض والأديب الهجاء حسبما وصفه ابن بسام بقولـه : (10) «كان سهما لا يثمى رميـه، وبحرا لا ينكش آذيـه، لـو ثلب المـاء مـا نقـع، أو تعرض لابن ذكـاء مـا سطـع، يتنـاول الأحسـاب قـد رسخت في التخـوم، وأنـافت على النجـوم، فيضـع منارها، ويطمس أنوارها، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد، وأمكن من عذر الطبيب عند العود».

الحـق ان ابن بسـام في وصفـه هـذا لأبي مروان قـد أخطـأ الطريـق وجانب التوفيق، ان الكاتب الذى يترفع قلمه عن الهجـاء في حـالات كثيرة أو قليلة نادر الوجود في قـافلـة الأدبـاء، ومن ثم فقـد يصعب أن ينكر على أبي مروان أنه هجا، وفرق كبير بين أديب عمد في أعمـالـه مرة أو مرات إلى الهجاء وآخر صار الهجاء شيته والثلب سجيتـه، لقـد كان أبو مروان في واقع الأمر من الفريق الأول، أما نماذج الهجاء التى تمثل لـه بهـا ابن بسـام، والتى

10) الذخيرة القسم الأول المجلد 85/2.

سنورد بعضها بعد قليل فهي هجاء في حكام عرفوا بالعسف والظلم، أو وزراء اتسموا بالجهل والبخل، أو أمراء اشتهروا بسفك الدماء وقتل الأبرياء وتدمير العمران، أو قضاة تنكبوا سبيل العدل وأسرفوا في أحكام الظلم.

إن هذه الفئة من الأعلام تعتبر شخصيات عامة، والشخصيات العامة إذا كانت مسرفة في الانحراف ربما لا يجرؤ كاتب على كشف سؤاتها حال حياتها، ومن ثم يكون ذكر جرائمها بعد وفاتها أمرا مفيدا، وان صيغ في قالب شديد من الثلب واطار موجع من الهجاء.

يصف أبو مروان حاكا ظالما حين بلغه خبر وفاته قائلا : «ونعى إلينا فلان الدغل، غاز له السل، كالأفعوان الصل، وكان أحد أعاجيب الدنيا في الفجور والخبث، والزهو والكبر، والعقوق والجرأة، وانكدر أثر مهلك الجبارين المذكورين، وكان من أكابر الظلمة المترقين من السمسرة صدور الفتنة، يجوب البلاد ابتغاء المعيشة، ولا يحاشي الترقيح، عن ارتكاب كل قبيح، ولم يكن إلا كلا، حتى فتحت له أبواب الرزق على عاميته، وأفنه وأميته» (11).

ويصف أبو مروان ملكا ظالما بخيلا لعله من أولئك الملوك الذين مزقوا الأندلس وعرفوا بملوك الطوائف، فإن وصف أبي مروان له يدل على ذلك، وموقف أبي مروان من ملوك الطوائف ـ وإن دارى بعضا منهم ـ معروف، فهو يرى أنهم السبب في تمزيق الأندلس وخروج الإسلام منه، فهو والأمر كذلك منسجم مع ذاته، صادق مع حسه، مستجيب لحقيقة رأيه. يقول أبو مروان في هذا الملك : (12)

---

11) المصدر 104، 105.

12) المصدر السابق ص 98، 99.

«وكان من البخل بالمال، والكلف بالإمساك، والتقتير في الإنفاق، بمنزلة بذ فيها ملوك عصره. لم يرغب قط في صنيعة، ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد بمعروف، فما أعملت إلى حضرته مطية، ولا عرج إليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر، ولا حظى أحد منه بطائل، ولا استخرج منه درهم في حق ولا باطل، فأصبح في اللؤم قريع دهره، وفريد عصره، لا يعدله فيه ملك ولا سوقة، وكان فرط الثوار بصقع الأندلس في ايثار الفرقة وتشتيت كلمة الجماعة، فاقتطع ناحية، وتفرد في الشقاق، وصار جرثومة الخلاف والنفاق».

إن الهجاء هنا هجاء سياسي، أو هو رأي يسجل على لسان معارض وإن عنف لفظه وخشن أسلوبه، وربما بدا واضحا من السطرين الأولين من الرسالة موقف أبي مروان من كل ملوك الطوائف، فهو يعرض بهم جميعا ويخلع عليهم صفات غير مشرفة، غير أنه جعل مهجوه هذا أقبح منهم وأدنى إلى الدنية في نقائص شارك بعضهم بعضا فيها.

وربما كانت أشد صيغ الهجاء وأكثرها حدة تلك المقطوعة النثرية التي كتبها أبو مروان عند سماعه نعى زاوى بن زيرى، وربما كان زاوى هذا هو الملك الوحيد الذى صرح ابن حيان باسمه بين مجموعة الأعيان الذي سلط عليهم شواظ قلمه وجام غضبه ولهيب هجائه.

ومن الغريب أن أبا مروان قد خص «زاوى» هذا بكثير من العناية والأخبار التي ربما لم يلتفت إليها ابن بسام، وإن كان لسان الدين قد أورد الكثير منها في الإحاطة، فذكر أنه حين قدم من افريقية لزم المنصور بن أبي عامر وكان أحد حجابه، ثم اشترك في الفتنة البشعة التي مزقت قرطبة

خاصة والأندلس عامة، ثم أقام ملكا بغرناطة بعد أن جمع البربر حوله وقومه الصنهاجيين منهم بصفة خاصة.

لقد ترك زاوى بن زيرى الأندلس مختارا في جمع من جيشه وأهله سنة 416 هـ مخلفا وراءه ملكا وجاها، وركب البحر عائدا إلى افريقية (13).

غير أن الصور البشعة والجرائم المنكرة التى شاهدها ابن حيان بعينى رأسه يقترفها البربر وعلى رأسهم «زاوى» هذا الذى كان غير بعيد عنه بحكم أولية كل منهما في بلاط المنصور بن أبى عامر، قد تركت في ذاكرة ابن حيان جروحا غائرة، وألوانا من السخط ظلت مخزونة إلى أن نفس عنها بهذه المقطوعة من القول الحاد التى كتبها حين جاءه نعى زاوى فقال : (14).

«ونعى إلينا عدو نفسه، زاوى بن زيرى، موقد الفتنة بعد الدولة العامرية. ورد النبأ بهلكه في القيروان وطنه، بعد منصرفه اليها خاملا مغمورا بين أعاظم قومه، لم يرتفع له ذكر بينهم، مهلكه كان زعموا من طاعونة أصابته، فالحمد لله المتفرد بإهلاكه، الكفيل بقصاصه، فلقد كان في الظلم والجور والاستحلال للمحارم والقسوة آية من آيات الله، أهان الله مثواه، ولا قدس صداه».

وإذا انتقلنا بابن حيان من نطاق كتابة الرسائل إلى مجال آخر من ميادين الكتابة الفنية وجدناه يضرب بسهم وافر في نطاق الإبداع القولى

13) الإحاطة 513/1 ـ 517.

14) الذخيرة القسم الأول المجلد 99/2.

حين يترجم لأعلام زمانه، وأصدقاء مسيرته، ورفاق شبابه وشيخوخته من أمثال أبي محمد بن حزم وأبي عامر بن شهيد، وأبي الوليد بن زيدون، بل انه لا يقصر عن تلك الحدود البلاغية حين يترجم لغيرهم من أعلام الزمان ممن لم يتصل بهم بوشيجة، أو يرتبط بهم بصلة من أعلام زمانه في الأفق الأندلسي الرحيب.

إن أبا مروان بن حيان قد أنشأ في هذا السبيل مدرسة فنية في التراجم الأدبية، سار على دربها ونسج على منوالها كثيرون ممن جاءوا بعده، واعتمدوا على كتبه وبخاصة ابن بسام في «الذخيرة» والفتح بن خاقان في «قلائد العقيان».

إن أبا مروان يترجم لمعاصره وصديقه أبي محمد بن حزم فيصف علمه وما كان يتقن من حديث وفقه وجدل ونسب ومشاركة في المنطق والفلسفة، واتباعه مذهب الإمام الشافعي أول أمره ثم تحوله عنه إلى مذهب الظاهرية وثباته عليه إلى أن لقي ربه.

يقول أبو مروان في شأن ابن حزم وتشدده فيا يعتقد من فكر، وعنفه مع العلماء حتى ناصبوه العداء : «... فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض، ولا يزفه بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه متلقيه انشاق الخردل، فينفر عنه القلوب، ويوقع بها الندوب، حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه، وردوا قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة، وبها توفى رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمائة».

ويمضى ابن حيان في مرحلة أخرى من ترجمته لأبي محمد قائلا : «لا يدع المثابرة على العلم، والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف، حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير، لم يعد أكثرها عتبة بابه، لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها، حتى أحرق بعضها باشبيلية، ومزقت علانية، لا يزيد مؤلفها في ذلك الا بصيرة في نشرها، وجدالا للمعاند فيها إلى أن مضى لسبيله» (15).

لعلنا لا حظنا ظاهرتين هامتين في هذه الترجمة، الأولى صفاء ديباجة الكلام مع عدم التزام للسجع إلا ما جاء منه مسايرا الطبع، والثانية هي تلك الأمانة المطلقة في الترجمة في غير ما مجاملة أو مدافعة على الرغم مما كان بين العالمين الجليلين من صداقة طال مداها، ومودة توطدت على الزمان عراها، فإن هذه مزية كبرى لأبي مروان في تاريخه الموسوم بالصدق، ما رصع منه في ثوب الأدب المصنوع، أو ما سجل منه في نهج التاريخ المطبوع.

ومن أعلام الأدب والشعر والسياسة الذين ترجم لهم أبو مروان بن حيان، شاعر الأندلس ووزير ملوكها وسفيرهم أبو الوليد أحمد بن زيدون، لقد نثر ابن بسام فقرات متباعدة من ترجمة ابن حيان لابن زيدون على مساحات متناثرة من كتابه «الذخيرة» فمن هذه الفقرات على سبيل المثال الأيام الأخيرة من حياة إبن زيدون، وكان قد عاد إلى قرطبة موطنه الحبيب، وأقام بها بعض الوقت قرير العين حين فتحها المعتمد بن عباد، ثم صدر الأمر إليه بالسفر إلى اشبيلية حاضرة بنى عباد في صحبة جيش

15) الذخيرة القسم الأول المجلد 141/1، 142.

لاخماد شبهة فتنة حدثت فيها، وكان الشاعر الوزير السفير آنذاك في سن متقدمة ومرض ملازم، وكان ابنه أبو بكر وزيرا بدوره مع أبيه في قرطبة، فصدرت إليه الأوامر كي يلحق بأبيه في اشبيلية بتدبير خسيس من حاسدين لابن زيدون هما ابن مرتين وابن عمار. ولنكمل بعد ذلك هذا الجانب من الترجمة بقلم ابن حيان حيث يقول : «فعندها استصاغا غصته، واستها مكانه، واحتويا على خاصة السلطان وتدبير دولته، ولكل دولة رجال، ولكل مكتف أبدال، ولم يطل الأمد بابن زيدون ـ رحمه الله ـ بعد لحاق ابنه به، ووجدانه اياه متزايدا في مرضه، نازحا عن ألافه، على جهده في استدعائها على انتهاء المدة، وانتهاك القوة، فاستقر به وجعه، إلى أن قضى نحبه، وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين (وأربعمائة) فدفن بها مشهودا مفتقدا، واحتوى تربها عليه، فيابعد ما بين قبره وقبر ابنه لدينا (16) رحمة الله عليهما. فقد تولى من أبي الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا، وبراعة ولسانا، وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا، بمرتبة لم يخلف لها بعده عاطيا، بقرانه بين الكلامين، وبراعته في الفنين، إلا أن يكون عند أولى التحقيق والتحصيل في النظم أمد طلقا، وأحث عنقا، فلا يلحقه فيه تقصير ولا يخشى رهقا، شهوده في الفنين عدول، مقانع حضور عند أهل المعرفة» (17).

وفي فقرة أخرى من فقرات ترجمة أبي مروان لابن زيدون يقول : «وكان أبو الوليد ممن أنشأته دولة الجهاورة، واصطفته اصطفاء الفرس للأساورة، اختص بأبي الوليد ممن أنشأته دولة الجهاورة، واصطفته اصطفاء

---

16) توفي أبو الوليد بن زيدون حسبما هو واضح أعلاه باشبيلية، وأما ولده أبو بكر فقد توفي قتيلا بقرطبة وكان كلاهما صديقا لأبي مروان.

17) الذخيرة القسم الأول المجلد 354/1 ـ 356.

الفرس للأساورة، اختص بأبي الوليد (ابن جهور) اختصاص القرح بالنور، وارتبط بهم ارتباط الإفاضة بالفور، وأبو الحزم بن جهور إذ ذاك رأس الجماعة، وأصل تلك الامرة المطاعة، من رجل أدهن من فقيد عمان، وأجرأ من ليث خفان، وأدهى من عمرو بن الجمان. وكان ابن زيدون متصلا بابنه أبي الوليد أطول حقبة، اتصال أبي زبيد بالوليد بن عقبة، وبينهما تآلف أحرما بكعبته وطافا، وسقيا من تصافيهما نطافا، وابن زيدون يعتد ذلك حساما مسلولا، ويرى أنه يرد به صعب الخطوب ذلولا، إلى أن طلب عند أبيه أبي الحزم وتوسل، فاستدفع به تلك الأسنة المشرعة والأسل، فما ثنى إليه عنان عطفه، ولا كف عنه سنان صرفه، مع استعطافه له بكل مقال يحل سخائم الأحقاد، واستلطافه اياه بما يرد الصعب سلس القياد، فمن بديع ذلك وأحسنه قوله :

إيــــه أبـــا الحــزم اهتبــل غرة
ألـنـــة الشكر عليهــــا فصــــاح

لا طـــار لي حـــظ إلى غـــايـــة
إن لم أكن منـــك مريش الجنـــاح

عقبـــاك بعـــد العتب أمنيـــة
مـــا لى على الــدهر ســواهــا اقتراح

لم يثنني عن أمـــل مــــا جرى
قــد يرقع الخرق وتـؤسى الجراح (18)

18) المصدر السابق ص 357.

إنه من الوضوح بمكان أن أبا مروان بن حيان في صياغته ترجمته هذه لابن زيدون كان أديبا أكثر منه مؤرخا، وفنانا أكثر منه مترجما، صحيح أنه تخلى في بعض المواضع عن السجع حيث كانت تقتضى الضرورة الاخبارية ذلك، ولكنه حين تحدث عن شخص ابن زيدون، كان كاتبا صناعا، ملتزما للسجع، مستمسكا بالديباجة المشرقة، بل كانت سمة الفنان واضحة في انفعاله بالأحداث، وتمجيده لابن زيدون، واظهار الأبى لمرضه ونهايته، بل أنه رصع الترجمة بقصيدة من شعر ابن زيدون جعلها جزءا من الترجمة، لأنها جزء من الخبر الذى يرويه. والطريف في الأمر أن أبا مروان مع اصطناعه الأسلوب الفنى، وانفعاله بالأحداث التي أحاطت بطرف من حياة ابن زيدون، وايراده بعض شعره لم يعد الحقائق الحادثة ولم ينفلت عن الإنضباط التاريخى.

كان كل من أبي محمد بن حزم وأبي الوليد بن زيدون صديقين لأبي مروان، فهو يترجم لهما من منطلق المعايشة والرؤيا والمتابعة والمخالطة، فما هو الموقف ازاء من ترجم لهم من معاصريه ولم يلتق بهم ؟ إن أمر ذلك بسيط، فلقد كان أفق الأندلس على الرغم من بعض المحن متصل الأقطار، مترابط الأسباب، بالرحلة والرسالة والسفارة والكتاب، بل كان الأمر كذلك عبر البحر جنوبا حيث شمال افريقية، ومن ثم كانت الترجمة لهذا العلم أو ذاك من المعاصرين أمرا مقدورا عليه ممن هم مؤهلون لذلك، وكان أبو مروان سيد المؤهلين لذلك دون ما جدال. إنه يترجم لوزير يهودي اسمه يوسف بن اسماعيل تقلد أمور الوزارة لباديس بن حبوس بن زيرى الصنهاجى ملك غرناطة الذى كان يعرف بالجبار لشدة فتكه بالناس، وهو ابن أخ زاوي بن زيري الذي لعنه ابن حيان حين بلغه نعيه، وإن كان كل من زاوى وباديس هذا متقاربين في العمر.

لنعد إلى أبى مروان ولننظر كيف ترجم لهذا الوزير اليهودى الذي تعصب لقومه ثم تبعه في تعصبه بعد وفاته ولده اسماعيل الذى قتله المسلمون لفرط اهماله أمورهم ولشدة عصبيته لقومه من اليهود مع كونه كان قد أظهر إسلامه يقول أبو مروان بن حيان في يوسف بن اسماعيل.

«كان هذا اللعين في ذاته، على ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمل الرجال علما وحلما وفهما وذكاء، ودماثة وركانة ودهاء، ومكرا، وملكا لنفسه، وبسطا من خلقه، ومعرفة بزمانه، ومرارة لعدوه، واستسلالا لحقودهم بحلمه، ناهيك من رجل كتب بالقلمين، واعتنى بالعلمين، وشغف باللسان العربي ونظر فيه، وقرأ كتبه، وطالع أصوله، فانطلقت يده ولسانه، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربى فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتزكية لدين الإسلام. وذكر فضائله ما يريده، ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام، فجمع لذلك «السجيع في علوم الأوائل الرياضية» وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية، ويشارك في الهندسة والمنطق، ويفوق في الجدل كل مستول منه على غاية، قليل الكلام مع ذكائه، ما قتا للسباب، دائم التفكر، جماعة للكتب، هلك في العشر الثانى لمحرم سنة تسع وخمسين وأربعمائة، فجلل اليهود نعشه، ونكسوا له أعناقهم خاضعين، وتعاقدوه جازعين، وبكوه معلنين» (19).

مرة أخرى نقرر أن أبا مروان كان يلتزم الأسلوب الناصع، والكلمة التي لا تكاد تؤدى معناها كلمة أخرى لثروته اللغوية وحصيلته الأدبية، فهو تارة يلتزم النهج الإبتداعى في الأسلوب التزاما يكاد يكون كاملا، وتارة

(19) الإحاطة 438/1، 439.

أخرى يتخلى عنه تخليا يكاد يكون كاملا، ومرة ثالثة يعمد إلى المزج بين الأسلوب المرسل والأسلوب المصنوع، وهو في حالاته جميعا يحمل قلم الأديب وفكر الأريب وعلم اللبيب.

إن الأمر الذى لا مراء فيه بعد ذلك هو أن أبا مروان بن حيان، كان أديبا مبدعا، وكاتبا لامعا، استقامت له أسباب الكتابة الفنية وألقت إليه راضية مقاليدها، فهو صاحب وسائل فيها شديدة الإعلان عن نفسها، وكاتب رسائل إخوانية واجتماعية شديدة التماثل مع أترابها مما أبدعته أقلام الكتاب الأندلسيين، وهي في الوقت نفسه تجرى في مضمار المنشئين المشارقة من أصحاب الأقلام القديرة، ومؤسسى مدارس الكتابة الفنية المعروفة للدارسين، المألوفة عند المتأدبين، وهو بهذا الاستعداد وبتلك الملكة الأدبية قدم أفضل تاريخ للأندلس وصار إمام مؤرخيه وشيخهم.

أما فنون الأدب الأخرى من شعر ونقد وحكاية، فإن أبا مروان لم يدع أن له في تلك الميادين سهما يريش أو قلما يبدع أو فكرا يسجل، ولكن ربما كانت له آراء سريعة أتت عفو الخاطر وبنت الساعة في قصيدة ألقيت على مسامعه، أو وقع ناظراه عليها على صفحة قرطاس، أو بين دفتي كتاب.

(4)

أبو مروان يؤدب لغة التاريخ :

التاريخ علم من علوم الحياة جرى العرف على أن يكتب باللغة المألوفة التى ليست من التدنى بحيث تكون سوقية، ولا من فرط التأنق بحيث تكون قطعة أدبية، ولكن أبا مروان تجنب اللغة المألوفة التى جرى

المؤلفون والعلماء على استعمالها حين يكتبون فنون العلم المختلفة وعمد إلى استعمال لغة أدبية راقية جعلت من كتبه أقرب شيء إلى أدب ممزوج بالتاريخ، وكتب تاريخ صيغت بقلم تسامت رقته وتأنقت صنعته، ولذلك كانت كتب أبي مروان بن حيان متميزة بتلك السمات بين سائر كتب التاريخ على نفاسة قدرها ومكانة أصحابها.

إن أبا مروان يلتزم هذا الأسلوب الناصع البيان، المشرق البنيان، في كل كتاباته التاريخية على تميز موضوعاتها من سياسة وحرب وتراجم ووصف للحياة العامة وسرد للأخبار الهامة، وإن اختلفت طبيعة الصنعة البيانية بين التزام الاسجاع أو التحرر منها تبعا لطبيعة الموضوع التاريخي الذى يتناوله بالدراسة والتقديم، بل إن أبا مروان كان يعمد إلى اختيار الشواهد الأدبية التي يتمثل بها لهذا أو لذاك من الأعلام اختيارا يصور حقيقة المواقف وطبائع الأمور، ولم يكن يفوته مع ذلك أن يعلق بكلمة نقد طريفة، أو بتنبيه عابر على ما لا يعجبه من شعر أو نثر حسبما فعل في حفلة اعذار أحفاد السلطان ابن ذى النون.

فإذا ما كان أبو مروان يكتب في مجال السياسة وجدنا الأمر على نفس الشاكلة التى ذكرنا، أنه يتناول موضوع أخذ عهد الحكم المستنصر لولده هشام وكان صغيرا لا يصلح لولاية أمر المسلمين متخطيا المؤهلين لهذا الأمر من إخوته، فيسجل هذا الأمر تسجيلا تاريخيا أمينا، أعطى شخصية الحكم حقها من الاشادة بها والحمد لسجاياها، ولكنه عاب تصرفه هذا ونقده نقد البصير بأمور السياسة الخبير باستقراء أحداث التاريخ. يقول مروان في هذا السياق :

«انتهت خلافة بني مروان إلى الحكم تاسع الأئمة فيها، فتناهت في السرور والجلالة والكمال والأبهة، ونظم رواة الأخبار، وحملة الآثار، من مناقبه ما طار كل مطار، في جميع الأقطار، إلا أنه ـ تغمد الله خطاياه ـ مع ما وصف من رجاحته، كان ممن استهواه حب الولد، وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا، دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى، ووهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته، وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله ـ يعني العباسيين في بغداد ـ فأتاها هو مختارا ولا راد لأمر الله، وذلك أنه نفس بسلطانه على ثلاثة رجال من إخوته ولد الناصر : عبد العزيز شقيقه، والأصبغ والمغيرة، مع جماعة من ولد الخلفاء كهول وشبان، ما فيهم إلا مضطلع للأمر قوى عليه، فتخطى جماعتهم إلى ابنه هشام وهو في الوقت طفل ما بلغ الحلم...» (20).

ويمضي أبو مروان مكملا الخبر موردا تفاصيل المؤامرة التي قام بها فتيان من فتيان الحكم هما جؤذر وفائق من اخفاء موت الحكم حتى يدبرا الأمر للأمير الصغير، ويحولا بين تولى من يصلح للخلافة من أعمامه، فكان أن عطلت الخلافة، واستولى على الزمام أحد الحجاب هو المنصور بن أبي عامر على النحو المعروف.

الحصافة هنا لا تقف بأبي مروان عند بلاغة الصياغة التاريخية في هذا الإطار الأدبي من التعبير، ولكن الرجل يستمد أحكامه العاقلة الناقدة من

---

20) الذخيرة القسم الرابع المجلد 40/1.

معرفة واسعة بتاريخ المسلمين في المشرق والمغرب، ومن منطق دربته الثقافة وقومته تجارب الأيام.

وإذا كان أبو مروان قد ذكر خبر الخطأ الذى وقع فيه الحكم المستنصر من قبيل الرواية، وقد كان قريب العهد بالحادث معاصرا لنتائجه، لا مسا مضاره، مكتويا بآثاره، فإنه قد شاهد بنفسه بداية حكم المستظهر بالله أبي المطرف عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الناصرى الذى لم تستمر إمارته غير سبعة وأربعين يوما انتهت بمقتله في الثالث من ذى القعدة سنة 414 هـ وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عاما.

لقد اختير المستظهر عبد الرحمن من بين ثلاثة هو واحد منهم عن طريق الشورى في مسجد قرطبة، وكان متخفيا أثناء الفتنة، فلما تم القضاء عليها، فرشحه أهل الإختيار هو وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن العراقى.

إن أبا مروان يؤرخ لهذه المرحلة الخطيرة من تاريخ الأندلس وكان حاضرا البيعة قائلا :

«وكنت فيمن حضر المقصورة يومئذ فكان أول من وافى منهم سليمان بن المرتضى، جاء مع عبد الله بن مخامس الوزير في أبهة وشارة دلت على المراد فيه، فدخل من باب الوزراء الغربى والسرور باد عليه، فاستقبله أصحابه وقدموه إلى بهو الساباط، فأجلس هناك على مرتبة لا تصلح لأحد سواه، وهو بهج جذلان لا يشك في تمام الأمر له، وأصحابه يرتقبون مجىء ابنى عمه المذكورين ـ وقد أبطأ كيا يحصلوها عنده، فبينما نحن على ذلك ـ والكلام لأبي مروان ـ والقلق على القوم باد، إذ غشيتنا ضجة وزعقة هائلة

ارتج لها الجامع، واضطرب لها من بالمقصورة، فإذا عبد الرحمن بن هشام قد وافى شرقي الجامع في خلق عظيم من الجند والعامة، وقد تكنفه أميرا الدائرة محمود وعمير في رجالها، شاهرين سيفيهما أمامه، لمجين باسمه، فراع الوزراء ذلك، وألقوا للوقت بأيديهم، وخذلتهم حيلهم، ودخل المقصورة عبد الرحمن فبويع لوقته، واستدعى سليمان بن المرتضى، وجيء به مبهوتا فقبل يده فأجلسه إلى جنبه، ثم وافى محمد بن العراقي أيضا فقبل يده وبايعه، ثم عقدت له البيعة وذلك اليوم الرابع من شهر رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة».

ويمضي أبو مروان مستكملا وصف هذه الحادثة الفريدة، مؤرخا لها في دقة وبلاغة وبيان مع تعليقات حاسمة على بعض المواقف على هذا النحو :

«وكان أحمد بن برد قد تقدم في عقدها ـ أي البيعة ـ باسم سليمان بن المرتضى فبشره وحك اسمه، وكتب اسم عبد الرحمن مكانه، فكان ذلك من عجائب الدنيا. ثم ركب عبد الرحمن وحمل مع نفسه ابني عمه سليمان وابن العراقي فاحتبسهما عنده وآنسهما، وظهرت من عبد الرحمن لوقته عرامة، وكان فتى لو أخطأته المتالف، وكان استقل بما طلبه من السلطان جرأة وصرامة، وركب أعناق الخطوب وقد اعتاصت فأردته. وكان رفع مقادير مشيخة الوزراء من بقايا مواليه بني مروان، منهم أحمد بن برد وجماعة من الأغمار وكانوا عصابة يحل بها الفتاء، ويذهب بها العجب، قدمهم على سائر رجاله فأحقد بهم أهل السياسة، فانقضت دولته سريعا، منهم أبو عامر بن شهيد فتى الطوائف، كان في قرطبة في رقته وبراعته وظرفه، خليعها المنهمك في بطالته، وأعجب الناس تفاوتا ما بين قوله وفعله، وأحطهم في هوى نفسه، وأهتكهم لعرضه وأجرأهم على خالقه. ومنهم أبو محمد بن حزم،

وعبد الوهاب ابن عمه، وكلاهما من أكمل فتيان الزمان فهما ومعرفة ونفاذا في العلوم الرفيعة» (21).

هكذا يعرض ابن حيان ما قد شهده بعيني رأسه، وما قد عايشه في تلك الفترة وما تابعه من سوء تصرف الأمير الشاب ومجانبة التوفيق له في السياسة وفي اختيار رجاله، والغدر بالمقربين، وتقريب البعيدين، واسناد الوزارة لبعض من هم ليسوا أكفاء لها، فضلا عن سوء معاملته لابني عمه اللذين كانا من أهل البيعة، أى من ذوى المقامات والكفايات والمروءات والإجلال عند الناس.

على أن ابن حيان وهو يلتزم حقائق التاريخ ـ إذا كان قد نال من المستظهر في مقدرته السياسية ومسلكه في الحكم ـ فإنه قد سجل له المآثر الشخصية التي كان يتمتع بها من ذكاء وأدب وبلاغة وخطابة وشعر وتصوف، ويكمل هذه السجايا قائلا : «يزين ذلك بطهارة أثواب، وعفة، وبراءة من شرب النبيذ سرا وعلانية، وكان في وقته نسيج وحده، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين، فلم يأت بعده مثله» (22).

إن هذه الشهادة من أبي مروان في المستظهر عبد الرحمن بن هشام بعد مقتله، وبعدما شهد من سوء تدبيره الملك القصير الذى تسنم عرشه، لهي أمر فاصل وحكم قاطع على مكانته بين أقربائه المعاصرين له والقلة القليلة ممن ولى الملك بعده منهم.

كان هذا تأريخ أبي مروان لأمير لم يستمر ملكه أكثر من سبعة وأربعين يوما، لنقص في تمرسه بأسباب الحكم، ومع ذلك فقد وصفه بأنه

21) الذخيرة القسم الأول المجلد 35/1، 36.

22) المصدر السابق ص 40.

خاتم فضلاء أهل بيته، ولكن أبا مروان يتنبه إلى الكارثة منـذ وقت مبكر، ويتنبأ بما سوف يجره التحاسد والاختلاف بين أبناء البيت الواحد من قضاء مبرم على تلك الدولة الأموية الأنـدلسيـة الفخيـمة، إنـه السبب نفسـه الـذي قضى على دولة أسلافهم في المشرق، ويرى أبو مروان أن سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، كان أحد المعاول في هـدم هـذا الصرح الكبير إن لم يكن معولا متميزا بالهدم أكثر من غيره.

لقد ملك سليمان هذا قرطبـة مرتين، بويع في الأولى في منتصف ربيع الأول سنة 400 هـ ثم خلع، ثم عاد إلى الإمـارة ثـانيـة فكانت خلافتـه ـ إن صحت التسميـة ـ في المرتين ست سنين وعشرة أشهر، يصفهـا أبـو مروان قائلا : (23) «كانت كلها شدادا نكدات، صعابا مشؤومـات، كريهـات المبـدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقـد محـذور، مـع تغيير السيرة، وفقـد الهيبـة، واشتعـال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، وحلول المخافة، دولة كفـاهـا ذمـا أن انشأها شانجه، فقشعها أرمقنـد، وثبتهـا الجلالقـة، ومزقتهـا الفرنجـة، ودبرهـا فـاجر شقي، ووزر لهـا خب دني، فتمخضت عن الفـاقرة الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدنى، مما طوى بسـاط الـدنيـا، وعفى رسمهـا، وأهلك أهلها »

ويستطردأبومروان في شرح فسادهذا المستعين من قهر وسطو واستباحة لكل شيء، فكان ذلـك حسب نص أبي مروان : « أجلب لنفـار القلـوب، وقرف الندوب، وبعـد الشرود، ونبش الحقود، لما وتر جميعهم بـالحـادثـة في

23) الذخيرة القسم الأول، المجلد 25/1.

قرطبتهم، فاستشعروا بغضه، وانقادوا لكل من عانده ورد أمره، من عبد أو حر، فزعا إليهم منه، ويأسا من خير يجيئهم من برابرته، فكان ذلك سببا في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف ».

كان أبو مروان إذن هاضما فلسفة التاريخ وليس مؤرخا وحسب، فهو يقدم الأسباب وينتهي إلى النتائج، وقد فرض شخصيته المجربة، وحاسته المبصرة، واستنباءاته البديهية على قلم تملك أسباب التعبير الدقيق، والأسلوب المتين الذي يتراوح بين الشدة والرقة حسب طبيعة الزاوية التاريخية التي يتناولها، فكان هذا النتاج التاريخي الصادق وهذا الأسلوب العربي الدافق، وإذا كان أبو مروان هنا قد اشار إشارة سريعة إلى مشاعره حيال ملوك الطوائف، فإنه في مواضع أخرى من كتاباته (24) قد حملهم جريمة تمزيق الأندلس وخيانة خروج الإسلام من تلك البلاد التي لا يصدق عقل حق الآن، كيف خرج الإسلام منها، بعد أن افاض منها الخير والنور والمعرفة والحضارة على أركان الأرض المعمورة آنذاك.

كان أبو مروان بكل إنسانيته وإسلامه ووطنيته وصدقه مع نفسه ومع الأجيال التي تقرأ تاريخه منصفا في حملته على ملوك الطوائف، وكراهيته لهم، وازدرائه لأكثر أشخاصهم، لأنهم بحربهم بعضهم بعضا، عوض أن يحاربوا عدو الإسلام والمسلمين، قد هيأوا كل الأسباب الخسيسة لإخراج الإسلام من اسبانيا. لقد كان أبو مروان شاهدا على حروبهم وقتلهم بعضهم بعضا، مستعملين من الأساليب الدنيئة ما تأباه تقاليد الحرب مع أعداء الإسلام فضلا عن حرب الطرفان فيها من المسلمين، والأمر الأكثر قبحا أنه كثيرا ما كان هذا الملك أو ذاك من ملوك الطوائف يترصد لخصمه وهو يقاتل

(24) البيان المغرب 2 / 254.

الأعداء من الفرنجة فينصب له ولجيشه. الكائن حتى يمزقه شر ممزق،مثلما فعل ابن الأفطس مع إسماعيل بن عباد وهو يتقدم إلى أرض غليسية سنة 425 هـ، آنذاك تربص ابن الأفطس بالجيش المسلم العائد من بلاد الأعداء وانقض عليه فأهلك الجيش المجاهد العائد، وانتهز النصارى الفرصة فاقتنصوا فلول الجيش المسلم اقتناصا، أما اسماعيل بن عباد فقد استطاع الهرب مع قلة من أنصاره حتى وصلوا إلى «إشبونة» على ساحل المحيط وقد عضهم الجوع بأنيابه في الطريق فكانوا يذبحون خيولهم ويغتذون بلحومها (25).

والمؤرخ الواعي الحصيف لا يفوته وصف الأحداث ذوات الطابع الاجتماعي، أو بالأحرى الأحداث التي يتأثر بها المجتمع، ويردد صداها، ويتابع أخبارها وإن كانت صادرة من قصور الخلفاء أو الأمراء أو الحجاب أو الوزراء؛ ولقد أورد أبو مروان في تواريخه من ذلك الشيء الكثير، وكان يعلق عليه حينا ويغفله ـ ربما عن عمد ـ حينا آخر.

من الصور الغريبة التي اهتم ابن حيان بتسجيلها في تاريخه، حادثة احتفال المأمون بن ذي النون بإعذار حفيده يحيى، تلك الحادثة التي احتلت عددا غير قليل من الصفحات، يقول في الإعداد لها :

«وأمر ـ المأمون ـ بالاستكثار من الطهاة والانتقاء للقدور، والإتراع للجفان، والصلة لأيام الطعام، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام، والإغراب في صنعة ألوانها، مع شياب أباريقها بالطيوب الزكية، والقران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد، وحلو وحامض، والمماثلة بين رائق أشخاصها، وبين ما تودع فيه من نفائس صحافها... فجاؤوا في ذلك كله بأمر كبار، أبيدت لمطابخه أمم من الأنعام، جمع فيه بين المشاء والطيار

---

25) الذخيرة ـ القسم الثاني 1 / 12 تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع.

والعوام، وانتسفت لمخابزه أهرام من الطعام، وأنفقت على مجامره ومعاطره جمل من الأموال الجسام، فاغتدى ختاما لمداعي أهل الإسلام العظام » (26).

وكان المدعوون إلى هذه الاحتفالات التي استمرت أياما أشتاتا من الناس من صفوة وعامة، وقد لقي الجميع من الاحتفاء بهم والتكريم لذواتهم ما يمكن أن يشابه ترتيب إدارات المراسم والتشريفات بالقصور الملكية في عصرنا. لقد وصف ابن حيان طائفة القضاة على المائدة في غرفة أسرف في وصفها، بل هي تقع تحت جانب الإسراف في محتوياتها، فإذا انتهوا من الطعام يكمل أبو مروان الجانب التالي من رحلة الدعوة على هذا النحو :

« ولما فرغت تلك الطائفة، جيء بهم إلى المجلس المرسوم لوضوئهم، وقد فرش أيضا بوطاء الوشي المرقوم بالذهب، وعلقت فيه ستور مثقلة مماثلة، فأخذوا مجالسهم منه، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات، والذرائر المطيبات، في الأقداح والأشنانداناات، الفضيات المحكمات الصناعات، كادت تغنيهم بطيبها عند الغسل، ثم أدنى إليهم إثر ذلك، الوضوء في أباريق الفضة، المحكمة الصنعة،.... ثم نقلوا إلى مجلس التطييب، أفخم تلك المجالس، وهو المجلس المطل على النهر، العالي البناء، السامي السناء، فشرع في تطييبهم في مجامر الفضة البديعة بفلق العود الهندي، المشوبة بقطع العنبر الفستقي، بعد أن نديت أعراض ثيابهم بشآبيب ماء الورد الجوري، يصب فوق رؤوسهم من أواني الزجاج المجدود، وفياشات البلور المحفورة، ثم أدنى إليهم قوارير المها المحكمة الصنعة، الرائقة الهيئة، قد أترعت بالغوالي الزكية، المتخذة من خالص المسك التُّبَّتي، ومحض العنبر

---

26) الذخيرة ـ القسم الرابع ـ المجلد 1/ 99.

المغربي، لاءم بينهما رشح البان البرمكي، فتناولوا من ذلك حتى لأقطرت سبالهم ذوبانا، وأعادت شيبهم شبانا، فلما استتم هؤلاء الخلة نعيم يومهم، من طعمهم وطيبهم، أقيموا للدخول على المأمون، فسلموا عليه ودعوا له، فأقبل عليهم أحسن قبول، ورد أجمل رد، وأمر بإدخالهم إلى سيد مجالسه المسمى «المكرم»، نتيج همته، وبديع حكمته، السائر خبره، الطائر ذكره، المعدوم ذكره، ليمتعوا أبصارهم بالنزهة، ولم يكن أكثرهم رآه إلى يومهم ذلك، مع علو وصفه بخواطرهم، فلما رأوه صغر عندهم ما كانوا يستكبرونه من وصفه، ورجعوا أبصارهم فيه، ونبه بعضهم بعضا على دقائق معانيه ».

يعنينا من هذا النص أمور كثيرة، من أهمها الإسراف، فالإسراف متلفة، والإسراف الشديد يؤدي إلى البوار، والذي يتابع القصة بأكملها حسبما رواها أبو مروان بتفصيلاتها ومجالس القصف فيها وإنشاد الشعراء في مناسبتها وما قد خلعه الأمير عليهم برغم تدني أشعارهم، كل ذلك كان هدفا من أهداف أبي حيان في تعرية ملوك الطوائف الذين يقتلون المال والبشر، ويقاتل بعضهم بعضا والعدو متربص بهم، متحفز على أبوابهم.

ويعنينا أيضا احتفال أبي مروان بتقديم هذه الحادثة في هذا الأسلوب الأنيق المترع بالصنعة شبه الملتزم للسجع، والشيء الذي يدعو إلى الالتفات الشديد هو أن أبا مروان لم يحضر الحفل، وإنما تلقى كتابا من صديقه الأديب ابن جابر (27) يخبره فيه بتفاصيل هذه الاحتفالات، وهي تفصيلات دقيقة لابد أنها احتلت عددا كبيرا من الصفحات، ولكن أبا مروان لا يرصد خبر الحفل وتفصيلاته حسبما تلقاها بقلم صديقه الأديب ابن جابر، وإنما يعيد صياغتها لكي يصب هذه الحكاية في قالب أدبي،

---

27) الذخيرة - القسم الرابع، المجلد 1 / 99.

وأسلوب فني يتناسب مع سياق كتبه وطبيعة صنعته، وينص أبو مروان على ذلك نصا صريحا بقوله : « إلى هذا المكان انتهى تلخيصي ووصفي » (28).

أبو مروان بن حيان إذن أديب يكتب التاريخ بقلمه، فإذا وردت إليه الأخبار من أصدقائه ومكاتبيه المنتشرين في أنحاء الأندلس وفي مختلف مدنه أعاد صياغتها اللغوية وعدل من أساليبها البيانية دون ما مساس بجوهر حقائقها أو لب جواهرها.

والمؤرخ الأديب يطرب للأدباء من كتاب وشعراء، بل إنه يحتفل بهم ولو كانوا من الخلفاء والأمراء والوزراء والحجاب والقواد، وإن كثيرا مما بين أيدينا من نصوص لبعض هؤلاء يرجع الفضل في توفرها لنا إلى أبي مروان ابن حيان.

وابن حيان كأديب مؤرخ تمس شغاف قلبه الحوادث الوجدانية والقصص المشبوبة، وروابط الحب ووشائج الغرام، وبخاصة إذا كانت تجري في مضمار التأبي، وتدور في فلك العفة، وتشتمل بمواقف العزة، ولا تتخلى عن مستلزمات الكرامة، إن ابن حيان أرخ لكثير من هذه المواقف الوجدانية، ولعل من أنسب ما نختم به هذا البحث، تلك العلاقة الوجدانية العفة التي جرت بين عبد الرحمن بن هشام الذي مر ذكره وبين الأميرة حبيبة ابنة المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي وصف ابن حيان أيامه بأنها كانت شدادا نكدات، صعابا مشئومات، واتهمه بأنه الذي مهد لتفريق البلاد.

---

28) المصدر ذاته ص : 104.

يـذكر ابن حيـان أن المستظهر عبـد الرحمن كان قـد نشـأ مع الأميرة حبيبـة في مكان واحـد، ومن ثم فقـد ربطت بينهما آصرة من الحب فتقـدم لخطبتهـا، ولكن أمهـا زوج سليمـان وكانت تسمى « مشنف » لوتـه ورفضت تزويجها إيـاه، فكتب إليهـا ـ أي مشنف ـ هـذه الأبيـات البليغـة الرقيقـة الأبية (29) :

وجـاليـة عـذرا لتصرف رغبتي ... وتـأبى المعـالي أن تجيز لهـا عـذرا
يكلفهـا الأهلـون ردى جهـالـة ... وهل حسن بالشمس أن تمنع البـدرا
ومـاذا على أم الحبيبـة إذ رأت ... جلالـة قـدري أن أكـون لهـا صهرا
جعلت لهـا شرطـا علي تعبـدي ... وسقت إليهـا في الهوى مهجتي مهرا
تعلقتهـا من عبـد شمس غريرة ... مخـدرة من صيـد آبـائهـا غرًّا
حمـامـة عش العبشميين رفرفت ... فطربت إليهـا من سراتهم صقرا
لقد طال صوم الحب عنك فماالذي ... يضرك منـه أن تكـوني لـه فطرا
وإني لأستشفى بمري بـدارکم ... هـدوءا واستسقى لسـاكنهـا القطرا
وألصـق أحشـائي ببرد ترابهـا ... لأطفئ من نـار الأسى بكم جمرا
فـإن تصرفيني يـا ابنـة العم تصرفي ... ـ وعيشك ـ كفئـا مدّ رغبتـه سترا

إلى أن يقول :

وإني لأولى النـاس من قـومهـا بهـا ... وأنبههم ذكرا وأرفعهم قـدرا
وعنـدي مـا يصبي الحليمـة ثيبـا ... وينسى الفتاة الخود عذرتها البكرا
جمـال وآداب وخلـق مـوطـأ ... ولفظ إذا مـا شئت أسمعك السحرا

---

29) الذخيرة ـ القسم الأول، المجلد I / 40.

إن مثل هذه القصص الأدبية الواقعية التي أورد ابن حيان الكثير منها في تواريخه، كانت زادا خصبا لكثير من المصنفين في الأدب الأندلسي، ولم يكن يكتفي بالقصيدة أو الاثنتين من شعر هذا الشاعر أو ذاك العاشق، وإنما كان يكثر من النصوص حسبما صنع مع هذا الأمير الأموي الشاب وابنة عمه « حبيبة »، فقد أورد له عدة نماذج من أرق شعر الهوى العذري وأحلاه.

☆ ☆ ☆

لقد كان أبو مروان بن حيان ممن تعاطى الأدب الرفيع بحيث يعد أديبا في موكب الأدباء، وكان من الدقة والبراعة في كتابة التاريخ الأندلسي بحيث يحسب كبير المؤرخين الأندلسيين، وكان يكتب التاريخ بقلم الأديب وأمانة المؤرخ ووجدان الفنان، فهو بغير مراء، أديب المؤرخين ومؤرخ الأدباء.

د. مصطفى الشكعة

أبو مروان ابن حيان
أديباً وكاتباً

د. حازم عبدالله خضر
كلية الآداب - جامعة الموصل

تمهيد :

علم من أعلام القرن الخامس للهجرة في الأندلس، ومؤرخ كبير من مؤرخيهم استأثر بمكانة عالية هامة في المصادر القديمة مشرقية وأندلسية، وعرف به ابن بسام في موسوعته وأشاد بفضله وتقدمه على معاصريه في الثقافة والآداب والتاريخ وأورد له جملة من النصوص التاريخية والأدبية وهي التي تشكل صورا من كتابيه الضائعين المقتبس والمتين. وعني بتسجيل مآثره والكشف عن خصائصه وسماته في التاريخ وتدوينه الدارسون المحدثون، وكان من أبرز الذين عنوا بذلك د. محمود علي مكي إذ كتب مقدمة ضافية عند تحقيقه لجزء من أجزاء المقتبس وقد ضمنها تفصيلات وافية نافعة عن أبي مروان وثقافته وشيوخه وتلامذته ومكانته ومؤلفاته.

وأوجز القول في تعداد سمات أدبه ونقده، وقد رأيت أن ما عرضه من سمات أدب أبي مروان بحاجة إلى مزيد من التفصيل والكشف بعد أن غدا الجانب التاريخي من ثافة ابن حيان واضحا ؛ لا مزيد عليه وبعد أن أكد الباحث الكريم على سمات أدبه من خلال النصوص. التاريخية بالدرجة الأولى.

وأستطيع القول في ضوء ذلك أن ما دفعني إلى دراسة هذا العالم الأديب جهود هذا الباحث الكريم وجهود الباحثين الآخرين الذين تطرقوا في مواطن عديدة وبصورة مختصرة إلى أمور تتعلق بأبي مروان.

وكذلك المقدار الوافر من النماذج النثرية التي احتفظ بها ابن بسام وقدمها لنا في ذخيرته وهي ركن هام يستحق الدراسة والنظر لاكال الصورة الأدبية عن أبي مروان الأديب الكاتب الناثر.

اسمه ونسبه :

حيان بن خلف بن حسين بن حيان محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان (1)، ويذكر اسم ابن حيان ونسبه هذا مؤرخ آخر ويؤكد أنه قد قرأ هذا النسب بخط أبي مروان نفسه (2).

ولا نكاد نجد خلافا في هذا النسب بين المصادر المشرقية والأندلسية التي ترجمت لأبي مروان سوى ما يمكن تفسيره باختصار سلسلة هذا النسب

---

1) الحميدي : أبو عبد الله محمد/ جذوة المقتبس ص 200 ت 397.

2) ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك/ الصلة، ق 1 ص 153.

كأن يقول بعضهم : (أبا مروان بن جيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان...) (3).

ولد أبو مروان بقرطبة كما تذكر المصادر سنة 377 هـ، وتوفي سنة 469 هـ، ومعنى ذلك أنه عاش ما يربو على تسعين عاما وعاصر فترات خطيرة من حياة الأندلس.

ففي صباه وأوائل شبابه عاش فترة الحجابة في ظل المنصور ابن أبي عامر الذي كان والد أبي مروان أحد كتابه المرموقين وأصفيائه المقربين. أما هو فلم يكن كاتبا للمنصور فيما نرى كما توهم بعض الباحثين (4) ذلك أنه كان في الخامسة عشرة من عمره عند وفاة المنصور وهذه السن لا تؤهله لمنصب الكتابة عند الحاجب الذي كان خليفة بالفعل وكان الخليفة بالإسم هشاما المؤيد بن الحكم.

وشهد أبو مروان حكم ولدي المنصور عبد الملك وعبد الرحمن، وشهد بعد ذلك فترة الفتنة بما احتوته من تقلبات الأحوال وأعاصير السياسة، وكان له فضل تسجيل أحداث هذه الفترة ضمن كتابيه الكبيرين المقتبس والمتين..

يبدو أنه أقبل على العلم وأخذه عن مشايخ عصره وعلمائه وفقهائه في مقتبل عمره وفي مقدمتهم والده خلف والشيخ (أبو عمر ابن أبي الحباب النحوى صاحب أبي علي البغدادي، ولزم أبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي

3) ابن خلكان/ وفيات الأعيان، ج 2 ص 218.

4) أحمد أمين/ ظهر الإسلام، ج 2 ص 276.

البغدادي وأخذ عنه كتابه المسمى بالفصوص، وسمع الحديث على أبي حفص عمر بن حسين بن نايل وغيره...) (5).

ونفهم من أخبار التاريخ أن أبا مروان قد دخل معترك السياسة وأسهم في بعض مناصب الدولة كوظيفة صاحب الشرطة والظاهر أنه لم يستمر فيها طويلا.

ثقافته ومكانته :

ومن هنا فإن الباحث ليستطيع أن يتصور الجهود العلمية التي بذلها أبو مروان الذي كان والده خلف (يعيش في بلاط يقدر العلم والأدب ويعنى بتشجيعها والأخذ بأيدي أصحابها فغير عجيب أن يجد خلف نفسه مدفوعا إلى إجادة تثقيف ابنه وامداده بطائفة من المعلومات التاريخية والأخبار المؤكدة وقد انتفع ابنه إلى أقصى حد بهذه الذخيرة النفيسة وضمنها كتبه ومؤلفاته...) (6).

ولهذا فقد احتل أبو مروان بعد مسيرته العلمية مكانا مرموقا في أهل العلم والثقافة والآدب وعرفوا فضله وقدره وسجلوا إعجابهم وتقديرهم في مواطن عديدة من كتبهم ومؤلفاتهم فقال بعضهم : (صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس، وملوكها وله حظ وافر في العلم والبيان، وصدق الإيراد...) (7).

---

5) ابن بشكوال : الصلة ق 2 ص 153 وابن خلكان/ الوفيات ج 2 ص 218.

6) علي أدهم/ بعض مؤرخي الإسلام ص 81.

7) الحميدي/ جذوة المقتبس ص 200 وينظر بغية الملتمس ص 260.

وأشاد الأمراء والخلفاء بمكانته وحرصوا على توفير الحرية والراحة له على الرغم في أنه كان يشتد على بعضهم أحيانا ويمعن في انتقادهم والتحدث عن مساوئهم إلى جانب حديثه عن محاسنهم والنص التالي مثل واضح من هذا (ثلب أبا الحزم فقال : والله صدق وإني ما أصلح لهذا الأمر ولكن مكرها لزمته، وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه فاحضره أبوه أبو الوليد وقال والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لآخذن أحدا فيه سواك، أتريد أن يضرب بنا المثل في سائر البلدان بأنا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه..) (8).

أبو مروان الأديب :

وهذا هو الجانب الذي تود تسليط الضوء عليه، وذلك لأن القسم الأكبر من الذين نظروا في حياة وآثار أبي مروان أكدوا على الجانب التاريخي كما ورد في نصوص من المقتبس والمتين وقامت عليه شهرة ابن حيان في القديم والحديث، وليس من شك في أن الشهرة التي نالها أبو مروان وإن بدت بأنها قائمة على التاريخ إلا أنها قامت على الأدب أيضا وذلك لأن أبا مروان كان (أديبا في الوقت نفسه والأدب والتاريخ يمتزجان في كل ما سطره قلمه امتزاجا غريبا لا تعرف فيه أين يبدأ ولا أين ينتهي...) (9).

---

8) ابن سعيد وآخرون : المغرب في حلى المغرب ج 1 ص 117.

9) مكي/ محمود علي/ مقدمة تحقيق جزء من المقتبس ص 104.

وهذه النظرة هي التي قررها القدماء فعلا وأشاروا إلى توفر صنعتي الأدب والتاريخ في أبي مروان وقد أوردنا عبارة صاحب المغرب في الصفحة السابقة.

وإذا كان من أدوات التاريخ عند أبي مروان المعاصرة والدراسة والبحث ومتابعة الأحداث والتسجيل كا ذكر ذلك عن نفسه منذ صغره فإن من أدوات الأدب التي اجتمعت له (امتلاكه لعناصر اللغة على نحو لا نراه توفر في مؤرخ قبله ولا بعده، وقدرة عجيبة على الربط بين المعاني وملكة قصصية كانت تؤهل أبا مروان أن يصبح كاتبا روائيا من الطراز الأول...) (10).

من هنا فإن الطابع الأدبي في أسلوب ابن حيان ضمن أحداث التاريخ يبدو واضحا بالإستشهاد بالشعر أو حله في عبارات نثرية وعرض معناه هذا بالإضافة إلى ذكر العديد من اعلام الشعر في الفترات التي يتحدث عنها. ففي الجزء الذي يتحدث فيه عن خمس سنوات غير كاملة في أيام الحكم المستنصر 360 ـ 364 يذكر ابن حيان أسماء شعراء منهم : طاهر بن محمد البغدادي المعروف بالمهند وقصيدته التي ألقاها بين يدي الحكم في عيد الفطر ويذكر منها ثمانية أبيات ومطلعها :

لولا الإمام المرتضى وسليله ... ما ساغ تلفيف القريض لناظم

ومنهم : محمد بن شخيص الذي ألقى قصيدة بين يدي الحكم أيضا وقد أورد منها ثلاثة وأربعين بيتا ومطلعها :

بأيمن إقبال وأسعد طائر ... تباشير محتوم من الأمر واقع

---

10) المرجع نفسه ص 105.

ومنهم الرمادي الشاعر المشهور، ومحمد بن عباس الاستجي ومحمد ابن حسين الطبني وغيرهم (11).

وكذا لو استعرضنا الأجزاء المحققة الأخرى من المقتبس، فإننا واجدون عددا آخر من الشعراء الذين استشهد ابن حيان بأشعارهم في الأحوال والمناسبات المختلفة.

ولعل مما يتصل بالأدب والطابع الأدبي ممارسة أبي مروان للنقد بما كان يبديه في ملاحظات حول مضامين الصور الشعرية التي يعرضها وقد لاحظ هذه الظاهرة باحث كريم إذ اعتبر التعريف بنقد ابن حيان مما يكمل الصورة الأدبية عنه (فالنقد عند أبي مروان جانب جدير بأن نوليه بعض العناية، بل إننا نزعم أن تلك الأحكام التي أصدرها على أدباء الأندلس في ثنايا تاريخه ترفعه إلى مكان بارز في الصف الأول من النقاد...) (12).

وقد عرض الباحث عددا من آرائه في المشهورين من الأدباء مثل ابن حزم الأندلسي.

وبهذا يبدوا ما أشرنا إليه آنفا مما رآه بعض الباحثين في أن الأدب والتاريخ يمتزجان عند ابن حيان امتزاجا حيويا إيجابيا حتى ليبدو التاريخ قصصا ممتعا بأسلوب شائق ممتع لا يشعر القارىء معه بِمَلَلٍ أو ضجر أو يحس فيه بجفاف الأساليب التاريخية أحيانا لدى عدد من المؤرخين.

ونظر باحث آخر في السمة الأدبية في كتابات ابن حيان على أساس الموازنة بينه وبين أديب مشرقي مشهور هو أبو حيان التوحيدي وسماهما

---

11) ابن حيان/ المقتبس من أنبا أهل الأندلس/ ت د. عبد الرحمن الحجي.

12) مكي ـ محمود علي/ مقدمة تحقيقه لجزء من المقتبس لابن حيان ص 108.

(المؤرخان الكاتبان) (13) وعقد فصلا مستقلا بهذا العنوان لاجراء هذه الموازنة. وتحدث عن التوحيدي وتطرق إلى أبرز سمات أدبه وأسلوبه.

ثم تناول أبا مروان بن حيان على النهج نفسه في التعريف بالخطوط العامة في حياته وثقافته وأدبه وما امتازت به من خصائص الكتابة التاريخية الناجحة بأسلوب أدبي مؤثر، ثم ختم حديثه بموازنة بين الاثنين من خلال عرض سمات كل منهما وذكر أوجه الشبه أو الخلاف بين الأسلوبين، وكان مما قاله في هذا المجال : (ولم يقتصر التشابه بين ابن حيان الأندلسي وأبي حيان التوحيدي على الإسم والكنية وجزالة الأسلوب وبراعته وإشراقه، فقد كان كلا الرجلين من أقدر خلق الله على الثلب والهجاء وتصوير العيوب والنقائص ونقد الرجال نقدا موصفا في تصوير بارع وبيان شائق خلاب...).

وكان ختام هذا الفصل عرضا موجز لابرز آراء المؤرخين في ابن حيان وبخاصة آراء ابن بسام مؤرخ الأندلس وأديبها.

أبو مروان بن حيان كاتبا :

ونقصد بوسف الكتابة هنا، الكتابة الفنية التي يبدو أن أبا مروان قد برع فيها وأجاد فنونها بشكل واضح وأسلوب ممتاز عن أقرانه ومعاصريه من الأدباء المشهورين.

وهذا الجانب في شخصية أبي مروان الثقافية والعلمية هو الذي يحتاج إلى المزيد من الدرس والتأمل في نظرنا. وقد سجل عديدون من المؤرخين

13) علي أدهم/ بعض مؤرخي الإسلام ص 73 ـ 90.

القدامى ملاحظاتهم ولو باختصار عن الطابع الأدبي عند ابن حيان وخصوا الكتابة بالذات، يقول ابن بسام في وصفه بعد أن ذكر جملة من معايبه في الهجاء والثلب : (... ومع ذلك فقد كان سهما لا ينمي رميه، وبحرا لا ينكش آذيه لو ثلب الماء ما نقع أو تعرض لابن ذكاء ما سطع..) (14).

وأما المحدثون فقد ذكروا العديد من أوصاف الثناء والتقدير لكتابة أبي مروان وبخاصة التاريخية منها وكيف أنها كتبت بأسلوب الأديب البارع والكاتب الفصيح المتمكن (وتدلنا كتابته التاريخية على أدبه الرفيع وأنه صاحب أسلوب سلس معبر رصين سهل العبارة مع فصاحة وبلاغة وبعد عن التزويقات اللفظية والزركشة السطحية) (15).

ويقول باحث آخر في تصوير أسلوبه التاريخي (وتبدو قوة شخصية ابن حيان في تفرده بأسلوب لم يتبع فيه ناثري عصره الذين كان تكلف السجع والمحسنات البديعية اللفظية قد طغى عليهم، فبرىء من التصنع وأصبح نثره محكما لكل لفظ فيه قيمته. (16).

غير أن الباحث الكريم قد مضى في تعداد هذه الصفات معتمدا على النصوص التاريخية ومستشهدا بها على وجود تلك السمات مما يوحي أن هذه السمات مرتبطة بدرجة أكبر وارجح بالأسلوب التاريخي والكتابة التاريخية.

---

14) ابن بسام/ الذخيرة/ ق 1 م. 2 ص 574.

15) الحجي ـ عبد الرحمن علي ـ أندلسيات ـ المجموعة الأولى ص 102.

16) مكي ـ محمود علي ـ مقدمته لتحقيق جزء من المقتبس ص 105.

لكن إعادة النظر في النصوص التي احتفظ بها ابن بسام في ذخيرته تؤكد لنا وجود قدر وافر من النصوص الأدبية في الموضوعات المختلفة إلى جانب الكتابة التاريخية.

وإذا تذكرنا أن ابن بسام يشير في مقدمة مجلده الثاني من القسم الأول إلى جملة فصول وضعها جميعا تحت عنوان (فصول من كلامه في أوصاف شتى) (17)، وهي ليست إلا صورا أدبية من النثر الفني في موضوعات مختلفة، تبين لنا جانب هام من كتابة ابن حيان الأدبية الفنية جدير بالدراسة والبحث، ولأنه يمثل فصولا هي غير الفصول التاريخية التي جاءت فيا بعد وعرض فيها أبو مروان جملة من الأحداث المتعلقة بدولة بني جهور في قرطبة وهي الدولة التي عاصرها أبو مروان من دول الطوائف وعاش في كنفها وكان له دور في جوانب السياسة والإدارة فيها (18).

أورد ابن بسام ما يزيد على ثلاثين قطعة نثرية ضمن فصلين ذكرنا الأول منها وأما الثاني فقد أشار ابن بسام إلى أنه مجموعة فصول اقتضبها من طويل كلامه.

والمتأمل في مجموع هذه الفصول يستطيع أن يدون الموضوعات التي دارت حولها وهي الهجاء الذي يشكل القسم الأكبر منها ثم المديح وما يقرب من معانيه كالتهنئة والعتاب والمراجبات. ثم المعاني التي يمكن أن تندرج تحت المعاني الإجتماعية البحتة.

---

17) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 575 / 601

18) المصدر نفسه ق 1 م 2 ص 602 ـ 608.

وقد رأيت أن أنظر في هذه النماذج على أساس الأغراض ولم أنظر فيها على أساس التقسيمات المعروفة كالرسائل السياسية والإخوانية وغيرها نظرا لأن هذه الموضوعات تتوفر جميعها تقريبا أو قدر كبير منها ضمن الغرض الواحد، وكذلك لأن طابع الهجاء أو المديح أو غيره أظهر من طابع السياسة مثلا وملاحظة أخيرة تتعلق بمنهج البحث والنظر في هذه الأغراض وهي التي تبدو في الترتيب الذي أخذناه لهذه الأغراض منذ بدأنا بغرض الهجاء لأنه أكثر الأغراض التي عالجتها الرسائل ثم المديح وبعده الأغراض الأخرى إن وجدت :

الهجاء :

يشمل غرض الهجاء القدر الأوفر في مجموعة الرسائل والقطع النثرية التي عرضها ابن بسام في فصل مستقل وعنوان متميز حتى ليكاد يصل مجموع رسائل الهجاء إلى ما يزيد على أربع وعشرين رسالة من مجموع خمس وثلاثين رسالة في جميع الأغراض.

وللنظرة الأولى يلاحظ الباحث أن أكثر الرسائل وبخاصة الهجاء قد اغفلت أسماء المخاطبين بها ويذكر ابن بسام أنه هو الذي أغفل ذكر الأسماء إذ وضع لفظة فلان بدل كل اسم وارد في الرسائل فقال : (وكنيت عن أكثر من به صرح واعجمت باسم من به أعرب، رغبة بكتابي عن الشين وبنفسي عن أن أكون أحد الهاجيين...) (19).

قد يكون سبب هذه التكنية ما ذكره ابن بسام أو قد يكون من أسبابه ما أشار إليه بعض الباحثين بقوله : (ولعل موقف ابن بسام هذا

19) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 586.

منه راجع إلى ظروفه الشخصية وخوفه فيا لو سكت عن نقده وتقليل قيمة أخباره أن تجلب نقمة الحكام عليه في زمن كانت الأوضاع مضطربة غير مستقرة وولاة الأمور برابرة أجلاف، هذا إضافة إلى أن ابن بسام كان مشردا طريدا فهو محتاج إلى الحماية وتجنب كل ما من شأنه اثارة النقمة...) (20) ولكن إذ صح هذا التعليل بالنسبة لهجاء الأمراء والوزراء فماذا يكون التعليل بالنسبة للآخرين من الكتاب والفقهاء والأصدقاء والانداد الذين هجاهم ابن حيان بكلام قاس شديد ؟؟

هذا فضلا عن أن ابن حيان قد ذكر بعض المهجوين مثل زاوي بن زيرى ووصفه بشتى الأوصاف التي تحط من قدره. بعد سماعه نبأ وفاته، فهل كان الباقون الذين هجاهم احياء : أم أن أكثرهم أموات وأكثر الهجاء، قد انصب عليهم بعد الوفاة ؟ (21).

ونتأمل في رسائل الهجاء هذه لنجد أن ابن حيان قد هجا بها أصنافا من الناس منهم الأمراء والوزراء ومنهم الكتاب والفقهاء.

وقد هجا الأمراء بما يزيد على عشر رسائل تضمنت العديد من أوصاف القبح والزراية في أمير أو وزير أو صاحب لأحدهما.

وتؤكد هذه المجموعة من الهجاء على ذكر صفات البخل بالمال ومنعه عن مستحقيه وليس فقط عن الأدباء والشعراء والكتاب، وفرضهم الضرائب الفادحة على الناس وارهاقهم بكثرة الجباية وفداحة خطبها بقول في واحدة من هذه الرسائل (وكان فلان من البخل بالمال والكلف بالإمساك والتقتير

---

20) السعيد/ محمد مجيد ـ الشعر في ظل بني عباد ص 65.

21) ينظر خضر/ حازم عبد الله ـ النثر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين ص 178.

في الإنفاق بمنزلة بذ فيها ملوك عصره، لم يرغب قط في صنيعة ولا سارع إلى حسنة ولا جاد بمعروف فما أعملت إلى حضرته مطية ولا عرج إليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ولا حظي أحد منهم بطائل...) (22).

وقد يضيف إلى هذه الصفات التي يظن القارىء أنه لا مزيد عليها صفة أخرى تتعلق بحياة الأمير الشخصية ولكنها أيضا ذات أثر كبير في المجتمع وتحديد نظرته إليه فيصفه بأنه : (رجل مرخص في السماع صب بإنشاد الاغزال المفتنة، مسامح في النبيذ ظنين الخلوة عهرها حاط في بعض اللذة (23).. الخ.

وعلى النهج نفسه يصف ابن حيان الوزراء الذين يبغضهم أو أنهم فعلا يتصفون بما وصفهم به مع تأكيده على قلة إحسانهم وحماقة تصرفاتهم مما لا يؤهلم للمناصب التي تقلدوها :

(ومات فلان الغني العبام حجة الله في الرزق وغيظ الأنام فنهض بريئا من كل خلة جيلة، تدل على فضيلة إلى عي غالب عليه وكان أخوه مثله في الافن والجهالة وكلاهما ممن استهينت به خطة الوزارة بحملها اسمها الخطير الأثير من غير تعلق بفضيلة في حديث ولا قديم ولا معرفة بشيء من التعاليم...) (24).

---

22) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 587 ـ 588.

23) المصدر نفسه ص 589.

24) المصدر نفسه ص 591.

وبمثل هـذه الأوصـاف والصفـات يهجو أبو مروان بعض الـذين يصاحبون الوزراء أو الأمراء ثم يجمعون من ذلك المال وهم لا يترفعون عن مصاحبة الظالمين ومعاونتهم والتغطية على جرائمهم وأعمالهم في النـاس فيقول في أحد هؤلاء :

(وكان مع ذلـك مصاحبـا للظلمـة من أمراء الفتنـة خواصـا في دولهم المدلهمة، معينا على مظالمهم الموبقة قد رزق الحظ في شأنه وبعد الصيت في جودة حوكـه لأعمالـه فـاكتسب وثري من المـال محوطـا بمنيع الجـاه مغلولا بوثيق من الشح) (25).

ونصل إلى المجموعة الأخرى من رسائل الهجاء وهي تلك التي خـاطب بها أقرانه من الكتاب المتفرغين للكتابة أو الذين جمعوا بينهـا وبين الوزارة، وفي عموم المعـاني الواردة في هـذه الرسـائـل نجـد الكاتب المهجـو في نظر أبي مروان عاجزا قاصرا في التعبير ليل الادراك للمعاني السـامية المناسبـة فـاقـدا الموهبة الأدبية والطبع السليم والذوق الرفيع.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن هذه الرسائل قد خوطب بعدد منها أناس قـد وافتهم منـايـاهم وآخرون مـا زالـوا أحيـاء وذلـك كما يستفـاد من صيـغ الرسائل نفسها. يقول في واحدة منها :

(وانكـدر على اثره من الظلمـة المسرفين المترقين من السمسرة إلى شرف المنزلـة، فـلان الكاتب الضعيف الرأي (والعقـل). وكان قـد ركض في حلبـة

25) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 599.

كتاب الرسائل وقلد جملة من تدبير الأعمال الجلائل من غير معرفة ولا قديم أبوة ولا إحكام صناعة) 26).

كما يؤكد أبو مروان في الرسائل التي تحدث فيها عن أموات من الكتاب ضمن المعاني المذكورة تقريبا مع ربطها بالجهل الفاضح وتوفر الرزق واتخاذ ذلك دليلا على أن الأرزاق لا تعطى على العقل والحكمة، وإنما لحكة أرادها الله امتحانا وابتلاء للناس على اختلاف عقولهم ومنازلهم.

(نعي إلينا فلان الدغل، غاز له السل كالافعوان الصل...)

حتى يقول فيه مشيرا إلى ممارسته الكتابة وقصوره في ميدانها وعجزه عن الوفاء بضروراتها ومتطلباتها :

(وكان إذا كتب مضطرا يضحك من تأمله، له في ذلك نوادر محفوظة أمسى بها من حجج الله تعالى في الرزق المقسوم لو كانت الأرزاق مقسومة على الحجى لم يرزق...) (27).

ونختم هذه المجموعة برسائل هجائية وجهها أبو مروان إلى الفقهاء أو إلى عدد معين منهم لعلهم أولئك الذين ساءت علاقتهم معه أو كانت بينه وبينهم مشكلات خاصة أو عامة أثارت غضبه عليهم فراح يكيل لهم صفات التقصير والبعد عن جادة العلم ومنهج الفقه الصحيح وتفشي الجهل بينهم إلى جانب حرصهم على المصلحة المادية أو العرض الدنيوي الزائل.

ولعل من أبرز ما يلفت النظر في هذه الرسائل تأكيدها على النواحي الحسية بشكل بارز أكثر مما عهد في الرسائل الأخرى. يقول في إحدى هذه الرسائل :

---

26) المصدر نفسه ص 588 ـ 589.

27) نفسه ص 592.

(من رجل غبر دهره، عطلا لا ينظر في شيء من التعـاليم إلى أن فتح الله عليه درس هـذه المسـائل الفقهيـة فركض في حلبـة الفقهـاء المشاورين وقدم لعلو السن لا لعلو الدرجة وكان في ذاته كريه الطلعة، باذ الهيئة درن الكسوة، هزيل الدابة، يمتهن نفسـه في خـدمـة أهلـه..) (28). ولا شـك أن هذه الرسالة تنم عن علاقة سيئة بين أبي مروان والمهجو الذي يمكن أن يعـد رمزا لحسـاده ومبغضيه كما يفهم من (هذه النصوص تصويرها للعلاقة السيئة بين الكتاب والحسد الذي يسودهم والعداوة والبغضاء التي تحكم علاقـاتهم حتى تجعلهم يتخاطبون بهذه الصفات ولا يتورع أي منهم في رمي مخـالفيـه بكل نقيصة وعيب) (29).

رسائل المديح والتهنئة :

وفي هذه المجموعة من الرسائل نجد ابن حيان مادحا مثنيـا على نوعين من الرجال : الأول يندرج تحته الرجال المسؤولون من الأمراء وذوي الجـاه والسـلطـان وبخـاصـة مـا يتعلـق بهم في منـاسبـات انتصـاراتهم على أعدائهم ومخالفيهم.

ويتقدم هذه الرسـائل رسـالـة موجزة وصفهـا ابن بسـام تحت عنوان (فصل له) يخاطب فيهـا أحـد الأمراء دون أن يـذكر اسمـه أو المنـاسبـة التي دعت إلى كتـابتهـا وتوجيههـا إليـه وهي تضم جملـة من الصفـات كالتواضع والخضوع لله عز وجل (يـا مولاي وسيـدي قحطـاني زمـانـه وغلاب أقرانـه

---

28) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 598.

29) خضر/ حازم عبد الله ـ النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص 189.

المتوقي في ملكه من ضر اعتماده عليه ومن هنأه الله جليل الفتح له وعلى رعيته به ولا الهاه طمحان السرور بجلالته عن تحقيقه التواضع لمولاه وإخلاص الخشوع لوجهه والعياد بعصمته من إقراف ماجر مثله على مقترفه وسؤاله تسويغه إياه بالتخل له والفوز بجميل عافيته بمنه..) (30).

ولا يغفل ابن بسام ذكر الإسم في رسالة أخرى تتضح المناسبة من خلال العنوان الذي وضعه لها ابن بسام حين قال :

ومن رقعة خاطب بها ابن عباد بظهوره على ابن ذي النون :

(لو أن فتحا اعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر أو جلالة صنع أو فرط انتقام مستأصل) (31).

ثم يمضي ابن حيان في رسالته مؤكدا على أمرين اثنين وهما كرم خلق ابن عباد ورجاحة عقله وسعة صدره مقابل صفة خصمه التي تتمثل بالجحود والنكران وجفاء التصرف وسوء الخلق والبعد عن الحكمة والتعقل في تصرفاته.

ويذكر ابن بسام فصلا آخر من الرسالة نفسها أو ما يتصل بها ولا تكاد المعاني الواردة فيها تخرج عن معاني المديح التي أشرنا إليها قبل قليل.

ونأتي إلى النوع الثاني من رسائل المديح وهي تلك التي توجه بها أبو مروان إلى العامة من الأصدقاء والأصحاب والأنداد وقد تضمنت معاني المودة والإخلاص والوفاء وما يتصل بذلك من المعاني التي تصور العلاقات الإجتماعية بين الأصدقاء وعلاج أو تصوير المشكلات التي تحصل بينهم.

30) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 578.

31) المصدر نفسه ص 578.

وينص ابن حيان في العديد من هذه الرسائل على أسماء أصحابها كالذي نجده في هذه الرسالة التي كتبها إلى الوزير الكاتب أبي القاسم بن عبد الغفور :

(لا أبثك من ذكر حالى لانثلال عرشي وانفلال غربي بما أخشى تناسيك له أو ونيك في المعونة عليه، فأنت طودي من بين هذه الهضاب ومصدق ظني فيما ينوب من طلاب، الموحى باشجاني إلى جنان الملك اللباب نهاية الامال الرغاب..) (32).

وإذا كان في هذه السطور ما ينم عن شكوى من تغير حاله حتى توجه إلى صديقه بطلب عونه أو رعايته أو ما إلى هذا، فإننا نجد في رسائل أخرى أوصافا أكثر صراحة وتأكيدا على أخلاق الممدوح والتغنى باخوته الصادقة وما يكنه الكاتب له من مودة ومحبة ووفاء :

يقول في رسالة تهنئة بخلاص من نكبة :
(كتابي عن نفسي قد أشرق وجه صباحها وهبت رياح ارتياحها وسرى نفس السرور فيها، بما طلع علينا من البشائر السارة بخلاصك وجميل انفكاكك ومناصك، على حين بلغت قلوب الأوداء الحناجر وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر...) (33).

هذا وقد عرضت بشكل مفصل لرسائل المديح والمودة في فصل مستقل تتبعت فيه ملامح هذه الرسائل وسماتها وخصائصها وعلاقاتها بالمجتمع، وليس من شك في أن جانبا منها يتعلق برسائل النصف الأول من القرن

32) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م II ص 582.

33) المصدر نفسه ص 584.

الخامس للهجرة وهي الرسائل التي روى الكثير منها أبو مروان واسهم في كتابة جانب آخر منها على نحو ما أشرنا (34).

العتاب والمراجعات :

ويشكل العتاب جانبا من الرسائل الواردة في الذخيرة لأبي حيان والمتأمل في النماذج المتوفرة فيه يلاحظ أن ابن حيان غالبا ما يكون رقيقا في عتابه يذكر بأسباب المودة ووجوب الحرص عليها والعمل على استمرار قوتها واتصالها.

وفي مقدمة ما يطالعنا من هذا النوع رسالة كتبها أبو مروان إلى صديقه أبي القاسم بن عبد الغفور يفهم منها أن الأخير قد أخذ منه سفرا من كتابه ولم يرجعه إليه فلما استبطأه أبو مروان أو طالبه به أكثر من مرة حرصا عليه من الضياع توجه بهذه السطور إلى صاحبه راجيا معاتبا : (ليس يخفى عليك مكان هذه الصحف المستلاة من الصدور، المستعراة من النظير، من أنفس مؤلفيها وقلوب مصنفيها، فأبثك شأن الإهتام بها وناولتك يوم التقينا السفير الحقير ختام تاريخي المهجور سائلا علاك تصفحه كيا تكذب ما زور فيه علي...) (35).

وهذه السطور على قلتها تفيد جملة أمور تتعلق بأبي مروان منها اضطرابه وقلقه عليها فهو يؤكد أهميتها في أول السطور ثم يعود إلى التقليل من شأنها في آخرها بتواضع غريب غير متوقع ومنها أن كتابه قد أثار ضجة

34) ينظر ص 161 ـ 169 من كتابنا ـ النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين.

35) ابن بسام/ الذخيرا ق 1 م 2 ص 586.

وبعث اتهامات وكان رجاء أبي مروان أن تكون قراءة السفر الذي سماه ختام تاريخه دافعة عنه التهم ومجلية عن سمعته وجه الظلم.

وقد يكون العتاب من نوع آخر يعالج فيه مشكلة شخصية أو يعرضها ويطلب العون على حلها ويعاتب برقة ورجاء على موقف سلبي من رجل يسميه ابن بسام صاحب الصلاة ولعله القاضي الذي يفض المنازعات بين الخصوم وقد كانت له في الأندلس سطوة وكلمة مسموعة وقرار لا يرد من إنسان.

يقول في أوله : (يا سيدي المعتلى بسمو رتبته، المعتدى باعتداء بصيرته من أصحبه الله التوفيق وأقامه على سواء الطريق ونجاه عن معتبة الصديق...) (36).

وبعد هذه المقدمة الوجيزة يدخل في الموضوع مصرحا بمشكلته ذاكرا بعض جوانبها وآثار ذلك في حياته ونفسه فيقول :

(إذ علت عظيم محنتي بأمتي الفاجرة التي فلت غربي وفرت كبدي ونظمت أشتات المصائب في سلكي خبلا للبال وثلما للمال...) (37).

ويشرح في تفاصيل الرسالة موقف صاحب الصلاة منه وكيف أنه لم يقف بجانبه أو بجانب الحق ولم ينصفه في تلك الأمة التي غدرت به مع جارتيها وتآمرن عليه وعكرن صفو حياته وكيف أن صاحب الصلاة قد عمل على إطلاق سراحها بعد أن صدر أمر اعتقالها عتابا على ما اقترفتاه من غدر وخيانة. لكن أبا مروان لم يصرح لنا بطبيعة ما صدر من أمته

---

36) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 581.

37) المصدر نفسه ص 580 ـ 581.

وجاراتها ضده كا لم يشتد مع صاحب الصلاة على الرغم من أن الأخير قد ضيع عليه الحق واذهب القصاص عن المقصرين. كا يخبرنا هو في رسالته هذه ونقرأ ضمن مجموعة الرسائل الواردة في الذخيرة رسالتين كتبت احداهما إلى أبي مروان من شخص اسمه أبو بكر بن زيدون ويبدو من رسالة ابن زيدون هذا أنه قد لبى طلبا لأبي مروان لم يفصح عنه ولعله قرض أو هبة أو ما إلى هذا وفي هذه الرسالة يشيد ابن زيدون بمكانة أبي مروان ويثني على فضله وعلمه وخلقه ويرجوه قبول ما قدمه إليه مُلحا عليه في التقاضي عن التقصير فيه.

(والذي أسكن إليه من حسن قبولك وجميل تأويلك، أقابل بالحقير وأواجه بالتافه اليسير، ويعلم الله تعالى لو تاحفتك بهبة عرى ما رأيت ذلك كفاء لقدرك ولا وفاء ببرك فكيف ما دونه، فلك المنزلة التي لا تسامي والجلالة التي لا توازي...) (38).

وتأتي رسالة ابن حيان جوابا على هذه الرسالة مؤكدة معاني المودة والوفاء بينهما مفصحة بعض الشيء عن نوع ما قدمه إليه إبو بكر بن زيدون وقد يكون ـ كا نفهم من سطور الرسالة الجوابية أو مراجعة ابن حيان لصديقه فيقول :

(ان لفجآت المسرات الباغتة لآمال النفوس الحائمة صدمات تذهل الجنان، وتعقل اللسان، فمن فرح النفس ما يقتل ومن باهر الصنع ما يذهل، ولا كمثل ما فاجأني من فضلك المبتدر ميقاته المقتضي المزيد فيه

38) المصدر نفسه ص 582.

على وفاق في انفاض الازودة وخمود المصابيح المعطلة، وعنة من الظنون المخوفة بنكد السنة...) (39).

ويمضي أبو مروان في الثناء على صاحبه بما قدمه في الوقت المناسب حيث صادف قلة وحاجة ومسغبة وضرا ويتغنى بآثار هدية صديقه وكيف أن زينها أضاء له الطريق وبدد من حوله الظلمات ثم يدعو له بحسنى الجزاء وجميل الدعاء الذي لا يراه إلا جهدا لمقل وأنه دون ما يستحق صاحبه بما قدمه إليه من كرم وفضل.

سمات وخصائص فنية :

ونحاول في هذه السطور عرض جملة من السمات والخصائص الفنية التي تبدو لنا من التأمل في النصوص الأدبية التي سبقت الإشارات إلى نماذج منها وعرض معانيها.

ولعل من الجدير بالذكر أن الباحثين المحدثين أشاروا إلى جملة من السمات - كما ذكرنا سابقا - استنادا إلى نصوص أبي مروان التاريخية وهي سمات تتعلق بأسلوبه الأدبي في الوقت ذاته. يقول أحدهم بأن أسلوبه (أسلوب ناصع لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط ولا يقع كذلك في التفصح والإسراف في قعاقع الألفاظ - كما نجد عند ابن خاقان مثلا - وهو رغم التزامه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه...) (40).

---

39) ابن بسام/ الذخيرة - ق 1 م 2 ص 582 - 583.

وينظر كتابنا/ النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص 171.

40) بالنثيا - انخل جنثالث / تاريخ الفكر الأندلسي ص 211.

وفعلا فإن من يقرأ عبارات أبي مروان يقف على أسلوب سهل واضح وسمة السهولة والوضوح تشكل أهم الخصائص والسمات بالنسبة لواقع المجتمع الأندلسي وطبيعة أهله وأمزجتهم ونفسياتهم التي تؤثر السهولة في كل شيء سواء في المأكل والملبس والتفكير مع ذوق سام رفيع وأدب عال وملكة تؤهل للتصرف المتزن والحكة الواضحة وهو بهذا كله مستقل عن التقليد والمتابعة :
- من هنا قد رأى باحث آخر أن أبا مروان (خير من يمثل النثر الأندلسي لاعتماده على نفسه في حوك العبارة وبنائها على الحدة والعنف وكثرة المتعاطفات وترتيبها على نحو خاص من الاغراب والاشتقاقات...) (41).

وأبو مروان على وضوح أسلوبه وسهولة كتابته فإنه لم يكن ساذجا في معانيه أو قاصرا في تأليف أفكاره ضمن المعاني الرئيسية لذلك وجدنا بعضهم يقول فيه :

(يحفل نثر ابن حيان بالصور التي تبهر النظر ترد بسيطة بلا افتعال ولا تصنع بلاغي ولا قعقعة رنانة...) (42).

وهكذا تبدو سمة السهولة والوضوح في مقدمة السمات ومن أهمها في أسلوب ابن حيان. وإلى جانبها سمة الاتزان والتوسط بل والاستقلال والتميز عن كتاب وناثرى عصره في المشرق والأندلس.

على أن سمة الوضوح والسهولة مع التوسط والاتزان تبدو في أغراض المديح والتهنئة أوضح منها في جانب الهجاء، بل إننا نكاد نجد أن أسلوب أبي مروان يجنح إلى شيء من الإغراب والعمق في موضوع الهجاء وقد

---

41) احسان عباس/ تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة 333.

42) مكي/ محمود علي - مقدمته لتحقيق جزء من المقتبس ص 105.

يكون هذا متوقعا أو مفترضا حيث يحتاج الموقف إلى شدة وصرامة وعبارات قوية مؤثرة تتألف من ألفاظ يجنح عدد منها إلى الصعوبة والإغراب لتدل بذاتها على أنها مقصودة منتقاة تعمد الكاتب اختيارها ليفرغ من خلالها حنقه وغضبه وينفس عن نفسه وما يعانيه من شعور بالظلم أو الهضم أو الهجر أو الاعتداء.

يقول في رسالة له إلى أحد العمال بعد خلاص الأخير من نكبه وقد ذكرنا مقدمتها في عرض النماذج ونذكر هنا سطورا من القسم الأخير منها : (فأنت أعلم بمجاري الأمور، ومصاير الدهور، وأهدى إلى التسليم للمقدور، فلم تورد الأيام عليك من حوادثها المجهول النكر ولا وردت عليك بالفتكة البكر...) (43).

بينما نجد هذا الأسلوب يتغير حين يختلف الغرض من المديح إلى الهجاء حيث ينقلب إلى جفاف وقسوة واحتواء لألفاظ معبرة عن معاني السباب المقدع المؤثر :

(وكان حجة الله في القسم، ومحنته لذوي الفهم، إذ كان من الأمية والعامية وخمول الأصل ونذالة الفرع ولؤم الأطراف ودخلة الأعراق على ثبج عظيم، وبمكان مقعد مقيم...) (44).

ويبدو أسلوب أبي مروان وسطا كذلك بين الاطناب والإيجاز أو إن شئنا قلنا أنه يسلك كلا منها في محله ووقته المناسب وظرفه الملائم دون

---

43) ابن بسام / الذخيرة ق 1 م II ص 584 ـ 585.

44) المصدر نفسه ص 599.

أن يقع في استطرادات تبعد عن الموضوع الأساس الذي يكون قد بدأ به كلامه وعقده لأجله.

ولعل أفضل من يصور لنا هذه السمة رأي أبي مروان نفسه في أسلوب صديقه أبي عامر بن شهيد حين وصفه بأنه (يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام) (45). ولا شك أن هذا منه استحسان لطريقة أبي عامر وهي الطريقة نفسها التي يبدو أنه اتخذها ـ نهجا في أسلوبه كا وصفه أحد الباحثين بقوله : (إن ابن حيان سيال الأسلوب ولكنه مع ذلك لا يتعثر في الاطناب والقمقمة اللفظية كا فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنتهي..) (46).

سمة التنويع :

وقد يفضي بنا النظر في سمة أسلوب أبي مروان في السهولة والوضوح والتوسط بين الاطناب والإيجاز إلى تتبع جذور هذه السهولة وأصولها. والحقيقة أن الذي يتأمل كتابة أبي مروان والأدبية منها بوجه خاص يقف على ما يمكن تسميته : بالتنويع فأبو مروان في كتابته يحرص أشد الحرص على أن ينوع في أساليبه وطرق تعبيره مستفيدا من ثروته اللغوية الواسعة وإطلاعه العميق على اسرار اللغة واستيعابه لفنونها وعلومها، ولعل في مقدمة ما يلاحظ من الأصول التي اعتمدها في كتابة نثرية سهلة واضحة وضمن التنويع انتقاله في جمله وتعابيره بين القصر والطول بحسب ما يتطلب المعنى ومع ذلك فإن هذه السمة لم تكن بعيدة عن المعنى بل إنها

45) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 1 ص 199 ينظر مقدمة تحقيق المقتبس/ محمود علي مكي ص 105.
46) بالنثيا ـ آنخل جنثالث ـ تاريخ الفكر الأندلسي ص 211.

خادمة له ومعبرة عنه فرسائل الحمد والثناء وأغراض المديح والتهنئة يبدو عليها استعمال الجمل بشكل أطول من جمل غرض الهجاء، يقول (حتى ابتعتك امتعاضك تحت صدق العزيمة، ومهل الروية وصواب التدبير وتقدم الإستخارة، مستظهرا منهن بعدة ضربت عليه بالأسداد، وباعدته عن السداد، وابتعثك تعالى للسمو إليه لما دنا منك قبل اكتمالك في الاحتشاد وانتهائك في الإعداد) (47).

فهذه الجمل قد بدأت بجملة طويلة نسبيا، ثم تلتها جمل قصار ثم جاءت جملة طويلة أخرى تكاد تستوعب سطرا كاملا.

في حين أننا نكاد نجد ما يخالف هذه الصورة تماما في رسائل الهجاء بصورة عامة حيث تكثر الجمل القصيرة ذات المعاني المحددة الموجزة، ويمكن تعليل ذلك بقصد أبي مروان إلى الإمعان في التأثير وليكون أقرب إلى الإنسجام مع حالة الكاتب النفسية التي غالبا ما تكون في الهجاء وبدرجة من الغيظ وتصوير لنفس قلقة متأثرة مضطربة تعاني إعراضا وإنكارا أو ظلما وهضما : (وكان فلان غليظ الطبع، خشن الجانب، وخيم الخيم، فدما جهم اللقاء، يعتريه ضجر يخل به، قلما ينجو الخصم منه من بادرة، له في ذلك أخبار شائعة..) (48).

السجع والازدواج :

وتأتي هذه السمة لتؤكد سمة التنويع وتثبت أنها جزء منها وعامل من عواملها وأسبابها، فابن حيان ينتقل بين السجع والازدواج ـ وهما فنان

47) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 579.

48) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 590.

متقاربان يتعلقان بالألفاظ ـ بحيث لا يستطيع المتأمل في أسلوبه أن يقول عنه بأن طابعه السجع أو أن طابعه الإزدواج. فهو إذن يسلك سبيل التلوين والتنويع بشكل جذاب شائق يعطي المعنى رونقا ويزيده بهاء وعمقا وتأثيرا في النفس ويجسد المعاني حتى كأن القارىء أو السامع يرى امامه ويحس بمشاهد تتحرك وشخوص تؤدي أدوارا متقنة موزعة بدقة وجمال وحسن تنسيق يقول في بعض رسائله الهجائية :

(فلان ساذج الكتابة، بين الجهل والتخلف، طلق اللسان بالخنا والهجر، أحد الأفسال من أولى النباهة، عظيم البطالة والباطل ومن كل حلية جميلة عاطل، من رجل عي اللسان، مثلوم الجنان، فدم الخلقة، طويل اللحية، متهافت، لم يرهف الأدب طباعه، ولا استخرج منه كلمة حكمة...) (49).

فهذه العبارات متنوعة في قوافيها وفي الألفاظ التي ختمت بها لا نكاد نجد سوى جملتين منها قد تحقق في أواخرهما الإزدواج في لفظي الباطل والعاطل، أما الجمل الباقية فتختلف وتتباين أواخر ألفاظها بما يجعلها سهلة واضحة مستاغة.

وقد يبدأ أبو مروان بما يوحي بأنه ازدواج مطرد ولكنه لا يلبث أن يرجع إلى أسلوب التنويع وكأنه لا يريد للسامع أو القارىء أن يشعر بإطراد طابع معين أو سمة غالبة، بل يريده أن يفهم بأنه يسير على منهج وسط ملون يأخذ من كل شيء القدر المناسب لإكمال المعنى وخدمته يقول في عبارات جعلها كما قال ابن بسام مفتتح تاريخه الكبير، قال في صدره.

---

49) المصدر نفسه ص 595.

(الحمد لله الذي علا في سمائه، وتفرد ببقائه، وتسمى الجبار بجبروته وكبريائه، فله الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، خلق الإنسان علمه البيان، وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشأن فعلمه ما لم يعلم وأشهده ما لم يحضر..) (50).

فهذه العبارات تنطق بسمة التنوع عند أبي مروان فهو في الجمل الأولى يسير في فواصلها وفق قاعدة السجع فيأتي بفواصل متشابهة سمائه، بقائه بجبروته وكبريائه. ثم يسير حسب قاعدة الإزدواج فيأتي بالجمل مثنى مثنى بحيث تنتهي كل فاصلتين بحرف واحد مثل :

الحسنى والأعلى، والبيان وعظيم الشأن.

ثم يختلف الأسلوب بعد هذا بما يخالف النهجين السابقين ويسير على الطبع والفطرة دون تكلف أو اختيار.

التنويع في صور المجاز :

وإذا عرضنا لأسلوب أبي مروان من حيث استعماله للصور البلاغية في المجاز وما يتضمنه من تشبيه واستعارة وكناية وجدناه يحرص على منهجه في التنويع لكي لا يثقل على السامع بصوره ورتابتها أو عمقها وغرابتها وإنما يأتي بصور المجاز سهلة واضحة منوعة كأن الكاتب قد وازن بين اقدارها واتخذ السبيل الوسط للإفادة منها بما يخدم معانيه.

وإذا القينا نظرة عاجلة على أي نص من نصوص الهجاء أو المديح في رسائل أبي مروان النثرية الأدبية الأخرى وقفنا على هذه السمة ولاحظنا

---

50) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 575.

براعته في التلوين والمزج بين صور البيان العديدة التي يقوم المجاز عليها ومن هذا النوع قوله في هجاء شخص يبدو أنه من الوزراء الذين كان لهم حظ في السياسة والإدارة إلى جانب شيء من الأدب والغنى بالمال (ونعي إلينا فلان، وكان مع ثروته مضاع الجار مطول الغريم، عاتب الصديق، مكرها إلى الأنام، معضوضا بأنياب الملام، مقدما في صدور الامثال ببسطة الرزق، على ضيق الباع في العلم والفضل، والاتساع في الجهل فلا يحفظ من الفقه مسألة، ولا يوثق من الشروط عقدا...)

فهذه العبارات تبدأ بجملة من الكنايات اللطيفة الخفيفة لإظهار تقصير المهجو فجاره مضيع وغريمه معذب لماطلته لا يبالي بالعتاب ولا يجد حبا في قلب أحد. ثم ينتقل من الكناية إلى الاستعارة حين يقول معضوضا بأنياب الملام، ثم يتلوهما بكلام مباشر ليس فيه دلالة على صورة من الصور البلاغية المعروفة. وبعد هذا يرجع مرة أخرى إلى كناياته واستعاراته وإلى جملة من أنواع التشبيه التي تتكرر ولكن ليس بالشكل الرتيب الممل الذي يجعلها ثقيلة غامضة وكذلك لو استعرضنا جملة النصوص الواردة لما وجدناه يخرج عن هذه القاعدة في التزام التوسط مع التنويع الذي يدعو إلى التشويق وجلب الإنتباه وتجديد الهمة، يقول في صورة هجائية أخرى : (وفلان أحد من انسدل عليه الستر في هذه الفتنة المبيرة وكان على نباهة اسمه عاطلا من الفضائل التعالبية، إلا أنه كان ذرب اللسان كثير النوادر، ذا جواب حاضر، وكان يلقب بالجني...)

نثر أبي مروان والمجتمع الأندلسي :

ولعل مما يكمل هذه الصورة حول نثر أبي مروان الفني وخصائصه على صعيد المعاني والألفاظ أن ننظر في دلالاته وعلاقاته بالمجتمع الأندلسي.

والحقيقة أن هذا النثر ومن خلال الأغراض والموضوعات التي تضمنها لا يخلو من إشارات توضح معايشة أبي مروان لأحوال المجتمع الأندلسي ومشكلاته وسمات حياته على الصعيد السياسي والإقتصادي والإجتماعي. فرسائل المديح والتهنئة التي وجهت إلى الأمراء والوزراء ذات دلالة على صفاتهم وأخلاقهم والوان تصرفاتهم وعلاقاتهم برعاياهم، وبخاصة في الجانب العسكري الذي دل على وجود الصراع وأثره في الأدب وما يترتب على هذا الصراع من هزائم وانتصارات وما تقتضيه من التهاني أو التعازي ولا شك أن المتأمل في رسائل أبي مروان يجد هذا واضحا. أما رسائل الهجاء فيمكن القول بأنها قد عكست جملة من العلاقات القائمة بين أبي مروان وأقرانه من الكتاب، تلك العلاقات التي عرضتها الرسائل بصورة سلبية قاتمة وعكست الأطوار التي مرت بها وهي في ذات الوقت صورت لنا نفسية أبي مروان ومشاعره وأحاسيسه تجاه حاسديه ومبغضيه وبخاصة أولئك الذين كادوا له ونصبوا أنفسهم أعداء صريحين غادرين.

وفضلا عن هذا فإن الرسائل التي توجه بها أبو مروان إلى عدد من أصدقائه سواء ما كان منها يتضمن شكرا على تقديم هدية أو طلبا لحاجة من الحاجات التي عرضت له، يمكن أن يفهم منها جانب من جوانب حياة أبي مروان أو مرحلة من مراحل تلك الحياة حيث اتسمت بضنك العيش أو الحاجة إلى العون، وكذلك ما تفيده رسائل المراجعات والعتاب.

ومثل هذا نستطيع أن نقول في تلك الرسائل التي عرض فيها أبو مروان بعض مشكلاته مثل مشكلته مع أمته والجاريتين وموقف صاحب الصلاة منه حين ضيع حقه ولم يعمل على انصافه، على أننا واجدون في رسائل أبي مروان ما هو أكثر صراحة في الإشارة إلى العلاقة بين المجتمع

الأندلسي في عصره غير ما أشرنا إليه من النماذج النثرية، ومن ذلك رسالة طويلة عرض فيها أبو مروان صورة معبرة عن طبيعة الحياة في المجتمع الأندلسي واضطراب الأحوال وتسلط أناس لا قيمة لهم ولا وزن ولا دراية ولا علم بأمور الإدارة والسياسة وتصريف أمور الرعية حتى صاروا يفرضون سلطتهم على علية القوم وأشرافهم بل وحتى أهل الإدارة والسياسة فيهم يقول تحت فصل :

(ومن غرائب هذا الدهر الغفل في اعتبار تحول العالم، والتنويه بضاعي الأسافل، أن هلكت أم عجوز لبني كوثر، فاهتبل بنوها في السعي لها وانذار طبقات الناس لشهود جنازتها بأنفسهم، والمشي على أعاظم القرية بنعيها فسارعت طبقاتهم لشهود جنازتها، فجيء بسريرها وابن جهور الوزير يقدم حضارها ماشيا على قدميه قد إئتسى به كل ذي منزلة رفيعة، ووقف على جدثها إلى أن ووريت وانقض جمعها، ثم ضرب على قبرها قبة عالية تمهيدا للمبيت عليها طول أسبوعها ومدة زيارة قبرها حسبما كانت الجبابرة تفعله في الأعصر الخالية على قبور الملوك الاعزة... (51).

فهذا النص واضح في تصوير حالة المجتمع وحالة الحكام على حد سواء وهو يعرض لنا صورة حية من ضعف سلطة الحاكم إزاء تسلط قوم لا خلاق لهم ولا دراية ولا علم بأمور الرعية.

ولعل الرسالة بنصها الموجود في الذخيرة تعرض الصورة بشكل أوضح وأصرح، حيث نجد أن ابن حيان يعقب بعد تصوير دفن المرأة وخروج الحكام وعلية القوم في جنازتها بأن هذا مشهد غريب عجيب يدعو إلى

---

51) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 595.

الأسى والألم ويدل على مدى الاضطراب الذي شهده المجتمع الأندلسي في عصر الفتنة وأوائل عصر الطوائف. فيقول في ذلك (فقضى العجب بشاهدة هذه النادرة في امرأة من (نساء) حثالة العامة مرددة في الخمول، لم يكن قط بينها وبين النباهة من كلا طرفيها نسبة في الدولة القريبة ولا البعيدة، ولا ظفرت ببعل مثر ولا ذرية نبيهة، عهدى ببعلها...) (52).

وهكذا يمكن للباحث أن يتصور ويصور سمات نثر ابن حيان في جوانبه الشخصية والفردية والاجتماعية وما كان له من أثر وما عبر عنه من ملامح وسمات شخصية صاحبه ومكانته في المجتمع وعلاقاته وصلاته. ومعارفه وأصدقائه. إلى جانب ما يدل عليه ذلك كله من أحوال المجتمع وسمات حياته. وإذا ما أضاف الباحث صورة النثر التاريخي لأبي مروان وما كان ينطوي عليه من تصوير حي للمجتمع وأحواله في شتى جوانب الحياة أدرك بوضوح أن ذلك من أبرز الأدلة على أبي مروان المؤرخ الأديب الحي الذي يعيش وسط مجتمعه مؤثرا فيه متأثرا بمشكلاته ومصاعبه مصورا أحواله المختلفة حتى ليمكن القول بأنه أديب المجتمع ومؤرخه في فترة هامة خطيرة من أهم فترات المجتمع الأندلسي.

د. حازم عبد الله خضر

---

52) ابن بسام/ الذخيرة ق 1 م 2 ص 596.

المصادر والمراجـــــــــــــع

1 ـ ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق ـ احسان عباس، طبعة دار الثقافة ـ بيروت 1978/1398.

2 ـ ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الصلة طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.

3 ـ ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس.

4 ـ ابن خلكان، أبو العباس : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر وفيات الأعيان وأنباء أنبا الزمان / تحقيق احسان عباس، دار الثقافة/ بيروت.

5 ـ ابن سعيد وآخرون : المغرب في حلى المغرب.
تحقيق : ليفي بروفنصال ـ طبعة دار الثقافة ـ بيروت.

6 ـ احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة.
طبعة دار الثقافة/ بيروت.

7 ـ أحمد أمين ـ ظهر الإسلام.
الطبعة الخامسة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت 1969/1388.

8 ـ بالنثيا : انخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي.
الطبعة الأولى ـ 1955 القاهرة مكتبة النهضة المصرية.

9 ـ الحجي : عبد الرحمن علي، أندلسيات.
طبعة دار الارشاد ـ الطبعة الأولى 1969/1388.

10 ـ خضر ـ حازم عبد الله. النثر الأندلسي في عصر الطوائف المرابطين.
منشورات وزارة الثقافة والإعلام 1981 دار الحرية.

11 ـ السعيد : محمد مجيد : الشعر في ظل بني عباد.
الطبعة الأولى ـ مطبعة النعمان ـ النجف 1972/1392.

12 ـ الضبي : أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبي.
طبع في مدينة مجريط بمطبع روخس 1882.

13 ـ علي أدهم : بعض مؤرخي الإسلام.
سلسلة الثقافة العامة : المؤسسة العامة للدراسات والنشر 1974.
14 ـ مكي ـ محمود علي.
مقدمة تحقيقه لجزء من المقتبس لابن حيان.
لجنة احياء التراث الإسلامي ـ القاهرة 1971/1390.
مطابع الاهرام التجارية.

د. ح.ع.ا.خ

منهاجية ابن حيّان في تاريخ الأدب ونقده

د. محمد مفتاح
كلية الآداب / الرباط

1 ـ بين التأريخ وتأريخ الأدب :

لعل الأمر يكون من تحصيل الحاصل أن نبين الصلة بين علم التأريخ وتأريخ الأدب، فالعلاقة بينهما متينة العرى؛ إذ المتصفح للكتب التاريخية التي ألفت، سواء أكانت في بداية التدوين فيه أم كانت بعد بلوغه مرحلة النضج، يلفت انتباهه بعض الخصائص في تلك المدونات. وأهمها مزج السرد التاريخي بالأشعار وبخاصة في نوع أيام العرب (1). فكانت تسرد تعزيزا لصحة الوثيقة، أو تساق ـ فيا بعد ـ عقب المعارك لتخليد النصر أو التماس العذر للهزيمة، وللمدح في كلتا الحالتين للقائد الذى خاض معارك الجهاد، أو خضد شوكة الثائرين. وهكذا نجد المؤرخين يثبتون في كتبهم اشعارا كثيرة، فامتزج التاريخ بالأشعار عند المدائني وابن قتيبة وأبي الفرج

1) د. عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، 1960، ص 16.

الاصبهاني وابن عبد ربه وابن حيان وعند غيرهم من المؤلفين في هذا الميدان. كما أن المؤلفات في سيرة الرسول أصبحت نموذجا محاكا ومقلدا، فصارت منطلقا للمؤلفات الأدبية المهتمة بتاريخ الشخصية مثلما نجد عند ابن سلام الجمحي وابن قتيبة وأبي الفرج الاصبهاني وغيرهم من أصحاب الطبقات أو ما أشبه الطبقات. كما أن العناية بالأنساب، والتأليف فيها، ورواج تلك التآليف كانت تعضيدا لتاريخ السيرة ودعامة قوية لكتابتها.

وكان قدماء المؤرخين وبخاصة من تبنى منهم اتجاه أهل الحديث نماذج استقى منها ابن حيان طريقته في الكتابة فدقق وتحرى واستقصى ووصف الوقائع بدون مواربة. على أنه لم يسند أخباره فاكتفى بالنقل من الكتب أو الرواية عمن شاهد الحدث أو عاصره أو عاصر من حييه، غير أنه مهما تحرى الصدق واتبع طريق أهل الحديث، وغالب هواه فإن النزاع المحتدم الذى كانت تعرفه الأندلس بين مختلف العناصر المتوطنة لها، وارتباطه بالبلاط الأموي، وما كان يمثله هذا البلاط من اتجاه في الحياة، وطبيعة انتمائه وشخصيته جعلت أحكامه تتلون بهذا اللون المحلي وذلك الانتماء، فتراءت قسوة ما في بعض أحكامه على بعض فئات المجتمع الأندلسي مثل البرابرة، وعلى بعض الأفراد.

ومجمل الأمر فيما قدمنا أن المنهج التأريخي الذي اتبعه ابن حيان انعكس على تأريخه الأدبي، وهذا شيء لا غرابة فيه، بحكم طبيعة التأليف التأريخي ولأن أغلب أهل الحكم من سلاطين ووزراء وكتاب وقواد، وهم الذين كتب لأجلهم الكتاب، كان يقرض الشعر مجيدا أو مسفا مقلا أو مكثرا. وكما لاحظنا أنه لم يبتدع ذلك ابتداعا، وإنما سار فيه على هدي

التأليف في التاريخ لدى ثقات المؤرخين ومشهوريهم، وهذا لا يعني نزع كل أصالة من ابن حيان، وإنما نريد، من خلاله، أن نبين أن أي نوع من التأليف له قواعد ملزمة وأخرى اختيارية بحيث يجب أن تتبع القواعد الملزمة، فإن لم تتبع فإن المؤلف يفقد هويته. ووصفنا لمؤلفات ابن حيان بأنها تاريخية يلزم عنه أنها تتوفر على قواعد النوع التاريخي، أي تلك القواعد التي يدركها القارىء المتمرس والتي تجعله يتنبأ بما سيورده المؤلف. وقد يخرق بعض المؤلفين هذه القواعد جملة وتفصيلا فيؤسس قواعد جديدة فيحدث حينئذ قطيعة بين تأليفه والتآليف السابقة مثلما فعل ابن خلدون في مقدمته. وقد يتصرف بعض المؤلفين في بعض القواعد الاختيارية فيحذف أو يضيف، ولكن عملية الحذف أو الإضافة لا تحدث تحطيما للنوع. وأغلب ظننا أن هذا ما فعله ابن حيان في تواريخه.

2 ـ منهاجية تاريخ الأدب عند ابن حيان :

وعلى هذا، فالصلة واضحة بين ما حبره ابن حيان وبين ما كتبه المؤرخون الذين اقتدى بهم، وبين ما كتبه أصحاب الطبقات والمتحدثون عن الشعر والشعراء، وقد وردت ارهاصات منهاجية في كتب التراث، ومنها كتب ابن حيان إذا ما رتبت عناصرها بالتقديم أو التأخير فإن الباحث قد يفاجأ ويذهب به الحماس فيبالغ مبالغات تبعده، عن المنهاجية التأريخية فيستعمل عبارات ليست علمية مثل سبق فلان المؤرخ أو الناقد فلانا المحدث أو المعاصر، غافلا عن الزمان والمكان ومضمونها. وعلى هذا، ينبغي أن لا تفهم إشاراتنا ضمن هذه «المنهاجية» المومأ إليها، وإنما غاية ما نهدف إليه هو ضرب من المقاربة المحايدة.

وإذ ما سقنا هذا التوضيح الضروري فإنه علينا الآن أن نبين منهاجيته التي يشترك فيها مع من سبقه وعاصره، وذلك شيء ضروري وطبيعي، ويمتاز فيها من سابقيه ومعاصريه وهذا شيء ضروري وطبيعي أيضا، وإلا كان نسخة مكررة، وأهم ما تميز به تجنبه للاسجاع المتكلفة المرصوصة والتعابير الطنانة والمحسنات البديعية التي ليست ذات فائدة كبيرة مثلما كان صنيع الفتح بن خاقان وابن بسام وابن الابار مما شجع بعض (2) الباحثين المحدثين أن يتخذها بمثابة استمارات لدراسة مستويات الثقافة الأندلسية ولم يكن ابن حيان بعاجز عن التعبير وإنما كان متمكنا من زمام اللغة وقادرا على التصرف في تعابيرها كما أكد ذلك القدماء والمحدثون. وقد نوع تعابيره مراعيا مقتضى الحال فاتخذ لكل حدث أو حالة أو شخصية ما يلائمه من الأساليب، وهكذا جاءت تراجمه في غاية الفائدة ونهاية التنوع. ولنسق بعض الأمثلة للتدليل على صحة هذه الدعوى : ففي ترجمته لابن دراج القسطلي (3) يقدم إلينا العناصر الآتية : مكانته في جيله، فتقويم شعره فتطويح الفتنة به فتنقله عند ملوك عصره وأمرائه في الجزيرة ففشله في الحصول على رفدهم ثم استقراره عند منذر بن يحي. ولنسق مثلا ثانيا وليكن ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم. فقد ذكر تنقله إلى بلاد الثغر، واتصاله بأمرائها وكتابته عن عدة منهم، وغناه بسبب هذا الإتصال وخصومته مع ابن عمه الفقيه أبي محمد وتفوقه عليه في هذه الخصومة وتبريزه في الجد والهزل، وموته شابا (4)، ولعلنا ندرك غاية الادراك، من خلال هذين النموذجين تنوع المعلومات التي يوردها عن كل شخصية ترجم

---

2) Dominique Urvoy., Le monde des Olémas Andalous 1978.

3) ابن حيان، المقتبس، ص وما بعد، تحقيق د. محمود علي مكي القاهرة. 1390 هـ 1971م.

4) ابن بسام، الذخيرة، (مج 1. ص 59 ـ 61)، تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1395 هـ 1975م.

لها مما يكون زادا كبيرا لدارس تلك الشخصيات، وهي كثيرة. فإذا ما جمعنا تلك الترجمات كلها وقدمنا بعض العناصر الواردة فيها وأخرنا بعضها الآخر فإننا نرى عدة ملامح منهاجية شعر بذلك ابن حيان أم لم يشعر به، تقربه إلى بعض مدارس التاريخ الأدبي الحديثة ونلخص هذه الملامح في العناصر الآتية :

أ ـ أنه اهتم بالإطار الجغرافي، فقد ذكر كثيرا من المرات المناطق التي ينتمي إليها المترجم بهم، وقد ألحنا سابقا أن نوع الفن كان يوجهه إذ سبقه إلى ذلك ابن سلام الجمحي، والثعالبي في يتيمة الدهر، والأهم من هذا كله أن ما نجده يظهر على استحياء عند ابن حيان يتخذه ابن بسام قاعدة لبناء كتابه «الذخيرة».

ب ـ أنه اعتنى غاية الإعتناء بالإطار السياسي، وهذه نقطة لا تحتاج إلى برهان فقد اعترف له بالسبق، في هذا الميدان، القدماء والمحدثون.

ج ـ أنه احتفل بالإطار الإجتماعي فكثيرا ما نص على المستوى المادى والمعنوى للأسر التي ينتمي إليها المترجمون كان يقول مثلا «لم يكن لعيسى بن سعيد مآثر سلف ولا بيت تقدم» (5) أو يقول في شخص آخر خامل الأبوة مولد الأرومة (6) ومن حيث النسبة كان يذكر أصل مترجمه سواء أكان عربيا أو بربريا أم مولى أم مولدا، كما كان أحيانا يشير إلى مهنة الأب، وقد كان يدرك، وهو المؤرخ اللوذعي، وهو الحفيد للموالي، سر النزعات والنزاعات العرقية، وما كانت تقوم به من دور في إقامة الحكم أو إسقاطه، كما يريد أن يبين بغير تصريح أسباب وصول ذوى الهمم إلى أعلى المراتب.

---

5) المرجع السابق (مج 1. ص 132).

6) نفس المرجع (مج 1. ص 123).

د ـ ونجده يشير إلى ما اعتور الشخصية من تطور وتقلبات : شيوخ ودراسة وتدريس وصحبة ومسرات ومآس، وما خلفته من نتاج وما برزت فيه أو قصرت. تلك أهم الملامح المنهاجية المستخلصة من كتابة ابن حيان في «دراسة» الشخصية المنتجة للآثار الأدبية، وإذا ما أردنا أن نقابلها ببعض المناهج المستحدثة فإننا نذكر أن هناك مناهج ركزت على الحتمية الجغرافية وحكتها أساسا في دراسة الأدب، وركز بعضها على دراسة الفئة أو الطبقة التي ينتمي إليها الشخص المدروس، كما أن بعض المناهج الأخرى اهتمت بالعرقية وجعلت لها قسطا وافرا في توجيه نتاج الأديب وصبغه بصبغة صبغة معينة، وبناء على هذا صيغت أحكام تنعت هذا بالفارسية، وذلك باليونانية، كما أن منهاج دراسة الأدب من وجهة نظر التحليل النفسي ركز على حياة الشخصية.

3 ـ منهاجية النقد عند ابن حيان :

وقد يثار تساؤل معروف، ولكنه مشروع والسؤال هو التالي، لقد عرفنا خطة ابن حيان في تحدثه عن الشخصيات، فما هي ملامح منهاجيته في دراسة نتاج تلك الشخصيات؟ وقبل أن نعرض هيكل منهاجه، في هذه النقطة، نرى من الضرورة المنهاجية القصوى أن نمهد ببعض المقدمات لتأطير موقفه وادماجه في نسق ثقافي عام، وقد فعلنا هذا إبعادا للنظرة التجزيئية التي تنظر إلى الأدب، وكأنه بمعزل عن باقي الفعاليات الأخرى.

وأولى هذه المقدمات أن «الدولة» الأموية بالأندلس كانت تعيش في صراع مرير مع بني العباس في المشرق، فالعباسيون، فوق أنهم اغتصبوا الحكم من الأسرة الأموية وشردوها، انتشرت في عهدهم البدع، ولكن هذه البدع لم

تكن في الأندلس إذ «عصم الله بمنة منه وفضله أهل الأندلس وسلم لهم دينهم من الآفات ومستكره الخلات بصادق نيات الخلفاء الماضين من سلف أمير المؤمنين» (7) هكذا اثنى مؤرخو عبد الرحمان الناصر عليه، وهو ثناء يبرز المظهر الديني للنزاع ولكنه يخفي في ثناياه المظهر السياسي، فعبد الرحمان الناصر كثيرا ما كانت تحدثه نفسه بالذهاب إلى المشرق بعدما فرغ من تدويخ المغرب لاسترجاع ميراث أجداده و«إحياء الدين وإماتة البدع» (8).

وثانيتها أنها كانت تعيش في صراع أشد مرارة مع الفاطميين في افريقيا فقد حدثت بينهما حروب ومناوشات بواسطة صنائعهم مثل محمد بن خزر وموسى بن أبي العافية من قبل الأمويين، وجوهر من قبل الفاطميين ونجد مؤرخي الأمويين ينعتونهم بعدة أوصاف مثل : أهل الالحاد، وأهل البدع والخنازير والشيعة الرافضة، وكان أهم وصف يطلق عليهم هو لفظ المشارقة أو مذهب المشارقة أو النحلة المشرقية. وقد أشارت الرسائل المتبادلة بين عبد الرحمن الناصر وأنصاره في افريقيا إلى بعض عناصر مذهبهم مثل : جحد بنوة محمد واستحلال المحارم وتأول كتاب الله على غير تأويله، على أن أهم وثيقة أوردت عناصر نحلتهم هي الفتوى التي نجدها في «الأحكام الكبرى» لابن سهل (9). وهذه الفتوى متعلقة بأحد الدعاة الشيعيين، وعناصرها.

7) نفس المرجع (مج 1، ص 170).

8) ابن حيان، المقتبس، 23، تحقيق كورينطي واغسبرون، مارس 1979.

9) المرجع نفسه، 306.

- عدم شرعية الخلافة السنية إذ كانوا يسبون أبا بكر وعمر وأصحابها وعائشة.

- ترك الصلوات الخمس في المساجد.

- ترك حضور الجمعة.

- شرب الخمر.

- انكار الشفاعة وتخليد المذنبين من الموحدين في النار.

وقد كانت هذه الحرب الطاحنة ضد المتطرفين من الشيعة لها نتائج ثقافية هامة.

- وثالثة المقدمات، وقد تكون نتيجة لما تقدم أن الأندلسيين رفضوا التيارات الفكرية السياسية الأخرى، فقد حاربوا الفلسفة بتعقب المتفلسفين واحراق كتبهم واتهامهم بالزندقة، كما رفضوا مذهب المعتزلة الذى لم يكن له إلا وجود ضئيل، كما اضطهدوا أصحاب التصوف المتطرف وبخاصة في العصور اللاحقة.

- ورابعة المقدمات أن الأندلسيين، وهي خلاصة لما تقدم، كانوا يعيشون في حصار سياسي وطبيعي : فأعداؤهم في المشرق، وأعداؤهم في افريقيا وأعداؤهم في شمالي الأندلس وغربيها، وصراعات قبيلة حادة ومتنفذون متحفزون لنكث عهود الحكم المركزى. إن هذا الحصار وهذا الخوف وعدم الاستقرار جعلت السلطة المركزية تسعى جاهدة للمحافظة على توحيد أفراد المجتمع ضمن مذهب جامع فرفضت تلك المذاهب الخارجة،

فيما يقول ابن حيان، «عن طريق العلوم المعهودة بأرض الأندلس الجارية على **مذهب التقليد والتسليم**» (10).

تلك هي المقدمات التي يجب أن نضعها في حسباننا، ونحن نريد أن نقوم منهاجية ابن حيان النقدية. وقد يقال ما علاقة النقد برفض التشيع المتطرف والتصوف المتطرف والاعتزال والفلسفة ؟ فالأدب بمعزل عن هذا كله ولا يخضع لمذهب التقليد والتسليم الذي أخذ الأندلسيون به أنفسهم في العقائد والمذاهب، كما أن الناس سامحوا في الأدب فسمعوه من المسلم والكافر والفاسق والمؤمن، وأن المؤلفات الشيعية والصوفية والاعتزالية والفلسفية أخذ منها الأندلسيون ما فيها من أدب ورفضوا ما فيها من عقائد ونحل. وقد يظهر هذا الاعتراض وجيها ولكننا لن نخدع بما يتراءى لنا في السطح، وإنما يجب أن ننفذ إلى ثوابت المذهب السياسي الثقافي للحكم الأموي بالأندلس، وثوابته هي التقليد والتسليم في العقائد، والمذاهب والأدب، والكره الشديد «لدولة» بني العباس و«دولة» الفاطميين، والحنين إلى تراث بني أمية وإلى استيحائه، واستيعاب المعطيات المحلية، ويضاف إلى هذا ما انتخب من تراث العباسيين مما لم يشكل عامل تفجير لبناء الحكم الأموى، ولكن هذه الملاحظة النظرية لا تكتسب قيمتها إلا إذا عززت ببحوث تجريبية تثبت أن أشعار الشيعة والمعتزلة والمتصوفة والفلاسفة لم تكن مروية في مجالس الناصر والحكم والمنصور ابن أبي عامر ولم تكن تدرس في المعاهد الرسمية كالمسجد، ويظر لنا أن ما وصلنا من مصادر وبخاصة الفهارس يؤيد ما قدمنا.

---

10) أنظر فرحات الدشراوي «محاولة تسرب شيعي إلى إسبانيا الإسلامية لعهد ولاية الحكم الثاني» (بالفرنسية)، مجلة (الأندلس) عدد 111 xx ، 1953، ص 97 ـ 106.

وإذا ما رجحت صحة ما تقدم فإن ابن حيان لم يكن بمنجاة من التقليد والاتباع في نقده، ومن اتخاذ المحافظة مقياسا في قرض الشعر، ومن تبنى رفض البدعة في القول، ولكن قبل أن نستدل على صحة هذه النتيجة نضعها بدورها موضع تساؤل : اكان ابن حيان ناقدا أو كانت له بعض الأراء النقدية تشير إلى أن كثيرا من الدراسات التي كتبت عن تاريخ الأدب الأندلسي وعن نقده أغفلت هذا الجانب من ابن حيان (11). ولعل الذى صرف الاذهان عن نقد ابن حيان هو موقف ابن بسام منه، فقد صرح ابن بسام باعتماده عليه في سرد الوقائع التاريخية (12) دون التنبيه إلى أنه اعتمد عليه في الآراء النقدية وقد كانت هي أيضا مرتكزا أساسيا اعتمد عليه ابن بسام في تقويمه لشعر بعض الشعراء. ومهما يكن فموقف ابن بسام من ابن حيان يحتاج إلى تحليل دقيق ليس هذا محله، فابن بسام، وإن اعتمد على ابن حيان واعترف له بحيازة قصب السبق غمزه غير ما مرة أنواعا من الغمز. على أن د. محمود على مكي كتب عنه فقرة، في مقدمة ما نشره من كتاب المقتبس عنونها بابن «حيان ناقدا» (13) أشاد فيها بمنهاجه في النقد وما اتسم به من موضوعية وصراحة بعكس منهاج الفتح بن خاقان وابن بسام، وهذا رأى صائب يجب أن يؤخذ بعين الإعتبار. وأن يعمق وينظر له وهذا ما حاولنا أن نفعله في هذه العجالة.

ورغم أن ما وصلنا من آراء نقدية له ليس بكثير فإن ما بين أيدينا إذا تؤمل غاية التأمل ووضع في السياق الثقافي والحضاري الأندلسي العام،

---

11) ابن حيان، المقتبس، ص 33، كورنيطي.

12) د. أحمد هيكل، ود. إحسان عباس، ود. رضوان الداية.

13) ابن بسام، الذخيرة (مج 1. ص 35).

وربط بشخصية المؤلف ووزن بينه وبين الآثار النقدية المعاصرة فإنه يقدم خطوطا رئيسية للإتجاه النقدي الخاص والعام.

4 ـ عناصر نقده ـ النظرية والتطبيق :

ونقد ابن حيان ذو شقين : أحدهما نظرى، وثانيهما تطبيقي، لنبدأ أولا بالجانب النظري، ويمكن تكثيفه في ثلاث نقط رئيسية :

أ ـ تعليل ازدهار الأدب أو انحطاطه، ونجده في هذه النقطة يجعل ازدهار الأدب تابعا لتشجيع أولي الجاه (14)، فقد أمحى رسم الأدب في نظره من قرطبة وغلبت العجمة على أهلها وهاجرها الشعراء والأدباء لأنهم مدحوا سليمان فلم ينلهم شيئا، وتعليله هذا ليس مستغربا على تلك العصور وعلى تقاليدها، وبخاصة عندما انحلت عرى الدولة الأموية، وقامت على انقاضها ملوك الطوائف.

ب ـ موقفه من الشكل، ونستخلص منه عنصرين :

الأول منها تفضيله القصائد الطوال، ومع أنه لم يصرح بذلك فإنه يفهم مما كان يورده في تاريخه من قصائد طويلة، ومن وصفه لها وتقديمه اياها مثل قوله : أطال في تشبيهها ومديحها (15) ومثل قوله : «قصيدة حسنة... أطال فيها» (16) إلى غير ذلك من التعابير التي كان يقدم بها تلك القصائد ويختمها بها، وقد يعترض هذا بأن ليس في ذلك تفضيل الطول على القصر وإنما كان مضطرا بحكم أن تلك القصائد هي في المديح، والقصائد

14) ابن حيان، المقتبس، ص 108 ـ محمود علي مكي.

15) ابن بسام، الذخيرة، (مج 1، ص 67).

16) ابن حيان المقتبس، ص 42 كورنيطي.

المدحية يجب أن تكون طويلة كما تفترض ذلك قواعد الفن، ولكن يرد على هذا بوصفه لبعض الشعراء أصحاب تلك القصائد : «بقوة العارضة والافتنان في المعرفة» (17)، كما أن تقاليد النقد العربي السابق واللاحق ترجح هذا الرأي، فرأى ابن قتيبة في شكل قصيدة المديح مشهور، وتنظير القرطاجني ليس أقل شهرة، يقول حازم : «والقصائد منها بسيطة الاغراض، ومنها مركبة فالبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاء صرفا، والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين - مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح، وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق لما ذكرناه من ولع النفوس بالإفتنان في أنحاء الكلام، وأنواع القصائد» (18) وثاني العنصرين وهو عدم اكتفائه في الشعر بالوزن والقافية على عكس العروضيين الذين كانوا يعتبرون الوزن والقافية هما كل شيء فقد ورد في تعاليقه على بعض القصائد ما يفيد أنه يرى في الشعر عناصر أخرى إلى جانبي عنصري الوزن والقافية.

ج - أي أن ابن حيان كانت له مقاييس أخرى إضافية يحكمها لتبيان جودة الشعر أو رداءته. ويحسن هنا أن نستشهد ببعض آرائه النقدية المطولة لاستخلاص تلك المقاييس، يقول في حق أبي عامر أحمد بن شهيد : «كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام، وإذا تأملته ولسنه، وكيف يجر في البلاغة رسنه، قلت : عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديهته ورويته، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ولا اعتناء بالطلب ولا رسوخ

---

17) ابن حيان المقتبس، ص 48 كورنيطي.

18) ابن حيان المقتبس، 337 كورنيطي.

في الأدب، فإنه لم يوجد (...) بعد موته كتاب يستعين به على صناعته ويشحذ من طبعه إلا ما قدر له، فزاد ذلك في عجائبه وإعجاز بدائعه، وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك، وشعره حسن عند أهل النقد، تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم» (19).

ماذا يمكن أن يستنتج من هذا النص ؟ أهم نتيجة أنه يفضل الطبع في الشعر والنثر، وسمات الطبع : (20)أن يتصرف الشاعر تصرف المطبوعين من الشعراء مثل البحتري، وقد كانت له مكانة رفيعة عند الأندلسيين(21). الإيجاز وتكثيف المعنى الغزير في ألفاظ قليلة، دون الإلتجاء إلى أساليب الجدال والحجاج(22). أن الشعر أساسه الموهبة والتعلم وحده لا يصنع شاعرا. وإذا اجتمع الطبع مع ما يستلزمه من حسن التميز بين الأساليب، ومن سهولة القرض، أدى إلى ما اسماه «حلاوة المنظوم» كما أن نموذجه المفضل في النثر كان الجاحظ وعبد الحميد.

فهو إذن يفضل الطبع ويكره الصنعة والتكلف في صياغة الشعر والنثر بل نص على ذلك صراحة عند حديثه عن أبي القاسم الافليلي، وسنورد بعض الجمل من حديثه المتصلة باتجاه بحثنا. فأبو القاسم «قد بذ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة في ألفاظ الاشعار الجاهلية والإسلامية والمشاركة في بعض معانيها (...) وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه وإكمال صناعته به فلم يكن له شروع

---

19) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تونس 1966، ص 306 تحقيق، محمد الحبيب ابن الخوجة.

20) ابن بسام، الذخيرة (مج 1. ص 192).

21) المصدر نفسه، (مج 1. ص 281 ـ 282).

22) ابن حيان المقتبس، ص 42 كورنيطي.

فيه (...) واستكتبه محمد بن عبد الرحمان المستكفي بعد ابن برد فوقع كلامه جانبا من البلاغة، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين فزهد فيه) (23) فابن الافليلي لم ينفعه حفظه لغريب اللغة، لأنه ليس له طبع معين، وإنما كان متكلفا فزهد فيه فلم ينل الشهرة والجاه. وهكذا قدم لنا ابن الافليلي نقيضا لابن شهيد في الأدب وفي الحياة الاجتماعية.

تلك بعض عناصر النظر النقدى لدى ابن حيان، فهل كانت له «تطبيقات» على نماذج شعرية ونثرية تؤكد لنا صحة قوله وفعله، ليس بين أيدينا من ذلك قدر كاف، وإنما آراء موجزة، بيد اننا، على ضوئها، نستشف نواياه التطبيقية، فقد وصف بعض القصائد بأنها من جيد القول وخلاصة معانيها أنها تتحدث عن نصرة دين الله، وحسن المكارم، والشجاعة. وقد وصف أبياتا للسناط بأنها من حسن الإستنباط، وأن معانيها دقيقة لم يسبق إليها، والأبيات هي :

أخذ الورى من جوده فغنوا به ... كل بأجمعهم ولم يخلل به
كالشمس تأخذ كل عين ملأها ... منها، وتبقى، والشعاع بحسبه
ملك يظل المدح يبجو بعضه ... بعضا، إذا ما المدح لم يمدح به

---

23) المصدر نفسه، ص 44 كورينطي.

فمحور هذه الأبيات المدح بالكرم. وقد عبر عنه بصور محسوسة، إذ شبيهه بالشمس وهو تشبيه يدركه كل شخص كيفما كان مستواه الذهني وتكوينه الثقافي، وقد اتسمت بالمبالغة ولكنها لا تخرج إلى الإحالة.

ومجمل رأيه، في الشعر أنه وزن وقافية ومعان مصوغة بطبع دون صنعة إلا ما ورد عفو الخاطر وإلا ما كان ملازما لقرضه، وأغلب آرائه من بنات أفكاره، وكان أحيانا أخرى يعتمد فيها على «أهل النقد» وكل تلك الآراء تسير في خطى «مذهب العرب» للأسباب التي سردنا.

5 ـ الهــــدف :

وبعد، فقد قصدنا : أن نبين أن كتابة المؤلفات التاريخية أثرت تأثيرا كبيرا في مؤلفات المهتمين بالشعر والشعراء، ومنهم ابن حيان، وأن ابن حيان كانت له آراء نقدية يجب أن لا يغفلها دارس الحضارة الأندلسية.

ـ أن نبين خطل النظرة الجزئية التي تنظر إلى الأدب وكأنه بمعزل مما كان يتحكم في صياغة النظرة الأموية بالأندلس للعالم، إذ لا نجد إلا دراسات جزئية وصفية لا تقدم تفسيرا شاملا لحركة الفعاليات الحضارية الأخرى (أدب) فقه، معمار...) ولا تبين العلاقات الوثيقة بينها ولا ترجعها إلى ثوابت تعكس اتجاه الفئة الحاكمة، مما لا يخدم تقدم البحث العلمي، ولا يفيد غناء كبيرا في فهم مسار حركة التاريخ بالأندلس، ولا يبين نقط قوتها وضعفها ولا يجعلنا نحن المعاصرين، نستخلص العبرة.

د. محمد مفتاح

ابن حيّان القرطبي
مؤلفاته ومنهجيته

د. عبدالرحمن علي الحجي
جامعة الإمارات

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أيها الحفل الكريم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن ابن حيان أحد أئمة التاريخ الإسلامي والأندلسي، كتب ابن حيان مؤلفات ورد ذكرها وبعضا منها مهما كان عددها : المقتبس والمآثر العامرية والبطشة الكبرى وغيرها، ثم أهمها **المتين** في ستين مجلدا وصلتنا منه عن ابن بسام وغيره منقولات مهمة، ولعل اسم هذا الكتاب مقتبس من قول الله تعالى «وأملي لهم أن كيدي متين».



وهنا أتقدم بخصوص المؤلفات باستنتاج إن كان صوابا فهو فتح من الله تعالى علي، هو أن ابن حيان ألف كتابا واحدا هو : «المتين»، والكتب الأخرى إما أقسام منه أو مختصرات، وهذه بعض الأدلة :

1) يدل اسم المقتبس على أن ابن حيان اقتبسه من المتين، فهو مختصر منه.
2) أن ابن بسام - وهو أديب ومؤرخ ممتاز عفة لسان ودقة ميزان وأقر بالعرفان مع الإستقامة لا يقل عن ابن حيان - لم يذكر المقتبس في ذخيرته.
3) ينقل ابن بسام نصوصا لابن حيان وينوه به ويقول بأنه من تاريخه الكبير أو من تاريخه، وهو يقصد المتين.
4) إذا كان المتين في ستين مجلدا فعن ماذا سيكون، إذا لم يكن شاملا لكل تاريخ الأندلس، منذ الفتح الإسلامي لها وحتى وقت تأليفه قبيل وفاة ابن حيان بأعوام، الذى كانت وفاته سنة 469 هـ.

☆ ☆ ☆

عرفنا ابن حيان مما بقى من كتابات ووصلنا خلال الرحلة الشاقة ومما كتبه عنه المؤرخون الذين اطلعوا له على نصوص أكثر، امتازت كتابات ابن حيان بأسلوبها المتقن ومنهجيتها الواضحة العلمية الأمينة.

فتاريخه تحليلي كالذى عن بربشتر، وهو ملتزم وهادف وشهادة عيان لعصر الطوائف بقلم مرهف صدوق، وهو واضح الالتزام بالإسلام. كما يمتاز عموما بتحريه ودقته وتوثيقاته وشمول كتاباته وإيراد أخبار انفرد بها أو ممن انفرد بها - حسب المراجع التى وصلتنا، كما أنه ملم بالتاريخ الإسلامي العام جيد الفهم له حسن التصور، وهو قوي في أحكامه وصفاء نظرته وصحة موازينه...

كتبه بأسلوب الحوليات والموضوعات وكان كثير الإختلاط والإرتباط والإتصال بالناس والتلاقي بهم على جميع المستويات لا سيما أهل المسؤولية

والجهاد، وأن اتصالاته وإطلاعاته ومراسلاته ومندوبياته انتفعت بوسائل مهمة وأن اهتمامه مسلما ومؤرخا أهلته لذلك، عواملا وأسبابا واضحة قوية «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» (حديث شريف).

ولقد جعل ذلك لكتاباته أهمية وثائقية ودراسية وفكرية وحضارية خاصة للحياة الإسلامية ومجتمعها.

وقد جاء ما كتبه عن الطوائف معبرا عن حالهم ومصورا لدقائق أمورهم ومحللا معللا وضعهم وأسبابها، يدل على عمق وسعة ثقافة وقوة كما هو في حديثه عن بربشتر في ذخيرة ابن بسام. فلقد حركت هذه المأساة البربشترية نفسه بالمشاركة الملموسة، يدل ذلك على المتابعة ليس باعتبار مهنته مؤرخا بل باعتبار صلته بالأمر ومشاركته، فكان كلامه حيا ومتحركا وجريئا يدل أيضا على أنه موجود في المجتمع ومعه محتكا به مسؤولا عن ذلك أصالة، امتلأت نفسه فحملها قلمه، وهذه صفة العلماء في الحضارة الإسلامية ومجتمعها، «ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، ووجه النصيحة واللوم الشديد لملوك الطوائف وكل الفئات التي عاونتهم في ذلك ووجه الناس لتلافي الأمر وأشاد بالمواقف الطيبة كما فعل حين الحديث عن بربشتر.

إن هذه المواصفات لا تتم في أي مكان أصالة وقوة وصدقا وجرأة - إن كانت تتم - مثلما تتم في الإسلام ومجتمعه، وهو أمر طبيعي لمن لا يخشى في الله لومة لائم، صفة علمائنا، وفي غير هذا يضيع العلم ويبرك القلم.

لم يكن علماؤنا أهل لسان مجرد بل أهل عقل وجنان وتقوى لله تعالى وإيمان وأهل ورع تملأ مواقفهم ومسالكهم، وكانوا دوما للناس كنفا

ومؤثلا وراعيا ومربيا اضاءات مجتمعه وحراس دربه وسادي خلته ومداوي علته وسهارى ثغوره وحاملي همومه - ورافعي رايته ومصابيحه ونجومه، فكان تواجدهم في المجتمع أكثر وقت المعامع حتى أنهم ملؤوا سوح القتال، وهذا هو فعل العقيدة الإسلامية الربانية وليس الأرضية. وإذا غابت هذه العقيدة فلا تتوفر بأي من عوامل التخصص وتنوع الوسائل والإمكانيات. وعلماؤنا في أمتنا الإسلامية وحضارتهم هم القادة الحقيقيون للمجتمع المسلم، ويوم يتخلون عنها يصبح المجتمع بدون قيادة، فكانوا خيرة قادته وأئمته، فهم وارثوا النبوة ومورثوها، فأي مكانة وأمانة ومنزلة ومؤهلة، وهم الخير وأهله ومعلموه، وخيار العلماء خيار الخير كما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد حاز ابن حيان الكثير من هذه الصفات ظاهرة الآثار ملموسة قوية جادة في كتاباته التي وصلتنا وتقل إلينا منها بواسطة العديد من الكتاب والمؤلفين والمؤرخين والأدباء، كما أن مؤلفات ابن حيان امتازت بمنهجيتها الجيدة وجوانبها المتنوعة وشمولها وعمقها وصدق نظرتها وبعد تحليلاتها.

ومما ذكره وأجاد فيه أنه حذر من مصير الأندلس لما رأى من حال الطوائف وتوقع سوء العاقبة، ولعل توقعه وما رأى كان أقصر مما جرى. رأى قرب النهاية غير بعيد. ولعل ظاهر الأمور كانت أمامه تقود لمثل هذا لولا إرادة الله تعالى وحكمته إذ أنسأ في الأجل الأندلسي لكن مهما يكن فلا يبدو أن ابن حيان ولا غيره كان يتصور أو ورد على ذهنه الذى جرى بعد

سقوط غرناطة وما اقترفته محاكم التفتيش الإسبانية الصليبية في الأندلس رحم الله ابن حيان وأجزل ثوابه وغفر لنا وله.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد الهادي الأمين، وأجمعنا اللهم به يوم الدين بفضلك ومنك آمين.

د. عبد الرحمن علي الحجي

الفكر السياسي لأبي مروان ابن حيّان

د. وداد القاضي
الجامعة الأمريكية / بيروت

إن الدارس لأي جانب من جوانب فكر أبي مروان ابن حيان، مؤرخ الأندلس الكبير، لابد أن يصطدم بعقبتين عامتين، أولاهما: ان تاريخ ابن حيان ـ بأجزائه المختلفة (المقتبس، أخبار الدولة العامرية، المتين، البطشة الكبرى) ـ لم يصلنا كاملا، وثانيتهما أن ابن حيان كان في بعض مراحل هذا التاريخ ناقلا أكثر منه مؤلفا ـ في المقتبس بخاصة ـ فيما كان في معظم أجزائه معايشا للأحداث التي أرخها، وتلك قضية قد أثارت جدلا غير قليل بين الباحثين (1)، ولعل البحث الذي يقدمه الدكتور إحسان عباس في هذا المؤتمر كفيل بجلاء جانب أساسي منها.

---

1) أنظر مقدمة الدكتور محمود علي مكي على المقتبس (دار الكتاب العربي، بيروت، 1393 / 1973) : 74 وما بعدها.

ومع ذلك، فإن من واجب الباحث أن لا يغفل عن أهمية ابن حيان بانتظار الكشف عن تاريخه كاملا، فإن ما وصلنا منه ـ في أجزاء كاملة أو في نقول مطولة (خاصة في ذخيرة ابن بسام والحلة السيراء لابن الأبار والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الإعلام لابن الخطيب ونفح الطيب للمقرى). ـ من شأنه أن يبين لنا جوانب غير قليلة من فكر هذا الرجل، وهي جوانب تخضع للتعديل أو للاضافة ولكنها لا تخضع ـ فيا اعتقد ـ للخذف، وخطوطها العريضة واضحة في توجهاتها الكبرى، وتفصيلاتها لا بأس بوفائها موضوعة حقه.

فإذا أخذنا العقبتين واحدة بعد الأخرى أمكننا أن نقول انه بالنسبة للعقبة الأولى ـ وهي عدم اكتال تاريخ ابن حيان ـ ان ما اكتشف في العقدين الأخيرين من هذا التاريخ ـ على ضآلته النسبية ـ يهيء لنا مادة صالحة للبحث والتفحص، ولدينا الآن قطعة من تاريخ إمارة الأمير عبد الرحمن الثاني (206 ـ 238) (2) والأمير محمد بن عبد الرحمن (238 ـ 273) (3) والأمير عبد الله بن محمد (275 ـ 300) (4)، وقطعة مطولة من تاريخ الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله (300 ـ 350) (5)، وبضع سنوات من تاريخ الخليفة الحكم المستنصر (350 ـ 366) (6)، ثم قطع

---

2) مضمنة في الجزء الذي نشره الدكتور محمود مكي (أنظر الحاشية السابقة).

3) مضمنة أيضا في جزء الدكتور مكي.

4) نشر ملشور انطونية (باريس، 1937).

5) نشر بيدرو شالميتا (المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد بالإشتراك مع كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979).

6) نشر الدكتور محمد علي الحجي (دار الثقافة، بيروت، 1965).

مطولة (7)، من أخبار خلافة المؤيد هشام، وحجابة المنصور ابن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول، ثم قطع شديدة الإبانة في تاريخ الفتنة البربرية، ومحاولات إعادة الوحدة إلى البلاد الأندلسية الممزقة بالفتنة الداخلية : بخلافات محمد بن هشام عبد الجبار المهدي، وسليمان بن الحكم المستعين، وهشام بن الحكم الناصر، وعبد الرحمن بن محمد المرتضى، وعبد الرحمن بن هشام الظافر، ومحمد بن عبد الرحمن المستكفي، وهشام بن محمد المعتد، وما انتظم في سلك ذلك من محاولة الحفاظ على الوحدة الجماعية القرطبية الرمزية بدولة بني جهور، وما أعقب ذلك ـ بل رافقه ـ من تشرذم بلاد الأندلس حصصا بين ملوك الطوائف في الوسط والشرق والغرب وفي الثغر الشمالي.

وأما العقبة الثانية، فإن الدارس يمكن أن يتجاوزها بغير طريقة : أولاها التدقيق الشديد في طبيعة النص الذي بين يديه من كتاب المقتبس، ومحاولة اكتشاف ما هو من عمل ابن حيان نفسه مقابل ما هو نقل عن سائر المؤرخين، وفي هذا المجال لا يسع الدارس إلا أن يلاحظ اطراد اعتماد هذا المؤرخ على التواريخ التي سبقته (ككتاب الأنيق لابن مسعود وكتاب عيسى بن أحمد الرازي وأخبار فتح الأندلس لابن القوطية وغير ذلك كثير) (8)، حتى انه عندما وصل إلى ذكر عيد الأضحى من سنة 361 من

---

7) هذه القطع متفرقة في كتاب الذخيرة لابن بسام (تحقيق الدكتور احسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس ـ ليبيا، 1975 ـ 1979) والحلة السيراء لابن الآبار (تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1963) والبيان المغرب لابن عذارى (1 ـ 2، بيروت 1950 و3، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، مصور بدار الثقافة بيروت، دون تاريخ) وأعمال الاعلام للسان الدين ابن الخطيب (تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956) ونفح الطيب للمقرى (تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت 1968).

8) أنظر مقدمة الدكتور مكي على جزئه من المقبس : 89 ـ 92.

خلافة الحكم المستنصر، ووجد خرما في المخطوطة التي بين يديه من تاريخ عيسى الرازي في سائر أحداث هذه السنة، اعتذر للقارىء عن عدم قدرته على ملء الفجوة الباقية منها، وتمنى أن يتهيأ له ـ أو لغيره ـ أن يقيم أودها، وذلك أمر لم يتم له ـ فيما يبدو ـ فترك تلك الشهور دون تاريخ وانطلق إلى ذكر الأحداث الواردة في تاريخ عيسى الرازى في السنة التالية ـ 362 ـ (9). غير أنه لا يسع الدارس في الوقت نفسه إلا أن يلاحظ أنه في تاريخ ابن حيان للخليفة السابق : عبد الرحمن الناصر لدين الله، يقل اعتماد ابن حيان ـ نسبيا ـ على نصوص المؤرخين السابقين بحرفيتها، ونجده أكثر ما نجده (بين سنتي 300 و327) أكثر ما يبدأ بالأخبار عن الأحداث كما تمثلها من كتابة غير مؤرخ معا، ثم يورد ـ بعد ذلك تلك الأخبار نفسها كما أوردها هذا المؤرخ أو ذاك، بل إنه يزيد على ذلك ـ وقد تقارب الزمن بين حياته هو وبين الفترة التي يؤرخها ـ بالنقل عن بعض شهود العيان في رواياتهم لما عايشوه من أحداث في زمن الخليفة الناصر (10)، وذلك ملمح نقدر أنه ظهر أيضا في تأريخه للخليفة الحكم المستنصر، إلا أن ما وصلنا منه ـ وهو قليل ـ ليس فيه من براهين قاطعة على ذلك. من ثم تشكل المادة التي أدرجها ابن حيان بصياغته ـ وإن اعتمادا على الآخرين ـ منطلقا صالحا ـ وإن حذرا ـ للبحث في مناحي فكره الشخصي، وأكثر من دلالة قاطعة على ذلك الفكر العناوين التي أدرجها في متن تأريخه للأحداث، فهو قد ينقل النصوص المطولة، ولكن العناوين لاشك من وضعه هو، وهي ـ على وجه الإجمال ـ مطولة شديدة الابانة عن موقف صاحبها (11).

9) أنظر المقتبس (الحجي) : 95 ـ 96.

10) أنظر المقتبس (شالميتا) : 38 مثلا.

11) أنظر مثلا المقتبس (شالميتا) : 255 والمقتبس (الحجي) : 189.

وهذه العقبة قد تصبح أقل ظهورا وحدة في ما سوى كتاب المقتبس، لأن هذه الكتب قد كتبها ابن حيان إما عن مشاهدة ومعايشة وإما نقلا عن «مراسلين» له كانوا شهود عيان لما يدونه. بل ان هذه العقبة تختفي اختفاء شبه تام في هذا المجال، لأن ابن حيان يترك المجال لقلمه **بالتقويم** داخل التأريخ، والتقويم أشد الأمور دلالة عن فكر المفكر ـ مؤرخا كان أو غير ذلك ـ فإذا انضاف إلى ذلك ما كان يتمتع به ابن حيان من الجرأة على المجاهرة بالرأي والقول، ومن الحدة في التعبير، ومن القدرة على المزج الغريب بين الموضوعي والذاتي، فضلا عن الانغماس «العصبي» فيما كان يكتب عنه كان لدى الدارس أرضية لا بأس بها لكي ينطلق في سبرغور أعماق فكر هذا الرجل الكبير. وان الدارس ليزداد يقينا في أنه يتفحص الفكر الصريح الحر لابن حيان ليس وحسب لأن الرجل عزف ـ أو كاد ـ عن التوسل بالوظائف لنيل الدنيا (12)، ولكنه لأنه قد قال ما لم يقله مالك في الخمر في معظم ملوك الفتنة وأعوانهم في الأندلس، ومع ذلك لم يجرؤ أحد على النيل منه، أو على الإعتداء على شعرة من رأسه، بل إنهم زادوا فخطبوا وده، قال ابن بسام : «ولما تحدث بتاريخه في ملوك الطوائف بأفقنا، استشرفت طائفة منهم على مطالعة غرره، وعدوه من فرص العمر وغرره، واهتزوا لقطف ثغره، وافتقروا إلى مطالعة فقره، واستهدوه اياه، وأجزلوا على ذلك قراه...» (13) ومع ذلك فإن ابن حيان ترفع عنهم، وذلك من العجب العجاب في زمن الفتنة والإضطراب.

---

12) أنظر مقدمة مكي على المقتبس : 43 ـ 45، وانظر الذخيرة 2/1 : 605.

13) الذخيرة 2/1 : 573.

وتبقى بعد ذلك عقبة خاصة تواجه من يحاول البحث عن فكر أبي مروان ابن حيان السياسي بالذات وتلك هي أن أبا مروان لم يكن، محترفا للكتابة في السياسة وإنما كان مؤرخا للأندلس وحسب فليس لديه من ثم أي مبحث جاهز في السياسة يستطيع الدارس أن يستطلع من خلاله فكره السياسي. ورغم ذلك كله، فإن الباحث يستطيع أن يجد في عناوين ابن حيان وفي تعليقاته الحادة اللاذعة مادة صالحة للبحث في فكره السياسي، بل إنه ليستطيع أن يجد قدرا غير قليل من النصوص المعينة له على تصور تفصيلات هذا الفكر. وكل ما على الدارس أن يفعله، هو أن يكون شديد الوعي بكل خلجة من فكر أبي مروان ينبىء بها أسلوبه الفني، وأن يكون ـ في الوقت نفسه ـ شديد التدقيق فيما ينتمي إلى فكره هو الأصيل من دون فكر غيره ممن ينقل عنهم من المؤرخين، وهذا أمر شديد خفاؤه، وعر سلوك سبيله.

☆ ☆ ☆

ولابد بادىء ذي بدء أن أقرر أن الفكر السياسي لابن حيان كان يوجهه عاملان الأول يتعلق بالزمان الذي عاش فيه ومات، والثاني بالمكان المحدود الذي كان يتحرك فيه.

أما العامل الأول ـ وهو الزمان ـ، فإن ابن حيان ـ المولود سنة 367 للهجرة ـ قد قيض له أن يشهد أقصى قمة بلغتها وحدة البلاد الأندلسية زمن الدولة العامرية. (367 ـ 399) برمزها التوحيدى الكبير : قرطبة، «دار الجماعة (14)، ثم أن يشهد وهو في ذروة الوعي السياسي، وهو في الثانية

---

14) انظر المقتبس (شالميتا) : 220.

والثلاثين من العمر، بداية الفتنة الكبرى العاصفة بتلك الوحدة المؤدية بعد عقدين أو أقل من الزمن إلى تفتتها تفتتا لا منجاة لها معه، ولا عودة به إلى ما كان ولا أمل في أي مستقبل» للجماعة الأندلسية. ولقد كان ابن حيان شديد التعلق بفكرة الجماعة هذه وبقرطبتها «جنة الأرض» (15)، حتى لقد أطلق عليه أحد الباحثين المحدثين إسم «مؤرخ الجماعة» (16)، فلما آذن عقد هذه «الجماعة» بالإنفراط، وآلت «دولة الجماعة إلى «دولة الفرقة» كما يسميها (17)، أدرك أبا مروان ما يشبه الإجبال، فتوقف عن كتابة تاريخه (18) ثم ما لبث أن اذعن للأمر الواقع، وابتلعه على مضض، يسترجع بين الفينة والفينة أمجاد بني أمية القديم، فتسمو تلك السلالة في نظره وهو من أسرة عرفت قديما بولائها للأمويين المروانيين منذ دخولهم الأندلس» (19)، وقد ظل منظور الجماعة هو المنظور الكبير الموجه لأبي مروان في فكره السياسي، ولم يتخل عنه إلا في لحظات استثنائية عندما كان يلمح طيفا في خيال في أحد ملوك الفتنة وهو يتصرف تصرف صاحب الجماعة ومدبر المملكة الكبرى من حاضرتها قرطبة (20).

---

15) الذخيرة 1/1 : 436.

16) هو الدكتور احسان عباس في بحثه «ابن حيان الأندلسي مؤرخ الجماعة (ضمن كتاب دراسات في الأدب الأندلسي لإحسان عباس ووداد القاضي والبير مطلق، الدار العربية للكتاب، تونس ـ ليبيا، 1972، الصفحات 218 ـ 231).

17) المقتبس (انطونية) : 33.

18) أنظر الذخيرة 2/1 : 576.

19) أنظر مقدمة مكي على المقتبس : 8 ـ 9.

20) سوف يجيء الحديث عن ذلك فيما يلي، خاصة فيما يتعلق بمنذر التجيبي صاحب سرقطة وأبي الحزم وأبي الوليد ابني جهور صاحبي (مملكة) قرطبة.

أما العامل الثاني ـ وهو عامل المكان ـ فإن أبا مروان الأندلسي القرطبي الذي لم يغادر بلاده رغم كل ما حل بها، كان على أشد الوعي بوقع هذه البلاد جغرافيا، إذ هي قبل كل شيء ثغر من ثغور الإسلام، يتربص بها العدو النصراني الدوائر، ولا يكتفي بالحروب والاقتطاع والتدمير والترويع للسكان، وإنما يزيد على ذلك فيستغل التمايز العنصري الكبير بين سكانها فيشجع فئة على أخرى، ويتحالف مع طائفة دون أخرى، فتثور ثائرة الفتن الأهلية، وتهيج نيرانها، وهات من يطفئها فضلا عن أن يصد موقدها «من هنا كان منظور «أرض الإسلام» (21) مقابل «بلاد الحرب» (22) ـ على حد تعبيره ـ منظورا متحكما أشد التحكم في فكر ابن حيان بعامة، وفي فكره السياسي بشكل خاص، حتى إنه ليصعب أن نفهم ذلك الفكر من دون الرجوع إليه.



وأول ملمح كبير من ملامح الفكر السياسي لأبي مروان ابن حيان أنه لا يتصور لـ «أرض الإسلام» كيانا حافظا لـ «الجماعة» سوى في ظل حاكم يسوس البلاد من حضرة هي «دار الجماعة». ولا يتمب أبو مروان نفسه بالحديث عما إذا كان وجود هذا الحاكم على رأس الأمة ضروريا أولا، إذ هو ـ مؤرخا ـ لا يقحم نفسه في سفسطات الفرض والمتكلمين، وبكيفية

---

21) البيان المغرب 3 : 8.

22) الذخيرة 1/4 : 86.

استقراؤه للتاريخ موصلا إلى الإستنتاج القاطع بضرورة وجود الرأس ذاك، بل إنه يلمح إلى أن وجود هذا الرأس سنة واجب اتباعها منذ أن قام بها الخلفاء الراشدون (23).

ولا يهتم ابن حيان باللقب الذي يحمله الحاكم الإسلامي، ونحن نجده يطلق ألقابا ثلاثة على واحد من حكام الأندلس هو الأمير عبد الله بن محمد (275 ـ 300) هي «سلطان الجماعة» (24)، و«إمام الجماعة» (25)، و«أمير الجماعة» (26). ويلاحظ في هذه الألقاب الثلاثة أمران : تكرر كلمة «الجماعة» فيها جميعا، ثم تجنب استعمال لفظ «خليفة»، ليس وحسب لأن الأمير عبد الله لم يتسم بهذا الإسم، ولكن أيضا لأن ابن حيان كان يعتقد بعدم جواز وجود خليفتين للمسلمين في آن واحد إذا كان الخليفة الأصلي حافظا للأمة وحاكما حقيقيا لها يتوفر فيه شرط «التسلط» عليها، وتلك فكرة لا يصرح بها تصريحا مباشرا، وإنما هي مستنتجة من تصوره لطبيعة سير التاريخ الإسلامي في المشرق ـ مركز الخلافة الأول ـ فهذا التاريخ بالنسبة لابن حيان قد أورث الخلافة إلى بني العباس (27)، وعلى ما كانت عليه دولة العباسيين من الفساد منذ البدء في رأيه إذ كانت «دولة الطائفة الزائغة والعصابة الباغية، فإنها ظلت متماسكة، يمسك خلفاؤها بزمام الأمور فيها بسلطة وسلطان، حتى انقضت المائة الثالثة من الهجرة، وذلك في آخر

23) أنظر المقتبس (شالميتا : 22، وليس من المؤكد تماما أن هذا النص لابن حيان من دون غيره ممن ينقل عنهم من المؤرخين، فالقطعة هنا شديدة الاضطراب في التراوح بين مؤرخ وآخر وبين تدخلات ابن حيان. غير أن السياق العام للنص إذ يخرج من إطار التاريخ إلى إطار فلسفة التاريخ يقوى الظن بأنه لابن حيان دون غيره من المؤرخين.

24) المقتبس انطونية : 67، وانظر المقتبس (شالميتا) : 168.

25) المقتبس (أنطونية) : 89.

26) المصدر نفسه : 133 ـ 134.

27) أنظر المقتبس (شالميتا) : 22 ـ 23.

خلافة المقتدر بالله (28) (حكم بين 295 و320) فدب الوهن في نفوس هؤلاء الخلفاء، وسادت الفتن في البلاد، فتمكن بنو بويه ـ أو «أمراء الديلم» كما يسميهم (29) ـ من بعد من اصطياد السلطة من الخلفاء، وباتوا هم أصحاب السلطان الحقيقي لا الخلفاء، فيما بات الخلفاء من «متقلدى الخلافة» وحسب (30)، فاقدين بذلك شرط التسلط المطلوب فيهم. إذ ذاك بات منصب الخلافة الحق «شاغرا» بوجه من الوجوه، فتطلع إلى منازعة «ضعفة بني العباس» (31) عليه اثنان : المعز لدين الله الفاطمي بافريقية والناصر لدين الله الأموي بالأندلس، فأما الأول فيشير ابن حيان لا مباشرة إلى أن الخلافة لا تجوز له أصلا لأنه غير مسلم ابتداء، ولا يعدو أن يكون «ملحدا شيعيا» (32) وأما الثاني فقد توفر فيه ـ فضلا عن شرط الإسلام ـ فضيلة الإنتساب بالدم إلى أسرة ذات تراث عريق في الخلافة ـ الأسرة الأموية ـ، فهو «ابن أمراء المؤمنين، وسلالة الهداة الفاضلين، والأئمة المتقين، القائمين بالحق، السالكين سبيل الرشد» (33)، فالخلافة حق من حقوقه، وإنما تأخر في التسمي بأمير المؤمنين حتى أواخر سنة 316 (أي بعد انقضاء سبع عشرة سنة على توليه الحكم) انتظارا لشرعية هذا التسمى، وقد أقدم عليه بعد

---

28) أنظر الحلة السيراء 1 :36. وقد خلع المقتدر عن الخلافة في بلده نفسها مرتان : خلع بابن المعتز سنة 296 وبالقاهر سنة 317، (أنظر الكامل 8 : 14 و200 طبع دار صادر بيروت 1965 ـ 1966 ويلاحظ أن الناصر اتخذ اللقب الخلافي قبيل تلك السنة الأخيرة نفسها، وكانت الأجواء العامة ببغداد توحي ببوادرها.

29) المقتبس (الحجي) : 87، وانظر أيضا الذخيرة 2/1 : 577.

30) أنظر الذخيرة 2/1. 577.

31) المقتبس (الحجي) : 87.

32) أنظر المصدر نفسه : 87.

33) المقتبس (شالميتا) : 241.

غياب الخلافة الفعلية لدى بني العباس، فكان عمله ذاك آنذاك ـ في نظر ابن حيان ـ «استكمالا لمرتبة الخلافة»، واستتماما لميسمها (34).

وتتوضح الشروط الأساسية التي يراها ابن حيان ضرورية في خليفة المسلمين بشكل أكبر في تعليقه غير المباشر على حديث روي له عن اسماعيل بن ذي النون، أحد ملوك الطوائف بالثغر، إذ قال اسماعيل : (35).

تـوارثـوا (يعني بني أمية) هـذه الإمـارة مـخرقـة، **وضعهـا قريش لاستعمال الناس**، والناس لأب وأم، والفخار باطل، **أحقهم بـالملـك من استقل به.**

ففي رأي اسماعيـل أن الملـك ليس محصـورا بقريش، وإنمـا ادعى حصرها ذاك الأمويون من قريش بالذات لكي يستعبدوا المسلمين ويحتفظوا لأنفسهم وحدهم في حق امامتهم، والامامة الحق هي لمن غلب، كائنا من كان من المسلمين.

هذا الموقف هز ابن حيـان بشـدة، واعتبره ضربـة موجهـة إلى **السلف الصـالح الـذين كرم اللـه ذكرهم** (36)، ولـما روى قـول ابن ذي النـون

---

34) المصدر نفسه : 241، وانظر الحلة السيراء 1 : 36.

35) الذخيرة 1/4 : 144.

36) المصدر نفسه 1/4 : 144 ـ 145. وانظر سخرية ابن حيان من تلقب محمد بن معز بن صمادح ـ من ملوك الطوائف ـ بالألقاب الخلافية وليس له أصل في قريش ولا لأسرته عرافة في الملك، قال «... وتلقب من الأسماء الخلافية بالمعتصم، والرشيد لم يلده، وهو يعلم أن من الجور أس ملكه الموروث عن أب لم يكرم فيه فعله ولا طال في طلبه تعبه».
(الذخيرة 2/1 : 731).

الآخر في بني أمية : (37)... ممن لا يوجب الله طاعتهم، عترة مروان خبط باطل، الذين لم يسبق لهم صحبة، ولا أدخلهم السلف في شورى الإمامة...

كان ذلك القول في نظره أيضا تعريضا بالسلف الصالح، أي تزويرا للتاريخ، وكان واحدا من المساوىء «الكثيرة التي عرف بها ابن ذي النون» (38). وهذا كله يدل على أن ابن حيان كان يرى ضرورة أن يكون خليفة المسلمين من قريش، وحيث إن الأمريين من قريش، وكانوا بالفعل ممثلين في شورى الإمامة، فإن الخلافة حق من حقوقهم، بل ان ابن حيان يزيد فيجعل خلفاء بني أمية امتدادا طبيعيا لخلافة الراشدين، فهو عندما يتعرض التاريخ الإسلامي منذ الرسول وحتى قيام العباسيين يتحدث عن الخلفاء الراشدين حديثه عن بني أمية **ومن ثم ينتقل إلى الحديث عن بني العباس : (39)**، ثم استمر الدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قيامه وسدده في دول الخلفاء الراشدين، الذين امتثلوا سبيله، فأقاموا رسوم السنة، وأحرزوا وظائف الديانة، وأطفأوا نار الفتنة، ودمغوا الفرق الخارجة، وسحقوا الرافضة... حتى كانت دولة الطائفة الزائغة والعصابة الباغية من آل العباس...

وعلى إنحاء ابن حيان على دولة بني العباس، فإنه ما كان يشكك في أحقية خلفائها ـ وهم من قريش ـ ابتداء بالخلافة، وقد ابتدأوا متسلطين أقوياء، وقد رأينا من قبل كيف أنه لم يسوغ وجود خليفة آخر غير الخليفة

37) الذخيرة 1/4 : 143 ـ 144.

38) المصدر نفسه 1/4 : 143.

39) المقتبس (شالميتا) : 22.

العباسي إلا عندما شغر ذلك المنصب شغورا فعليا باضطراب الخلفاء ثم باستيلاء الديلم على مقدرات الدولة العباسية.

ويتم انتخاب الإمام بأحدى طريقتين، كلتاهما سليمة في نظر ابن حيان، إذا توفر فيها اجماع أهل الحل والعقد الأولى «إتفاق أهل الجماعة عليه» والثانية «بيعة متقدمة ووصية متبعة» (40).

أما المقصود بـ «أهل الجماعة المشار إليهم في الطريقة الأولى فيدل عليه ما حدث لدى وفاة الأمير المنذر بن محمد (سنة 275)، ولم يكن قد نسب وليا للعهد، إذ قام أخوه الأمير عبد الله بن محمد بأخذ البيعة لنفسه، وذلك من الوزراء أولا، ثم من رجال قريش، ثم ممن يليهم من الكتاب والقواد والموالي ووجوه أهل العسكر على مراتبهم، ولما أعطاه جميع هؤلاء البيعة من دون غيره من أهل بيته، ولم يختلف عليه أحد، دعا الناس خاصتهم وعامتهم إلى البيعة له، ثم أنفذ كتبه إلى كور الأندلس، وبذلك خلص الأمر له واستقرت الدولة به (41). أما الطريقة الثانية ـ وهي البيعة المتقدمة، أو التوصية بولاية العهد ـ فإن ابن حيان يأخذ شرعيتها مأخذ التسليم، لأنها جزء من الموروث الذي سار عليه السلف الصالح ـ ومنهم بنو أمية ـ ولكنه يرى فيها بعض المحاذير، إذ إن إمام المسلمين مهما كان عظيما فهو إنسان غير معصوم من الخطأ، وفيه ما في بني الإنسان جميعا من نواحي الضعف، ومن أهم مواطن الضعف فيه في مسألة تولية العهد ـ أن يستهويه حب الولد فيعهد إليه بخلافته بعده، ويأخذ له البيعة من أصحاب الحل والعقد في

---

40) المقتبس (انطونية) : (وذلك في العنوان).

41) المصدر نفسه : 2 ـ 3، وتاريخ هذه البيعة قد نقله ابن حيان عن الرازي.

وقت لا يستطيعون فيه إلا أن يجيبوه إليها، بينما يكون هناك في أهل بيته من هو أصلح للخلافة من ولده. وقد حدث بالفعل أن أخذ الخليفة الحكم المستنصر البيعة لابنه هشام (المؤيد من بعد) وهو طفل لم يبلغ الحلم، ـ وكان مفرطا في البيعة محبته ـ (42) فاعتبر ابن حيان ذلك من «خطاياه التي يرجى أن يتغمدها الله، ومن فرطات الهوى عنده، ومن سقطات الحزم لديه، خاصة أنه كان هناك ثلاثة رجال من إخوته ولد الناصر أصلح منه للخلافة» مع جماعة من ولد الخلفاء كهول وشبان وما فيهم إلا مضطلع للأمر قوي عليه (43)، فكان عمل المستنصر ذاك ـ كما يقول ابن حيان ـ «وهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته (44) وبالفعل كان هشام المؤيد آخر خلفاء بني أمية الحقيقيين بالأندلس، وكان وضعه أشبه بوضع الخلفاء العباسيين أيام سيطرة الديلم عليهم، إن لم يكن أسوأ.

وعلى أية حال فإنه يبدو أن ابن حيان كان يرى ضرورة أن يتم تنصيب الخليفة الجديد بعد وفاة السابق بسرعة شديدة، وأن يكون الخليفة الجديد في حضرة ملكه ـ أي العاصمة ومنها يعرض على الناس البيعة له، كما حدث في حال تولي الأمير عبد الله الإمارة بعد وفاة المنذر أخيه (45) وعليه كذلك أن يحترم «رمز» الخلافة في سلفه ولا يفرط فيه، فيعطيه حقه من الإعتبار في مماته كما كان أعطاه اياه في حياته، وابن حيان ينقل بغير

---

42) انظر مظاهر مختلفة من محبة الحكم لهشام ابنه في المقبس (الحجي) : 152 و223 ـ 224 و229، وقد أخذ الحكم البيعة لهشام في جمادى الآخرة سنة 365.
(أنظر البيان المغرب 2 : 249).

43) الذخيرة 1/4 : 57.

44) المصدر نفسه 1/4 : 57.

45) أنظر المقبس (انطونية) : 2.

رواية حادثة بسيطة ولكنها شديدة الدلالة عن الأمير عبد الله وكأنه يطيب له إعادتها. فإن هذا الأمير لما مات أخوه وهما في العسكر بعيدين عن الحضرة، والعدو يتربص بهم الدوائر، أشار عليه بعض أصحابه بدفن المنذر بمكان غامض وتعفية اثر قبره «خوفا من انتقاض نظام العسكر وافتراق أهله وتقوية طمع العدو فيه»، فأنكر ذلك الأمير عبد الله أشد الإنكار وقال : «لو علمت أن المنية تخترمني دونه لما خلفت رمة أخي وأميري موطئا لأقدام أهل الشرك والخلعان، ومحل أهل النواقيس والصلبان، ثم خرج بالعسكر متسترا وجثة أخيه معه حتى وصل إلى قرطبة فدفنه دفنا يليق بالملوك (46).

☆ ☆ ☆

ولا يتحدث ابن حيان في أي مما وصلنا أو نقل لنا من كتاباته عن مهمة الخليفة بشكل مباشر، ولكن حديثه عن ولاة الأمر بالأندلس ـ وهو أكثر ما يكون تقويميا حادا ـ يدلنا على الكثير مما كان يعتقده في هذا المجال، وهو يبين لنا ـ بوجه عام ـ أن ابن حيان كان يرى ثلاث مهمات كبرى للخليفة : عسكرية وإدارية ومدنية، بالإضافة إلى مهمة رابعة تتعلق بشخص الخليفة وتصرفاته العامة. وسوف أصرف سائر هذا البحث في تحديد كل من هذه الوظائف على حدة.

☆ ☆ ☆

ويطالعنا ابن حيان في غير موطن من كتاباته بتعبيرات قصيرة شديدة الدلالة على ما يراه في رأس سلم الأولويات في مهمات الملك، فهو يقول في وصفه لحال أهل طليطلة وما نالهم من الذل على أيدي العدو

---

46) أنظر المصدر نفسه : 3 ـ 4.

الأفرنجي بعد استقرار دول ملوك الطوائف بالأندلس إنهم «عدموا **الراعي العنوف**» (47)، ويقول في معرض مدحه لمسلك أبي الحزم ابن جهور في إدارة الأمور بقرطبة إن أهل قرطبة «ولو من الجماعة **أمينها المأمون عليها**» (48)، ثم يشرح كيف قضى أبا الحزم على العناصر المثيرة للفتنة في البلاد، وأما «اللقب» الذي يطلقه على الخليفة الناصر لدين الله فهو مجمع الفرقة (49)، **والكار على همل الفرقة بدولة الجماعة** (50)، وهذا الخليفة هو نفسه الذي ازدهى ابن حيان بقوله، وقد أمر بصلب عشرة من وجوه فرسانه بادروا إلى الفرار من المعركة مع النصارى لما لاحت لوائح الهزيمة في معركة الخندق المشؤومة سنة 327، ورفض استرحامهم اياه واستحياءه لهم : انظروا إلى هذا الخلق الضعيف ـ يشير إلى جموع العامة النظارة حولهم ـ هل أعطونا المقادة وصاروا لنا خولا إلا **لذبنا عنهم وحمايتنا لهم..؟** (51).

المهمة الأولى والأهم لإمام المسلمين اذن هي أن يحمي جماعتهم ويذب عنهم، ويكون ذلك بطريقتين : جهاد العدو في الخارج، والقضاء على الفتن المشتعلة بالداخل، وكلتا هاتين ذات طبيعة عسكرية، فالمهمة العسكرية هي رأس أولويات المهام عند الخليفة.

ولا يشك القارىء لكتابات ابن حيان أن القيام بجهاد العدو الخارجي هو الذي جعله معجبا أشد الإعجاب بالناصر والمستنصر والمنصور

---

47) الذخيرة 2/3 : 850.

48) المصدر نفسه 2/1 : 602.

49) المقتبس (انطونية) : 9.

50) المصدر نفسه : 32.

51) المقبس (شالميتا) : 446.

ابن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر، وكلهم ممن حرص على قيادة الجيوش بأنفسهم في طلعات الصوائف سنة بعد سنة، بل لعل واحدا من الأسباب التي جعلته يقوم ايجابيا بملكة مجاهد العامري (52) ـ رغم أنه من ملوك الطوائف ـ أنه غزا سردانية، ورغم أن غزوته تلك باءت بالإخفاق (53)، فيا قوم سلبيا دولة غير واحد من ملوك الطوائف ممن امتنعوا عن الجهاد، فقال في المعتصم ابن صمادح منهم ـ مثلا ـ»...

مستبدا بمال ألفاه لا يتجاوز به شهواته ومآربه إلى قضاء حق في جهاد عدو، أو سد ثغر أو معونة على بر (54).

بل إن ابن حيان يزيد على ذلك عندما يجعل الجهاد وكأنه مطلب نفسي في صلب الأمة الإسلامية في مناطق الثغور، إذا لم يلتقطه الإمام ويدفع به من القوة إلى الفعل فمن شأن ذلك الإمام أن يسقط، فإذا قام غيره بتولي هذا الدفع فإن الأمة تلتف حوله ويصبح هو صاحب السلطة الفعلية في البلاد. وما حدث سنة 366، إثر وفاة الحكم المستنصر، وتولى ابنه هشام المؤيد الخلافة نظريا خير دليل على ذلك. فإن هشاما هذا لصغره تولى تدبير أمور دولته الحاجب جعفر المصحفي، فلما تكالبت جيوش النصرانية على الثغور الأندلسية وأخذت في تقتيل المسلمين وأسرهم وتخريب ضياعهم، استنجد أهل الثغور بمدبر «صاحب الجماعة، وجاء صراخهم إلى رطبة، فلم يجدوا عند جعفر المصحفي غناء ولا نصرة، مع وفور جيش

52) أنظر الذخيرة 1/3 : 23 ـ 24.

53) لم ينقل ابن بسام ولا غيره نص ابن حيان في غزوة مجاهد لسردانية، وانظر خبرها في أعمال الاعلام : 219 ـ 220.

54) الذخيرة 2/1 : 731.

السلطان يومئذ وجوم أمواله، قال ابن حيان : فكانت من سقطات جعفر المأثورة (55). وكان يراقب هذا الوضع المتنفذ الكبير في الدولة آنذاك محمد بن أبي عامر (المتسمى من بعد بالمنصور)، فحاول أول الأمر أن يثني المصحفي عن موقفه، وحثه على الجهاد، وأيد موقفه ذلك بعض الوزراء، ولكن من دون جدوى، إذ ذاك بادر ابن أبي عامر إلى تولي مسؤولية قيادة الجيش مستقلا، فاختار من أراد من الرجال، واستخرج لأجل الجهاد المال، ومضى إلى بلاد العدو، فدخل ربه وأفشى النكاية، وغنم، وقفل، ووصل الحضرة بالسبي إلى اثنين وخمسين يوما معظم السرور، وخلص له الجند (56). ومن يقرأ العنوان الذي وضعه ابن حيان لهذه الفقرة يدرك أنه كان يعتقد أن قيام ابن أبي عامر بالجهاد ـ ملبيا لطلب الأمة ـ من دون المصحفي ـ هو الذي قضى في نهاية المطاف على المصحفي ـ وإن كان ممثلا لإمام الجماعة ـ فيما رفع المنصور إلى سدة الملك وهيأه لإمامة المسلمين بالفعل، قال : ذكر دفاع ابن أبي عامر العدو صدر الدولة **وقيامه بالجهاد دون الجماعة وتوصله بذلك إلى تدبير الملك»** (57).

ويتطلب الجهاد من الخليفة أن ينفق في سبيله كل ما يمكنه من المال، وأن يوفر بأيدي المجاهدين ما يحتاجون إليه من السلاح والدواب، ولهذا الغرض ـ فيما يبدو لي ـ أطال ابن حيان في تعداد مبلغ جبايات المنصور بن أبي عامر، وعدد أجناده العامريين وفرسانه وعساكره (وقد بلغ ستة وعشرين ألف رجل)، وخيله ودوابه ومطاياه، وحمولاته وقت

55) الذخيرة 1/4 : 62.

56) المصدر نفسه 1/4 : 62.

57) الذخيرة 1/4 : 62.

الصوائف، وأسلحته (58)، وإن كان ما نقله عنه ابن الخطيب في هذا المجال مقطوع الصلة بما سبقه. ومن الضروري للخليفة أن يكرم بالأموال على جنده فإنهم بذلك، يستهلكون في طاعته (59)، كما حدث للمنصور ابن أبي عامر مع جنوده، وذلك درس لقنه عبد الملك المظفر ابنه عن أبيه، فإنه قام منذ أول غزواته سنة 393 بدفع المصاريف والصلات إلى طبقات الاجناد الغازين معه فيها أولا بأول، فدعا ذلك كثيرا من الناس ـ وفيهم عدد كبير من الفقهاء ـ إلى التطوع في الجيش المجاهد، وإن كانوا يريدون أيضا من الجهاد الحسبة، وقد فرق عبد الملك على هؤلاء المطوعة وحدهم خمسة عشر ألف دينار، فكانت غزوته تلك من أنجح غزواته، بلغ فيها الغاية من التدويخ لأرض العدو... وابادتها وتركها بلقعا خرابا وقفرا يبابا» (60).

وقد قام عبد الملك المظفر باستعمال وسيلة أخرى لجذب الناس إلى الجهاد ـ غير بذل المال والسلاح ـ وهي الاحتفال بالخروج إليه احتفالا يوهم بأن الغازين خارجون لأمر يسر ولا يضر، وقد أورد ابن حيان بإعجاب شديد تفصيلات هذا الاحتفال وذكر كيف جاء الناس لمشاهدته قبل خروج الحملة بمدة وقد وصل إلى أسماعهم خبره (61)، ووصف موكب عبد الملك نفسه في حملة سنة 398، وقد شاهده بنفسه فقال : (62)

...فبرز على جواد من مقرباته المنسوبة بأفخم
تلك المراكب المسلسلة، ولبوس دروع فضية

58) أنظر أعمال الاعلام : 98 ـ 101.

59) الذخيرة 1/4 : 62.

60) أنظر البيان المغرب 4.3.

61) أنظر البيان المغرب 3 : 4 ـ 5.

62) الذخيرة 1/4 : ■.

مطرزة بالذهب» وعلى رأسه خوذة مثمنة الشكل، محددة الرأس، مرصعة الطرف بدر فاخر، واسطته حجر ياقوت أحمر مرتفع القيمة، قد لزم وسط الجيش، وطرح الشماع على سنة وجهه، فما رأى الناس بعده ملكا يعد له في البهاء والبهجة.

ثم زاد عبد الملك بأن عمل نوعا من المتحف العسكري في قرطبة، زاره تجار غرباء، ومعظمهم من العراقيين والمصريين، فصرحوا بأنهم ما شاهدوا مثله لأحد من ملوكهم قط (63).

ومن أهم ما يجب على إمام المسلمين أن يقوم به في سبيل الحفاظ على الجماعة من العدو الخارجي تحسين الثغور بالحصون والقلاع، والعناية بإصلاح ما يحتاج منها إلى اصلاح باستمرار، وترتيب الجنود فيها، وجعل بعض هؤلاء موكلا بالإطلاع على أحوال العدو، والإنفاق على ذلك بسخاء، فضلا عن الاهتمام بأن تكون كلمة أهل كل ثغر مجتمعة على نكاية العدو، وعلى قطع الأواصر فيما بينهم وبينه، فإنه بذلك وحده يأمن أن لا يحدث اضطراب أو خلل في الثغور إذا غاب عنها فترة غير قصيرة. وأوضح نموذج من أصحاب السلطة تصرف هذا التصرف لدى ابن حيان هو الخليفة الناصر لدين الله، إذ لم يترك شاردة ولا واردة في مسألة تحصين ثغر سرقسطة بعد أن استرده من يد العدو النصراني سنة 326 (64)، بل إنه زاد على ذلك عندما أمر ببناء مبنى استراتيجي مبتكر بديع في ثغر طليطلة بعد فتحها

---

63) أنظر تفصيل ذلك في الذخيرة 1/4 : 85.

64) أنظر المقتبس (شالميتا) : 422.

سنة 320، وذلك بأن أمر أول الأمر بإعادة بناء القنطرة (الجسر) على نهرها، الماثلة على بابها، وجعل باب القنطرة موصولا ببناء محكم متقن أمر بتشييده، وجعله مستقرا لقواده وعماله عليها (65)، قال ابن حيان : «فنظم به باب قصرها بباب جسرها، كما يختص برأيه قواده وعماله النازلون بالقصر بملك هذه القنطرة والباب دون أهلها، فصاروا لذلك من يومئذ في قبضة السلطان وتحت غلقه، لا دخول لهم ولا خروج من مدينتهم إلا تحت إذنه (66).

فإذا كانت مملكة الخليفة تقع على ثغر بحري فإن عليه أن يقوم بإنشاء أسطول يدفع به عن جماعة المسلمين، ويرهب الأعداء، ويعلي من ذكره بينهم. وهذا بحق ما فعله الخليفة عبد الرحمن الناصر، وابن حيان يذكر باعتزاز أخبار أسطوله العظيم الذي كان ـ كما قال ـ أفخم أسطول أجراه ملك وقر عليه نظر، فنال بذلك الأسطول غير نصر (67).

ولنرجع الآن فننظر فيمن هم الخلفاء ـ الذين مدح ابن حيان أقدامهم على الجهاد : إنهم جميعا (باستثناء مجاهد العامري، ولم يتوقف ابن حيان فيما نعلم عند ذكر غزوته لسردانية صراحة) من الخلفاء أو الحجاب المسيرين لأمور الخليفة الصغير هشام المؤيد، وجميعهم كان يتحرك، من حضرة الخلافة ـ قرطبة ـ أي من «موسطة البلاد»، والبلاد جميعها تحت سلطانهم، ما عدا جيب من الفتنة هنا أو هناك. هؤلاء يمثلون «أيام الجماعة»، والجهاد أكبر

65) أنظر المصدر نفسه (شالميتا) : 319 ـ 320.

66) المقتبس (شالميتا) : 320.

67) أنظر في أخبار اسطول الناصر المقتبس (شالميتا) : 312 ـ 313 و366 وما بعدها.

واجباتهم، فهل الجهاد واجب أيضا على من يستولون على السلطـان في الثغور خارج أيام الجماعة، أي في أيام الفرقة، بعد تشتت الدولة في رأي ابن حيان ؟

هنا يستطيع الدارس أن ينظر فيا قوم به ابن حيان موقف ملك ومواطني مدينة من أهل الثغور الشمالية هم منذر التجيبي صاحب سرقسطة (المقتول سنة 430) (68)، ومواطني بلنسية في الكائنة المريعة الواقعة عليها سنة 455، إذ دخلتها قطعة من الأفرنجة «فسال منها يومئذ بلنسية سيل عرم عفى على ما كان بها من بهجة ورونق، ومزق أهلها بأطراف الرماح وظبا الصفاح كل ممزق (69)، وفي كلتا الحالتين يشير ابن حيان إلى أنه كان من المستحيل ـ من الناحية العملية ـ أن يتمكن القوم من جهاد العدو الافرنجي، وإلا انتهى الجهاد ذاك إلى الإنهزام الشنيع، نظرا لأن «موسطة الأندلس» ـ لفقدان الجماعة ـ لم تكن بقادرة على أن ترفد أهل الثغور بما يشد أزرهم شدا قويا بالمال والسلاح (70).

وقد ادرك منذر التجيبي هذا الوضع الشاذ في الأندلس بعامة، وقدر مدى تأثيره على بلاده هو، فاستبدل بسياسة الهجوم المستحيل سياسة الدفاع الدقيق، فسلك مع رئيسي عدوه آنذاك ريمند الجليقي وشانجه القشتلي «سبيل الاسترضاء ـ والموافقة والاستخذاء، وهاداهما وساسهما، وربما قام بغزوات بسيطة هنا وهناك لا تزعجها كثيرا، فأوقع ببعض أصاغر القوامس

68) انظر الذخيرة 1/1 : 185.

69) الذخيرة 2/3 : 855.

70) أنظر الذخيرة 2/3 : 850، وانظر أيضا المصدر نفسه 1/1 : 182.

في أطرافهم وسبى منهم (71)، وريمند وشانجه باقيان على معاقدته، خاصة بعد أن قام بلعبة سياسية بارعة معها، إذ أجرى على يديه تصاهرهما، وكتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقسطة في حفل من أهل الملتين (72). ويذكر ابن حيان أن الألسنة نالت كثيرا من منذر لقيامه بهذا الفعل إلا أنه هو نفسه كان يرى - مع بعض الناس الآخرين أن تلك سياسة نافعة للمسلمين، حاقنة لدمائهم، حافظة لبلادهم، بل للأندلس كلها، قال : (73).

وقد قيل أن رأي منذر كان في ذلك أحسن من رأي من قدح فيه وقرف، لنظره في شأن وقته، وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته، فآثر من الموادعة ما ستر به العورة، وشراه بغليظ الكلفة، واختدع به عظيمي الجلالقة ريمند وشانجه الحدثين أنفسهما يومئذ بمناصفة أهل الأندلس، فألها هما عن الحرب وحبب إليهما الدعة.

ويقول ابن حيان أن الناس ما لبثوا أن اعترفوا لمنذر بحسن الرأي ولطافة السياسة، فنالت بلاده عاجل السلامة، وانصرفوا إلى العمارة، وعاشوا في نعمة ضافية وعيشة راضية، حتى قتل عنهم منذر (74). وإنما صح فعل منذر في نظر ابن حيان لأن منذرا أراد به حوطا للثغر وأهله، وتأنيا للجماعة حتى تثوب لأهل الإسلام، يناهضون به عدوهم (75).

---

71) أنظر المصدر نفسه 1/1 : 181 ـ 182.

72) أنظر المصدر نفسه 1/1 : 182.

73) الذخيرة 1/1 : 182.

74) أنظر المصدر نفسه 1/1 : 182.

75) أنظر المصدر نفسه 1/1 : 181.

وفيما قدر لسرقسطة أن تجد الراعي السياسي، فإنه لم يقدر لبلنسية سنة 455 أن تجد لا هذا السياسي البارع ولا ذلك «الراعي العنوف»، إذ تخاذل امراؤها أمام العدو، وتركوا المجال مفتوحا لسيطرة الغوغاء عليها، وانصرفوا إلى اللهو (76)، فسنوا بذلك لأهل مدينتهم سنة اتبعوها، فنبذوا السلاح، وكلفوا بالترقيح، ونافسوا في النشب، فعطلوا الجهاد، وقعدوا فوق الارائك مقعد الجبابرة المتفاتنين أهل موسطة الأندلس (77)، ينتظرون من يأتي منهم لتولى الجهاد عنهم حسبة، فإذا ورد إليهم بعض هؤلاء، لم يرفدوه، قال ابن حيان، فتبا لهم تبا (78)، وقد كانت نتيجة ذلك الطبيعة أن دخل العدو بلادهم وهم عنه ساهون لاهون، قال ابن حيان، ومما وقع من التعجب منهم أنه أخذ من البياض المقتولين من أهل طليطلة ألف غفارة من لبوس أهل الرفاهية أيام المباهاة، ركبوا بها إلى الطاغية ـ قصمه الله ـ كأنهم وفد سلم يشهدون المعاقدة (79) وكانت النتيجة أن تضعضع ثغرهم بتوالى هذه النكبات، ولحقت المسلمين بهم مضايق يكرب سماعها، حتى عم تلك الثغور الجلاء، وتوزع المسلمين البلاء، وخربت ديارهم، وبادت آثارهم» (80).

مختصر موقف ابن حيان اذن من مسألة وجوب الجهاد على أصحاب الثغور أيام فقدان الجماعة، هو أن يجعل أولياء الأمور سلامة بلادهم وشعبهم هدفا رئيسيا لهم ويعملون على تحقيق هذا الهدف، فإذا كان تحقيقه ممكنا عن طريق الجهاد ـ وهو شبه مستحيل ـ فليكن، وإلا فلا بأس بأن يركن

---

76) أنظر المصدر نفسه 2/3 : 855.

77) الذخيرة 2/3 : 850، وانظر ص : 855.

78) المصدر نفسه 2/3 : 851.

79) المصدر نفسه 2/3 : 850.

80) المصدر نفسه 2/3 : 851.

هؤلاء إلى سياسة ملاطفة العدو ومخادعته إلى أن يصبح ممكنا مجاهدته. وعلى أية حال فإنه لا يجوز لصاحب الثغر قط أن يرمي وراء ظهره قضية «حالة الحرب» الطبيعة بينه وبين العدو، وأن يستسلم من ثم إلى الراحة والدعة، بل عليه أن يكون مستعدا لرد الهجوم المحتمل من جانب العدو وإن لم يكن يريد هو نفسه أن يقوم بذلك الهجوم. وفي هذا المجال على السائس أن يتذكر أن تصرفاته تصبح سنة لأهل بلده، فإذا «تجاهل» هو «حالة الحرب» تجاهل الناس في بلده تلك الحالة، وابتعدوا عنها نفسيا فإذا دعا داعيها لم يجد السائس من بينهم من هو مستعد لخوض غمارها.



ولئن كان ابن حيان قد أعلى من شأن الخليفة الناصر لدين الله بالذات لقيامه بالجهاد ضد العدو الخارجي، فإنه قد أعلى من شأنه أكثر لتمكنه من ضبط الفتنة الداخلية في البلاد، حتى أصبح يوصف لديه بأوصاف سبق ذكر بعضها ويمكن أن يضاف إليها هنا وصف في غاية الابانة هو أنه **الساهر العين في ضمام شتات المملكة»** (81).

والفتنة الداخلية هي من أعظم ما يمكن أن يأتي على الدولة الإسلامية، لأنه يجعل أهلها نهبا للفرقة فينحل بذلك عقد الجماعة الذي به يقوم أودها إزاء العدو الخارجي المتربص بها.

ويستعمل ابن حيان كلمة «الفتنة بثلاثة معان : الأول هو ظهور البدع الدينية، والثاني الانتزاء على سلطان الجماعة، والثالث الصراع بين

81) المقتبس (شالميتا) : 250.

فئتين كبريين من فئات الشعب ومنع هذه الأشكال من الفتنة من واجبات الخليفة الأولى.

وقد تحدث ابن حيان باسهاب عن الفتنة الداخلية بشكل ظهور البدع الدينية في موطن واحد مما وصلنا من مؤلفاته، وذلك في معرض حديثه عن مذهب ابن مسرة الجبلي أبي عبد الله محمد بن عبد الله في أوائل الحكم الناصر لدين الله وكان ابن مسرة آنذاك قد توفي، إلا أن «دعاته ـ كما يسميهم ابن حيان ـ (82) كانوا جادين في نشر مذهبه بين الناس، ويرجح أنهم أصابوا قدرا غير قليل من النجاح، لأن ابن حيان يذكر أن القول كثر في شأن هذا المذهب حتى «ذعر له أهل السنة من أهل قرطبة وتوقعوا منه البلية، وفزع فقهاؤهم وكبارهم بهمه إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا عليه» (83). وليس من مهمة هذا البحث أن يدخل في تفصيلات مذهب ابن مسرة، فقد صدرت عنه دراسات كثيرة (84)، ويكفي أن يقال فيه أنه كان يجمع بين بعض مبادىء المتصوفة وبين بعض أصول الاعتزال بناء على قاعدة من آراء بعض فلاسفة اليونان، خاصة أنبذوقليس (وما نسب إليه) وافلوطين (85).

---

82) المقتبس (شالميتا) : 20 و21.

83) المصدر نفسه (شالميتا) : 22.

84) للدكتور إحسان عباس دراسة عن ابن مسرة ومدرسته وتلامذته في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة : 30 ـ 38 الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت 1969)، وللمستشرق ارنالديز مقالة تفصيلية في طبيعة عقائده في الموسوعة الإسلامية (الطبعة الجديدة ـ النسخة الانجليزية) 3 : 868 ـ 872، وقد أصدر الأستاذ اسين بلاثيوس كتابا كاملا عنه وعن مدرسته وهو بعنوان : Abennasarra Y Su Escuela : Origenes De La Filosofia Hispano - Musulmana (Madrid, 1914)

85) أنظر المصادر المذكورة في الحاشية السابقة.

وإنما يهمنا في هذا المقام موقف ابن حيان من ظاهرة ظهور هذا المذهب، وموقفه من الإجراءات التي اتخذها سلطان الجماعة إزاءه.

أما موقف ابن حيان من ظاهرة قيام هذا المذهب في الأندلس فواضح السلبية في جملته وتفصيله، وعداؤه الشديد له قائم على أسس متعددة، أهمها أنه يتوسل بمسائل مدونة المالكية ليهدمها، وأنه من ثم يصد عن سبيل السنة، بل يقدح منها، فيوحش الناس من الجماعة (86)، وهدفه من ذلك «الطمع في تفريق كلمة أهلها» (87)، في الأندلس فصاحبه يسمى لأجل ذلك «الرابض للفتنة (87)، ومذهبه هو من البدع القائمة على «الجدال» غير الجائز ابتداء في الدين (88)، وما هو محدثه هو الفتنة والفرقة للمسلمين (89)، فهو من ثم خطر على الجماعة، وعلى إمامها أن يعالجه بجدية ولا يتهاون في أمره بل يعرف له قدره من الخطورة على الجماعة.

وقد عالج عبد الرحمن الناصر ظاهرة انتشار مذهب ابن مسرة بجدية وبتشدد في القمع أعجبا ابن حيان، فإذا به يجعل الحديث عن موقف الناصر ذاك في مطلع جزئه عنه، مباشرة بعد الحديث عن أولاده، مع أن حقه أن يجيء إما في أحداث سنة 319، سنة وفاة ابن مسرة (90) أو في أحداث سنة 345، سنة تتبع عبد الله بن بدر صاحب قرطبة لاتباع ابن

86) أنظر المقتبس (شالميتا) : 20 ـ 21.

87) المصدر نفسه (شالميتا) : 20.

88) المصدر نفسه (شالميتا) : 23.

89) المصدر نفسه (شالميتا) : 20 ـ 21.

90) المصدر نفسه (شالميتا) : 33 حيث ينقل عن أبي الفرضي.

مسرة (91)، فكأن ابن حيان أراد أن يقول أن قمع الناصر للفتنة الداخلية الناشئة عن ظهور البدع من كبار معالم خلافة الناصر «الساهر العين في ضم شتات المملكة (92). بل إن ابن حيان يطيل اطالة ملحوظة في حديث ابن مسرة ومذهبه، ويعرض شتى الروايات من المؤرخين من الرجل والمذهب معا (93)، ويسجل في غضون ذلك رسالة عبد الرحمن الناصر الطويلة في «التنديد بمذهب ابن مسرة وأتباعه (94)، ويجعل عنوان الفقرة كلها «ذكر أثر الخليفة الناصر لدين الله في **حماية السنة وإنكار البدعة....** (95)، فإذا وصل إلى تفصيل ما فعله الناصر بأتباع ابن مسرة وجدته يتهلل ويستبشر، ويعيد الكلام ويبديه، ويكرر الفكرة نفسها بوجوه مختلفة، ويشبه ـ لا مباشرة ـ موقف الناصر بموقف الخلفاء الراشدين بما فيهم الأمويين في قيامهم بسحق البدعة بالسيف، ويجعل هذا الموقف مفارقا لموقف بني العباس الخاطىء المبير إذ لم يأبهوا لنشوء البدع زمانهم، فلما فشت وكثرت كانت المؤذن في وهي عقدهم وانحلال قوتهم (96).

ويتلخص الموقف الذي اتخذه الناصر من ظاهرة المسرية في أمرين : السهر على حماية السنة في البلاد من ناحية حتى باستعمال الجواسيس وملاحقة أتباع ابن مسرة والقبض عليهم ومحاكمتهم. ففي الأمر الأول يقول ابن حيان أن الناصر : (97)

---

91) المصدر نفسه (شالميتا) : 30 نقلا عن رواية الرازي.

92) المصدر نفسه (شالميتا) : 250 وانظر الحاشية رقم : 81 فيما سبق.

93) المصدر نفسه (شالميتا) : 20 ـ 36.

94) المصدر نفسه (شالميتا) : 25 ـ 29.

95) المصدر نفسه (شالميتا) : 20.

96) المصدر نفسه (شالميتا) : 22 ـ 23.

97) المصدر نفسه (شالميتا) : 23 ـ 24.

أصبح... قائما بالكتاب، معلنا بالسنة، مجاهدا عليها...

(قد) نفى البدع... يتفقد مصالح الأمة، ويتعهد أمور الديانة، باحثا عن سنن المسلمين وطرائقهم ومواطن اجتماعهم في مساجدهم ومحافلهم، بمن تصبهم من ثقاتهم وعيون بطانته، ووكلهم بمباطنة الطويات وكشف السريرات، فكانت الأعمال معروضة عليه، وخفيات السرائر مكشوفة له... والباطن والظاهر من مذاهب العوام موضوعات بين يديه.

وقد كانت نتيجة ذلك بطبيعة الحال ايجابية معلية للدين ورافعة لشأن البلاد، فأصبحت البلاد مستقرة مطمئنة، وتبارى أهل المشرق في القدوم عليه، واستفاض العلم في بلده وتواصلت نعم الله عليه بتجدد الدين وقوام شرائعه ووضوح مهايعه، وسلمت قلوب الناس من الالحاد وتركوا الجدال والعناد في الدين، وأصبح ما يجرى بينهم منه يسير «على مكشوف السنة ومشهور ما حمل عن كبير الأئمة مالك بن أنس إمام المدينة رضي الله عنه من الروايات المتفقة والأحاديث المنقولة بصحتها على ألسن الصحابة، نجوم الأمة الهادية (98).

98) المصدر نفسه (شالميتا) : 24.

بالمقابل قام الناصر بتقليد عبد الله بن بدر مولاه وصاحب مدينته مهمة خاصة قلده نظرها وهي تتبع المسرية دون رحمة واخضاعهم للمحاكمة : (99).

أمره بالتنقير عنهم، والقصر لآثارهم، وطلب الدلائل عليهم، والايقاع بن صح لديه أنه منهم أو متول لهم.

فقام ابن بدر بما رتبه له الناصر «فشد في تخويفهم وأغلظ لمن عثر عليه منهم، فجرت في ذلك خطوب يطول القول فيها» (100).

موقف ابن حيان اذن أن إمام المسلمين إذا واجه ايا من البدع الدينية المهددة لعقد الجماعة داخليا بالإنفراط، فعليه أن يشتد في قمعها ولا يتهاون فيها، فلا ينجم للشيطان قرن الا قصمه، ولا يرفع له علم إلا وضعه، ولا يظهر له باطل إلا محقه، كما فعل الناصر لدين الله مع أتباع مذهب ابن مسرة، وتلك من واجبات الإمام الكبرى. ولا شك أن ما يفهمه ابن حيان من البدعة «هو كل ما يخالف السنة، وفي هذا الإطار يجب أن نفهم اشادته بموقف الناصر لا من المسرية وحسب ولكن من الشيعة أتباع عبيد الله الشيعي في العدوة، فإنه تعاون مع برابرة العدوة لقمعهم لأن صاحبهم ضللهم» بما شرع من بدعته الغالية واطفاء نور السنة (101)، فيما غمز من قناة الحكم المستنصر لأنه أسرف في ائتلاف البرابرة للمستقدمين إليه من العدوة وهو يعرف أنهم يذهبون مذهب النكارية من الخوارج، قال : (102)

---

99) المصدر نفسه : 24، وانظر 26 ـ 29.

100) المصدر نفسه (شالميتا) : 24.

101) المصدر نفسه (شالميتا) : 255.

102) المقتبس (الحجي) : 192.

وقد أغمض فيهم عن عوراء نحلة تبعدهم عن تسننه، واشتداده في حفظ دينه ومعرفته بخارجيتهم واعتقادهم للمقالة النكارية من فرق الاباضية (كذا)... فتقبلهم معرضا عن نحلتهم...



ولا يختلف موقف ابن حيان مما يراه ضروريا في معالجة الفتنة الداخلية الناشئة عن الابتداع في الدين عن موقفه منها إذا كانت ناشئة من الانتزاء على سلطان الجماعة، وهو يشتد في النكير على المنتزين ويسميهم بأسماء مثل «أهل الخلاف» (103) وأهل «المعصية» (104)، و«أهل الفساد في الأرض» (105)، و«أهل الشر» (106)، ويطلق صفات مثل «الملحد» و«المارق» و«الخبيث» و«اللعين» (107)، و«جرثومة النفاق» (108) على ابن حفصون، سان سنة الانتزاء على السلطان في الدولة الأموية. والخطر الأكبر الذي يؤدي إليه الانتزاء على السلطان في نظر ابن حيان هو تشتيت الجماعة وتقويض دعائم وحدتها، وتلك فكرة تظهر في جميع المواطن التي تحدث فيها عن المنتزين بالأندلس، وسمتهم الكبرى في نظره أنهم «المفارقون للجماعة الموقدون لنار الفتنة» (109)، غير أن للانتزاء هذا أخطارا أخرى في نظر

103) المقتبس (شالميتا) : 255، وانظر المصدر نفسه (انطونية) : 134.

104) المقتبس (مكي) : 4.

105) المقتبس (شالميتا) : 56 وانظر المصدر نفسه (انطونية) : (51 ومكي) 3 ـ 4.

106) المقتبس (انطونية) : 70.

107) المقتبس (انطونية) : 51، 54 والمصدر نفسه (شالميتا) : 61 و216.

108) المقتبس (انطونية) : 104.

109) المصدر نفسه (انطونية : 32 وقد جاءت هذه العبارة في أخر الفصل عن المنتزين بالأندلس زمن الأمير عبد الله.

ابن حيان، أبرزها أن العدو الخارجي قد يستغل وجود منتز هنا أو هناك فيتحالف معه، فيكون بذلك ممعنا في اضعاف السلطة المركزية ـ سلطة الجماعة ـ ودروس التاريخ وعبره في ذلك كثيرة لا تكاد تحصى (110)، وثانيها أن الانتزاء على السلطان وإن بدأ فرديا فإنه سرعان ما يمتد وينتشر في المجتمع انتشار النار في الهشيم، تماما كالداء العضال الذي ينشب بأنيابه في البدن فيتأكله أكلا، فما أن تمضي غمضة عين على ظهور منتز هنا وآخر هنا حتى تصبح البلاد وقد اضطرمت بالفتنة الداخلية واتسع الخرق فيها على السلطان وفي هذا المجال يتحدث ابن حيان عن الانتزاء وكأنه محرك لـ «حالة نفسية في الأمة إذا بالأحداث تتوالى عند «اهتياج الفتنة» (111) وإذا بالرجل آنذاك قد «أغراه ذا الفتنة المستشرية بأرض الأندلس (112)، أوقد «سما للفتنة أيام ارتجاجها» (113)، وهو وغيره كثيرون قد «حركتهم الطماعية المهتاجة بالناس في ذلك الزمان من حب الفتنة (114)، أوقد «اشرأبت نفوس الناس إلى فتنة (115). والناظر في أحداث التاريخ يرى مصداق ذلك، وهذه الفتنة بدأت بمدينة لبلة فإذا بها بعد قليل وقد «اتصلت... بكورة لبلة كلها، وامتدت شرقا إلى ما يتصل بها من كورة اشبيلية، وغربا إلى ما يتصل بها من كورة باجة، وعظمت فيها الحادثة» (116). وبالإضافة إلى ذلك كله فإن الفتنة الناتجة عن تكرر

---

110) أنظر أمثلة من ذلك في المقتبس (انطونية) : 15 و50 والذخيرة 1/1 : 43 ـ 44 و185.

111) المقتبس (انطونية) : 32.

112) المصدر نفسه (انطونية) : 18.

113) المصدر نفسه (انطونية) : 25.

114) المصدر نفسه (انطونية) : 20.

115) المصدر نفسه (انطونية) : 51.

116) المصدر نفسه (انطونية) : 66، وانظر أيضا : 52 و67 ـ 68.

الانتزاء على السلطان تؤدى إلى نقص الجباية (117) أي إلى اضعاف مالية الدولة، وتجعل الرعية كارهة للسلطان شاكة في عجزه وقد ملت انعدام الأمن (118).

من هنا كان من أول واجبات إمام الجماعة ألا يتغافل عن نجوم قرن الانتزاء في أي موضع من بلده، فإنه إذا تغافل عنه ولم يحسمه لأول ظهوره، كما فعل الأمير المنذر بن محمد، فإن الأخطار تحيق بدولته، ويورث خلفه عبئا ثقيلا من الفرقة الداخلية (119).

ويدل حكم ابن حيان على طريقة الأمير عبد الله، خلف الأمير المنذر، في معالجة الانتزاء على أنه لم يكن راضيا عنها، ولا يراها وسيلة ناجعة في القضاء على الداء. فالأمير عبد الله مزج الشدة باللين في معاملته للمنتزين (120) ولم يتحرك بنفسه لصد بعضهم متعللا باشتغاله بصد غيرهم في مكان آخر من البلاد (121) وكلا هذين التصرفين غير ناجع، فكانت النتيجة أن استمرت الفتنة أيامه، بل ان ابن حيان يطلق على دولته اسم «دولة الفرقة» (122) ويقول إن «دولة الجماعة لم تعد إلى الأندلس إلا بقيام عبد الرحمن الناصر (122).

وكان السبب في ذلك ـ فيما يصوره ابن حيان ـ أن عبد الرحمن باشر بنفسه محاربة كل من سولت له نفسه الخروج على سلطان الجماعة أو هو

---

(117) المصدر نفسه (انطونية) : 39.

(118) المصدر نفسه (انطونية) 69 ـ 70.

(119) انظر المصدر نفسه (انطونية) : 104.

(120) أنظر المصدر نفسه (انطونية) : 33.

(121) أنظر المصدر نفسه (انطونية) : 133 ـ 139 في حادثة انتزاء ابن القط القرشي سنة 288.

(122) أنظر المصدر نفسه (انطونية) : 33.

خرج فعلا عليه، وأكرمهم إكراما عظيما لما حضروا إلى قرطبة وكان في حربه عنوفا شديدا يرى أن الرحمة غير جائزة مع المتمردين المجترئين على تقويض دعائم الجماعة، فلم يتورع عن أن يقطع الماء عن بعضهم ويحرق أراضيهم ويقبض على بعضهم ويقتلهم ويرفع جثث بعضهم على الجذوع المنيفة ويصلب غيرهم، بل إنه كان أول من صلب أحدا في الدولة الأموية (123). وقد قام في غزوة المنتلون وحدها، وقد استغرقت ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، بفتح سبعين حصنا من أمهات الحصون كل حصن منها كان عالي الاسم بعيد الصيت ملجأ لذوى الخلاف والمعصية بالإضافة إلى ثلاثمائة حصن صغير وبرج، وإلى حصون البشارات بأسرها، وكانت منضوية تحت لواء ابن حفصون، فأعاد بذلك إلى الطاعة والجماعة في غزوة واحدة أجزاء كبيرة من البلاد كانت خارجة عليها مسيبة لأ منها مطمعة لارذال الصوم فيها (124). وكان في كل مرة يفتتح حصنا يولي عليه من يثق به من أوليائه (125)، ويهدم الكنائس فيه إن كان فيه كنائس، ويعمر المساجد، ويصلح حال الناس (126).

مثل هذا التحرك من جانب عبد الرحمن الناصر هو الذي كان ابن حيان يراه التصرف السليم تجاه المنتزين على السلطان من جانب امام الجماعة. فالجماعة لا تقوم لها قائمة ما لم يحسن بالقهر كل متجرىء على وحدتها.

☆ ☆ ☆

123) أنظر المقتبس (شالميتا) : 58 ـ ▀ و215 ـ 231.

124) المصدر نفسه (شالميتا) : 58 ـ 64.

125) أنظر نماذج من ذلك في المصدر نفسه (شالميتا) 20 و218.

126) أنظر المصدر نفسه (شالميتا) : 217 في فتح بيشتر بالذات.

بقي هناك الشكل الثالث من أشكال الفتنة الداخلية التي على الخليفة أن يتصدى له، وهو شكل الصراع بين فئتين كبيرتين من أبناء الأمة الواحدة، وقد تعرض له ابن حيان في مواطن كثيرة من مؤلفاته، وهو ينقسم من وجهة النظر التاريخية والسياسية في قسمين الأول ما نشأ من مظاهره أيام الجماعة، والثاني ما نشأ بعد انفراط عقد الجماعة. على أن كلا هذين القسمين، فيما يوحي به ابن حيان، ناتج عن عامل واحد هو **التنافر بين أبناء المجتمع الواحد**، وعلى هذا الأساس يرى الصراع في القسم الأول بين القيسية واليمنية، وبين العرب من ناحية والعجم والمولدين من ناحية أخرى، وفي القسم الثاني بين برابرة العدوة وبين الأندلسيين على اختلاف أعراقهم. على أنه رغم اقرار ابن حيان بوجود العامل المشترك ـ أو المتشابه ـ بين صراعات القسمين هذين، فإنه يعالج كل واحد منها معالجة مختلفة، موضحا بذلك لجانب هام من فكره السياسي.

أما صراعات القسم الأول، وهي الصراعات التي تمت أيام الجماعة فالملاحظة فيها أن ابن حيان يراها من منظور أشبه بمنظور الانتزاء، صحيح أنه يظهر ميلا واضحا إلى العرب من دون المولدين والعجم، وإلى اليمنية من العرب من دون القيسية، إلا أن ذلك داخل في هواه ولا يجعله هو داخلا في صلب فكره السياسي، فالبادىء بالصراع منتز على الجماعة، مهما كانت هويته، وعلى إمام الجماعة من ثم أن يقضي بالقوة ـ أي بالجيش ـ على حركته صونا للجماعة وأن عليه واجبا إضافيا هو محاولة أن يعيد التآلف بين الفئتين المتصارعتين (127) أما أن يلجأ الإمام إلى أسلوب الملاينة

127) أنظر أمثلة من ذلك في المقتبس (انطونية) : 15 ـ 16 و24 و27 و29 و30 و50 و54 ـ 66 و87 ـ 89.

والملاطفة بدلا من تجهيز الجيوش، فعل الأمير عبد الله فان هذا لا يأتي للإمام بالنصر ولا للمشكلة بالحسم ولا للجماعة بالأمن، وابن حيان ينقل لنا نموذجا لهذا الأسلوب الفائل، إذ ما أن قامت فتنة بين فريقين من الأمة زمن الأمير عبد الله حتى استعاض عن السير بالجيش بعقد مجلس لسماع رأي الفريقين ثم دعا بمجلس للعلماء لدرس حجج كل فريق، وبطبيعة الحال تعارضت الشهادات واستوت الأدلة، فارجىء الحكم مرة ومرتين، وفي المرة الثانية غضب واحد من الفريقين، فانطلقوا إلى البادية، وخرجوا على السلطان وخلعوه، وأغاروا على بعض مراكزه، وقتلوا بعض عماله وأخرجوا غيرهم، فوضع هذا الحال الأمير عبد الله في موقف الضعيف، فثار على ذلك وقتل زعيم المتمردين، فكانت النتيجة أن أصحابه «استجوروا سلطان الجماعة، وتشوفوا إلى الفتنة، ونشأت للأمر ذيول كان الأمير بغنى عنها لو هو حسم أمر الفتنة منذ أن أطلت بقرنها (127م).

ويختلف الأمر اختلافا كبيرا في صراعات القسم الثاني التي تم بعد انفراط عقد الجماعة، والنموذج الأكبر لها لدى ابن حيان، المغطى على كل ما عداه من النماذج الصغيرة هو الفتنة البربرية الحادثة في الأندلس على رأس الأربعمائة للهجرة والمستمرة عبر سنوات طويلة في تفتيت الجماعة الأندلسية تفتيتا لارجاء بعده في عودة الوحدة إليها مرة أخرى، فهي «الفتنة... الشنعاء المدلهمة، المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة، المغربة في الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية... طرقت هادمة لما بنته الدنيا، مغيرة لمحاسنها، مزهدة فيها مؤذنة بانقطاعها، كي يكون البقاء لمن تفرد

127م) أنظر خبر ذلك في المقتبس (انطونية) : 71 ـ 82.

بجبروتـه، ويـدوم البهـاء لمن لا تتسلـط الغير على ملكوتـه (128). وأسـاس الإختـلاف بين هـذه الفتنـة والفتن السـابقـة عليهـا أن التنـافر بين الفئتين المتنازعتين فيها تنافر طارىء لا تنافر قـائم في صلب المجتمع منـذ تكونـه، فمها قلنـا عن القيسيـة واليمنيـة والعجم والعرب والمولـدين، فهم أبنـاء هـذا المجتمع منذ نشأته، ولكن المسألة في الفتنة البربرية مختلفة : هنا لـدينـا مجتمع أندلسي متعدد الفئات ـ هذا صحيح ـ ولكن لما انضاف إليـه فريق جـديـد غير أندلسي مختلف عنـه تمام الإختلاف، ولما صـار هـذا الفريق ذا نفوذ في الجيش والدولة، أصبح هناك ليس «تنافر وحسب وإنما نفرة من كل فريق اتجاه الآخر، ومـادامت هـذه النفرة تتغـذى فـإنهـا لا بـد أن تـؤدي إلى الإحتكاك فـالصراع، ومـا دامت المسـألـة هي أنـدلسي أو غير أنـدلسي، فالأندلسي نفسها (الجماعة الأندلسية في ـ صلب دائرة الخطر).

ويدرك ابن حيان ـ بحس المؤرخ الدقيق ـ أن حادثة بهذه الضخـامـة لا يمكن أن تكون قـد نبتت فجـأة، وأن لهـا جـذورا في التـاريخ أبعـد من الزمن الذي ظهرت فيه. من هنا نجده يتتبع منـذ أيام النـاصر لـدين اللـه كيفية دخول العنصر الغريب هـذا إلى الأنـدلس إلى أن صـار إلى مـا صـار إليه من الافتتان. فـالنـاصرـ بسليم طويـة ـ لما أدخل جيوشـه إلى العـدوة واستمال كبـار رؤسـاء القبـائـل من بربر العـدوة للحرب معـه ضـد الـدولـة الفاطمية وشهد من بعد شجاعتهم في الحرب، طمع في أن يستقوى بشجعانهم في الأندلس، فادخل منهم مجموعة كبيرة من الفرسـان وأغـدق عليهم الأموال وأنـا لهم الاعطيـات، واستعملهم في الجيش ورقـاهم فيــه، فـزاد من نفـوذهم.

---

128) الذخيرة 2/1 : 576 ـ 577.

واتبع خلف الناصر : المستنصر والمنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر سنة سلفهم فاستقدموا المزيد من هؤلاء البرابرة، وأعطوهم الأموال والاعطيات والنفوذ والمراتب العالية (129)، فضعفت خزينة الدولة من ناحية (130)، فيا أصبحوا هم مجموعة كبيرة عظيمة قوية في المجتمع والدولة الأندلسيين. وغفل أولياء الأمور هؤلاء كلهم عن الخطر القابع، ليس وحسب لاختلافهم في النحلة عن أهل الأندلس، إذ كانوا من النكارية كما سبقت الإشارة ولكن أيضا لأنهم عجزوا عن أن يمتزجوا في المجتمع الأندلسي ويتمثلوا حضارته وقيمه، باقين على جهلهم، أشباه نعام الدو وآساء الغيل» (131)، وكانت ردة فعلهم على تقدم الأندلسيين عليهم من الناحية الحضارية أو «حسن الحال» كما يقول ابن حيان هو الحسد، والحسد يولد الضغينة والضغينة لا حل لها إلا بالمواجهة.

لا بل إن فساد هؤلاء استشرى، حتى باتوا مع الزمن يستقلون كل ما يعطونه، ويتطلعون إلى المزيد في كل أمر، وكأنهم هم ـ قبل أهل البلاد ـ أصحاب الحق في خيراتها ودولتها. والنموذج الأكبر الذي يصوره ابن حيان في هذا المجال منهم ويضعه في أسفل سافلين هو زاوى بن زيرى الصنهاجي عم أبي المعز ابن باديس صاحب افريقية، فإن هذا الزعيم الصنهاجي كان على قدر كبير من الدهاء، ولأجل ذلك كره المنصور ابن أبي عامر ـ بعد نظره ـ أن يدخله إلى الأندلس، فالتوى في الإذن له بدخولها، فلما توفي

---

129) أنظر في موقف الناصر كما يصوره ابن حيان أمثلة في المقتبس (شالميتا) : 255 ـ 258 و288 و327 ـ 330 وفي المستنصر المقتبس الحجي) : 110 و115 و118 و189 ـ 193 وقد كان المستنصر أول الأمر كارها لهم ثم ارتد عن ذلك، وفي عبد الملك المظفر الذخيرة 1/4/ : 81.

130) أنظر المقتبس (شالميتا) : 299 وذلك منذ أيام الناصر.

131) المقتبس (شالميتا) : 299.

المنصور وتولى حجابة الدولة بعده ابنه عبد الملك المظفر، طلب السمعة باستخدام مثله (132) بتفسير ابن حيان فاستقدمه إلى الأندلس بمن معه من إخوته، فأبدى أول الأمر ـ لشدة دهائه ومكره وخلابته ـ من أنواع البشر ما لا شيء فوقه، وتوسع في الإنفاق على جماعته ببيع ذخائر وعقود كان قد جاء بها معه من بلده، حتى لقد اشترى منه عبد الملك المظفر أشياء (133)، فلما استقر به وبأخوته المقام، بدأوا بالتملل، واستقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته (134)، وأكثروا من الحديث عن الرحلة والتماس التسريح بكرة وعشيا، قال ابن حيان : جهلا وفرط انفة (135)، فحاول عبد الملك أن يتقرب منهم، فولى زيري صاحبهم خطة الوزارة، وهي أرفع خطط أصحاب السلطان آنذاك، فما كان من زيري إلا أن قال لرسول عبد الملك حامل صك التعيين :.... **إنما خطتنا الإمارة لا الوزارة** (136). فكأن تلك الحادثة كانت ـ في نظر ابن حيان ـ من الإشارات المبكرة للخطر البربري على وحدة الجماعة الأندلسية، وكان زيرى من ثم في نظره، موقد الفتنة بعد الدولة العامرية (137)، وكانت طبيعة وجوده وجماعته البرابرة العدويين في الأندلس مؤذنا لما قدره الله من «تفريق شمل الأندلس بأشباههم، فلم يخرجوا عنها إلى أن قاموا على الجماعة وشغبوا عليها بعد عبد الملك» (138).

---

132) الذخيرة 1/4 : 81.

133) المصدر نفسه 1/4 : [illegible] ـ 82.

134) المصدر نفسه 1/4 : 81.

135) المصدر نفسه 1/4 : 81.

136) المصدر نفسه 1/4 : 82، وانظر الزيادة في احدى المخطوطات في الحاشية رقم : 4 في الصفحة نفسها.

137) المصدر نفسه 1/2 : 588.

138) المصدر نفسه 1/4 : 18.

هذا النوع من الفتنة المبيرة العاصفة بالجماعة تغير كل شيء في المجتمع وفي الدولة وتتطلب من المفكر السياسي أن يضع مقاييس جديدة في النظرة إلى الأمور إذ ما الذي تقود إليه هذه الفتنة في نهاية المطاف ؟ **أليس هو انقلاب المقاييس كلها انقلابا كاملا ؟** وإلا فمنذ متى كنت ترى **الخليفة الاسمي** المنصب عرضا في سدة الخلافة يدخل حضرته وهو شيخ عجوز ـ مثل هشام المعتد ـ في «زي تقتحمه العين وهنا وقلة، عديم رواء وبهجة، وعدد وعدة، فوق فرس دون مراكب الملوك، بحلية مختصرة، سادلا سمل غفارة... دون علم ولا مطرد... (139)، قد رضي من وزيره بإقامة وظائفه ليومه وشهره ؟ ومتى كنت ترى **خليفة** ـ كالمستكفى ـ غفلا عطلا، منقطعا إلى البطالة عاطلا عن كل خلة تدل على فضيلة... معروفا بالتخلف والركاكة مشتهرا بالشرب والبطالة، سقيم السر والعلانية، أسير الشهوة، عاهر الخلوة... (وقد كان) عضته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة ؟ (140) ومنذ متى كانت **بطانة الخليفة** «جماعة من الأغمار كانوا عصابة يحل بها الفتاء ويذهب بها العجب كبطانة المستظهر ؟ (141) وأين هم **مدبرو الدولة** الأموية من العامريين من مدبري الملوك الجدد ووزرائهم، وأحدهم، وهو ابن السقاء مدبر الملك الجهوري، كان من قبل يعيش في غرفة في دويرة والده مع مجموعة كبيرة من إخوته، فلا «يجد بينهم إلى مد ساقيه سبيلا (142) فلما أطلت الفتنة بقرنيها رفعته وأعلت من قدره» فتحول جرذا للسرق والخيانة، وابتنى القصور البديعة، واقتنى الضياع

139) الذخيرة 1/3 : 515 ـ 516.

140) المصدر نفسه 1/1 : ـ 433 ـ 434.

141) المصدر نفسه 1/1 : 50.

142) المصدر نفسه 1/4 : 239.

المغلة، إلى أملاك لا تحصى،.. ثم عتا واستكبر، وخان وغدر، فاستخف المظالم، واستهان الكبائر، وأطرح الفروض، واحتقر الحقوق... وأشعر الأعزة الذلة، وألصق انوفها بالرغام... وبسط يده إلى مال الخراج... واصطنع الرجال...، وتخيرهم من اراذل الطبقات ومصاص شرار الناس، وانتقاهم من أصناف الدعرة والدائرة والأساور والرقاصة، هذا إلى كلفه بالغلمان، وجرأته في الطلب بأن يسمى هو بالسلطان وابن جهور بالوزير ؟ (143) وليس أسوء منه في المغرس الدنيء والإرتفاع الرخيس سوى حكم بن سعيد الحائك، مدبر ملك الخليفة هشام المعتد (144) بل ان هذا أربى عليه في العكس العمدى لما يتطلب منه عندما أدخل الفقهاء في اسفاف الزمن، فإنه اغرام بالمرتب والمنصب، فتساهلوا في مأكل لم يستطبه فقيه قبلهم، ولم يتورعوا عن الافتاء بالشر، قال ابن حيان : «وكنت أحسب فقهاء الشورى بعده أنهم يكتمون شأن ذلك الراتب حتى سمعت ابرهم يلح في طلبه، وينتظر بلوغ وقته (145)، ثم أغرى بعض أكابر الشعراء في الدخول فيا دخل فيه وتطلب مديحه عنه، فورط فيمن ورط الشاعر المعروف أبا عامر ابن شهيد (146). والفتنة هذه هي التي جعلت أحد ناظرى الأوقاف منطلق اليد في الأوقاف، يأكل أموال اليتامى والضعاف، ويشغل جماعة في الفلاحة والتجارة والإستعمال والعمارة، ويمتلك البساتين والدكاكين والمنازل المغلة ومنازل الحرير المرتفعة، يحوكها طرزا، ويرفع له في السوق، فيقبض الربح ولا يستكف سحت الظلمة بأفحش القبح كل القبح» (147) وهل ترى إلا

---

143) أنظر الذخيرة 1/4 : 239 ـ 244.

144) أنظر خبر حكم الحائك في الذخيرة 1/3 : 516 ـ 529.

145) الذخيرة 1/3 : 517 ـ 518 وانظر أيضا : 519 ـ 520.

146) أنظر الذخيرة 1/3 : 520 ـ 522.

147) الذخيرة 2/1 : 591.

في زمن الفتنة ناظر مظالم هو نفسه ظالم (148) أو صاحب خطة المواريث هو نفسه يحسب لنفسه حسابا فيها (149) ؟ بل هل ترى الا فيها تكثرا فاحشا في مراتب الخدمة في الدولة، وكل شخص فيها يحمل لقبا طنانا دون أن يكون وراء مرتبته محصل، ولا لقبه شأن ؟ (150)، وهل الا فيها تجد صفة أحد كبار المتنفذين في الدولة وصفته أنه «دن شراب، وزير قحاب، دفتره الدف، وتسبيحه السخف، وأنسه بكأس وقينة، ودرسه لنيمة وغيبة، وقضمه لحوم الغافلين، ورأيه رأي المستهزئين : إنما أربه بطنه وفرجه، وهمه عيبته وخرجه، وبطانته كل بطال ماجن ومأفون عائب يرضون منه بالكسرة والعرق، جريئين على تمزين أهب الخلق، يتجسسون له عن أخبارهم، ويهدون إليه معايبهم، بها يعمر مجلسه، وينفي ساعات كسله، وبنوادرها يهز مزهره.... (151).

أقول : إن الفتنة العاصفة بالجماعة تقلب المقاييس كلها رأسا على عقب، ودوامها حينا غير قصير يتطلب من المفكر السياسي أن يضع مقاييس جديدة يواجه بها الأمور الجديدة فما هو مقدار التغير الذي نال فكر أبي مروان ابن حيان ؟

---

148) أنظر المصدر نفسه 2/1 : 599.

149) أنظر المصدر نفسه 2/1 : 597.

150) قال ابن حيان (الذخيرة 1/1 : 51) : «وأقر المستظهر على مراتب الخدمة طوائف : منهم خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة، وخدمة الحشم، وخدمة القطع الناض والطعام، وخدمة مواريث الخاصة، وخدمة الطراز، وخدمة المباني، وخدمة الأسلحة وما يجري مجراها، وخدمة الخزانة للقبض والنفقة، وخدمة الهراية والقبض والدفع، وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم، وخدمة خزانة الطب والحكمة وخدمة الانزال والنزائل، وخدمة أحكام السوق.. قال : وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل، فلم يحلوا منها بطائل، ولا قبضوا منه مرتزقا، ولا نالوا بها مرتفعا....».

151) الذخيرة 2/1 : 592 ـ 593.

إن المراقب لفكر ابن حيان السياسي بعد الفتنة يلاحظ أنه أقر بثلاثة أمور رأي ألا بد من اقراره بها مع تغير الزمن من الجماعة إلى التشرذم، وهما مسألة الشروط في خلع الإمام، ومسألة خلو منصب الإمامة، ومسألة مواجهة المسؤولين عن الفتنة الداخلية الناتجة عن صراع طائفتين في المجتمع.

أما في المسألة الأولى فإن ابن حيان لم يثر ولم يعترض عندما قام الوزراء بقرطبة بخلع آخر الخلفاء الأمويين الاسميين ـ هشام المعتد ـ دون أن يستوفوا الشروط الثلاثة المعهودة في الخلع، وهي أخذ خطة بالخلع، والإشهاد على الخليفة بعجزه عن تدبير الخلافة، وتخلية الأمة مما له في أعناقهم من البيعة (152). ورغم أن أبا حيان يفسر عدم استيفاء الشروط تلك إما بالنسيان أو بالتهاون، فإنه يوحي بأنه بعدما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه من الفوضى في كل شيء، فإن تطلب استتمام الشروط في الخلع أمر المطالبة به مما يخرج عن الجو العام السائد أو الإطار العام الممكن تحقيقه.

وأما في المسألة الثانية، مسألة خلو منصب الخلافة فإن ابن حيان يورد ببساطة برود اتفاق الوزراء بقرطبة على الإعلان «بأبطال الخلافة جملة» لعدم الشاكلة، إذ لم يعد هناك من «المروانية والناصرية» من يتحلى بالسداد المطلوب في الخليفة، فرجعت قرطبة من ثم إلى تدبير الوزراء، وترك الدعاء لأحد (153). وأكبر الظن أن ابن حيان كان يقف موقف الموافق على خطوة وزراء قرطبة هؤلاء، وهو نفسه قد شهد تخبط عدد من الخلفاء في المفاسد إلى درجة الاسفاف، وذلك تخبط يضر بمقام الخلافة ولا

---

152) أنظر الذخيرة 1/3 : 529.

153) الذخيرة /3 : 527.

يقيم لها أودا، ولا ينفخ في عظامها البالية روحـا. ثم أليس هو نفسـه الـذي أحل قيام خلافة في الأندلس لسبب واحد وهو ضعف خلفاء بني العبـاس ؟ والآن قد حان الحين للقول إن خلفـاء الأنـدلس قـد ضعفوا وحل لغيرهم أن ينادي لنفسه بالخلافة، وحيث إن الخلافـة أصلا لا تجوز إلا لقرشي، وحيث إن «مروانية الأنـدلس» و«ناصريتهـا» قـد فقـد كل أمل فيهم، فترجى بقـاء الخلافة نظريا مع استحالتها عمليا لا معنى له، بل هو غير جائز. والمهم بعـد ذلك أن الأمة لا تظل بغير مدبر، والوزراء ـ في حال الفتنة المبيرة ـ يمكنهم القيام بأمر الأمة إلى أن تتغير الأمور ـ إذا كان المقدر لها أن تتغير.

والمسألة الثالثة التي تأثر الموقف بالفتنة الكبرى تجاهها هي مسـألـة : ما هي الوسيلة التي يجب على ولي أمر المسلمين ـ أو فئـة منهم ـ اتبـاعهـا في مواجهة البادئين بالافتتـان مع غيرهم من سكان البلاد. وكنـا قـد رأينـا من قبل أن ابن حيان كان يصر على القمع للمفتتنين هؤلاء أيام الجماعـة إلا أنـه في أيـام التشرذم، وفي الأيـام التي صـار فيهـا هؤلاء المفتتنين أنفسهم ـ وإن كانوا في الأصل غرباء ـ جزءا من اللعبـة السيـاسيـة على مسرح البلاد، رأى أن محـاربتهم بمـا يخرج عن حـدود الممكن أو المرجـو لـه التـوفيـق والنصر، ولأجل هذا ـ فيا أتصور ـ اثنى ثناء كبيرا على طريقة أبي الحزم ابن جهور، مدبر الملك بقرطبة، في معاملتهم، تلك المعاملة القائمة على **المسايسة** البارعة **والملاينـة** الأنيقـة **والملاطفـة** الـدقيقـة. فـأبو الحزم هـذا استطـاع بخفض الجنـاح والرقـة في المعـاملـة أن يقنعهم «يعني البرابرة» بـالخروج من قرطبـة مستبقيـا منهم فقــط بني يفرن ـ وكان يثـق بهم ـ فخرجـوا منهــا «من غير ايحاش، ونال منهم الرضى، وملكهم عـا قليل، قـال : حتى حصل على سلمهم

واستدار مرافق بلادهم، قال «ابن حيـان» : «وأصبح في ذلـك عجبـا» (154). ولا شك أن هـذا الموقف «الاستثنـائي» للظرف الإستثنـائي من جـانب ابن حيان يذكرنا بموقفه من إبـاحـة توقف الجهـاد المنظم ضـد العـدو الخـارجي عند افتراق الجماعة، واستبدال هـذا الجهـاد بسيـاسـة الملاينـة والملاطفـة لهـذا العدو، كما فعل منذر التجيبي صاحب سرقسطـة، وقـد مر الحـديث عنـه من قبل.

أقول : إن ابن حيـان قـد غير ـ تحت وطـأة ضغـط الفتنـة العـاصفـة الممزقة للبلاد والقـاضيـة على الجماعـة ـ موقفـه في الفكر السيـاسي في ثلاث مسـائل. أمـا فيما عـدا ذلـك، فـإن الـدارس لا يستطيع إلا أن يـلاحـظ أن مقاييس ابن حيان الفكرية السياسية لم تتغير قـط. صحيح أنـه تجرع فكرة تمزق الأندلس في دويلات أو ممالك إلا أن أحكامـه على ولاة الأمور فيهـا ـ وقد أصبحوا كثرا ـ ظلت تنبع من الأسس نفسهـا التي نبعت منهـا أحكامـه على إمام المسلمين في أيام الجمـاعـة. وهـذا يقودنـا إلى مـا كنت قـد ارجـأت الحديث عنـه هـذا الموطن، وهو واجبـات إمـام المسلمين في المجـالين الإداري والمدني، ثم في مجال تصرفه الشخصي.



وأول ملاحظة يلاحظها الدارس في أحـاديث ابن حيـان المختلفـة عن مظاهر الإنقلاب في المقاييس زمن الفتنة على مستوى أولياء الأمور ومدبري الأمور والوزراء وسـائر موظفي الـدولـة، أنـه يكاد لا يصف انعكاس المثل

154) الذخيرة 2/1 : 602 و603 و604.

لديهم إلا ويلحق بوصفه ذاك حكما سلبيا عليهم (155) وأكتفي هنا بعرض نموذج واحد من تلك الأحكام، هو حكمه على الفقهاء المتورطين فيما تورط فيه أسيادهم (وزراء كانوا أو أمراء) وكان الفقهاء بالذات ـ مع الأمراء ـ في نظره «ملح الأرض في الناس» بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون» (156) فإنه قال في العلية منهم المشاورين أصحاب الفتوى، الذين قبلوا الترتب في خطة الوزارة زمن الفتنة، غير آبهين بأن يكونوا أقرانا لـ «زعانف الخدمة» : وجاءووا في ذلك **بطامة** لم تسمع في الأعصر الخالية، **فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمة** (157). وهو إذا لم يصرح بالحكم السلبي يلجأ إلى السخرية المبطنة، وفيما كثير من أوصافه الآنف ذكرها تعرض لذلك، ومن نماذجه البديعة قوله في ارتقاء أصاغر الفقهاء إلى مرتبة الفتوى زمن الفتنة : «وارتقى المستكفى بكثير من **يحمل المحابر، ويدرس** مسائل الدفاتر من أصاغر الطبقة الفقهية إلى ما بلغت عليتهم من منزلة الشورى، **فوسم كافتهم بوسم الفتوى،** فاسرف في ذلك حتى بلغ عددهم بقرطبة يومئذ إلى الأربعين، قال : **«وذلك مما لم يعهد في الغابرين»** (158).

ويوضح ابن حيان بشكل لا مباشر أن رأس الجهاز الإداري هو إمام المسلمين أو الأمير المحلي زمن الفتنة وهو يؤكد من خلال عرضه لتجربة أبي الوليد ابن أبي الحزم ابن جهور مدبرا لقرطبة أن الإمام يجب أن يكون منفردا بترؤس الجهاز الإداري حرصا على المجتمع من التفرق. فإن أبا الوليد رأى ولديه عبد الرحمن كبير أولاده وعبد الملك صغيرهم، يتنافسان في

155) راجع الحواشي السابقة (رقم : 139 ـ 150).

156) الذخيرة 1/3 : 180.

157) الذخيرة 1/1 : 435.

158) المصدر نفسه 1/1 ـ 435 ـ 436.

خلافته، فقام ببسط أيديها جميعا في سلطانه، ولم يصغ لحليف له نصحه بأن ينصب عبد الرحمن وحده لخلافته. فماذا كانت النتيجة ؟ أخذ «يستميل كل واحد منها طائفة من الجند، ويصطنع من الرعية فرقة، ويفتلذ من عقيدة الملك فلذة»، قال ابن حيان : «فاصبح الأمر مختلطا، والأرباب متفرقين، والمخاوف تطلع من كل ثنية، والهوادي تؤذي بالأعجاز، والله كل يوم في شأن» (159).

ويبدو من مجمل الأحاديث التي تعرض فيها ابن حيان لموظفي الدولة أيام الجماعة وأيام الفتنة أنه كان يتطلب في الموظف أن يتمتع بخلتين : طيب الأصل أو العنصر أو الأسرة، والكفاية المطلوبة في المنصب الذي يعين فيه، وكلتا هاتين الخلتين واضح تطلبها لدى ابن حيان من قوله في ذم أحد كبار الموظفين في البلاد (ولم يرد اسمه في نص ابن بسام) إنه كان من «الظلمة المسرفين» لأنه لم يكن لديه معرفة ولا قديم أبوة ولا إحكام صناعة، وأضاف : «ومن استخدام مثله في شيء من العمل كانت قد حذرت الملل والفلاسفة الأول» (160).

ويدل تطلب ابن حيان أن يكون موظفو الدولة يتميزون بعراقة الأصل على أنه كان في فكره السياسي ذا نزعة «تقليدية ترى أن نجاح المرء في تقلد منصب ما لا يأتي فجأة إثر تقلده هذا المنصب»، وأنه لا بد له من «ثرات في الأسرة أو المحيط العام يهيؤه لذلك المنصب ويرفد قدرته الشخصية فيه لدى تسلمه إياه. ولا شك أن هذه النظرة من جانب ابن

159) الذخيرة 1/2 : 607، وقد انقطع النص بعيد هذا عن أبي الوليد إذ كان هذا النص آخر ما وجده ابن بسام من أخبار الدولة الجهورية في كتاب البطشة الكبرى.

160) الذخيرة 1/2 : 588 ـ 589.

حيان كانت متأثرة بما كان عليه الوضع في الدولة الأموية قبل الفتنة، حيث كانت المناصب ـ الكبرى منها بخاصة ـ تتداول في الأسرة الواحدة، ونماذج بني شهيد وبني حزم وبني برزال وبني دكوان وبني جهور خير دليل على ذلك، فلما جاءت الفتنة وأصبحت المناصب «سوقا» يكثر فيه «السماسرة» (161) ارتفع الدنيء وانخفض الشريف، فكانت النتيجة أن أخفق جهاز الدولة الإداري إخفاقا كبيرا في معظم أنحاء الأندلس ـ إلا حيث كان كبار الموظفين من أصل رفيع، وفي هذا المجال ـ مثلا ـ يؤكد ابن حيان على أن أبا الوليد ابن زيدون كان «من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة» (162) وأن أبا الوليد ابن جهور كان «من آل عبدة» ويكاد يتهلل وجهه وهو يسرد تاريخ هذه الأسرة في خدمة الدولة : «نهاية بيوت الشرف الأثيل بقرطبة، على أس الدهر المغرب شأوه في نظم قلادة خمسة ككعوب الرمح أنبوبا على أنبوب، هم ما هم تناقلوا الوزارة والكتابة ما بينه وبن خامسهم عبيد الله ذي المنقبة الزائدة، خولهم الله الرئاسة على تعاقب الأزمان واختلاف الأعصار، ولم تنقلها الفتنة إلى أن ورثها تربها هذا الوالي الفاضل أبو الوليد... فأعانه على ذلك الحسب والمروءة (163).

وقد نبه ابن حيان لا مباشرة إلى علة أخرى ـ سوى النجاح ـ لضرورة أن يكون الموظف من أصل سام، وتلك هي اتسامه بالاتزان وإنزال الناس منازلهم وعدم التطرف نحو الشر في التصرف العام، فإذا كان الموظف في الأصل فقيرا محروما ذليلا ثم نصب ـ مثلا ـ وزيرا، فإنه يتجه

---

161) المصدر نفسه 2/1 : [illegible].

162) الذخيرة 1/1 : 337.

163) المصدر نفسه 2/1 : 604 ـ 605.

إلى السرقة والظلم والاستهتار بالناس والأخذ بالشهوات من ناحية، ومن ناحية أخرى يحيط نفسه ببطانة رذلة على شاكلته ثم يقوم وإياها بعملية انتقام رهيبة ممن كانوا أعزة من الناس يوم كانوا هم من الأذلاء، فتنقلب الأمور رأسا على عقب، ويظهر عجزهم عن الاتزان وعن انزال الناس منازلهم التي يستحقونها وعن كبح جماح النفس باتجاه سفاسف الأمور، ومن خير النماذج الدالة على صحة ذلك نموذجا ابن السقاء المرتقي إلى درجة تدبير الدولة، وابن الحائك الذي حكمه «حكم المرتقي ذروة الوزارة من الحياكة (164)»، وقد مر ذكرهما (165)، وما ساء حال ابن الحائك هذا بالذات إلا لأنه «أدركه عرق السوء» (166)، كما يقول ابن حيان بل إن الواحد من هؤلاء السفلة قد يذهب إلى التفنن في عملية الإنتقام التي يقوم بها، وهذا أحدهم عندما تحالف مع جماعة من البرابرة الاجلاف انتقم من أهل قرطبة بهدم الدور وبالتنكيل والمغارم وابنتزاع السلاح منهم، ثم أخذ جماعة من أعيانهم فاعتقلهم وصادر أموالهم وامتهن بعضهم بالضرب حتى فدوا أنفسهم بجملة من المال، فأمر بإطلاقهم، فلما أحضرت دوابهم للركوب أخذت جميعها، فاضطر القوم إلى الإنتقال رجلا إلى بلادهم، قال ابن حيان : «فكانت عندهم أعظم آفة جرت عليهم» (167).

ويتحدث ابن حيان في غير موطن عن منصب الوزير في الدولة، لخطورة هذا المنصب أكثر من غيره. ويستنتج من كلام ابن حيان أن على إمام المسلمين (أو أمير فئة منهم في حال الفتنة في نظره أن يعين في منصب

---

164) الذخيرة 1/3 : 550.

165) أنظر ما سبق مما يتعلق بالحاشيتين 143 و144.

166) الذخيرة 1/4 : 240.

167) المصدر نفسه 99 ـ 100، وكان بين هؤلاء أبو الحزم ابن جهور وأحمد ابن برد الأكبر.

الوزير من كان فضلا عن شرف المنبت ـ عارفا بالأدب والبلاغة والكتابة والعلوم بعامة، وأن يكون سياسيا بارعا، فضلا عن أن يكون في شخصه متمتعا بصفات الصدق والدماثة والصدق والنزاهة مع الرعاية للإخوان والولاء للأمير، وهذا مستنتج من حديثه عن أبي بكر ابن أبي الوليد ابن زيدون، إذ يعتبر نموذجا للوزير الصالح (168). وعليه أن يبتعد عن توزير من هو آخذ في الكبر والخنزوانة (169)، أو في الافن والجهالة (170) أو من صفاته صفات السفلة، قال ابن حيان «فقديما استعاذوا بالله من وزارة السفلة» (171)، والوزير الفاسد يفسد سائر الموظفين في الجهاز الإداري في الدولة، ويصير «اعدى من الجرب عليها»، كما يقول ابن حيان (171).

ولا يتوقف ابن حيان توقفا ملحوظا عند غير خطة الوزارة، ولكنه مما يورده عن مساوىء موظفي بعض الخطط الأخرى أيام الفتنة يفهم أنه يتطلب العدل والتجرد من صاحب المظالم (172)، وبالترفع عن مد اليد إلى مال الغير، سواء أكان هذا المال مال المسلمين، كما في حال ناظر الأوقاف (173)، أو مال الورثة المختلفين في حال صاحب خطة المواريث (174). كذلك عليه أن لا يتدخل في الأحكام التي يصدرها صاحب خطة السوق، إن كان ذلك الرجل من الثقات في أعمالهم، وابن

168) أنظر الذخيرة 1/1 : 419 ـ 420.

169) أنظر الذخيرة 1/1 : 483.

170) أنظر المصدر نفسه 2/1 : 591.

171) أنظر المصدر نفسه 1/1 : 483 وانظر أيضا ص : 435.

172) أنظر المصدر نفسه 2/1 : 599 وقارن بالحاشية رقم : 148 مما سبق.

173) أنظر المصدر نفسه 2/1 : 591 وقارن بالحاشية رقم : 147 مما سبق.

174) أنظر المصدر نفسه 2/1 : 597 وقارن بالحاشية رقم : 149 مما سبق.

حيان يورد مبتهجا قصة خصي للأمير عبد الله أثير لديه رفض صاحب السوق أن يسمح له بإمضاء «حاجة ممتنعة وأصر على الرفض، فأغلظ الخصي له فما كان من صاحب السوق إلا أن أتى باشراطه فضربوا الخصي مائتي سوط ثم أودعوه السجن، فخاطب الخصي أميره عبد الله في ذلك، فأجاب الأمير بتصويب فعل صاحب السوق واستحسانه قال : «وأثبت له في نفسه **الإستقلال والكفاية**، فرقى منزلته إلى مدة يسيرة وولاه الوزارة ثم الحجابة (175).

وللإمام أو الأمير أن يستعمل عيونا يبلغونه ما يدور في بلاده، كما فعل الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما علم بتسرب مجموعات من دعاة المسرية بين الناس (176). على أنه يجب عليه ألا يحول جهاز جاسوسيته إلى وسيلة للقمع الأعمى والظلم البين، فإن هذا يؤدي بالرعية إلى العيش في رعب دائم وإلى كراهة الأمير من ثم، وهذا ما حدث بحق في حال علي بن حمود مع أهل قرطبة، فإنه بلفظ ابن حيان ـ قرن بجميع الناس الاشراط، ووكل بهم الضغاط، فما شئت من مكشف عن اليمين والشمال، متلول الجبين مذال القذال، قد صار شطر الناس اشراطا على سائرهم، فما تلقى أحدا إلا بموكل عليه... فصار أهل قرطبة يرون الدنيا وقد اظلمت... وأبلس أهلها، وغشيهم من أمر الله ما غشيهم، فلزموا البيوت وتطمروا في بطون الأرض، حتى قل بالنهار ظهورهم، وخلت أسواقهم، فإذا دنا المساء وكف الطلب عنهم انتشروا تحت الظلام لبعض حاجتهم (177). وكانت النتيجة أن

175) المقتبس (انطونية) : 5.

176) أنظر المقتبس (شالميتا) : 23.

177) الذخيرة 1/1 : 99 ـ 100.

القلوب شنأت ابن حمود، وتوالى الدعاء عليه، فاستجاب الله دعاء المظلومين وأراحهم منه قتلا على يد أضعف خلقه : صبيان اغمار من صقالبة بني مروان (178).

وإذا رأى الإمام أو الأمير أن هناك حاجة في الدولة لفصل عن خطة، أو لزيادة خطة ما، فذلك له شرط أن يكون هدفه المصلحة العامة وحدها، وذلك كما فعل الخليفة الناصر لدين الله سنة 325، فإنه رأى أن خطة المظالم ـ على أهميتها ـ كانت دون صاحب مرتب بخاصة لها، ينظر فيها واحد من الوزراء، فأفردها بصاحب خاص بها، فظلت كذلك منذ ذلك الحين (179). على أن الأمير قد يستكثر من الخطط دون حاجة حقيقية في الدولة إليها، وهذا في رأي ابن حيان، «زخرف من التسطير» ونماذجه التي ظهرت في الفتنة الكبرى دليل على خواء الدولة وضعفها لا على غنائها وقوتها (180).

وعلى الإمام أو الوزير واجب إداري عظيم وهو الإستمرار في مراقبة موظفي الدولة جميعهم، ولمح ما يحدث لديهم من نقص في الكفاية أو ميل عن المطلوب منهم، بل عزلهم إذا تطلب الأمر ذلك، وابن حيان يورد غير حادثة عزل فيها عبد الرحمن الناصر غير واحد من كبار الموظفين في دولته لأمر طرأ عليه جعل بقاءه في منصبه ضررا على الأمة، كما عزل والي قرطبة سنة 319 لأنه صارت فيه «حدة زائدة ومحارجة لذوي الحرم» (181)، وعزل

178) أنظر المصدر نفسه : 100 ـ 101.

179) أنظر المقتبس (شالميتا) : 476.

180) أنظر الذخيرة 1/1 : 51، وانظر الحاشية رقم : 150 مما سبق.

181) المقتبس (شالميتا) : 314.

سنة 314 قاضي الجماعة بقرطبة «لضعفه عن العمل» (182)، وعزل صاحب خطتي الوزارة والسكة معا سنة 330 وحبسه مهانا «لما أطلع عليه من غشه في السكة وعملها، وبدا له من فساد نقد المال الذي ضرب في مدته وحوالته، كما عزل أيضا في الوقت نفسه وزيره صاحب شرطته إذ كان من واجباته التي قصر فيها أنه طوى عنه أمر الاضطراب في حوالة السكة (183).



وقلما يتحدث ابن حيان حديثا مباشرا عن الصفات المرجوة في إمام المسلمين أو أمير فئة منهم بالنسبة لمهماته المدنية، أي في معاملته للرعية، والرعية على أي حال ليس لها وجود «مستقل» أو مهم في فكر ابن حيان، اللهم إلا عندما تهيج هائجتها ويتطلع صغار القوم فيها إلى المراتب العالية زمن الفتنة، وذلك أمر قد مر «الحديث عنه في تضاعيف هذا البحث وتطرق إليه الدكتور محمود مكي في الفقرة التي تكلم فيها على ما يتهم به ابن حيان من «الارستقراطية في النظرة إلى العامة (184). وتعليل ذلك في فكرة أبي حيان السياسي بسيط : إن العامة هي أمانة في عنق الإمام أو الأمير، فهو إذن الذي يسيرها، وهو الذي يحركها أما هي فلا تحركه، وإنما تتلقى منه ما يريد، خيرا كان أو شرا، وهذا معنى قول ابن حيان عن أبي الحزم ابن جهور أنه «من الجماعة أمينها المأمون عليها» (185)، وحكايته عن

(182) المصدر نفسه (شالميتا) : 208.

(183) أنظر المصدر نفسه : 486.

(184) أنظر مقدمة الدكتور مكي على المقتبس (مكي) : 122 ـ 123.

(185) الدخيرة 2/1 : 602.

الناصر لدين الله أنه وسم الناس بالخلق الضعيف وقال إنهم صاروا لـه ـ من حيث هو إمامهم ـ خولا لذبه عنهم وحمايته لهم (186).

ويستدل الدارس على موقف ابن حيان من المتطلبات المدنية العامة للحاكم مما يورده في مدح أحدهم وفي ذم غيره، فإن مدحه وذمه قلما يكونان غير مقرونين بتفسير سبب المدح أو علة الذم، وخلاصة ما يريده ابن حيان في الحاكم أن يكون سياسيا في الذب عن أمته (187)، عادلا في حكمه لها (188)، لا يسرع إلى سفك دماء أهلها بغير حق (189)، ولا يسرف في الضغط عليهم لاستيفاء الأموال (190)، كريما معهم دون إسراف (191)، مقدرا لعلمائهم وأدبائهم ـ وشعرائهم (192)، آخذا هو نفسه بقسط من العلم

186) أنظر المقتبس (شالميتا) : 446 وانظر مما سبق ما يتعلق بالحاشية رقم : 51.

187) أنظر نموذج أبي الحزم ابن جهور في الذخيرة 2/1 : 603 و604 وأبي الوليد ابنه في الذخيرة 2/1 ، 605.

188) أنظر ذم الجور والظلم والقسوة لدى أحدهم في الذخيرة 2/1 : 588، ومدح العدل في الناصر لدين الله في المقتبس (شالميتا) : 219 وانظر أيضا الذخيرة 2/1 : 590 في ذم جبروت أحدهم واستكباره والذخيرة 2/1 : 731 في ذم جور المعتصم ابن صمادح، وفي فرطات القسوة لدى الناصر لدين الله انظر المقتبس (شالميتا) 37 ـ 39.

189) كان الأمير عبد الله بالذات مشهورا بسفك الدماء، انظر المقتبس (انطونية) 39، وانظر في يحيى بن ذي النون الذخيرة 2/1 : 579.

190) انظر ما آلت إليه بلنسية وشاطبة وأهلها من العسر والضيق حتى الجلاء، زمن تولى بلادهما مبارك ومظفر العامريان في الذخيرة 1/3 : 15 ـ 16 و19 والبيان المغرب 3 : 158 وما بعدها، وفي حال قرطبة زمن يحيى بن ذي النون انظر الذخيرة 2/1 ، 579.

191) أنظر مدح كرم منذر التجيبي في الذخيرة 1/1 : 181 وعلي بن حمود في الذخيرة 1/1 : 102، وفي ذم بخل ملك آخر لم ينقل ابن بسام اسمه انظر الذخيرة 2/1 587 (وهو اسماعيل بن ذي النون، انظر الذخيرة 1/4 : 143)، وانظر أيضا ذم بخل الأمير عبد الله في المقتبس (انطونية) : 39 والمعتصم ابن صمادح في الذخيرة 2/1 : 831.

192) أنظر ذم اسماعيل بن ذي النون لأنه لم يجمع إليه الأدباء والشعراء لبخله في الذخيرة 2/1 : 587 ـ 588 وانظر في عكس ذلك حال الأمير عبد الله (المقتبس ـ انطونية) : 35 و40 و45 والأمير محمد المقتبس ـ مكي) : 245 والخليفة الناصر (المقتبس شالميتا) : 40.

والأدب (193)، عاطفا على جماعتهم في كل حين وخاصة وقت الجدب أو المجاعة، محتاطا لذلك في كل وقت (194)، مقدما لأعيانهم (195) ومشاركا لهم في أفراحهم وأقراحهم، يصلي الجماعة معهم ويزور مرضاهم ويشاهد جنائزهم (196)، ويعمر بلدهم (197)، معترفا طول الوقت بفضل الله عليه ونعمه لديه، ناسبا إليه التوفيق من دون نفسه (198)، ذائدا قبل كل شيء عن وحدة جماعته وعن سلامة دينها (199)، منفذا لمتطلبات الشرع فيها ما لم يقم هناك وضع شاذ يمنعه من ذلك (200).

وإن الإمام إذا فعل ذلك مع الرعية ضمن لها الأمن وأبعد الخوف، وأعاشها في سعة ومنع عنها الضيق، وأقام أمرها على الرخاء والإنبساط،

---

193) النوذجان الكبيران لدى ابن حيان في العلم والاهتمام بجمع كتبه وتدارسها هما الحكم المستنصر (أنظر الحلة السيراء 1 : 201 ـ 202) ومجاهد العامري (انظر الذخيرة 1/3 : 23 والبيان المغرب 3 : 156).

194) أبرز من قام بذلك الناصر لدين الله، أنظر المقتبس (شالميتا) : 109 ـ 110 و384، وفي عطف الأمير عبد الله على الفقراء وأهل الحاجة وأولي الزمانة والتصدق عليهم انظر المقتبس (انطونية) : 33 ـ 34 وكذلك في قعوده للعامة.

195) (أنظر قيام الأمير عبد الله بترتيب الدخول عليه بحسب المقامات في المقتبس (انطونية) : 34، وانظر مما سبق المصادر في الحواشي رقم : 143 و144 و165.

196) انظر ذلك من صفات أبي الحزم ابن جهور في الذخيرة 2/1 : 603، وقد انتقد ابن حيان اسراف أبي الحزم في ذلك حتى أنه شهد جنازة لامرأة من حثالة العامة (انظر الذخيرة 2/1 : 595 ـ 596).

197) أنظر في عمران الناصر لطليطلة المقتبس (شالميتا) : 319 وبناء الأمير عبد الله لمنية الناعورة في المقتبس (انطونية) : 38.

198) هذا كان ديوان الناصر، انظر المقتبس (شالميتا) : 319.

199) أنظر في مدح الخليفة الناصر المقتبس (شالميتا) : 256 وفي ذم اسماعيل بن ذي النون الذخيرة 2/1 : 588 و1/4 : 143 وكذلك في ذم سليمان المستعين الذخيرة 1/1 : 26 و67.

200) يروي ابن حيان في معرض مدحه لأبي الوليد ابن حزم أنه أقدم على بعض الإجراءات الشرعية الخاصة لانعدام الإمام المجتمع عليه في الوقت، فإنه درأ الحدود وعطل الإقادة بالحديد البتة، ومع ذلك فإن الناس في أيامه تكافوا في الأعم عن التظالم والتسافك بخلاف ما كانوا عليه تحت الضبط الشديد... بأيدي جبابرة الشرطة وذلك يعود إلى المقدرة السياسية العظيمة التي كان عليها أبو الوليد (أنظر الذخيرة 2/1 : 605).

وذلك هو المطلوب منه بحكم المنصب الذي قبله (201) ولعل أبلغ وصف ورد لدى ابن حيان في حال البلاد تحت حكم أمير مدبر عظيم وصفه لقرطبة زمن أبي الحزم ابن جهور، قال : (202).

فرخت الأسعار، وصاح الرخاء بالناس أن هلموا، فلبوه من كل صقع، فظهر تزايد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها، حتى ملأوا المساجد والأفنية، وسمت أثمان الدور بها، والابتناء لخرابها الفاشي، أخذا بالهوينا، فاتصل البنيان بها، وغلت الدور، وحركوا الأسواق، فعجب ذو التحصيل للذي أدى إليه في صلاح أحوال الناس من القوة، ولما تعتدل حال أو يهلك عدو.



وفضلا عما يتطلبه ابن حيان في الإمام من مهام عسكرية وإدارية ومدنية، فإنه يتطلب فيه خلالا شخصية، قد مر في عرض الفترة السابقة شيء منها، وهي في أساسها خلال دينية وخلقية تقوم على التقوى والعفة والصلاح والنزاهة والتواضع ودماثة الخلق وحسن حفظ صلة الرحم وبراءة الذمة من مال الأمة، إلى جانب الأدب والعلم (203). وفضلا عن ذلك فإن على الإمام أن يهتم بمظهره، فلا يخرج باذ الهيئة رثها، كما خرج هشام المعتد (204)، بل عليه أن يحرص على الدلالة على تميز مركزه بفخامة

---

201) أنظر في حال طليطلة بعد فتح الناصر لها سنة 320 المقتبس (شالميتا) 318.

202) الذخيرة 2/1 : 604 ويقول ابن حيان إنه لم يشبه قرطبة في العزة والعظمة إلا سرقسطة زمن حكم منذر التجيبي (أنظر الذخيرة 1/1 : 181).

203) تجد ذلك في المصادر المذكورة في الحواشي 186 ـ 199 مما سبق.

204) أنظر ذخيرة 1/7 : 515 ـ 516، وانظر مما سبق الحاشية رقم : 139، كذلك انظر في أشراف الأموية في الفتنة الذخيرة 2/1 : 606.

المركب والموكب والصنيع (205). وعلى أية حال فعلى الإمام أن يبعد النساء عن التأثير عليه (206)، ويجعل مستشاريه من ثقات الناس ومن ذوي الرأي منهم (207).

☆ ☆ ☆

يتضح من كل ما سبق أن أبا مروان ابن حيان ـ وإن لم يؤلف كتابا خاصا في الفكر السياسي ـ كان مفكرا سياسيا ذا آراء واضحة في الفكر السياسي الإسلامي. وقد تحكم في توجيه فكره السياسي في المنطلق الأساسي هاجسان : هاجس الجماعة الإسلامية وهاجس تغرية البلاد الإسلامية، وكلا هذين كان ناتجا عن أنه أندلسي شديد الإستغراق في أندلسيته، والأندلس ثغر من ثغور الإسلام، وأنه شهد في حياته قمة المجد الذي بلغته الأندلس في ظل سلطان الجماعة كما شهد أيضا أسفل الحضيض الذي وصلت إليه الأندلس بعد تفتت الجماعة بها وتمزق البلاد في وحدات صغيرة تمزقا ينبىء بالا عودة قط إلى ماضي الجماعة السعيد.

ولا يتصور ابن حيان الجماعة الإسلامية من دون إمام يحكمها، وهذا الإمام لا يكون إلا من قريش، ولا يجوز أن يكون إلا سنيا، كما لا يجوز أن يكون هناك خليفتان للجماعة الإسلامية الواحدة في نظره، إلا إذا

---

205) لقد سبق ذكر موكب عبد الملك المظفر العظيم (انظر الحاشية رقم 62)، وانظر في موكبين للناصر فخمين المقتبس (شالميتا) : 57 و333 ـ 334، وفي الصنيع الفخم الذي عمله لاعذار أولاده المصدر نفسه : 320، وفي صنيع المأمون ابن ذي النون في إعذاره لحفيده الذخيرة 1/4 : 128 ـ 137، وفي صفة قصره العجيب البناء المصدر نفسه : 145 ـ 146، وانظر في قصور مبارك ومظفر العامريين الذخيرة 1/3 : 16 ـ 17.

206) أنظر في ذم عكس ذلك الذخيرة 1/1 : 433 في تبيان ضعف المستكفي.

207) أنظر مذهب أبي الحزم ابن جهور السديد في ذلك في الذخيرة 2/1 : 603.

حدث أن ضعف الخليفة الأصلي ضعفا عظيما بات معه كالمحجور عليه، قد فقد شرط التسلط بتسلط غيره عليه، فيكون جائزا إذ ذاك أن يقوم قرشي سني آخر بإعلان الخلافة لنفسه. أما انتخاب الخليفة فإنه ـ في العادة يتم إما باتفاق أهل الجماعة عليه، وإما ببيعة متقدمة له من الخليفة السابق. وعلى أية حال فيجب أن يتم تنصيب الخليفة بسرعة شديدة في حال شغور الخلافة، على أن يحتفظ للخليفة السابق بكل ما تستحقه مكانته رمزيا من اجلال.

ويرى ابن حيان ثلاث مهام كبرى للخليفة هي بترتيبها من حيث الأهمية والأولوية : المهام العسكرية فالإدارية فالمدنية، فضلا عما يتطلب منه من الناحية الشخصية.

ويدور معظم الفكر السياسي لابن حيان على المهمة العسكرية للخليفة، لأن هذه المهمة ذات علاقة مباشرة بمسألتي الثغرية والجماعة، وهي تتحدد بواجبات الخليفة في دفع العدو الخارجي من ناحية، ومنع الفتنة الداخلية من ناحية أخرى، سواء أكانت تلك الفتنة ناتجة عن ظهور البدع الدينية، أو الانتزاء على السلطان، أو التصارع بين فئتين كبيرتين من فئات الأمة. وحيث أن ابن حيان كان يرى ضرورة استمرار هاتين المهمتين لأولياء الأمور في الأمة في كل زمان، فإنه اضطر إلى التمييز بين واجبات سلطان الجماعة وقت الجماعة وواجبات أولياء الأمور المحليين في زمن الفتنة، وكان تساهله في تلك الواجبات أكبر ـ بطبيعة الحال ـ في حال الفتنة، وإن كان الملمح العام في موقفه هو التشدد الشديد مع العدو الخارجي والداخلي على حد سواء، غير أن الفتنة فرضت عليه الإقرار بإمكانية خلع الخليفة دون توفر شروط الخلع، وبإمكانية الغاء الخلافة، إذا عدم القرشي السني الصالح لها.

ويلح ابن حيان في تبيان حدود مهام الإمام الإدارية أنه يجب على الإمام أن يدرك أنه رأس الجهاز الإداري كله في الدولة والمسؤول الأخير في النهاية عنه، وأنه لا يجوز أن يشاركه في ترؤسه أحد، وإلا ازدوجت المسؤولية وذرت الفتنة بقرنها بين الناس. كذلك على الخليفة أن يختار لوظائف الدولة من يتمتعون بالأصل وبالكفاية المطلوبة من كل واحد منهم في عمله ويهتم بشكل خاص بكفايات وزرائه، ويترك الاستقلال لأصحاب الخطط القضائية بكافة أشكالها، وله أن يكون جهاز للجاسوسية شرط ألا يبالغ في ذلك ويجعله في خدمة الأمة لا أداة في قمعها، كما أن عليه أن يكون دائم المراقبة لموظفي دولته جميعا ولا يتردد في عزلهم إذا وجد منهم أمرا يقصر بهم عن أداء واجباتهم.

وفي المجال المدني لا يتوسع ابن حيان في تبيان المتطلبات من الإمام في تعامله مع الرعية، والرعية لا تظهر كثيرا في كتبه إجمالا (إلا في حالة الهياج والفتنة) لأنها هي مسوسة وليست سائسة، والفكر السياسي لأبي مروان يتركز على السائس لا على المسوس. ويتطلب ابن حيان من الإمام أن يكون سائسا رفيقا عنوفا في الوقت نفسه، يصون الأمة ويسعفها في حال حاجتها، ويعمر ديارها ويعلي من شأن العلماء والأدباء والأعيان فيها، ويسير فيها بسيرة العدل ويترفع عن أخذ مالها المؤتمن عليه، ولا يشتد فيما يتطلبه منها من مال، ويتألفها بشتى أشكال التألف.

أما في المجال الشخصي فيتطلب ابن حيان من الإمام أن يكون متمتعا بكافة الصفات الدينية والخلقية الرفيعة، إلى جانب الأخذ بالعلم والأدب من ناحية، وبإظهار أبهة الملك من ناحية أخرى، مع الإبتعاد عن تأثير النساء، والالتجاء بالمشورة إلى الثقات من الرجال.

د. وداد القاضي

نقطة ضعف في تاريخ ابن حيّان

عبد الله كنون
عضو أكاديمية المملكة المغربية

يحظى مؤرخ الأندلس أبو مروان ابن حيان القرطبي (377 ـ 469) بتقدير كبير من المؤرخين وعموم الكتاب ببلده، يعتمدونه في الأخبار، وينقلون عنه تراجم الرجال، ويعجبون بأدبه وأسلوبه البليغ، حتى قال فيه تلميذه أبو علي الغساني، وهو من هو علما ودينا : «كان عالي السن، قوي المعرفة، مستبحرا في الآداب، بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه، وأحسنهم نظما(أي تأليفا) له ونوه به ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس. وهو بعد حي في طور الاكتهال كما قال. وكذلك نوه به الشقندى في رسالته المعروفة. ولا يستغرب من أهل الأندلس أن يحيطوا نابغة من نبغائهم بهذه الهالة من التقدير، وهم الذين عرفوا بفرط الإعتزاز ببلدهم، والإعتداد برجالاتهم إلى حد التعصب. على أنه في الواقع شخصية فذة لا جدال في قيمة ما قدمه إلينا من مادة تاريخية دسمة، تتوزع ماضي

الأندلس من لدن الفتح العربي إلى زمنه، وحاضرها المعاصر له، في كتابيه المقتبس والمتين، بمجلداتها العديدة التي لم يصلنا منها إلا أقل القليل.

وبالإطلاع على ما أمكن من هذه المادة، نجد أنه حقا أديب متمكن واسع المعرفة جزل العبارة قوي الأسلوب، بحيث يعد من بلغاء كتاب عصره، إلا أنه سلم من آفة السجع الذي كان قد أصبح حلية الكتاب وعلامة البراعة. وهذه المكانة الأدبية هي التي جعلته متميزا بين المؤرخين بصفاء ديباجته وعلو لغته، لأن طبع الأديب فيه يغلب على طبع المؤرخ، حتى أنه يقع في كلامه بعض الألفاظ الغريبة أحيانا. ومع ذلك فهو في التاريخ نسيج وحده، في عصره وبلده، استوعب تواريخ من سبقه لعهد الولاة وخلافة قرطبة إلى حين سقوطها، وسجل ما شهده من أحداث التاريخ الكبرى كأخبار الدولة العامرية والفتنة البربرية وقيام ملوك الطوائف وغير ذلك بدقة متناهية واستقصاء كامل، مما جعله المرجع الوحيد في هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الأندلس الذي لا غنى عنه لكاتب أو باحث.

وبالجملة فهو من كبار المؤرخين الذين ظهروا في مغرب الوطن العربي، وإن لم يكتب تاريخا عاما يشمل البلاد العربية والإسلامية، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير وابن كثير وأبو الفدا وابن خلدون وغيرهم من أئمة التاريخ العام، لكنه وقد قصر تاريخه على بلاده الأندلس، سد فراغا لولاه لم يسد. وعمل في دائرته الخاصة عملا متقنا. فلحق بركب المؤرخين المجدين والمؤلفين المتميزين في هذا الشأن. ويبالغ بعض الكتاب في شأنه فيجعلونه أعظم مؤرخ ظهر في الأندلس، وربما في المغرب العربي كله، متأثرين بمبالغات الأندلسيين في تزكية بعضهم لبعض، ونحن لم نره تفرد بشيء ليس عند غيره من أعلام التاريخ المذكورين، وإذا كان كتاباه

المشهوران : المقتبس والمتين، لم يصلا إلينا كاملين، وإنما وصلنا منها أجزاء صغيرة، فإن زبدتها قد استخلصها من أتى بعده من المؤرخين الذين وقفوا عليها، وماهي ببدع في مدونات التاريخ. نعم تفرد ابن حيان عن جمهرة المؤرخين العرب بشيء لا يحمد عليه، ولا يعد من المميزات الحسنة، بل هو نقطة ضعف في تاريخه، تجعل القارىء لا يطمئن إلى كل ما يرويه أو يخبر به. ونعني بذلك الذم والطعن والتشنيع على الناس، مما ضج منه غير واحد من العلماء والمؤرخين الذين نقلوا عنه واستفادوا منه، فكانوا يستخلصون المعلومات والافادات التي تهمهم في الموضوع ويعرضون عن لمزاته وغمزاته ونيله من الأعراض والأشخاص الذين يترجم لهم. وابن بشكوال في كتابه الصلة أول من يفعل ذلك، ولما ترجم لصاحبنا ابن حيان اثنى عليه الثناء الجميل، وأشار إلى ما ينتقد عليه من ذلك في صورة إبراء على عادة العلماء، إذ حكى عن الفقيه الصالح ابن عبد الله بن عون أنه رءاه في النوم بعد وفاته، فسأله ما فعل الله به فقال غفر لى. قال فقلت له فالتاريخ الذى صنعت ندمت عليه ؟ فقال : أما والله لقد ندمت عليه إلا أن الله عز وجل بلطفه عفى عني وغفر لي. فهذه الحكاية صحت أم لا، في سياقها الجميل اعتذار لطيف كان هو الإعلان من ابن بشكوال رحمه الله عن عدم موافقته على صنيع ابن حيان في نث عيوب الناس ولو كانت واقعا ثابتا، فإنه لم يقدح في صدقه ولكنه استنكر التشهير بعباد الله فيا أمرنا بستره وعدم البحث عنه، لا سيا مع عدم المقتضى لذكره واستكمال فائدة الخبر بالسكوت عنه، فإنه حينئذ يصبح هجاء، وهل يكون المؤرخ هجاء (بكسر الهاء في الأول وفتحها مع التشديد للجيم في الثاني).

وإني أخشى أن يكون طبع الأديب بالمفهوم القديم قد غلب على ابن حيان، فساقه إلى قرن المديح بالهجاء، إذ كان الأمران لا ينفكان في نظر

أهل الأدب فموضوع المدح يتبعه موضوع الهجاء، وخاصة عند الشعراء، وابن حيان وإن لم يكن شاعرا فهو قد تأثر بأساليب الشعراء وأغراضهم فيما يظهر، واعتبر الهجاء فنا من فنون القول، وغرضا من أغراض الكتابة.

وقد كان ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة أصرح من ابن بشكوال في ادانة ابن حيان، حين سمى فعله هذا بالهجاء ولم يحجم في ذلك فقال وهو ينتقى مقاطع من نثره : «وهذه فصول مقتضبة من طويل كلامه في تاريخه، وكنيت عن أكثر من به صرح، وأعجمت باسم من به أعرب وأفصح، رغبة بكتابي عن الشين، وبنفسي عن أن أكون أحد الهاجيين» وتمثل فيه بقول ابن الرومي :

مهما تقل فسهام منك مرسلة
وفوك قوسك والأعراض أغراض

وما تكلمت إلا قلت فاحشة
كأن فكيك للأعراض مقراض

وهذا أحد الفصول التي ذكرها ابن بسام من انشاء صاحبنا وأبهم المعنى به : «نعى إلينا فلان، وكان في غفلته وبعد فطنته وغباوة شاهده وفجاجة شمائله وشكاسة خلائقه، ءاية من ءايات خالقه، من رجل نسمة ريب وقرارة حرب، على لسانه غلة تدب على أعراض الناس، لا يرعى لأحد ذمة، فصار مشنوءا إليهم ومرهقا في دينه، محروما لم ترتفع له قط حال، ولا فارقه اقلال، ولا أتيح له مرفق إلا من حيث يرتشى لتلقين خصم، أو توهين عقد أو دفع حق بمشاغبة، أو بهت خصم بمعاندة، له في ذلك نوادر محفوظة، وكان مع هذه المساويء وسخ الثياب، زمن المروءة، مكحل

الاظفور، وضر الطوق، داني الغائط من المائـدة، لا يتقـذر شيئـا البتـة وهو أول من لاعن زوجه بالأندلس فأرى الناس العمل في اللعان بالعيان».

والمعني بهـذا الكلام البـذيء هو الفقيـه ابن الهنـدي المشهور من أعلام القطر الأندلسي، فإنه الذي لاعن زوجته كما يذكر الفقهـاء، في بـاب اللعـان بحكم صاحب الشرطة، وعوتب في ذلك فقال أردت احياء سنة أميتت حكاه عنه ابن عات، وتعقبه البرزلي بقوله : قد أغنى الله تعـالى عنـه بمـا جـاء في كتـابـه، يعني من الطلاق، والستر أولى، ولكن فـات البرزلي أن اللعـان قـد يكون لنفي نسب فيجب، ثم هو مما يـدرأ الحـد عن الزوجـة والقـذف عن الزوج، فلم يشرع عبثا بل لحفـظ كرامـة الزوجين معـا، وعليـه فتشنيع ابن حيـان على ابن الهنــدي بـه هـو من التعنت إن لم يكن من الإعتراض على الشريعة.

ثم لننظر كيف يأكل لحم هذا الفقيه الكبير بعد موتـه، وكيف يعيبـه بمـا وقع فيـه هو من ثلب الأعراض، إلى غير ذلـك من السبـاب القـذر وكل ذلك مما نهى عنه شرعا، فقد جاء في الحديث : سباب المومن فسوق.

وهذا إنما هو نموذج واحد من عـدة فصول أثبتهـا ابن بسـام في منتقى كلامـه وأبهم المعنيين بهـا، ولكن البـاحث المعروف الـدكتور محمـود علي مكي توصل إلى معرفة البعض منهم وسماهم، فيما كتبه على القطعة التي نشرهـا من المقتبس، وهم ابن الحصار وابن مغيث وابن المكوى وابن ذكوان وابن زرب، وهؤلاء كلهم من أعيـان الفقهـاء ورجـال الفتوى والقضـاء، المعمول بـأقوالهم وأحكامهم في المذهب المالكي، فيالجرأة هذا الرجل على الحرمات وخاصة أهل العلم والدين.

والدكتور مكي على علمه وتحقيقه هو ممن يشايع ابن حيان وينتصر له. حتى أنه وصف تحرج ابن بشكوال من نقل مطاعن ابن حيان في أهل عصره وما حكاه من رؤيا ابن عون له في المنام، بالتدين الساذج، فالتدين الحكيم إذن هو سلوك ابن حيان !..

ويذكرني هذا الكلام بقول أمين الريحاني وهو يسخر بلحى رهبان لبنان في صورة دفاع عنهم : جعله الله دفاعا مقبولا لديهم فيدافعون عني يوم القيامة، كما قال ابن خلدون متمنيا في دفاعه عن حسب الأدارسة ونسبهم !.. فالموضوع بحاله، لأن ابن خلدون مقعد التاريخ وواضع علم الإجتماع، تعرض في مقدمته لتفنيد بعض مزاعم المؤرخين، ومنها الطعن في نسب الأدارسة بما تقوله خصومهم من أمثال البكري والمراونية الأندلسيين فضلا عن العباسيين البغداديين، على ادريس بن ادريس من نسبته لراشد مولىهو أبيه، ضيقا بدولتهم العلوية التي أنشأوها في المغرب وتخطيا لها، فتصدى لهم بالإنكار والتنديد، غيرة على آل البيت وانتصاره لهم، وقال في آخر كلامه : «وإنما أطنبت في هذا الرد سدا لأبواب الريب، ودفعا في صدر الحاسد، لما سمعته أذناي من قائله المعتدي عليهم به، القادح في نسبهم بفريته، وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب في الإيمان بسلفهم، وإلا فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه، ونفي العيب حيث يستحيل العيب، عيب. لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة».

وليس فضولا أن ندل على ما في كلام الريحاني من الإستهزاء بقضايا الدين ورجاله، ولكننا نريد أن ننبه إلى روح الحفاظ التي تقمصها فيلسوف المؤرخين، ولقنها لأصحاب المهنة في هذه الفذلكة وأمثالها مما ضمنه في

مقدمته الخالدة، أشعارا بأن التاريخ ليس قصيدة هجاء، أو مقالة تشهير بخصم، ولكنه إعلام نزيه وانباه صادق وقول حق، وذمة وضمير ومسؤولية... وقد وضع ابن خلدون قواعد هذا العلم وقرر أصوله، ولكنه لم يطبقها على أحداث التاريخ التي حكاها في كتابه الكبير، اكتفاء بما أعطاه من أمثلة تطبيقية في المقدمة، لأنه لو تتبع ذلك لما انتهى إلى غاية ولوقع في حرج كبير. هذا مع العلم بأنه لم يكن ليفوته مثل هراء صاحبنا ابن حيان، ولكنه أعرض عنه أعراض الكرام، يقينا بكونه ليس من التاريخ في شيء. وتحامل المؤرخين أو تحيزهم باعتبار العامل السياسي وركونهم إلى حكام عصرهم، هما من القواسم المشتركة بينهم جميعا قدماء ومحدثين وما ابن حيان إلا واحد منهم، فتوليه لخلفاء قرطبة وبني جهور من ملوك الطوائف هو مما تطفح به صفحات تاريخه، ولكن هذا ليس مما يعنينا الآن، فنحن إنما نتكلم على هذه الانتقادات الإعتباطية والنزوات الشخصية التي تفرض على التاريخ وتدس بين ثناياه، ومن منا لا ينكرها وقد أنكرها ابن حيان نفسه في كلامه عن أحد الشعراء، الذي أرسل آفة على أهل بيت لأمر أوذي به من بعضهم، فعمم بهجائه وأفحش لهم» (1) على أن هذا من شأن الشعراء، وليس من شأن المؤرخين.

ولنستمع إلى كلمة قيمة في هذا الصدد من كتاب معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي، قال وهو يتحدث عن طوائف العلماء : «ومنهم المؤرخون، وهم على شفا جرف هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق، فلا بد أن يكون المؤرخ

1) أنظر ص 176 من المقتبس، تحقيق د. مكي. نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ

عالما حافظا عدلا عارفا بحال من يترجمه، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما يحمله على الغض منه، وربما كان الباعث له على النيل منه مخالفته له في العقيدة أو المذهب... وكثيرا ما يتفق هذا لشيخنا الذهبي في حق الاشاعرة، والذهبي أستاذنا والحق أحق أن يتبع.. وقد عقد ابن عبد البر بابا في أن كلام العلماء بعضهم في بعض لا يقبل، وإن كان كل منهم بمفرده ثقة حجة. ومنهم من تأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب ويركب الصعب والذلول في العصبية، وهذا من سوء أخلاقهم، ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض، ولو كان الشافعي وأبو حنيفة حيين لشددا النكير على هذه الطائفة.. انتهى باختصار.

وبالإشارة إلى ما ذكره من تعصب الفقهاء وازراء بعضهم على بعض، نذكر هنا ابن حزم عصري ابن حيان، فإنه في هذا الباب قد جاوز كل الحدود في الطعن على الأئمة والإستخفاف بهم، اعتدادا بمذهبه الظاهري، واعتقادا منه بأنه هو الصواب الذي لا يرقى إليه خطأ حتى شبه بعض العلماء لسانه بسيف الحجاج. ولعله ما أثنى على صاحبنا ابن حيان إلا لتوافقه وإياه في هذا الأمر.

ونذكر من الأدباء الفتح ابن خاقان وما كتبه عن أبي بكر بن باجة في قلائد العقيان من السخافات، حتى أنه طعن في دينه، وهو العبقري النافذ البصر في فنون العلم والأدب، والذي يعد مفخرة من مفاخر الأندلس برغم كل ما قاله فيه صاحب القلائد.

ومن المؤسف أن تتجلى هذه الظاهرة في فئة من أهل العلم والأدب وهي ظاهرة مرضية نفسية لا تشرف صاحبنا بحال، ولكن الذي يبعث على الارتياح هو أن أحدا لا يبالي بها ولا يحملها إلا على محملها الكريه من الغرض والأنانية واختلال المزاج، ومن ثم حكم الفقهاء بعدم جواز شهادة العلماء بعضهم في بعض لما يكتنفها من الشبهة وسوء القصد إلا من رحم ربك، وبالله التوفيق.

عبد الله كنون

شيخ المؤرخين
أبو مروان ابن حيان

د. علي عبد العظيم
جمهورية مصر العربية

أنجبت الأندلس طائفة من أعلام المؤرخين ومن أبرزهم أبو مروان عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة 238 هـ وكان عروضيا شاعرا حافظا للأخبار والأنساب طويل اللسان متصرفا في فنون العلم وتصانيفه كثيرة ومن أهمها كتابه في التاريخ الذي يوجد مخطوطا في مكتبة بودليانا باكسفورد في انجلترا وقد ابتداه بخلق الدنيا وأدم وحواء وابليس ثم تناول ذكر الأنبياء حتى محمد صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء ثم تاريخ الأندلس وفتحها وأمرائها ويذكر أنه نقل كثيرا من أحداث الأندلس عن مؤرخي مصر كما اعتمد على ما تناقل ذكره مؤرخو الأندلس من أحداث، ويبدو أن ابن حبيب كتب جزءا من هذا الكتاب وأكمله من بعده ابن أبي الرقاع من تلاميذ ابن حبيب ومن أشهر المؤرخين محمد بن موسى الرازى وهو من الوافدين إلى الأندلس من الشرق سنة 249 هـ والمتوفى سنة 273 هـ وقد

ذكر في تاريخه (الرايات) الاعلام التي رفعتها القبائل العربية في الأندلس عند فتحها كما ذكر تاريخ فتح الأندلس ومن وليها من الأمراء ثم خلفه في كتابة التاريخ ابنه أبو بكر وقد اشتهر بكتابة التاريخ حتى أطلق عليه لقب أبي بكر التاريخي وقد ألف كتاب «أخبار ملوك الأندلس» وكتاب صفة قرطبة وكتاب أعيان الموالى بالأندلس وقد نقل ابن غالب في كتابه «فرحة الأنفس» مقتبسات من كلام الرازى عن أقاليم الأندلس ثم جاء الحفيد بعد الابن وهو عيسى بن أحمد الرازى فواصل رسالة أبيه وجده في كتابة تاريخ الأندلس وقد ضاعت كتبه فيما ضاع من الكتب الأندلسية ومنها كتاب «حجاب خلفاء الأندلس» الذى وصل فيه إلى عصر المؤيد ثم جاء بعد هؤلاء ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الذى اشتهر باسم جدته سارة بنت غيطشة القوطية، وكان من أبرز علماء اللغة والحديث والفقه والأخبار والنوادر وكان إلى هذا كله شاعرا رقيقا وكان شيخا جليلا طال عمره وتعدد تلاميذه وقد ترك لنا أثرا خالدا في تاريخ الأندلس هو كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» تناول فيه تاريخ الفتح الإسلامي إلى نهاية حكم الأمير عبد الله بن محمد إلى سنة 299 هـ.

ويرجح بعض الباحثين أن ابن القوطية لم يكتب الكتاب وإنما أملاه على تلاميذه ويمتاز هذا الكتاب بعنايته بأخبار الشعب الأندلسى وأجناسه المختلفة وعقائده العديدة، وإن كان يهمل أخبار اليهود والنصارى (1) وكان مشهورا بالإنصاف فيما يكتبه ثم جاء بعده غريب بن سعد المتوفى سنة 363 هـ وهو طبيب من أصل إسباني ولكنه أسلم كما أسلم آباؤه واستعربوا

1) اقتبس أنخل جنثالث بالنثيا صاحب كتاب «تاريخ الفكر الأندلسي» صفحات من هذا الكتاب تظهر أسلوبه ومنهجه ص 204.

وتعمق في الثقافة الإسلامية، واختصر تاريخ الطبرى وأضاف أخبار المغرب والأندلس إلى هذا المختصر.

ثم جاء بعده الشاعر المشهور أبو عامر بن تنهيد فكتب موسوعة تاريخية كبرى تقع في مائة جزء جعلها على طريقة الحوليات بدءا من سنة 400 هـ إلى عهده.

☆ ☆ ☆

ثم بدأ عصر الموسعات التاريخية والأدبية ومن أشهر كتابها المظفر ابن الافطس أحد أمراء الأندلس وكان عالما كبيرا وأديبا ممتازا وناقدا بصيرا «وكان ينكر الشعر على قائله في زمانه ويقول من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعرى فليسكت وقد ألف كتابه المظفرى في خمسين مجلدا وأنفق في تصنيفه أعواما على الرغم من مشاغله الحربية العديدة (وانتفع في تصنيفه بما حوته خزانته الزاخرة بنفائس الكتب) ولم يستعن في وضعه إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة (2).

ولكن شيخ المؤرخين جميعا دون منازع هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان ذكره تلميذه أبو علي الغساني في شيوخه وقال فيه : كان عالي الشن قوي المعرفة مستبحرا في الإدارة بارعا فيها صاحب لواء تاريخ الأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظما له (3).

وروى ابن بشكوال عن أبي عبد الله محمد بن عون قوله : «كان مروان بن حيان فصيحا في كلامه بليغا فيما كان يكتبه بيده وكان لا يتعمد

2) دول الإسلام في الأندلس للأستاذ : محمد عبد الله عنان العصر الثاني ص 86.

3) الصلة لابن بشكوال ص 151.

كذبا فيا يحكيه في تاريخه من القصص والآثار» (4) أما مصادره فيا كتب فقد أوضحها في صدر كتابه ـ كا رواها عنه ابن بسام على لسانه : (5) مما أصبحت به تذكرة أو أخذته عن ثقة أو وصلتني به مشاهدة أو حاشته إلى مذاكرة، حتى نظمت أخبارها... وذكره الحميدى فأثنى عليه وقال : هو صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس وملوكها وله حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد، ونلاحظ مما بقي من آثاره أنه كان يتمتع بموهبة المؤرخ الدقيق، ويتجلى ذلك..

أولا : في ذكر مصادره سواء كانت كتبا أو أشخاصا أو شاهد الأحداث فدونها في أمانة وصدق أداء كا شاهدها.

ثانيا : أنه كان يلتزم الحقائق فلا يبالغ في الثناء فيخرج عن القصد ـ كا يفعل ابن خاقان في قلائد العقيان ـ ولا في الهجاء كا فعل أحيانا ابن بسام.

ثالثا : أنه كان يجيد التعبير في بلاغة وروعة أداء فلم يكن يوشي أسلوبه بالسجع والمحسنات البديعية التي تسم المعنى بالغموض، ولم يكن يهبط بأسلوبه إلى حضيض الضعف والتهافت.

رابعا : كان يذكر المحاسن ثم المساوىء بقدر ما وسعته أمانته.

خامسا : كان يعلل الأحداث ويذكر بواعثها ويستخرج منها العظات والعبر، ومن الخير أن نسوق مثالا من أسلوبه يبرز خصائصه

4) وفيات الأعيان جـ 1 ص 457.

5) جذوة المقتبس ص 188.

ويوضح منهجه في تدوين التاريخ. قال رحمه الله ـ في أولية دولة بني جهور :

«اجتمع الملأ من أهل قرطبة على تقديمهم لأبي الحزم بن جهور وعددوا من خصاله ما لم يختلفوا فيه فاعطوا منه قوس السياسة باريها وولوا من الجماعة أمينها فاخترع لهم لأول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه فاقترن صلاحهم به وأجاد السياسة فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدته وحصل كل ما يرتفع من البلد بعد اعطاء مقاتلته وصير ذلك بأيدى ثقات من الخدمة مشارفا لهم بضبطه فإن فضل شيء تركه بأيديهم متفقا مشهودا عليه إلى أن يعن وجه. تصرفه لا يلتبس بشيء منه ومتى سئل قال : ليس لي عطاء ولا منع، وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير أحضرهم وشاورهم وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء فأعطى السلطان قسطه من النظر، ولم يخل مع ذلك من ترقيحه (6) لمعيشته حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع عيناه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعنا ولكمل لو أن بشرا يكمل... (7).

ومما سبق يتضح أن الرجل ينصف في أحكامه فيذكر ما لكل إنسان وما عليه، دون مجاملة أو تحامل ثم عاد فذكر أنه لم يكن يصلح لهذا الأمر، ولما بلغ قوله ابن جهور..

قال : والله لقد صدق وإني والله ما أصلح لهذا الأمر ولكن مكرها لزمته، وحلف حفيده عبد الملك ابن جهور أن يقتل ابن حيان فغضب أبوه

---

6) الترقيح : الكسب.

7) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص 114 ـ 116.

أبو الوليد بن جهور غضبا شديدا وقال لابنه عبد الملك : والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن أحدا فيه سواك أتريد أن يضرب بنا المثل في سائر البلدان بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه، وأنشد له نظما وقال سبحان من جعله إذا نثر في السماء وإذا نظم تحت تخوم الماء (8) وقد ذكر ابن حيان في مقدمة كتابه أنه لم يصنفه في أول الأمر ليتداوله الناس وإنما ألفه ليقرأه أولاده وينتفعوا به إلى أن طلبه منه الأمير يحي بن ذى النون ـ وكان مولعا بالتاريخ والأدب فأهداه إليه وقال في ذلك : (كنت اعتقدت الاستئثار به لنفسي وخبأه لولدى والضن بفوائده الجمة على من تنكب احمادى به إلى ذمي ومنقصتي، طويت على ذلك كشحا وأمضيته عزما إلى أن رأيت زفافه إلى ذي خطبة سنية أتتني على بعد الدار من أكرم خاطب وأسنى ذى همة الأمير المؤثل الإمارة المأمون ذي المجد بن الكريم الطرفيين يحي بن ذى النون (9)، وقد ظلم ابن بسام مؤرخنا الكبير ظلما بينا فإنه أخذ عليه ذكر مثالب بعض من ترجم لهم من الأمراء والعلماء وقد ذكرنا أنه كان يلتزم الانصاف فيذكر المحاسن ثم المساوىء وهذه شيمة المؤرخ، وقد شهد له كثيرون بصدق روايته ولكن يظهر أن ابن بسام كان ينظر إلى الأمور نظرة دينية بعيدة عن الأوضاع التاريخية فقال فيه بعد أن أثنى عليه.. إنه وأنه وإذ كان فيما قرع من هذا الباب قد مرى سحابه فصاب فإنه أخطأ التوفيق وما أصاب إذ جاء أكثر كلامه كما قال ابن الرومي :

مهما تقل فسهام منك مرسلة
وفوك قوسك والأعراض أغراض

8) المغرب في حلى المغرب ب جـ1 حتى 117 أى يغوص على الدر في قاع البحار.

9) الذخيرة القسم الأول : الجلد الثانى ص 88.

ومـــا تكلمت إلا قلت فـــاحشـــــة

كأن فيـــــــك لــــلأعراض مقراض

ومن علم أن كـلامـه من عمله أقـل إلا فيا ينفعـه، ومن اعتقـد أنـه مسؤول عما يكتب لم يستفرغ المجهود في القول، فضلا عن أن يثلب، ولله در القائل :

فـــلا تكتب بخطـــــك غير شيء

يسرك في القيــامــة أن تراه (10)

وهو ينظر في هذا إلى قوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (11) وينظر في هذا إلى الحديث الشريف (لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته فيفضحه ولو في جوف رحله) رواه الترميذي وابن ماجة تحقيقا لقوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا (12)) وفسر الرسول صلى الله عليه وسلم الغيبة بذكرك أخاك بما يكره، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول فقال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وذكر الفقهاء أن الغيبة هي شهوة هدم الآخرين وشهوة النهش في أعراض المسلمين ولو اتبعنا هذه التعاليم بدقة لألغينا فصول التاريخ كما ألغينا علم الجرح والتعديل من علوم الحديث واستثنى الفقهاء من الغيبة المحرمة : المظلوم الذى يشكو ظالمه ويتظلم منه فيذكر ه بما يسوءه مما هو فيه حقا، وقد يسأل سائل عن شخص معين

---

10) الذخيرة القسم الأول : الجزء الثاني ص 84.

11) سورة ق 18.

12) الحجرات 12.

راجع رسالة رفع الريبة فيما يجوز ولا يجوز من الغيبة للشوكاني.

ليشاركه في تجارته أو يزوجه ابنته أو يوليه من قبله عملا هنا يتعارض واجب النصيحة في الدين مع واجب صيانة أعراض المسلمين ولكن الواجب الأول أهم وأقدس فقدم على غيره، وقد أخبرت فاطمة بنت قيس النبي صلى الله عليه وسلم عن اثنين تقدما لخطبتها فقال عن أحدهما إنه صعلوك لا مال له، وقال عن الآخر إنه لا يضع عصاه عن عاتقه أى كثير الضرب لنسائه، ومن ذلك تجريح الشهود ورواة الأحاديث والأخبار وكان بعض المشتهرين بعلوم الحديث يقول لصاحبه عن أحد الرواة تعال نغتب في سبيل الله فيقول محذرا عن أحد الرواة إنه ضعيف أو مدلس أو ملفق أو كذاب ليحذر من تصديق روايته والضابط العام في اباحة هذه الصور أمران.

1 ـ الحاجة 2 ـ النية ونستطيع أن نضم اليها رواية التاريخ في أمانة ودقة دون مغالاة أو تشهير 3 ـ وذكر البيهقي في شعب الإيمان (ليس في أصحاب البدع غيبة).

وروى بن عيينة عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة ليس لهم غيبة : الإمام الجائر، والفاسق المعلن بفسقه، والمبتدع الذى يدعو الناس إلى بدعته). وحسبنا أن القرآن الكريم سرد علينا صفحات تاريخية أطرى فيها الصالحين أمثال طالون ومؤمن آل فرعون ولقمان الحكيم وأصحاب الكهف والخضر عليه السلام وذي القرنين وعاب فيها الطغاة العتاة أمثال قارون وفرعون وهامان وامرأة نوح وامرأة لوط وآزر والوليد بن المغيرة وأبى لهب وأصحاب الفيل وعاد وثمود ومشركى مكة فأثنى على كل من هو أهل للثناء بما قدم من أعمال صالحات وعاب من يستحق الذم بما اجترح من آثام.

ومن هنا نتقبل أعمال المؤرخين المنصفين الذين يتحرون الحقائق ويذكرون ما لكل إنسان وما عليه دون محاباة أو تحامل.

ونعود إلى ابن بسام فنذكر بعض الصور التي عابها على ابن حيان حيث قال : (13) كان سهما لا ينسى رميه (14) وبحر لا ينكش أوديته (15) لو ثلب الماء ما نقع أو تعرض لابن ذكاء (16) ما سطع، يتناول الاحساب وقد رسخت في التخوم (17) وأنافت (18) على النجوم فيضع منارها ويطمس أنوارها بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب (19) الموعد وأمكن (20) من عذر الطبيب عند العود فرب شامخ بأنفه ثان من عطفة (21) قد مر في كتابه بفصل جرده لوضع حسبة وخلده أحدثة باقية في عقبه» وهذا ذم أشبه بالمدح منه بالقدح أى أنه كان قوي التأثير بليغ الأسلوب يعمد إلى المتكبر المختال الفاخر بحسبه ونسبه فيضع من شأنه ويلصقه بالرغام والمؤرخ العظيم، لا ينظر إلى الأحساب والأنساب وإنما ينظر إلى المآثر والأعمال، فيحكم على الإنسان بعمله لا بحسبه ونسبه فلا ضير على ابن حيان في هذا ولكن ابن بسام لا يكتفى بهذه بل يروى فقرات عديدة منها، عاب فيها ابن حيان بعض من تناولهم في تاريخه بالذكر مثل قوله :

---

13) الذخيرة ق 1 م 1 ص 85.

14) يصيب أهدافه فلا تزيد عنا رماه.

15) لا ينزح موجة.

16) القمر.

17) التخوم : الأصول الطيبة العريقة.

18) أناف زاد.

19) غيب.

20) أمكن أقوى.

21) متكبر مختال.

1 ـ وكان فلان من جمع الحطـام الـدنيوى والكلف بـالترقيح (22) مـا حـدث عنـه فيـه بكل قبيـح مـع انطـلاق يـده على الأوقـاف وأكل أموال اليتـامى والضعـاف أخـذ بـأوفر حـظ من الفـلاحـة وضرب بـأوفر سهم في التجارة ثم تجاوزها ثانيا عنانه إلى الاستعمال والعمارة... (23).

وهنا نراه يأخذ على الحـاكم بخلـه وجشعـه ومزاحمتـه للرعيـة في فنون التجـارة والزراعـة والبنـاء والعمارة وهو على حـق فيها لا حظـه على الأمير. ومثل قوله :

2 ـ ونعى إلينـا فـلان وكان مـع ثروتـه مضـاع الجـار مطـول الغريم عانت الصديق مكرها إلى الأنام معضوضا بـأنيـاب الملام مقـدمـا في صـدور الأمثال ببسطة الرزق على ضيق البـاع والاتسـاع في الجهل، فلا يحفـظ من الفقـه مسـألـة، ولا يـوثـق من الشروط عقـدا، ولا يتخلص في التـلاوة من سـورة، ولا يفيض في الأدب ببيت شعر، ثم يـأوي بجهلـه إلى حرج صـدر وغالب نزق، ينازق (24) الذبـاب شراسـة (25). وهنـا نرى ابن حيـان قـد أعطـانـا نموذجـا لرجل واسع الثراء ضيـق العطن زمن المروءة، وهي صـورة أشبه بالتصوير الكاريكاتوري ولا ضير على ابن حيان وإنمـا الضير كل الضير على صاحب هذه الصورة الذى شغلته أمواله عن مكارم الأخلاق ثم يقول :

3 ـ ونعى إلينـا فلان الـدغل (26) غـاز لـه السـل (27) كـلا فعـوان الصل (28) وكان أحـد أعـاجيب الـدنيـا في الفجور والخبث والزهـو والكبر

---

22) الكسب.

23) الذخيرة ق 1 ج II ص 102.

24) ينازق : يسابق في الحماقة.

25) الذخيرة القسم الأول : المجلد الثاني ص 183.

26) الدغل : الحقود.

27) السل : مرض صدرى.

28) الصل : الثعبان الخبيث.

والعقوق والجرأة وكان من أكابر الظلمة المترفين يجوب البلاد ابتغاء العيش ولا يحاشي الترقيح (29) عن كل قبيح ولم يكن الاكلا (30) حتى فتحت له أبواب الرزق على عاميته وأفته (31) وأميته وكان إذا كتب مضطرا يضحك من تأمله، له في ذلك نوادر محفوظة أمس بها من حجج الله تعالى بالرزق المقسوم، ولو كانت الأرزاق مقسومة على الحجى لم يرزق» نظر في هذا إلى قول أبي تمام ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجى هلكن إذا من جهلهن البهائم وهي صورة أخرى كاريكاتورية مضحكة لرجل جاهل واسع الثراء ثم يقول :

4 ـ وفلان ساذج الكتابة بين الجهل والتخلف طلق اللسان بالخنا والهجر أحد الافسال (32) من أولى النباهة، مثلج الجنان (33) فدم الخلقة (34) طويل اللحية، متهافت لم يرهف الأدب طباعه (35) ولا استخرج منه كلمة حكمة...) وهي صورة فكهة لرجل آخر دعي وصف فيها صورته العقلية وخلقته الجسمية ونحن نعلم أن ابن حيان كما كان لاذع النقد ـ كان حريصا على الا يغمط إنسانا حقه من الثناء إذا كان أهلا للثناء ومن أمثلة ذلك قوله في ترجمته لسوار بن أحمد (وتوفى الفقيه النبيه السرى المقفل (36) : أى واسع الثراء المجمع على كمال خلاله بقرطبة أبو القاسم سوار ابن أحمد ختام رجال المملكة بها وسوار معصمها لدى ايام الزينة.

---

29) الترقيح : الكسب.

30) الاكلا : الا قليلا.

31) أفتيه : حماقته.

32) الأفسال : الأراذل.

33) مثلوج الجنان : مطمئن القلب راض بما هو فيه.

34) فدم الخلقه : قبيح المنظر.

35) لم يرهف : لم يصقل.

36) المقفل : واسع الثراء.

وكان حليا وقورا ركينا (37) مطلق البشر حسن المشاركة متوددا إلى الناس وجيها لدى السلطان على انزوائه عنه، وقد أرداه (طلبه) أمراء التصرف فاستعفاهم فخلوه واختياره وكسوه أثواب الوزارة فنضاها ولم يعج (38) عليها ولا ارتضاها حتى سقط عنه اسمها وكان على خصاله الجمة من أحفظ الناس لأخبار بلدة قرطبة وسيرة ملوكها المروانية وأحصاهم لنوادرهم وآثارهم وعيون أخبارهم بفصاحة لسان وخلابة منطق وحسن إيراد يصور (39) إليه الأفئدة (40) كما أثنى على أبي الوليد بن جهور واعترف بما أولاه من فضل وما أسبغ عليه من نعيم وقد ذكرنا أنه أنقذه من محاولة عدوان ابنه عبد الملك بن جهور عليه، قال ابن حيان فيه : «نهاية بيوت الشرف الأثيل من قرطبة... وكنت ممن جادته سماء هذا الرئيس أبي الويد وكرم في فعله فأقحمني في زمرة العصابة المبرزة الخصل، مع كلال الحد، وضعف الآلة وأهتدى لمكان خلتي وقد ارتشف الدهر بلالتي (41) بأن قلدني أملاء الذكر في ديوان السلطان المطابق لصناعتي اللائق بتحر في براتب واسع لولا ما أخذ على كتم ما أسداها إلي لجهدت في وصفه، ثم اقتفى آثار أبيه في السياسة من درء الحدود بالشبهات ما وجد إلى ذلك سبيلا والتأول في تعطيل الاقادة بالحد (42) البتة لعدم الإمام المجتمع عليه في الوقت والتربص لادبار الفتنة (43) فأصبح من العجب تكاف الناس في الاعم عن التظالم

37) ركينا : عاقلا رزينا.

38) يعج : يرفع صوته بالدعاء.

39) يصور : يجذب.

40) الذخيرة ق ا جـ 2 ص 109.

41) البلالة : الندى : كناية عن قلة ثرائه.

42) تلمس الاعذار طلبا للعفو وقد ورد في الحديث الشريف : ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم. رواه الترمذي والحاكم البيهقي.

43) القضاء عليها.

والتسافك بخلاف ما كانوا عليه تحت الضغط الشديد وتجاوز الحدود بأيدي جبابرة أصحاب الشرطة أيام الجاعة، فلا يكاد يسمع لشرارهم من ظهور إلا النادرة الفذة (44)، وهنا يلمس ابن حيان حقيقة اجتماعية هامة قررها علماء السياسة والإدارة فيا بعد. وهي أن سياسة الرعية بالرحمة أبلغ ضبط الأمور من سياستها بالعنف والشدة.

كا نلمس أنصافه فيا يذكره في بعض تراجمه من ثناء ثم من نقد ولكل إنسان عيوبه ومحامده والكمال لله وحده، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في كتابه «المقتبس» من تاريخ الأندلس حيث تحدث فيه عن الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم الأموي وكفاحه العظيم في تثبيت ملكه قال فيه : لولا سياسة الثبات والصلابة التي انتهجها هذا الأمير للقضاء على حركة المولدين التي كان يقودها عمر بن حفصون ولولا صموده لجماعات من عرب الأندلس تحصنوا في معاقلهم في الكور واجتهدوا في الاستقلال بنواحيهم عن سلطان الإمارة الأموية لما كان من الممكن لحفيده وخليفته عبد الرحمن الناصر الارتفاع بالخلافة الأموية الأندلسية إلى الشأو الرفيع الذي بلغته على أيامه ثم تحدث عمن استعان بهم الأمير عبد الله في تثبيت ملكه من حجاب ووزراء وقواد وكتاب وقضاة وفقهاء ثم تحدث عن الخارجين عليه من زعماء الفتنة ـ وبعد ذلك تحدث عن فضائل الأمير ثم عقد بابا لاظهار عيوبه تحت عنوان (باب الذم) فأخذ عليه : «هوان الدماء عليه وإسراعه إلى سفكها حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهم من صحابته ورعيته أخذا لأكثرهم بالظنة وعاب عليه شدة بخله، ثم ذكر قتل المطرف بن الأمير عبد الله لأخيه محمد بن عبد الله غدرا ثم يذكر كيف قتل الأمير عبد الله ابنه

44) الذخيرة ق ا جـ ص 19.

مطرفا انتقاما منه وعقابا له (45) ومن هنا نرى أن ابن حيان ذكر الفضائل ثم العيوب وهذه هي شيمة المؤرخ المنصف ونلاحظ أن عيوبه التي ذكرها ابن حيان ذكرها أبو محمد بن حزم كما أوردها ابن عذارى المراكشي في الجزء الثاني من كتابه البيان المعرب ص 233 قال ابن حزم : أنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات وترك المنكرات، فإنه احتال على أخيه المنذر ـ على ايثاره له ـ وواطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذي فصده به وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد ثم قتل ابنه محمدا والد الناصر لدين الله وقتل أخاه المطرف ثم قتل أخوين له معا قتل هشاما منهما بالسيف والقاسم بالسم إلى غير ذلك» فابن حيان لم يكن متجنيا على عبد الله في ذكر مثالبه وإنما كان مؤرخا صادقا ذكر ما له وما عليه في صدق وأمانة ومن هنا نرى مبلغ تحامل ابن بسام عليه ورميه له بالغلو والاسراف في الهجاء، كما نرى ابن بسام مع ذلك كان دائم الإعتماد عليه والإقتباس منه والتنويه به مثل قوله في ذكر وفاة ابن زيدون : (فصل من تاريخ الشيخ أبي مروان بن حيان رأيت اثباته لنبل مساقه وحسن اتساقه يقول فيه :... ونقل الفصل كاملا في الذخيرة (46).

وابن بسام نفسه اعتمد اعتمادا كبيرا عليه في كتابه «الذخيرة» ونقل صفحات عديدة له وصرح بهذا في مقدمة كتابه حيث قال :

«وسينخرط في سلك ما أوشح به هذا التصنيف من تلخيص التعريف بأخبار ملوك الجزيرة وسرد قصصهم المأثورة ووقائعهم المبيرة المشهورة لابن

45) أنظر الجزء الذي نشره الأب ملشور انطونيا سنة 1928 في تاريخ الأمير عبد الله بن المنذر.

46) الذخيرة القسم الأول الجزء الأول 354.

حيان فصول من غوائبه وجل وتفاصيل من عجائبه لأني إذا وجدت من كلامه فصلا قد أحكه أو خبرا قد سرده ونظمه عولت على ما وصف ووليته خطة ما سطر ورصف، اقرارا بالفرق واعفاء لنفسي من معارضة من أحرز بأفقنا قصبات السبق، وبرز في زمانه على جميع الخلق، وأكثر ما يمر في هذا الكتاب من هذا الباب فعلى تاريخه الكبير عولت ومن خط يده أكثر ما نقلت...» (47).

أصالة مصنفاته : من أهم ما يتناوله الناقد الباحث عند الحديث عن أحد العلماء أن يتأكد أولا من صحة ما نسب إليه ومدى سلامته من التحريف والتصحيف والزيادة والنقصان، ولقد نقل كثير من المؤرخين المعاصرين لابن حيان والتاليين له صفحات عديدة منه، ومع ذلك تقول عليه بعض المؤلفين ما لم يقله حتى في حياته ونرى هذا واضحا تنبه هو إليه فنبه عليه فيا كتبه إلى صديقه ابن عبد الغفور حينما أعاره جزءا من كتابه وطلب منه أن يفحصه ليتأكد مما حواه من كذب عليه وتزوير بأقواله وقد أبطأ ابن عبد الغفور في تلاوة هذا الكتاب ورده إليه وكتب إليه ابن حيان ما يلي : (ليس يخفى عليك مكانة هذه الصحف المستملاة من الصدور المستعراة من النظير من أنفس مؤلفيها وقلوب مصنفيها فأبشك شأن الإهتام بها كي تكذب ما زور فيه علي، ولا محالة أن قد فعلت ورددت وجهدت واستأخر صرفه إلي فحملت ذلك على نسيانك لتقسم الأشغال بخاطرك ولمتاح القلق بي (48) ويومان من هجر الحبيب كثير، ونفسي متطلعة إلى حضوره حذرا من أن يعدوك فلا استقيل فيه الحيرة فتفضل بصرفه فإنما حمدى إلى حضوره إن شاء الله).

---

47) الذخيرة القسم الأول : ص 23.

48) أي لضيقك بي فيا كلفك به من المراجعة.

ومن هنا نرى مبلغ حرص ابن حيان على سلامة كتبه من الزيادة والنقصان والتحريف والتصحيف فكان يعرضها على من كان يثق به من أصدقائه من العلماء وقد شهد له الحميدى بتحرى الصدق في الآراء فقال فيه : له حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد (49)).

وكان ابن حيان رحمه الله لبقا مشهورا بالحكة وسداد الرأي ومراعاة الآداب الإجتماعية ومما يؤثر عنه قوله «التهنئة بعد ثلاث استخفاف والتعزية بعد ثلاث اغراء بالمصيبة» أما التزامه والصدق فيما يرويه فقد نوه به أبو علي الغساني فقد (وصفه بالصدق فيما حكاه في تاريخه) (50) وكان صاحب مكانة مرموقة عند معاصريه فابن بسام بعد أن أخذ عليه ما أخذ قال فيه : (وكان عندهم بقرطبة خاتمة المتكلمين وجمهور المحسنين على ما تراه ركب من آثم واحتقب من ظلم وتناول من عرض....، وحسبنا في تمسكه بالصدق فيما يرويه ما ذكره الصفدى من (أنه كان لا يتعمد كذبا فيما يكتبه في تاريخه) (51) وقد شهد بصدقه طائفة من الباحثين المحدثين منهم دوزي الذي قال فيه : (52)، إن كتاب العرب يمتدحون في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجون بجمال أسلوبه وجزالة لغته ورنين عباراته وأنا أؤيدهم في ذلك كل التأيد ولا أتردد في القول بأن كتبه لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرا وصورته لنا أحسن تصوير ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغا يجعلنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور، إذ أن ابن حيان سيال

49) جذوة المقتبس ص 188.

50) الصلة لابن بشكوال ص 151.

51) الوافي بالوفيات جـ 4 مجلد (ص 61).

52) تاريخ الفكر الأندلسي تعريب الدكتور حسين مؤنس 211.

الأسلوب ولكنه مع ذلك لا يتعثر في الاطناب والقعقعة اللفظية كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنتهي (53) أنه ليسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون، ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط ولا يقع كذلك في التفصح والاسراف في قعاقع الألفاظ وهو على التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ويبعث في كلامه دائما حماسا وغنى وطابعا غالبا من الجد... ولا نجد بين العرب الاقليين ممن نستطيع أن نقارنهم به ولن نجد بينهم من نقدمه عليه.

شيوخه ومصادره : يمتاز ابن حيان بأنه لا يدون حادثة دون أن يذكر مصدرها من الكتب التي درسها أو من شيوخه الذين تتلمذ عليهم أو من أصدقائه الذين يثق بهم أو مما شاهده من أحداث.

فمن الكتب التي درسها وأخذ عنها كتاب الرايات لمحمد بن موسى الرازى وكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لأبي بكر بن القوطية وكتاب تاريخ بني أمية في الأندلس لمعاوية بن هشام وكتاب شعراء الأندلس لأبي بكر بن عبادة بن ماء السماء وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الامصار لأبي عمر يوسف بن عبد البر. أما أساتذته فكثيرون نذكر من بينهم :

---

53) مثل ابن خاقان في قلائد العقيان ومطمح الأنفس.

أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوى كان عالما باللغة والأخبار حافظا ضابطا لها من رجلة شيوخ الأدب في عصره (54) ومنهم أبو الوليد عبد الله بن محمد الشهير بابن الفرضي رحل إلى الشرق سنة 382 والتقى بكثيرين من العلماء الاعلام وروى عنهم وصنف كتابا في تاريخ علماء الأندلس وصنف كتابا قيا في أخبار شعراء الأندلس وجمع في المؤتلف والمختلف كتابا حسنا وكان شاعرا رقيقا قال فيه ابن حيان : (ولم ير بقرطبة مثله في سعة الرواية وحفظ الحديث ومعرفة الرجال والافتنان في العلوم إلى الأدب البارع والفصاحة المطبوعة قلما كان يلحن في جميع كلامه، وكان جماعا للكتب القيمة (55) ومنهم أبو العلاء صاعد ابن الحسن بن عيسى البغدادي : وفد على الأندلس من الشرق وكان عالما باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة وكان من المقربين إلى الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر وقد ألف له كتابا سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار (56) ومنهم خلف بن حسين والد أبي مروان بن حيان كان من كتاب أبي عامر الحاجب المنصور، وكان لا يلي منصب الكتابة للحاكم إلا من اشتهر بالثقافة الواسعة والأدب البارع والتعبير البليغ أهم مؤلفاته : أهم كتبه جميعا كتاب المتين في تاريخ الأندلس وقد نقل عنه كثير من المؤلفين فقرات عديدة ومن أشهرهم ابن بسام صاحب الذخيرة وغيره من المؤرخين والكتاب مفقود ولم يبق لنا منه إلا ما نقله المؤرخون عنه ويذكرون أنه يقع في ستين جزءا، ويزعم جورجي زيدان أنه موجود في مسجد تونس اعتمادا على ظنه.

---

54) الصلة لابن بشكوال ص 25.

55) المصدر السابق جـ 1 ص 248.

56) المصدر السابق ص 232.

والكتاب الثاني من كتب ابن حيان : هو كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس ويقع في عشرة أجزاء ويزعم جورجي زيدان أنه موجود في مسجد تونس (ولعله يقصد جامع الزيتونة بتونس) كما زعم أنه توجد منه أجزاء في مكتبة بودليانا باكسفورد ولكن المؤكد أن الباقي من أجزاء هذه النسخة أربعة أجزاء. جزء عن عصر الأمير عبد الله وقد نشره الأب ملشور انطونيا سنة 1928 وجزء آخر عن عصر عبد الرحمن الأوسط نشره ليفي بروفنسال وجزء آخر عن خلافة الحكم المستنصر نشرة للأستاذ غرسيا غومس وهناك جزء آخر عثر عليه أخيرا يتناول الفترة بين سنة 229 ـ 330 ولحسن الحظ أنه موجود في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 87 وأملنا كبير في أن يتفضل السيد الوزير المشرف على النهضة الثقافية بالمغرب الأستاذ أباحنيني بالتعجيل بتحقيق هذا الجزء ونشره فيضيف يدا كريمة إلى جانب أياديه البيضاء وإنها لعديدة وستزداد عددا على مر الأيام.

فلسفته التاريخية : إذا كان بعض المؤرخين والدارسين للتاريخ يتخذونه وسيلة للتسلية والاسمار فإن ابن حيان جعل أحداث التاريخ وسيلة للعظة والاعتبار وتقويما للحكام بما يطالعهم به من شأن الحكام السابقين وما تعرضوا له نتيجة تصرفاتهم وتدابيرهم وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه كما رواه ابن بسام حيث قال في هذه المقدمة (57) (الحمد لله الذى علا في سمائه وتفرد ببقائه... فله الأسماء الحسنى والمثل الأعلى خلق الإنسان علمه البيان وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشأن فعلمه ما لم يعلم وأشهده ما لم يحضر وكرر عليه نبأ ما لم يلحق من القرون الماضية والأمم البائدة وأراه سبيل منقلبهم عن هذه الدنيا الفانية التي استعمرهم فيها قرنا بعد قرن

57) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص 85، 86.

ليبلوهم فيما آتاهم فتهافتوا في شهدها وتهالكوا كالادبة عليها ـ أي كالذباب ـ لا الآخر بما انتهى إليه الأول معتبر ولا الغابر بما مر على الماضي مزدجر، حكمة بالغة فما تغنى النذر، إذ كل مقدر كائن وكل مربوب مسخر.

وهذه العبارة الأخيرة تذكرنا بما اهتدى إليه المؤرخ الكبير ابن خلدون فيما بعد من حتمية الظواهر الإجتماعية والتاريخية وأنها لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده، لها الأفراد وإنما حسب قوانين ثابتة مطردة كالقوانين الخاضع لها القمر في تزايده وتناقصه (58) ومن هنا نوافق الدكتور لطفي عبد البديع على ما وصف به ابن حيان في قوله : (وأعظم مؤرخى الأندلس بلا منازع أبو مروان بن حيان المتوفي سنة 469 هـ فهو بأسلوبه وطريقة كتابته في طليعة المؤرخين العرب الذين نظروا إلى التاريخ نظرة شاملة تتناول نواحى النشاط الإنساني في الحقبة التي يؤرخها يذكر المعالم البارزة للعصر ثم يستطرد إلى التفاصيل فلا يدع جزئية دون أن يلم بها ويطلق على الشخصيات التي يؤرخ لها أحكامها سديدة لا مجاملة فيها ولا محاباة بل يعطى كل ذي حق حقه فيذكر الفضائل كما يذكر النقائص في أسلوب زجل وعبارة مرسلة لا تكلف فيها ولا تصنع مع التزام الدقة في الألفاظ التي يختارها (59).

مؤلفاته : من أهمها كتاب المتين وكتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس وقد تحدثنا عنها فيما مضى وإن كان بويجس يذكر له ستة كتب أخرى هي :

---

58) عبد الرحمن بن خلدون للدكتور علي عبد الواحد وافى من سلسلة اعلام العرب ص 151.
59) الإسلام في اسبانيا طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص 70.

1 ـ رسالة في معرفة التابعين، ولكن الأب ملشور انطونيا أثبت أنها ليست لابن حيان وإنما هي رسالة استخلصها مؤرخ شرقي هو أبو عبد الله الذهبي من كتاب لابن حيان البستى (60).

2 ـ الانتخاب الجامع لمآثر بنى خطاب.

3 ـ كتاب جمع فيه بين كتابي القيسي وابن عفيف.

4 ـ منتخب من تاريخ أبي عمر بن عفيف.

5 ـ انتخاب من أخبار القضاة.

6 ـ أخبار الدولة العامرية.

وكلها مفقودة (61).

وبعد فإن من المعروف أن المغرب امتداد للأندلس والأندلس امتداد للمغرب وتاريخ كل منها متصل بالآخر وحضارتها واحدة فابن حيان فخر لها جميعا وقد تناول تاريخ المغرب لارتباطه الوثيق بتاريخ الأندلس فهو موضع فخر للبلدين معا.

وإذا كان للمغرب أن يفخر بابن حيان أكبر مؤرخى العصور الوسطى فله أن يفخر أيضا بالشريف الإدريسي أعظم جغرافي العالم في القرون الوسطى فقد عاش بالمغرب وهو ينتمى إلى الأدارسة وعاش الجزء الأخير من حياته في صقلية في كنف ملكها روجر الثاني حيث ألف له كتابا (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وظل كتابه هذا مرجعا لجامعات أوربا بضع مئات من السنين، وظلت أجزاء هذا الكتاب مخطوطة موزعة

60) تاريخ الفكر الأندلسي ص 208.

61) الإسلام في اسبانيا ص 70.

في أشهر مكتبات العالم بالشرق والمغرب حتى تفرغ أساتذة كلية الدراسات الشرقية والإسلامية في نابولي بإيطاليا لجمعها وطبعها طبعة علمية كاملة محققة وقد أتموا طبع الكتاب كاملا في عشرة أجزاء كبيرة، وتفضلت الكلية مشكورة بأهدائى نسخة منه اعتز بها كل الإعتزاز. ومن مفاخر الإدريسى أنه وصف منابع النيل وصفا دقيقا كما كشفها الجغرافيون المحدثون، ووصف اتجاه العرب إلى كشف أمريكا حيث وصلوا إلى جزر عديدة في غرب المحيط الأطلسي (بحر الظلمات ووصفوها وصفا دقيقا ينطبق على جزر الهند الغربية الواقعة بين الولايات المتحدة والمكسيك في البحر الكاريبي، ولما عادوا حملهم التيار إلى شواطىء غرب إفريقيا.

هذا وقد أثبت الدكتور جفرير الأستاذ بجامعة الترنسفال بالأدلة العلمية الحاسمة أن العرب كانوا أول من كشف قارة أمريكا، وللمغرب أن يفخر بأنه أنجب أعظم فلاسفة التاريخ في العصور الوسطى وهو ابن خلدون كما أن له أن يفخر بأنه أنجب أعظم رحالة عرفه العالم في العصور الوسطى وهو ابن بطوطة وإذا كان المغرب قد أنجب هؤلاء الأعلام في العصور الماضية فإننا نطمع أن يمدنا في نهضته الحديثة بطائفة من الرواد يضيف بهم إلى مجده التليد مجدا طريفا وأنه بهذا لجدير.

د. علي عبد العظيم

خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى

في سنة 330 هـ / 942م

نص جديد في تاريخ أوربا والأندلس

للمؤرخ القرطبي أبي مروان ابن حيان

المتوفى سنة 449 هـ / 1076 م.

د. أحمد مختار العبادي
جامعة الشويخ / الكويت

لعل من أهم فوائد التاريخ العبرة والموعظة. وتاريخنا الإسلامي مليء بالتجارب الجليلة النافعة. فإذا وصلنا الماضي بالحاضر، أمكننا أن نخرج من هذه التجارب بفوائد جمة تفيدنا في حاضرنا.

ومهمتنا نحن أرباب الدراسات الإنسانية، أن نعمل على إحياء سنة السلف وإعادة هذه السير الجيدة الماضية، لأن الماضي لا يموت إلا بالنسبة للأموات.

وأود قبل أن أبدأ حديثي، أن أقدم خالص شكرى وتقديري إلى معالي الوزير الحاج محمد أبا حنيني على دعوته الكريمة. ولعل العجز عن الشكر في هذا المقام، لهو أبلغ آيات الشكر.

وموضوعنا في هذا اللقاء، يتعلق بنص جديد نادر في تاريخ الأندلس، أورده المؤرخ القرطبي أبو مروان بن حيان تحت عنوان : «خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة 330 هـ» وذلك في القطعة الخامسة من كتاب المقتبس التي نشرها شالميتا حديثا بمعاونة كل من كورينطي ومحمود صبح، في المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد، وكلية الآداب بالرباط سنة 1979 م.

يقول ابن حيان في هذا الخبر (المقتبس ص 481 ـ 482) :

«وفيها (أي سنة 330 هـ / 942 م) وافى كتاب الوزير القائد، محمد بن هاشم التجيبي، إلى الناصر لدين الله، يوم الخميس لعشرة بقين من شوال منها، ومعه كتاب أخيه أحمد بن يحيى بن هاشم، وكتاب موسى بن محمد بن الطويل، صاحب وشقة (Huesca)، وكتاب قاضي القضاة بالثغر، منذر بن سعيد، بما كان من خروج أمة عظيمة من الترك الذين خلف القسطنطينية على المسلمين بالثغر الأعلى من الأندلس، انحدروا من بلد الافرنج بغتة في خلق عظيم احتلوا على مدينة لاردة (Lerida)، قاصية الثغر الأعلى، فشنوا الغارات على حصون العرب، وأسروا يحيى بن محمد ابن الطويل صاحب بربشتر (Barbastro)، فعظم ذلك على الناصر لدين الله، واشتد غمه، وفزع الناس له، وعظم ارجافهم، فيسر الله تعالى أن وافى كتاب محمد بن هاشم، آخر نهار يوم الخميس المذكور، يذكر رجوعهم عن بلد الإسلام من ذاتهم قافلين، وان الله تعالى صرفهم عن المسلمين. فسكن حزن الناصر لدين الله لوقته، وسرى عنه، وزال الارجاف، وحمى الله عباده. فلما كان يوم الاثنين لست بقين من شوال، وافى كتاب موسى بن محمد بن الطويل، عامل مدينة وشقة، يذكر صحة رجوعهم عنه مدبرين، وانفذ مع كتابه بنبل وآلات من

أسلحتهم وأمتعتهم، أصيبت لهم، فصح خبر توليتهم عن الأندلس، وعظمت منة الله بكفايتهم وكان خروج هذه الأمة العاتية إلى ثغر الأندلس الأقصى من بلد الأفرنجة بعد قهرهم بن مروا به منهم (1)، واحتلالهم بباب مدينة لاردة قاصية الثغر الأعلى، يوم الخيس لعشر بقين من شوال منها، فانبسط أوائل خيولهم إلى وادينه، إلى سرطانية، وإلى مدينة وشقة، وأسروا يحي بن محمد ابن الطويل، صاحب مدينة بربشتر، يوم السبت ثالث احتلالهم، وكانوا في عدد عظيم وجملة كبيرة. عزتهم الأقوات، فلفظتهم البلاد، وكانوا على سبعة أمراء، يسمى أحدهم الأعظم شأنا منهم : طسله، ويليه احر، ولحودى ودسمان، ولس وعرود وحدحدى (2) فكان حصار هؤلاء الترك لمدينة لاردة ثمانية أيام، ومنع الله المسلمين منهم، وقاموا بحربهم على كثرتهم، فانصرفوا عنهم إلى عسكرهم يائسين. وضاقت على أعداء الله الأقوات، وعزتهم الاعلاف، فانقلبوا على وجوههم، وكفى الله شأنهم.

وذكر من يخبر أمرهم أن بلادهم بالشرق الأقصى، وأن البجناك (البشناق) (Patzinaks) منهم في الشرق (3)، مجاورين لهم، وإن أرض رومة منهم في القبلة (أي الجنوب وبلد القسطنطينية منهم منحرفا إلى الشرق قليلا، وفي الجوف (أى الشمال) منهم مدينة مراوة (مورافيا) وسائر بلاد الصقالبة، وفي الغرب منهم، الشاخشنس (السكسون) والافرنجة، وأنهم قطعوا إلى أرض الأندلس مسافة بعيدة بصحراء... الملوك عنهم، وأن طريقهم في مخرجهم هذا كان على لنبردية (لمبارديا في شمال ايطاليا)، وهي

---

1) أي بعد هزيمتهم أمام من مروا به من الفرنجة.

2) الأسماء غير واضحة في الأصل وقد نص الناشر على ذلك.

3) البجناك أو البشناق Pechenegs, Patzinaks قبائل في شرق المجر ومجاورة للحدود الشمالية للدولة البيزنطية وفي حلف معها ضد جيرانها الآخرين أمثال المجر والبلغار والروس.

تجــاورهم، بينهم وبينهـــا ثمـــانيـــة أيـــام، وأن مســـاكنهم على نهر طونة (4) (الدانوب) وأنهم بـادية كالعرب، لا مـدائن لهم ولا منـازل، وإنما يسكنون في خيام من لبود حللا متفرقة.

فلما كان يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلـة بقيت من ذي الحجـة منهـا، قدم رسول الوزير محمد بن هاشم، صاحب سرقسطة (5)، بخمسة رجـال من هـؤلاء الترك أسرى، متروكين على هيئتهم وزيهم، فتقـــــدم بهم إلى القصر المحدث بقرقريط (6) أسفل قرطبة، لأن الناصر لدين الله، كان مقيما يومئـذ فيه للنزهة، فوقعت عينه عليهم، ثم اسلموا، فسيرهم في جملة غلمانه.

ووافى الخبر من طرطوشـة (7) (Tortosa) القـاصيـة، بخبر افتكاك يحيى بن محمـد ابن الطـويـل من أيـدي هـؤلاء الأتراك غرة المحرم سنـــة احـــدى وثلاثين وثلاث مـائـة بعـدهـا بفـداء بـذل لهم فيـه، فسهل اللـه شـأنـه يوم الأربعاء لعشر خلون من ذي القعدة منها وتوجه إلى الحضرة لتجديـد العهـد بـالنـاصر لـدين اللـه، فكان دخولـه إلى قرطبـة يـوم السبت لست بقين من ربيع الآخر سنة احدى وثلاثين المـذكورة. وكان مقـامـه بـأيـدي الكفرة في أسرهم، ثلاثة وثلاثين يوما، فسر به الناصر لدين الله، وخلع عليـه ووصلـه، ووقف به من أخبار هؤلاء اللعناء على ما شفاه وسره.

---

4) الطونه أو الدانوب نهر في أوربا 2860 كم ينبع من ألمانيا ويجتاز المجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريـا ويصب في البحر الأسود ويصلح للملاحة.

5) سرقسطة Zaragoza قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين وتقع على نهر ابرو في شمال اسبانيا.

6) وتسمى أيضا منية بوقريط وهي قصر ريفي للنزهة في جنوب قرطبة.

7) طرطوشة مدينة في شمال شرق اسبانيا وينسب إليها العالم الأندلسي أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك.

ووروده أثر ذلك كتاب عبد الرحمن بن محمد بن النظام، عامل طرطوشة، بالفتح الذى جرى للفرنجة ومن تجمع اليهم من الألسنة المجاورين لهم على هؤلاء الترك المتطرقين لبلادهم، وعظم ما نالوه منهم وكفوه من عاديتهم، وأنه لم يدفع منهم إلى بلادهم إلا الشريد فكمل الله الصنع في كف عاديتهم».

«انتهى النص»

واضح من النص السابق أنه يتعلق بوصف غارة خطيرة قامت بها جموع هائلة من قبائل الترك المتوحشة على إقليم الثغر الأعلى سرقسطة في شمال الأندلس على عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله، وذلك في شهر شوال من سنة 330 هـ (942 م)، وأن هذه القبائل استطاعت أن تستولى على بعض مدن هذا الثغر، وأن تأسر حاكم مدينة بربشتر يحي بن محمد ابن الطويل. ولأسباب تتعلق بقلة الغذاء والعلف، انسحبت هذه القبائل من تلقاء نفسها بعد أن لقيت مقاومة شديدة من المسلمين، وكذلك من المسيحيين الاسبان في شمال شرق اسبانيا الذين تعرضوا أيضا لغارات هؤلاء الترك.

والواقع أنني حينما قرأت هذا النص، تعجبت منه كثيرا لأول وهلة، إذ كيف تسنى لهذه الجموع الكبيرة من قبائل الترك أن تأتى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وتغير على شمال اسبانيا دون أن يشير إليها أحد من مؤرخي المشرق والمغرب ! واعتقدت في بادىء الأمر أن الموضوع قد التبس على هذا المؤرخ الكبير ابن حيان من حيث أنه كان يقصد بالترك في روايته، شعوب المجوس أى أهل الشمال النورمانديين أو الفايكنج سكان شبه

جزيرة اسكنديناوة من السويد والنرويج والدانمراك الذين كانت غاراتهم هي السائدة في ذلك الوقت على سواحل انجلترا وفرنسا، وكذلك على سواحل المغرب والأندلس منذ عهد الأمير عبد الرحمن الثاني أو الأوسط في القرن الثالث الهجرى (9 م). وقد استطاع أحد زعمائهم واسمه رولون Rollon النورماندى أن يحصل من ملك فرنسا شارل الثالث (الساذج Le simple) على المقاطعة التي عرفت باسم نورمانديا (Normandie) في غرب فرنسا سنة 912 م (300 هـ) أي في أول عهد عبد الرحمن الناصر ولم يلبث هذا الزعيم النورماندى أن اعتنق المسيحية وتسمى باسم روبرت، ومن ثم صارت هذه الولايات النورماندية تشكل خطرا بحريا وبريا على الأندلس، وذلك عن طريق الحملات البحرية التي تخرج من موانيها، والحملات البرية التي تعبر جنوب فرنسا وتغير على الثغور الأندلسية الشمالية كما حدث في سنة 456 هـ (1064 م) عندما استولوا على القلعة الإسلامية بربشتر شمالي سرقسطة في عصر ملوك الطوائف. فهذه القرائن وأمثالها كانت تحمل على الاعتقاد بأن المغيرين على شمال اسبانيا في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر كانوا نورمانديين.

ومما زاد في التباس الأمر علي، أن المؤرخ الأندلسي أحمد العذرى (ت سنة 478 هـ / 1085 م) وهو مؤرخ ثقة ومعاصر لابن حيان، قد أشار في رواية مختصرة إلى نفس هذه الغارة التركية التي ذكرها ابن حيان على الثغر الأعلى، وفي نفس السنة 330 هـ، ونفس الأشخاص، ولكنه نسبها إلى المجوس وهي تسمية مرادفة للنورمانديين في المصادر الأندلسية، إذ يقول في هذا الصدد :

«وسجل أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ليحي بن محمد بن عبد الملك (بن الطويل) على بربشتر والقصر في سنة 330 هـ (942 م)، فكان بها إلى أن أسره المجسوس الذين خرجوا إلى ثغر لاردة وسرقسطة، في يوم السبت (8) لثمان مضين من شوال من العام المؤرخ (330 هـ)، ففداه رجل من التجار بألف مثقال. وقدم يحي إلى سدة أمير المؤمنين عبد الرحمن، فأمر للذى فداه بتضعيف ما أداه فيه، وصرفه إلى بربشتر، فدخلها سنة 331 هـ (9) هذا النص السابق يبين أن العذري لم يفرق بين أقوام المتبربرين الذين أغاروا على شمال الأندلس، فاعتبرهم كلهم مجوسا، فساد الاعتقاد بأنهم جميعا نورمانديون.

وهنا تظهر لنا دقة ابن حيان في وصف الأحداث، واهتمامه بالتفاصيل الدقيقة التي أعطت روايته جدة وقيمة علمية. وذلك لأنه ميز في كتاباته بين تلك الأقوام : فهناك المجوس أو النورمانديون الذين أفرد لهم كلاما كثيرا في كتبه (10)، وهناك الترك الذين خصهم بهذه الرواية الخاصة التي ذكرناها آنفا والتي أشار فيها إلى مواطنهم ومنازلهم وخيامهم وأسلحتهم وأسماء بعض قادتهم.

وأمام هذه الحقيقة الواضحة، وهذه الثقة الكبيرة التي يحتلها ابن حيان في نفوسنا كمؤرخ صادق أمين كرس حياته وجهده في كتابة تاريخ مفصل لوطنه الأندلس دون غيره، رأينا أنه من واجبنا أن نتتبع صدق

---

8) نلاحظ أن هناك اختلافا في تحديد الأيام بين العذرى وابن حيان.

9) العذرى (أحمد بن عمر المعروف بابن الدلائى) : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك ص 72، نشر عبد العزيز الأهواني (مدريد 1965 م).

10) راجع على سبيل المثال القطعة الرابعة من كتاب المقتبس نشر عبد الرحمن حجي.

رواية ابن حيان عن الترك في المصادر الأوروبية ولا سيا مصادر الامبراطورية البيزنطية التي جاءت هذه القبائل التركية الأسيوية الأصل عبر أراضيها نحو الغرب. وقد خرجنا من هذا كله بعد البحث والتقصي بنتيجة هامة وهي أن رواية ابن حيان عن هذه القبائل التركية تعتبر رواية جديدة لا في التاريخ الأندلسي فحسب بل في التاريخ الأوربي أيضا. وتفصيل ذلك أن المراد بالقبائل التركية هنا، حسبما ورد في المصادر البيزنطية هي قبائل المجريين أو الهنغاريين **Magyars or Hungarians** الذين أطلقت عليهم تلك المصادر اسم الترك أو الترك الغربيين، تمييزا لهم عن الترك الشرقيين، بينما أطلقتهم عليهم المصادر الأوربية اسم الأقار **Avars**. وعلى الرغم من اختلاف الآراء حول أصل هؤلاء المجريين أو الهنغاريين أو الأقار، إلا أن الغالبية تجعلهم من أصل تركي اسيوي رعوى (11).

وأول ظهور هذه القبائل التركية المجرية على مسرح الأحداث في الامبراطورية البيزنطية، كان في أواخر القرن التاسع الميلادي (3 هـ) عندما استعان بهم الامبراطور البيزنطي ليو السادس ضد ملك بلغاريا سميون بن بوريس Simeon الذي انتهز فرصة انشغال الجيوش البيزنطية في محاربة

---

(11) يرى البعض أن المجريين أو الهنغاريين ينتمون إلى الفصيلة اللغوية الفينية الأجرية **FINNO–Ugrian** وأنهم هاجروا من الاورال إلى القوقاز حيث اختلطوا بالأتراك هناك.

راجع (1453 ـ 324).

A.A Vasilieu: History of the Byzantine Empire p. 316 Note 42 (Madison 1952)

The Cambridge Medieval History, Vol IV p. 194 – 195.

Bury: History of the Eastern Roman Empire III p. 492

وأود بهذه المناسبة أن أشكر كلا من الزميلين د. عمر كال توفيق، ود. سعيد عاشور، على ما قدماه لي من كتب في تاريخ أوربا في العصر الوسيط.

المسلمين في آسيا الصغرى، واخترق بجيوشه الحدود البيزنطية محاولا تحقيق أحلامه التوسعية في شبه جزيرية البلقان. فما كان من هذه القبائل المجرية المتوحشة إلا أن استجابت لنداء الإمبراطور البيزنطي، وانقضت من الشمال على الأراضي البلغارية مما اضطر ملكهم سميون إلى الإنسحاب من الحدود البيزنطية.

كان لهذا الحادث أهمية كبيرة في تاريخ أوربا من حيث أنه يمثل ظهور قوة جديدة لأول مرة على مسرح العلاقات الدولية الأوربية، وهي قوة المجريين أو الهنغاريين الذين اضطروا تحت ضغط جيرانهم البجناك أو البشناق Patzinaks والبلغار، إلى الإرتحال غربا والإستقرار في المنطقة التي نسبت إليهم وعرفت باسم هنغاريا أو المجر في أواسط حوض وادي الدانوب أو الطونة (12).

ولقد أعطانا ابن حيان وصفا دقيقا للحدود الجغرافية لموطن المجريين عند قوله بأن مساكنهم على نهر الطونه، وأن قبائل البجناك كانت تجاورهم من الشرق، وأن أرض روما كانت تقع منهم في الجنوب، بينما تقع القسطنطينية منهم منحرفة إلى الشرق قليلا، وفي الشمال منهم مورافيا والصقالبة وفي الغرب منهم الساكسون والافرنجة (13).

ومنذ مطلع القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجرى) الذي يعتبر عصرا ذهبيا للدولة البيزنطية، نجد أن المجريين يواجهون ضغوطا من جانب جيرانهم البلغار في الجنوب الذين كانت لهم أطماع في شبه جزيرة البلقان.

---

12) Vasiliev : op. cit; P. 316.

13) راجع النص السالف الذكر.

وكذلك من جانب جيرانهم البجناك في الشرق الذين أولتهم الدولة البيزنطية عناية خاصة ليكونوا درعا واقيا لحدودها ضد غارات البلغار والمجريين والروس. ولهذا أقام أباطرة الروم مع البجناك علاقة سلمية كما منحوهم تسهيلات اقتصادية، واعتبروهم وسطاء تجاريين في المقاطعات البيزنطية في القرم، ومع الروس والخزر وغيرهم (14).

وأمام هذه الضغوط الشرقية والجنوبية، كان على المجريين أن يتجهوا في تحركاتهم لتوسيع ممتلكاتهم نحو الغرب بصفة عامة. وقد اشتهر المجريون بفروسيتهم وبراعتهم في الحروب الخاطفة التي شنوها على خصومهم.

وهنا تزخر المصادر الأوربية بأخبار غارات هؤلاء الأتراك المجريين على سهول لمبارديا في شمال إيطاليا، وعلى سواحل دالماسيا والبحر الادرياتي) (15).

هذا إلى جانب حملاتهم المتكررة على الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الرومانية مثل مورافيا وألمانيا وسكسونيا وغيرها. مما أضطر ملوكها الألمان إلى طلب الهدنة من المجريين ودفع الجزية لهم.

على أنه يبدو أن التغلغل المجرى في الأراضي الألمانية، لم يلبث أن ضعف شأنه بعد أن أنزل ملك ألمانيا هنرى الأول (الصياد) بالمجريين هزيمة كبيرة قرب مرسبرج سنة 933 م (16).

---

14) Vasiliev : op. cit. P. 324.

15) Vasiliev : op. cit. P. 414.

16) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج 1 ص 280 ـ 286. وكذلك :
Cambridge Medieval History, Vol. 3 P. 67 – 69.

وهنا يبدو بوضوح أن المجريين الأتراك بعد هذه الهزيمة انحدروا جنوبا، وتطرقوا إلى بلاد الأفرنجة ثم إلى شمال اسبانيا، بدليل ما أورده ابن حيان في النص السالف الذكر من أن هجومهم على الثغر الأعلى في الأندلس سنة 330 هـ (942 م) كان «مخرجه من سهول لمبارديا ثم إلى بلاد الأفرنج التي انحدروا منها بغتة وفي خلق عظيم على بلاد المسلمين في الثغر الأعلى» بعد قهرهم بمن مروا بهم من الأفرنجة أي بعد هزيمتهم أمام من مروا به الفرنجة.

وعلى الرغم من أنني ما زلت أواصل البحث على نص مماثل في المصادر الأوربية أو الإسلامية، يؤيد كلام ابن حيان في وصف غارات المجريين الأتراك على شمال اسبانيا إلى أن ما أثبتناه عن صدق روايته فيما يتعلق بأصلهم وجنسهم وتحديد مواطنهم واتجاه غاراتهم وانتصاراتهم وهزائمهم، يكفي تماما للدلالة على أن رواية ابن حيان عن الترك تعتبر إضافة جديدة في التاريخ الإسلامي والمسيحي على حد سواء.

د. أحمد مختار العبادى

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر من خلال المقتبس لابن حيان

(ملخص الدراسة)

د. الحبيب الجنحاني
كلية الآداب / الجامعة التونسية

أود أن أبدى في مطلع هذا الملخص الملاحظات التالية :

أولا - إن التاريخ الإقتصادي والإجتماعي الأندلسي قد حظي بعناية كبيرة، ولا سيما في عهد الدولة الأموية، ولكن بالرغم من هذه العناية فما تزال كثير من جوانبه يعتريها الغموض. وما تزال هنالك ثغرات هي في حاجة ملحة إلى المزيد من التمحيص، وإلقاء الأضواء.

ثانيا - إن نشر نصوص أندلسية جديدة مثل المقتبس يمكن الدارسين من سد بعض الثغرات، ومحاولة تدارك النقص وخاصة في مجال التاريخ الإقتصادي والإجتماعي وهو مجال ما تزال العناية به بين الباحثين العرب محدودة وما يزال طابع التاريخ السياسي والعسكري، أو الفكري طاغيا على برامجنا، وأبحاثنا.

ومن هذه النصوص الجديدة الجزء الخامس من المقتبس الذى نشره المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد بالتعاون مع كلية الآداب بالرباط سنة 1979، وهي القطعة التي يؤرخ فيها ابن حيان لثلاثين سنة من خلافة عبد الرحمن الناصر (301 ـ 330 هـ).

ثالثا ـ إن ابن حيان يسهب الحديث في هذا الجزء عن الأحداث السياسية والعسكرية التي عرفها عهد عبد الرحمن الناصر وهو عهد حافل بالأحداث وتطوراتها في مجالي السياسة الداخلية الأندلسية والسياسة الدولية.

وليس من المبالغة في شيء إذا أكدنا هنا على أن عبد الرحمن الناصر هو الخليفة الأموى الأول الذي أضفى على سياسة الأندلس الدولية بعدا جديدا سواء كان ذلك في اتجاه بلاد المغرب، ودخوله في صراع طويل ومتنوع مع الفاطميين (1)، أو في اتجاه منطقة البحر الأبيض المتوسط ولكن بالرغم من عناية المؤرخ القرطبي بأحداث عصره السياسية والعسكرية، فإنه يخبرنا بمعلومات اقتصادية واجتماعية ذات شأن تسمح ـ دون ريب ـ بمزيد التعرف إلى نقاط كانت غامضة وخاصة إذا قارنا هذه المعلومات بما ورد في مصادر أخرى، ونعني بالخصوص تلك المصادر التي تولي الجوانب الإقتصادية عناية خاصة مثل كتب الجغرافيين العرب.

ولا نغفل عن الإشارة هنا إلى أن ابن حيان قد نقل لنا نصوصا طويلة عن مؤرخ أندلسي معاصر لعهد عبد الرحمن الناصر هو أحمد بن محمد

---

1) راجع دراستنا عن الخلفية الإقتصادية للصراع الفاطمي ـ الأموي في بلاد المغرب ضمن كتابنا «دراسات مغربية»، دار الطليعة، بيروت 1980.

الرازي (274 ـ 344 هـ) (2)، وقد ذكرها باعتبارها رواية أخرى للحدث الذي يؤرخ له (3).

رابعا ـ إن هذه المعلومات المشتتة هنا وهناك لم يقصد ابن حيان إعلامنا بها في حد ذاتها، بل ذكرها ـ غالبا ـ لارتباطها بأحداث أخرى إلا ما يتصل منها بطابع عام يهم المجتمع كله مثل سنوات المحل والمجاعة، أو قضية ضرب العملة وحمايتها من الغش والتدليس.

إن هذه الملاحظات توضح أن معالجتنا لهذا الموضوع يكتسي أولا وبالذات صبغة منهجية انطلاقا من نص معين يقرأه كل واحد منا من وجهة نظر معينة، وحسب طريقة محددة عن وعي أو عن غير وعي.

فما هي يا ترى أبرز المعلومات الإقتصادية والإجتماعية التي يقدمها لنا ابن حيان في المقتبس عن الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر ؟

لنبدأ بملكية الأرض، والأهمية التي احتلها الإقطاع في نظام الملكية، فهناك الأراضي الخاصة التي يملكها كبار الفلاحين القاطنين عادة بالمدن، والذين ينتسبون إلى الفئات الإجتماعية الثرية، أو التي يملكها صغار الفلاحين بالمناطق الريفية (4)، ولكن يبدو من المقتبس أن هنالك أراضي شاسعة خصبة هي تحت تصرف الخليفة، ويقطعها لمن يشاء، ومتى شاء.

---

2) راجع عنه :

حسين مؤنس تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، 1967. ص [illegible] وما بعدها.

3) أنظر مثلا صفحات : 16، 24، 30، 52، 53، 69، 85، 93.

4) إننا لا نملك معلومات عن الأراضي المشاعة بين القبائل العربية، أو البربرية النازحة إلى الأندلس. كيف كانت ملكيتها، وكيف كانت تستغل ؟

وهذا الإقطاع صنفان، صنف يمكن أن نطلق عليه اقطاعا مدنيا، فلما وفد مثلا أبو علي القالي على عبد الرحمن الناصر في قرطبة سنة 330 للهجرة «أوسع عليه في الانزال والإقطاع» (5)، أو ما كان يقطعه الخليفة لأفراد الأسرة الحاكمة، يحدثنا ابن حيان عن أعمال البر لأم الحكم مرجان قائلا :

«ومن أشهر آثارها كان المسجد الأكبر المنسوب إلى السيدة بالربض الغربي الذى عض الخراب اليوم عليه، وقد كان أوسع مساجد قرطبة بناء، وأحسنها عمارة يتكفل بمصالحه وأحواضه وسدنته، وغاشي وفوده عليه وقفها الجليل الذى وقفته عليه، وعلى غيره من مساجدها من أحقالها العظيمة القدر الوافية الغلة بطرف قرطبة الغربي، مستمر الإنفاق عليه، وعلى غيره من وافي غلتها مر السنين...» (6).

إن هذه الحقول العظيمة التي أصبحت تملكها مرجان، وقد أصبحت أم ولد بعد ولادة ولي العهد الحكم، هي - في رأينا - منجرة عن طريق هذا النوع من الإقطاع.

أما الصنف الثاني فهو إقطاع عسكري، أو يكاد (7)، فلما فتح بدر ابن أحمد حاجب الناصر لدين الله سنة 300 هـ مدينة أستجة صفح الخليفة عن اجرام أهلها، واغتفر ما سلف من سيئاتهم، «وأوسعهم طولا وإحسانا،

---

5) ص 480.

6) ص 13 وما يليها.

7) إن ما يقال عادة ان الإقطاع العسكري قد بدأ مع البويهيين في المشرق، والمرابطين في المغرب يحتاج إلى إعادة النظر، ان الإقطاع ذا الطابع العسكري قد بدأ قبل هذه الحقبة بكثير.

والحق فرسانهم وحماتهم جملة الجند بالأرزاق الواسعة والقطائع الفاضلة على أهليهم وعيالاتهم» (8)، وكتب الناصر لدين الله في رسالة إلى موسى بن أبي العافية سنة 319 هـ قائلا :

«...فكل ما توسعت فيه، وفتح الله عليك به، كان لك ولولدك ولعقبك إقطاعا من أمير المؤمنين لك، وتوسعا عليك، ومكافأة لحبتك...» (9).

إنه من الواضح أن هذا الإقطاع قد أسند مقابل الدور العسكري الذي قام به موسى بن أبي العافية في مقاومة النفود الفاطمي والوقوف أمام السياسة التوسعية للفاطميين في منطقة المغرب الأقصى بصفة خاصة. وحين يحاول الدارس التعرف إلى الوضع الزراعي في عهد الناصر من خلال المقتبس فإنه لا يكاد يعثر على شيء يذكر ما عدا تلك الإشارات إلى عمليات نسف المزارع، وتخريب العمارة التي يقوم بها جيش الخلافة في محاصرته للحصون والقلاع، أو إشارة عابرة إلى أن مدينة طليطلة قد حبيت بالتوحد بمنابت الزعفران.

ولكن اهتمام ابن حيان بالزراعة في الأندلس يصبح واضحا وقويا حين تصاب الزراعة بظاهرة عامة تمس حياة جميع الناس، ويرقى الحدث في حياة المجتمع إلى مستوى الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية في الأندلس، أو عن وحدتها ضد المنتزين والثائرين، وهذه الظاهرة الطبيعية هي سنوات القحط والمجاعة، يقول عن سنة 302 هـ :

---

8) ص 55.

9) ص 312.

«وفيهـا أمحـل النــاس وتـوالى عليهم القحــط، وعم بــلادهم... وغلت الأسعار، وقل ظهور الحنطة في الأسواق... واعتدى القحط شـاملا للأنـدلس كلها وثغورها فغلت الأسعار في جميع جهاتهـا» (10)، وقـد كتب عن مجاعة سنة 303 هـ يقول :

«فيها كانت المجاعة بالأندلس التي شبهت بمجاعـة سنـة ستين، فـاشتـد الغلاء وبلغت الحاجة والفاقة بـالنـاس مبلغـا لم يكن لهم عهـد بمثلهـا، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنـانير.. ووقع الوبـاء في النـاس فكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة حتى عجز عن دفنهم، وكثرت صدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمـة على المسـاكين، وأهل الفـاقـة، وعلى المتعففين عن المسألة، وصدقات أهل الحسبة من رجاله المؤتسين به فنفع الله بهم كثيرا من خلقه...» (11).

ويصف قحط سنة 317 هـ قائلا :

«وفيها أمحل الناس، واحتبس الغيث، ونـال ضرر ذلـك الزرع، وغلت الأسعار، وكلح الزمان...» (12).

فقد كانت سنوات المحل دورية (13)، وكان تأثيرهـا واضحـا في حيـاة الناس والمجتمع، ومن هنا جاء اهتمام ابن حيان بها باعتبارها تمثل حدثا بارزا

10) ص 103 ـ 104.

11) ص 109 ـ 110، أنظر ص 124.

12) ص 250.

13) أنظر : ص 383، ص 476 وما بعدها.

لا يقل أهمية عن تلك الأحداث الكبرى التي كان يتفاعل معها، ويقف منها موقف المؤرخ الملتزم بقضايا عصره وليس مجرد ناقل للأحداث أو مسجل لها.



إن للنظام الجبائي في حياة الدولة الإسلامية شأنا خطيرا، واتصالا متينا بالسياسة فلا غرابة ـ إذن ـ أن نجد ابن حيان يولي هذا الموضوع بعض الإهتمام، فيمدنا بمعلومات قيمة عن الجباية في عهد عبد الرحمن الناصر مع الملاحظة أن معلوماتنا عن النظام الجبائي في الأندلس غير دقيقة.

أشار إلى الجباية أولا في حديثه عن بعض شروط الصلح، فلما قرر الناصر لدين الله إبقاء بعض المخالفين على ولايتهم القديمة بعد طاعتهم، ودخولهم تحت حكمه فإنه قد فرض الالتزام بادرار الجباية الوافرة، وتحديد مبلغ مقرر يؤدى لميقاته في كل عام لحضرته (14).

ومن شروط الصلح مع محمد بن هاشم التجيبي المنتزى على سرقسطة (سنة 326 هـ) «أن يورد جباية بلده بمحلها، ولا يحتسبها عن أمدها...» (15).

ويذكر ابن حيان أن مركز الخلافة يرسل الجيوش لجمع الجباية عند الإمتناع عن أدائها (16).

---

14) راجع ص 249.

15) ص 406 وما يليها.

16) ص 486.

ولا مناص من ذكر اشارتين ثمينتين ذكرهما ابن حيان حول النظام الجبائي في الأندلس خلال عصر عبد الرحمن الناصر.

الإشارة الأولى تتصل بمعارضة السكان لجميع أنواع المكوس التي تتجاوز ما جاء به الكتاب والسنة، فقد روى عن أحمد بن محمد الرازى عن شيخ من أهل طليطلة عن فتح هذه المدينة فقال :

«... وكتب لنا (يعني السلطان)، على فرط اضطرارنا، بكل ما أردناه واشترطناه من الحرية عن الوظائف والاعفاء عن النوائب، ومن شكوس القيالات ومعرة الإنزال في الدور، وأن لا يؤخذ منا غير الزكاة المفروضة على السنة المعلومة...» (17).

أما الإشارة الثانية فهي تبين في جلاء إلى إرهاق السلطة لكاهل السكان بأنواع من المكوس غير الشرعية، فقال في روايته عن ابن مسعود في الأنيق حول فتح الناصر لمدينة سبتة سنة 319 هـ متحدثا عن وفود عدوة المغرب :

«... فهوى إليه، وإلى ولده من بعده خلق من ملوكهم وفرسانهم اتسع للناصر لدين حياته نطاق الإنفاق عليهم، إلى غليظ انفاقه في فروض أندلسه، الذي لا يسعه فبذل المال بذلا، وكد الرعايا كدا، وحمل قوته ثقلا لا كفاء له، أقل على مر السنين ادخاره للمال...» (18).

---

17) ص 322.

18) ص 299.

ويعلمنا بخطورة خطة الجباية بين خطط الخلافة حيث أننا نجد الناصر لدين الله يولي سنة 329 هـ ابنه الأكبر، وولي عهده أمر الجباية، والخزانة، والخزان ؟، ودار الضرب وغلاتها (19).

يخصص ابن حيان بين الأحداث البارزة لسنة 316 هـ فقرة للخبر عن اتخاذ دار الضرب فيقول :

«وفيها أمر الناصر لدين الله باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم فاتخذت هناك على رسمه، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير يوم الثلاثاء لثلاثة عشرة بقيت من شهر رمضان منها، فقام الضرب فيها من لدن هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة وصحح في ذلك ابن حدير، وأجاد الإحتراس من أهل الدلسة فأضحت دنانيره ودراهمه عيارا محضا.

وقال أحمد بن محمد الرازي : فيها اتخذ الناصر لدين الله دار السكة لعياره، وقد كان الضرب للنقد معطلا قبله بدهر، فعظمت منه منفعة الناس، واكتملت خصال دولته...» (20).

ونلاحظ في هذا الصدد أن هذه السياسة النقدية الجديدة التي اتخذها عبد الرحمن الناصر تأتي بعد القضاء على إمارة ابن حفصون، وبعد التلقب بأمير المؤمنين، وبداية سياسته الدولية، ولا سيما في اتجاه بلاد المغرب واتجاه العالم الإسلامي عامة (21).

---

19) ص 469.

20) ص 243.

21) نذكر هنا بأن عبد الرحمن الناصر كان في مراسلاته مع أمراء المغرب المنضوين تحت لواء قرطبة يشير في وضوح إلى أهدافه في حكم العالم الإسلامي كله، راجع في هذا الصدد : ص 255، وكتاب الناصر إلى محمد بن خزر الزناتي ص 305 وما بعدها، ص 371.

إن السياسة المالية دعامة أساسية من دعائم الدولة لا تقل شأنا عن تعبئة الجيوش ضد نصارى الشمال، أو مقاومة الثائرين، فلا غرابة أن نجد الناصر لدين الله يباشر موضوع السكة بنفسه، ويشتد في عقاب كل من يحاول التلاعب بالعملة ويدرك ابن حيان هذه الأهمية فيتحدث عن ذلك بدقة الواعي بقيمة العملة في حياة الدولة والجماعة (22)، إن أسواق الأندلس عامة، وأسواق عاصمة الخلافة قرطبة خاصة، كانت تمثل قلب الدورة الإقتصادية الأندلسية ولكن ابن حيان لا يعيرها اهتماما يذكر إلا إذا حدث بها حريق مثلا (23).



أما المتتبع لمظاهر الحياة الإجتماعية في عهد عبد الرحمن الناصر من خلال النص المقتبس فإنه يجد صعوبة كبيرة في جمع معلومات دقيقة عن هذا الجانب المهم من حياة المجتمع الأندلسي، ولا مناص له من جمع إشارات مبعثرة هنا وهناك تؤلف في النهاية رصيدا يساعد بالمقارنة مع المصادر الأخرى من التعرف إلى جوانب ذات شأن من الحياة الإجتماعية ولعل أبرز ما أشار إليه المؤرخ القرطبي في هذا الصدد ما يتعلق بالفئات الإجتماعية، ونجد في طليعتها فئة الأسرة الحاكمة، وقد تحدث عن مظاهر الأبهة والثروة في حياة هذه الفئة، فقد ابتاعت مرجان أم الحكم ليلة من القرشية زوجة الناصر لدين الله الحرة بعشرة آلاف دينار (24)، وتحدث عن النفقات

22) أنظر : ص 486 وما يليها.

23) راجع : ص 142، 383، 478.

24) راجع : ص 11 ـ 12.

الباهضة على أولاد الناصر حين يدركون سن الرشد فتبنى لهم القصور لينتقلوا إليها، وتوزع عليهم القطائع، والجوارى والخدم (25)، ثم نجد فئة رجال الدولة، وأصحاب الخطط الإدارية والعسكرية (26)، وفئة الخصيان الصقالبة، وقد كانوا يقومون بمهمة الحرس الخاص للناصر إلى جانب فئة الرقيق. ولا نغفل هنا عن الإشارة إلى الدور الخطير الذي لعبته فئة الفقهاء في المجتمع الأندلسي، ولا سيما في قرطبة، يتحدث ابن حيان عن وفد الناصر لدين الله إلى سكان طليطلة المخالفة فيقول :

«... فقدم إليهم في المحرم فاتحة هذه السنة (313 هـ) وفدا من وجوه أهل قرطبة حضرته، تنخلهم من أعالي طبقتي رجاله، أهل خدمة، وفقهاء قرطبة المشهورين بالديانة، والثقة والنصح والأمانة» (27).

إن جميع هذه الفئات المشار إليها تنتسب إلى ما يعرف بطبقة الخاصة، أما طبقة العامة فهي تضم فئات اجتماعية مختلفة مثل فئة أهل المهن المختلفة، وفئة التجار الصغار في الأسواق، وفئة الفلاحين الصغار، وفئة الرعاع أو الدهماء كما تسمى في المصادر القديمة، وقد عرفت المدن الأندلسية الكبرى أيام الدولة الأموية تطورا ديمغرافيا كبيرا، شأنها في ذلك شأن المدن في بلاد المغرب أو المشرق في مرحلة النشاط الإقتصادي الذي عرفه

---

25) ص 14 ـ 15.

26) نذكر من هذه الخطط : خطة الوزارة، وخطة الحجابة، وخطة صاحب المدينة، وخطة ولاية السوق، وخطة الشرطة العليا، والوسطى، والصغرى، وصاحب خزانة المال، وخطة الكتابة العليا، وصاحب خزانة السلاح وصاحب الخيل وخطة الرد، وخطة دار الضرب، وخطة قاضي الجماعة، وصاحب المظالم، وغيرها من الخطط الأخرى المعروفة في النظم الإسلامية، أو التي أحدثها عبد الرحمن الناصر.

27) ص 280.

المجتمع العربي الإسلامي في العصر الوسيطي، وعرفت بالخصوص ظاهرة النزوح من الريف، أو من مناطق الصراع العسكرى الذي طال أمده في جهات عديدة من الأندلس خلال خلافة عبد الرحمن الناصر، وقد كانت تمثل هذه الفئة الإجتماعية الدعامة الأساسية لحركات المعارضة، وركيزة للانتفاضات الشعبية ذات المحتوى الاجتماعي، وإن اتخذت ـ في أغلب الأحايين ـ صبغة دينية مثل حركة الفرقة المسرية التي تزعمها محمد بن عبد الله بن مسرة (269 ـ 319 هـ)، واستمرت بعده أعواما عديدة (28).

وقد ناصرت هذه الحركات الفئات الإجتماعية الشعبية المنضوية ضمن مفهوم طبقة العامة، ويسمى ابن حيان هذه الفئات «طبقات الناس من أهل المسكنة» (29)، ونجد السلطة تحاول في كثير من الأحيان كسب تأييد هذه الفئات باتخاذ اجراءات لفائدتها فلما دخل جيش الناصر مستوليا على اشبيلية سنة 301 هـ كان الهاتف «معلنا بأمان الناس جميعا، وبسط العدل لهم، وارتجاع كل مغضوب منهم ومظلوم لما اغتصب وظلم فيه، فسر الناس جميعا، وسكنت نفوسهم، وأقبلوا على شأنهم» (30).

إن هذه اللمحات عن الحياة الإقتصادية والإجتماعية في المجتمع الأندلسي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري تؤكد دقة منهجية ابن حيان في كتابته للتاريخ ونظريته الشمولية، فهو بالرغم من إيمانه بمبادىء أساسية

---

28) إننا نعتقد أن هذه الحركة ذات المحتوى الإجتماعي تتجاوز بكثير الخلاف المذهبي الذى تتحدث عنه المصادر القديمة، فهي ـ في نظرنا ـ انتفاضة دينية ـ اجتماعية قمينة بالدرس والبحث من وجهة النظر هذه.

راجع عنها ابن حيان : ص 30 وما بعدها، ص 25، ص 33.

29) ص 321.

30) ص 79.

مثل الحفاظ على وحدة الجماعة الإسلامية، والدفاع عن هذه الوحدة في الأندلس ضد المخالفين والمعارضين داخل المجتمع الإسلامي الأندلسي، أو ضد الممالك النصرانية في الشمال في نفس الوقت، وهي المبادىء التي جعلته ينكب أولا وبالذات على الأحداث السياسية والعسكرية للحقبة التي يؤرخ لها فإنه قد قدم لنا معلومات ثمينة ودقيقة، عن الحياة الإقتصادية والإجتماعية في المجتمع الأندلسي أثناء عهد عبد الرحمن الناصر.

د. الحبيب الجنحاني

نظم وإدارة بني أمية بالأندلس من خلال "المقتبس" لابن حيان

د. التهامي الراجي الهاشمي
معهد الدراسات والابحاث للتعريب / الرباط

القسم الأول :

1 ـ تظهر عظمة الدولة أول ما تظهر في دقة النظام الذي تسير عليه، نظام تضعه هي، تدريجيا حسب نموها ليسعد به أفرادها، ثم توليه عنايتها فتطوره على مر العصور لتقوى به فتأمن وتسعد.

ولا يمكن أن يكون النظام ثابتا، قارا إلا إذا كان محترما من الجميع في كل وقت وحين، وكيف ما كانت الظروف، مطبقا على الكل في جميع الأحوال وأيا كانت الملابسات، معززا تعزيزا قويا من طرف إدارة مستقيمة، حازمة ونشيطة. والنظام الذي ينتج النتاج المنتظر منه مرعى من الجميع على حد سواء، القوى والضعيف، الرئيس والمرؤوس، السيد والمسود، الشريف

والوضيع، لا فرق بين أحد منهم، كل يعمل لتثبيته وتقويته وتطويره بنية وصدق لأنهم جميعهم يعلمون علم اليقين ألا حياة شريفة ولا عيشا سعيدا إلا في ظل نظام متين ثابت تؤطره وظائف قوية مشهود لها بالكفاءة والأمانة وحسن السلوك.

2 ـ ولقد كان أبو مروان ابن حيان القرطبي (1)، شيخ الأدب ومؤرخ الأندلس (2)، المحقق ذو الأسلوب القوي الجميل، يعرف، قبل غيره، أن العناصر المكونة لسكان دولة بني أمية في الأندلس كانت، في ذلك العصر شديدة التباين، كما أنه كان يدرك أكثر من غيره ولا شك أن مثل هذا الخليط من الجماعات العرقية التي كانت تسكن في الأندلس، المتباينة في الأصل والمبتغيات والديانات المختلفة، قد دفع بالخلفاء الأمويين إلى البحث الجاد عن وحدة تجمع هذه الفرق ذات المشارب المتعارضة، وحدة اعتمدت طبعا على القوة أولا، ولكن أيضا على بنية قوية مستمدة مثالها من بنية الخلافة الشرقية ومن الفرس وبيزنطة، آخذة في الإعتبار طابع التلفيق الذي تميز به مختلف الطبقات الإجتماعية التي كان من الواجب الإحتفاظ بها تحت الطاعة (3).

---

1) (377 هـ ـ 469 هـ) موافق (987 م ـ 1076 م).

2) الصفدي، الوافي بالوفيات.

3) أنظر L'Espagne musulmane [illegible] Xè siècle – Lèvi Provençal
Larose, Paris, 1932 – 39

3 ـ اهتمام ابن حيان بالمراتب :

لا غرابة في أن يهتم ابن حيان الذي انتظم في سلك وظائف الدولة «فشغل وظيفة صاحب الشرطة» (4) أو صاحب المدينة في قرطبة زمنا (5) بوظائف الدولة الأموية في الأندلس. فهو لهذا لا يترك فرصة تمر دون أن يؤكد على الدال «مراتب» واضعا بذلك كل وظيفة في مكانها الدقيق الذي لا تتعداه إلا لأسباب قاهرة قد نتعرض لبعضها كنموذج.

إنه لا يمل من ذكر «الرتبة» وما اشتق منها كلما ائتلف جمع رسمي أمام مسؤول في الدولة كبير. قال : (6) «وولي بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله، نهاية بيوت الشرف بقرطبة على ممر الدهر المغرب شأوه في نظم قلادة خمسة ككعوب الرمع أنبوبا على أنبوب هم ماهم، تناقلوا الوزارة والكتابة ما بينه وبين خامسهم عبيد الله، خولهم الله الرئاسة على تعاقب الأزمان واختلاف الأعصار، فلم تنقلها الفتنة إلى أن ورثها تربها هذا الوالي الفاضل أبو الوليد، ولما يعرف البؤس يوما، فأعانه ذلك على الحسب والمروءة، وأقر لوقته الحكام وأولى المراتب (7).

يقول عن «المراتب» (8) : «وعم الإنذار طبقات الاجناد والأولياء بالإستعداد للركوب لتلقي الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن والإقبال بين

---

4) Historia de la literatura Arabigo – Española

5) ابن بشكوال، الصلة، صفحة 154، وابن بسام، الدخيرة، المجلد الثاني من القسم الأول، صفحة 84، وكذا ابن بسام، الدخيرة، المجلد الثاني من القسم الأول، صفحة 84، وكذا ابن الابار، صفحة 353.

6) لسان الدين بن الخطيب كتاب أعمال الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق Lévi–Provençal طبعة دار المشرق بيروت 1956، صفحة 148.

7) أنظر كذلك هذا الخبر في دخيرة ابن بسام، الجزء الثاني، الصفحتين 117 و118.

8) المقتبس، القسم الذي حققه الأستاذ عبد الرحمان على الحجي، طبعة بيروت سنة 1965، سأشير إليه في تعاليقي القادمة بـ (المقتبس الحجي).

يديه، وتجويز الجند بالإنذار إلى بياض الرعية من أهل كور الأندلس للإقبال إلى قرطبة لحضوره، فاستبقوا إلى ذلك وتكفل أصحاب الحشم القيام بما عليهم من استركاب الاجناد **وإقامة مراتبهم**».

وهو يصف «الترتيب» بـ «التام» و«التعبئة» بـ «الكمال» مما يجعلنا نعتقد أنه كان يحب أن تكون أمور الدولة بهذا «التام» و«الكمال» فكان يسعد، ولا شك، بسعادتها ويحزن لحزنها. قال واصفا «الترتيب» و«التعبئة» (9) : «وتقدم جميعهم في موكبه إلى أن وصل إلى قنطرة قرطبة وقد قام بها الترتيب التام والتعبئة الكاملة من الرجالة على صفين بأيديهم الترسة والرماح، وانتظم ترتيبهم إلى باب القصر».

إن ميل ابن حيان إلى وصف دقة شؤون الإدارة هو الذي يحبب له تكرار مثل العبارة السابقة «قام الترتيب». يعيد هذه الجملة وهو بصدد الحديث عن عيد الفطر لسنة أربع وستين وثلاثمائة (10) فيقول : «وفي يوم الاثنين غرة شوال الذي هو يوم عيد الفطر **قام الترتيب** بقصر قرطبة على أفضل التهذيب لقعود الخليفة الحكم على السرير للتهنئة على العادة» (11). وهو شديد الإفتخار بكون المراتب تنتظم على عادتها المعروفة وأن التعبئة في هذه الدولة التي أحبها تجري على انتظامها كما هو الشأن دوما، فيقول : «فلما وصل المأذون من ولدهم إلى أمير المؤمنين، قدموا على منازلهم فسلموا وأقعدوا دون آبائهم **على مراتبهم**، فبسط أمير المؤمنين جماعتهم بسؤاله ووعدهم بواكب فضله ووابل نواله، ثم خرجوا إلى مكان

---

9) المقتبس، الحجي، صفحة 195.

10) تحدث في هذه السنة عن قدوم الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمان قافلا من العدوة وعن اعتلال الخليفة الحكم، وعن نقوه وعن جيشان العدو بأهل الثغر إلى آخره.

11) المقتبس، الحجي، صفحة 229.

نزولهم من مجالس الجند وقربت إليهم دوابهم فركبوا وانطلقوا لسبيلهم، والمراتب التي نظمت لدخولهم على هيئتها والتعبئة على انتظامها» (12).

وابن حيان معتز دائما بأن المراتب في الأندلس محترمة، ولذا تراه ينص على الوحدات المكونة لهذا «الترتيب» محاولا بكل قواه الإجابة عن : **لماذ يقدم بعضها على بعض داخل النظام نفسه ؟**

إنه يرى أن التنظيم الداخلي في «الترتيب» يخضع، في قضية رفع عنصر على آخر إلى أمور دقيقة، لكنها معروفة ومحددة، منها :

أ ـ الاسن فالاسن

قال في هذا المعنى : (13) «فعند استيعاب هذه المراتب وتهذيب تعبئتها واستواء نظمها أمر الفتيان الكتاب بالخروج في أحمد بن عيسى وابراهيم أخيه وميمون بن القاسم ويحيى بن القاسم بن محمد... فقدموا منهم **الاسن فالأسن** ونهضوا من موضع نزولهم بمجالس دار الجند بين المراتب المذكورة إلى أن وصلوا إلى دار الوزارة».

ثم يقول بعد ذلك : «ثم تقدم بهم في الفصلان (14) إلى السطح العلي إلى أن انتهوا منه إلى المجلس الشرقي الذي قصد فيه أمير المؤمنين، فقدم عليهم شيخهم حنون بن أحمد بن عيسى، فدنا وسلم وغرر وعظم، فكرمه

---

12) نفس المصدر، صفحة 200.

13) المقتبس، الحجي، 199.

14) هذا ليس بمثنى وإنما هو جمع لفصيل وهو ما يقابل Porticus باللاتينية حسب الدكتور إحسان عباس وما يقابل على الخصوص Portico وهو الرواق أو الرحبة عند مدخل البيت (أنظر الحاشية رقم 23 لمعرفة المزيد من هذا النوع من التعريب عند ابن حيان).

أمير المؤمنين بالقعود ورفع منزلته في الجلوس، ثم قدم بعد **الاسن فالأسن،** كلما سلم المسلم منهم أحسن الرد عليه وأمره بالجلوس».

وقال وهو يتحدث عن : «صفة ترتيب البروز المعد لدخول الرئيسين جعفر بن علي ابن حمدون الأندلسي (15) وأخيه يحي بن علي المعروف بابن الأندلس من طرف الخليفة المستنصر بالله : «فنهضوا داخلين إلى أن صاروا في السطح العلي، ثم استنهضوا إلى المجلس الذي قصد فيه الخليفة، فلما انهضوا إلى بابه قبلوا البساط مرة بعد أخرى، ثم تقدم بهم إلى السرير وناولهم الخليفة يده فتقدمهم جعفر بالتقديم والتسليم ثم تلاه يحي أخوه ثم قدم بنو خزر **الاسن فالأسن،** فقضوا ما عليهم من ذلك» (16)...

ب ـ الأقرب فالأقرب

يستعمل ابن حيان هذا الحرف (17) ليبين لنا بواسطته كيفية تقديم الوحدات داخل الترتيب الواحد، إذ لا يعقل مطلقا أن تتقدم طبقات قريش مثلا، وهي بأعداد كثيرة دفعة واحدة دون مراعاة القريب منها جدا للخليفة. يقول ابن حيان : «فلما استقرت هذه المراتب بالقوم وانتهت حدود كا لها أذن لطبقات قريش **الأقرب فالأقرب،** فتقدموا للسلام وبينهم الكتاب المرتبون في المجالس الحوفية المرسومة لقعودهم».

---

15) ذكر الواقعة التي وقعت بجعفر هذا مع زيري بن مناد وهي الواقعة التي كانت السبب الرئيسي لقدومه إلى الأندلس لتقديم الولاء إلى خليفتها المستنصر بالله الطبيب المشهور أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن ابن خالد في كتابه : «التعريف بصحيح التاريخ» وهو كتاب في الطب ذكره ابن جلجل في صفحة 88 وابن أبي أصيبعة في الصفحة 61 من الجزء الثالث طبعة بيروت.

16) المقتبس، الحجي، صفحة 52.

17) اقصد بالإصطلاح «الحرف» المفهوم الذي أراده له أمام النحاة سيبويه في «الكتاب» ويقابل في اللغة الفرنسية اللفظة Lexie.

ج ـ فوج بعد فوج

هذا مصطلح آخر يستعمله ابن حيان سعيا وراء الدقة في قضية المراتب. يقول في معرض حديثه عن تقوه الخليفة الحكم : «وتلقاه بعده (18) بياض أهل قرطبة ووجوه أهل السوق وغيرهم مسلمين مبتهجين داعين مجتهدين، وتقدم من هناك وأفواجهم يتلقونه **فوجا بعد فوج** من الخاصة والعامة، إلى أن انتهى إلى قصر قرطبة فدخله من باب الجديد القبلي بركبة منقطعة» (19).

د ـ أولا أولا

هذا حرف آخر يستعمله ابن حيان عادة بعد قوله «فوج بعد فوج». يقول وهو يتحدث عن عيد الفطر من سنة ستين وثلاثمائة : «وشهد قاضي الجماعة محمد بن اسحاق بن السليم والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى والرد وأسباط الخلافة وجلة قريش وخاصتهم ووجوه الموالي أهل البيوتات ثم الموالي العبيديون ثم قضاة الكور والفقهاء المشاورون والعدول وبياض رجال قرطبة، توصل جميعهم فوجا بعد فوج وتقدموا للسلام **أولا أولا** ثم تلاهم الجند على طبقاتهم والمنتقون من طبقات العبيد وقضى جميعهم أوطارهم من رؤية خليفتهم» (20).

---

18) أي بعد صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر.

19) المقتبس، الحجي، صفحة 212.

20) المصدر السابق، صفحة 30.

هـ ـ فصيل اثر فصيل

والتدقيق المحكم يضطره إلى استعمال الحرف الآخر فصيل اثر فصيل» ليحدد أكثر النظام الداخلي داخل الترتيب فيقول، وهو يتحدث عن عيد الفطر لسنة أربع وستين وثلاثمائة : «وقعد في الصف الذي عن ذات اليمين بأثر الوزراء حكم بن مسعود ابن أبي القاسم الخال وبأثرهم جعفر بن علي الأندلسي (21) وحجبه في حملة الحجاب في آخر المجلس أخوه يحي بن علي (22)، وقام في برطل هذا المجلس ترتيب الوصفاء ومن دونهم من الصقالب (24) ثم اتصل بهم العبيد والرماة والمماليك فصيلا فصيلا إلى دار الوزراء، وكان قعود الوزراء في هذا النهار قبل وصولهم في برطل دار الكامل» (25).

و ـ تعبئة بعد تعبئة

هذا حرف آخر يستعمله ابن حيان لضبط وصف الترتيب الذي يتحدث عنه، قال وهو بصدد الكلام عن عصيان الجلالقة والبشكنس في

---

21) هنا الذي مع أخيه يحي بن علي المعروف بابن الأندلس وبمساعدة بني خزر ومن معهم من زناتة قتل زيري ابن مناد الصنهاجي.

22) قتل، هو وأخوه السابق الذكر زيري الصنهاجي.

23) «البرطل» لفظة أعجمية تعني المدخل وهو ما يسمونه بـ Portal وابن حيان يجمعه جمع مؤنث سالم فيقول «برطلات» يقول في المقتبس، الحجي، صفحة 50 : «وكان في فصلان Portico باب السدة جرا إلى دويرات البرطلات» إلى آخره. أنظر كذلك الحاشية رقم 14 واستعمل ابن حيان كذلك «سنون الملوك» (أنظر المقتبس، مكي 155) وأفضل «سنون» على «سؤر الملوك» (مكي 154) لأن هذه اللفظة كما يقول الدكتور محمود علي مكي في الحاشية رقم 53 من تحقيقه للمقتبس مأخوذة من الإسبانية Pocion الذي يعني «الشراب»، «مشروب»، «دواء» ويضيف الدكتور مكي في تعليقه قائلا (Poison) بالأنجليزية والفرنسية. ولكن هذه اللفظة الأخيرة ليست هي Pocion الإسبانية وإنما هي (Ponzoña) التي أعطت هذه اللفظة التي يستعملها ابن حيان.

24) ألاحظ أن ابن حيان يستعمل تارة «الصقالب» كما نقرأ في هذا النص وتارة «الصقالبة» كما نرى في المقتبس (مكي) صفحة 223.

25) المقتبس، الحجي. صفحة 230.

حصن غرماج : «فكان خروجه (26) من داره في لامة حربه متقلدا بسيفي كرامته مرتديا بها من جانبيه وبين يديه **تعبئة بعد تعبئة** وترتيب بعد ترتيب، من جيوش منتظمة ومقانب متصلة قد طبقت الأفق وأغصت الطرق» (27).

4 ـ الأسباب التي من أجلها يجوز مخالفة «الترتيب».

إن حرص ابن حيان الشديد على احترام «البروتوكول» المتبع في دولة بني أمية دفع به إلى أن ينص ـ زيادة في التدقيق ـ حتى على الأسباب التي اضطرت المسؤولين عن هذا «الترتيب» من ادخال تغييرات عليه وتكسير ذلكم العرف الشبه المقدس الذي كان دوما متبعا في الفردوس المفقود. نذكر من هذه الأسباب.

1 ـ تشريف وزير مقرب

يقول ابن حيان في هذا الصدد وهو يتحدث عن اعتلال الخليفة الحكم : (28) «.. فأوصل إلى نفسه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر ابن عثمان، فكان أول من وصل إليه من وزرائه ورجال مملكته، اختصه على نظرائه وقدمه على قرنائه تشريفا له وإظهارا لخصوصيته به ومحله القريب لديه».

26) خروج القائد الأعلى ذي السيفين غالب بن عبد الرحمن.

27) المقتبس، الحجي، صفحة 221.

28) المصدر نفسه، صفحة 204.

2 ـ مرض شديد ألم بالأمير

قال ابن حيان وهو يتحدث عن مرض الأمير عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك : (29) «فذكر أنه قال يوما لأكابر خدمته الخاصة وقد جفوه في مرضه، وفيهم سعدون زعيمهم الذي اختصه، بعد مهلك حظيه نصر ومن يليه :

يا بني ! ـ وبذلك كان يخاطبهم مستلطفا لهم ومرفقا بهم (30).

3 ـ تعظيم قائد بطل وتكريمه

فإذا كان ابن حيان، وهو المؤرخ المدقق مهتما بجزئيات الأمور، فكيف لا يقف طويلا باحثا ومنقبا في حدث خطير كمحاولة خروج أهل حصن غرماج عن طاعة السلطان الأعظم الذي كان في ذلك الوقت (أي في نصف رجب من سنة أربع وستين وثلاثمائة) مشتغلا بالحرب المنشبة بينه وبين أهل العدوة. ومن دليل اهتمامه ذكره، في غمرة الإستعداد لدحض العصيان، أمر تشريف «شيخ الحروب وفارس الخطوب ومهون الكروب ومذلل القدوم»، الوزير القائد الأعلى أبي تمام غالب بن عبد الرحمن. قال ابن حيان في هذا كله (31). «حتى لأنفذ عهده في النصف من رجب من هذه السنة بتصدير فراشه، الموضوع مكانه ببيت الوزراء في قصره الذي هو معان العزة التي لها يسعى أهل المملكة، فوق فرش الوزراء المرتبة فيه على المنازل

---

29) نقل ابن حيان هذا الخبر عن أبي عبد الله محمد بن وضاح القرطبي الذي ادخل هو وبقي بن مخلد القرطبي علم الحديث والبصر بطرقه وعلله إلى الأندلس.

30) المقتبس، مكي، صفحة 159.

31) المقتبس، الحجي، صفحة 219.

المعهودة الترتيب لديهم في طبقاتهم وتعليته في القعود فوق جميعهم تشريفا له لم يسبق إلى مثله».

4 ـ انعقاد الترتيب على غير ما يريده الأمير

لا شك أن من أوجب الواجبات على من كان مقربا لأمراء المؤمنين ألا يدخل تغييرا على الترتيب الذي يعرفه الخليفة ويباركه إلا بإذن منه سابق، فإن فعل أحد من هؤلاء المقربين غير ما قلنا، وسلك مسلكا دون علم من الأمير فإن ذلك لا يعد خللا فقط، وإنما هو نوع من العصيان الذي يجب أن يعاقب.

وطبعا فإن الخليفة الذي يباغث بعدم احترام الترتيب المعهود دون أي مبرر لا يتسرع، نظرا لسمو مكانته، وعلو تهذيبه، في إصدار العقاب علانية وجهرا أمام الملإ، وإنما يختار له الوقت والظرف.

ندرك ذلك مما يحكي ابن حيان عن أحد حجاب الأمير عبد الله عيسى ابن شهيد (32)، وما وقع له مع نصر الخصي الذي تصرف دون علم من مولاه، فصرف عيسى عن الحجابة وقلدها عبد الرحمن بن رستم (33). يقول ابن حيان عن هذا الحادث : «فجرى الأمر بذلك إلى أن استقل الأمير عبد الرحمن من علته، وقعد لأهل خططه، فدخلوا عليه يقدمهم الوزراء وعيسى في عرضهم فتقدم عبد الرحمن ابن رستم جماعتهم في التسليم على

32) أنظر أخبارا وافية عن عائلة بني شهيد في

L'Espagne musulmane au Xsiècle de L. Provençal,

الصفحات 101، 102، 103.

33) ذكره ابن القوطية في **تاريخه**، صفحة 62 وابن الابار في **الحلة** ج 372/2.

الأمير، ثم قعد فوق ابن شهيد، فاستنكر الأمير ذلك. فلما استقر بهم المجلس، قال لعيسى بن شهيد فيما يخاطبه به : ما شأن كذا ؟ لأمر سأله عنه. فقال له : يا مولاي لست بحاجب، وهذا هو الحاجب، وأشار إلى ابن رستم. فعلت الأمير عبد الرحمن كبرة، وعرف من حيث أتي فكظم غيظه واصطبر.

فلما خرج الوزراء دعا بنصر، فسأله عن عزل ابن شهيد وولاية ابن رستم، فلم يمكنه إنكاره وادعى أن وصية خرجت إليه من لدنه صدر علته. فكذبه الأمير وعلم أنها من تحامله وجسراته، فسبه وأغلظ له وهم به ثم عفا عنه، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة، وعزل عنها عبد الرحمن بن رستم وتركه على الوزارة. فلم يزل عيسى ابن شهيد حاجبا للأمير...» (34).

5 ـ تعطيل جانب من «الترتيب» بسبب إلحاح الوزراء واضجارهم

من الحكمة أن يترك الأمير، ولو إلى حين، منصبا في الدولة، ولو كان مهما، شاغرا، إذا كان عظماء البلاد والبارزون فيها يتطلعون جميعهم إليه ولا يرونه لأحد منهم دون غيره. ولا ريب أن في تعطيله بعض الضرر على التسيير العام للدولة، ولكن منافع «تنويمه» إلى حين أكثر بكثير من إشعال روح الضغينة والحقد بين المساعدين الأقربين للخليفة. ذلك بالضبط ما فعله الأمير عبد الرحمن سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وما حكاه لنا ابن حيان في مقتبسه نقلا عن أبي بكر بن القوطية. قال : «لما توفي الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد معيث صدر دولة الأمير عبد الرحمن تنافس الوزراء

---

34) المقتبس، مكي، صفحة 166.

كلهم في خطة الحجابة بعده وكدوا بالوسائل والشفاعات حتى أضجروه. فأقسم أو اعتقد ألا يوليها أحدا منهم وعطلها مدة...» (35).

6 ـ الإختلاف إلى القصر كل يوم

لقد كان أمراء بني أمية بالأندلس حريصين كل الحرص على أن تسير أمور البلاد سيرا سريعا ومرض. لذا كان عليهم في كل لحظة أن يستشيروا ذوي الرأي والمعرفة وأن يحاطوا في الأمور المهمة بمن يساعدهم على إيجاد الحلول الناجعة لها في أقرب وقت ممكن. وأحسن حل لهذا هو أن يبقى مستشاروهم رهن إشارتهم في كل وقت وحين وبالقرب منهم دائما. وكان أول من فكر في هذا الأمر وطبقه هو الأمير عبد الرحمن. يحكي لنا ابن حيان عن قراره فيقول : «والأمير عبد الرحمن أول من ألزم هؤلاء الوزراء الإختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل. وأفردهم ببيت رفيع داخل قصره مخصوص بهم يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم، يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة واشتاتا، يخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه (36). وإذا قعدوا في بيتهم أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه، جرى على ذلك من تلاهم إلى اليوم» (37).

35) نفس المصدر، صفحة 167.

36) المقتبس، مكي، صفحة 168.

37) يقول ابن حيان إنه ينقل هذا النص عن ابن القوطية، وما ينقله ابن القوطية عن هذا الحادث لا يتعدى سطرين.

4 ـ لماذا تقام «المراتب» وتحترم ؟

يقام الترتيب ويحترم :

1 ـ لمجلس العلم

ذلك ما يقصه علينا ابن حيان حين يتحدث عن استماع الأمير أبي الوليد هشام للفقيه الراوية يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي (38) بأمر من الخليفة الحكم. يقول ابن حيان عن هذا «الترتيب» : «فلما تم مجلس السماع وحان انقلاب الشيخ يحيى بن عبد الله نفذ عهد الخليفة بأن يكون ركوبه ونزوله في الفصيل المعروف بفصيل المسجد، تشريفا وترفيها عنه. فجرى أمره على ذلك مدة اختلافه وعاود الحضور يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان. فأسمع الأمير على رسمه بمشاهدة الوزير الكاتب جعفر بن عثمان أثير الخليفة والده. ونفذ العهد بأن يكون اختلاف الشيخ الفقيه إلى الأمير أبي الوليد يومين في الأسبوع، يوم السبت والخميس على الإطراد إلى أن يكمل اسماعه الموطأ وجميع ما رواه من الدواوين عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله ابن يحيى وغيره من الشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم إن أنسأ الله مدته. فجرى الأمر على ذلك وأحرز الأمير به الفضيلة» (39).

2 ـ للعيد

يقام «الترتيب» بسبب الاحتفاء بعيد الفطر. يتلقى الخليفة أثناءه تهنئة رجالات الدولة. يقول ابن حيان عن «الترتيب» الذي أقيم يوم عيد الفطر من سنة أربع وستين وثلاثمائة : «وفي يوم الاثنين غرة شوال الذي هو

---

38) جد أبيه هو الذي رحل إلى المشرق وسمع من مالك بن أنس، وهو من نشر مذهب مالك في ربوع الأندلس.

39) المقتبس، الحجي، صفحة 217.

يوم عيد الفطر قام الترتيب بقصر قرطبة على أفضل التهذيب لقعود الخليفة الحكم على السرير للتهنئة على العادة، مختصا بذلك الأخوة والوزراء وأكابر أهل الخدمة دون سواهم وإجلاسه ابنه الأمير أبا الوليد المرشح لعهده ناحية عنه لكافة أهل المملكة والرعية. فانقسم الترتيب يومئذ على هذه الشركة وصار جلوس الخليفة لتلك الخاصة في المجلس الغربي من دار الروضة» (40).

كما أن ابن حيان يصف لنا الحفل الرسمي الذي ترأسه، بمناسبة عيد الفطر لسة ستين وثلاثمائة الخليفة المستنصر بالله، فيقول مؤكدا على أهل «المراتب» وطبقات الناس : «وقعد الخليفة المستنصر بالله بعد انقضاء صلاة العيد لتسليم الجند عليه في محراب المجلس الشرقي من قصر الزهراء المنيف على السطح العلي والموفي على الروض البهي قعودا فخما أشبه فخام جلساته الشهيرة الجلالة. شهده طبقات الناس فكان صدره الأخوة وجنباته الوزراء وموسطته أهل المراتب من طبقات أهل الخدمة، وسائره لوجوه أهل الموالي وبياض رجال قرطبة، قعد من الأخوة عن ذات اليمين الشقيق أبو الأصبغ وتحته أبو المطرف المغيرة وعن ذات اليسار الأصبغ أبو القاسم وقعد الوزراء بأثرهم في الجهتين بعد فرجتين على حد جري العادة» (41).

3 ـ لنقوه الخليفة من مرضه

ألم بالخليفة الحكم مرض شفي منه الشفاء التام في نهاية العشر الأوائل من شهر رجب سنة 364 هجرية، وعند «إفراقه من علته» (42) قامت

---

40) المصدر السابق، صفحة 229.

41) نفس المصدر، صفحة 29/28.

42) المصدر السابق، صفحة 211.

الإحتفالات الشعبية فرحا بهذا الحدث السعيد. وفي يوم 12 من رجب استقبل في قصر النعورة الوزراء وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة والحكام ورجال الدولة. يقول لنا ابن حيان عن هذا اللقاء : (43) «فلما قضوا تسليمهم ركبوا وترتبوا في المواكب حسب منازلهم وتقدم أمير المؤمنين نحو المصارة طرف قرطبة الغربي، فتلقاه بها رجال من كبار قريش ونفر من وجوه الموالي نزلوا ودعوا ومجدوا، ونفذوا إلى أن أتى السوق الكبرى بقرطبة فتلقاه بها صاحب الشرطة والسوق أحمد ابن نصر فسلم عليه وتلقاه بعده بياض أهل قرطبة ووجوه أهل السوق وغيرهم مسلمين مبتهجين داعين مجتهدين».

4 ـ لاستقبال رئيس بطل مخلص.

أكبر مثال يمكن أن نقدمه هنا هي تلك الإستقبالات الكثيرة التي أقيمت على شرف القائد البطل جعفر بن علي المعروف بابن الأندلس وعلى شرف أخيه يحيى ابن علي وعلى من معه من بني خزر، وكانت هذه الاستقبالات كما يلي :

أ ـ استقبالها من طرف صاحب الشرطة العليا (44) أحمد بن سعيد الجعفري بمحلة فحص السرادق (45).

---

43) نفس المصدر السابق، صفحة 272.

44) سأتحدث عن هذا الموظف وعن وظيفته في الوقت المناسب إن شاء الله.

45) فحص السرادق «هو المكان الذي كان خلفاء بني أمية في الأندلس يخرجون إليه ويمكثون فيه زهاء 20 يوما إلى 40 يوما يستعدون فيها لحملة حربية. هو إذن المكان الذي يمكن أن نسميه بـ «خيمة الخليفة». يسبق هذه المدة عادة مدة أخرى تعرف بـ : «البروزه».

ب ـ استقبالها من طرف «تعبئة الحارس والعرفاء المدرعين ورجالة الأرباض بقرطبة (46).

ج ـ استقبالها من طرف صاحب المدينة (47) بقرطبة جعفر ابن عثان.

د ـ استقبالها من طرف صاحب الشرطة العليا القائد بيلنسية وطرطوشة هشام بن محمد بن عثان ونقلها من مكان محلتها بـ «منية» (48) عبد العزيز إلى الزهراء. يقول ابن حيان عن هذا الإستقبال : «فخرج (49) لوجهه ذلك في رواء (50) جميل وترتيب جليل يقدمه ضروب الأعمال الفخام وصندوق الرايات الجسام وبينهن الشطرنج الشامي كرامة شرفه بها الإمام...» (51).

هـ ـ استقباله من طرف الخليفة

لقد استقبل القائد جعفر وأخوه يحي مرتين من قبل الخليفة، مرة وقت دخولها الأندلس، وقد سبق أن أشرت إلى هذه (52) ومرة ثانية قبيل مرجعهم إلى بلادهم. قال ابن حيان عن هذه : «... وفي يوم السبت لليلتين

---

46) المقتبس، الحجي، صفحة 45.

47) سأتحدث عن منصب صاحب المدينة في وقت لاحق إن شاء الله.

48) «منية» هو اللفظ العربي الذي يطلقه الأندلسيون العرب على ما يعرف عندنا الآن بـ Villa فيا حبذا لو نقول كما قالوا. وقام في المؤتمر بعض الأصدقاء يعارضون هذا الاقتراح

49) أي صاحب الشرطة العليا.

50) بضم الراء وفتح واو مخففة : حسن المنظر.

51) المقتبس، الحجي، صفحة 47.

52) أنظر الفقرة التي تحدثت فيها عن «الأسن فالأسن» إذ المقصود به بنو خزر الصاحبين للقائدين قدموا للخليفة بهذا الترتيب : «الاسن فالاسن».

بقيتا من شهر ذي القعدة منها (53) جلس الخليفة الحكم المستنصر بالله فوق السرير جلوسا فخما أوصل إلى نفسه أجناد الكور وبياض أهلها الذين استدعاهم لمشاهدة دخول جعفر بن علي ومن جاء معه من قوم زناتة عند وجوب مرجعهم إلى بلادهم، فتوصلوا إليه بحسب مراتبهم الأولى بعهد الخلفاء في التقدم...» (54).

ثم يذكر ابن حيان بعد ذلك ترتيب الجنود الداخلين على الخليفة يليهم أولا كورة قبرة ثم أهل استجة واشونا وتاكرنا ولبلة و«غيرهم ممن استجلب لهذا المشهد.

5 ـ لأجل عتق عبيد

لا شك أن هذا العمل الخيري لا يحتاج إلى إحضار كل وجهاء الدولة بل يكتفي فيه بمن ينفذونه. لذى ترى «الترتيب» المقام بسيطا. قال ابن حيان عنه (55) : «وفي عقب ربيع الآخر أنفذ الخليفة أعتاق جمع كثير من عبيد له واماء تنيف عدتهم على مائة رقبة انعقد لكثير منهم عتق بتل (56) ولبعضهم عتق مؤجل ولبعضهم تدبير (57) خلص به جميعهم. من الرق، عقدت الوثائق المحكمة لجميعهم فكان أول من أوقع شهادته فيها الأمير أبو

53) أي من سنة 360 هجرية.

54) المقتبس، الحجي، صفحة 56.

55) أنظر كذلك ابن عذارى، صفحة 370 من الجزء الثاني.

56) يقال صدقة بتلة أي منقطعة عن صاحبها : بتله أي قطعة من ماله، واعطيته عطاء بتلا أي منقطعا.

57) التدبير أن يعتق الرجل عبده عن دبر، يعتقه بعد موته، فيقال أنت حر بعد موتي، وهو مدبر. وفي الحديث : أن فلانا اعتق غلاما له عن دبر، أي بعد موته. ودبرت العبد علقت عتقه بموتك، وهو التدبير أي أنه يعتق بعد ما يدبره سيده ويموت (أنظر المحلى لابن حزم 206/9).

الوليد هشام المرشح لولاية عهده بخط يده، وتلاه أعمامه الإخوة ثم الوزراء على مراتبهم ثم قاضي الجماعة محمد بن اسحاق ووليه الحكام والفقهاء أهل الشورى ثم العدول» (58).

6 ـ لأجل تحبيس

اعتقد أن هذا الفعل الجليل لا يحتاج إلى حفل كبير. ولذا لم يشهده إلا القاضي. قال ابن حيان عن هذا : «وفي صدر جمادى الأولى تلوه انفذ الخليفة تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين قد كان اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة (59).

وأشهد القاضي محمد بن إسحاق في هذا التحبيس يوم الجمعة لسبع خلون منه فعظمت به المنفعة وجلت المنقبة وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لوراثته» (60).

القسم الثاني

1 ـ السكان

سأخصص هذا القسم للحديث عن الأطر الإدارية في دولة بني أمية التي تحدث عنها ابن حيان في مقتبسه.

---

58) المقتبس، الحجي، صفحة 206.

59) علق هنا الزميل الدكتور إحسان عباس فقال : كان الحكم قد اتخذ 27 مكتبا يعلم فيها أولاد الضعفاء والمساكين القرآن عام 356 هـ.

60) المقتبس، الحجي، صفحة 207.

ولا شك أن الأمر سيكون مفيدا لو أنني أرتب هـذه الوظـائف حسب النظام الألفبـائي ليسهل العثور، آخر المطـاف، على الوظيفـة المراد الرجوع إليها.

وقبل ذلـك، أرجو أن أتحدث قليلا عن التكوين السكاني لـدولـة بني أمية في الأندلس.

ومعلـوم أن سكان الأنـدلس في عهـد دولـة بني أميـة ثـلاثـة أصنـاف كبيرة.

1 ـ الصنف الأول : الأهالي الإسبان الذين أسلموا

يطلـق عليهم عـادة إمـا «المصطلـح» «مسـالمـة» (61)، وهـو مصطلـح استعمله ابن حيان مع «القبيلة» مما يـدل على أن هـذا المؤرخ الفـذ يرى أن «المسالمة» يكونون قبيلة لها رئيس ينوب عنها عنـد الاقتضـاء عنـد الخليفـة، كما وقـع ذلـك حين تسلم أبـو العيش بن أيـوب كبير قبيلـة اكتـامـة سجلـه المعقود لـه على قومـه، وكان هـذا السجل من كلام الوزير الكاتب صـاحب المواريث جعفر ابن عثمان (62).

يخبرنا ابن حيان أن هذا السجل، وإن كان مكتوبـا لأبي العيش فـإن نظائر منـه قـد سلمت لرؤسـاء جميع القبـائل البربريـة، ويـدمج «المسـالمـة» ضمنهم، فيقول : «فكان ممن دفع إليـه سجلـه منهـا يحيى بن فتوح على قبيلـة أجـاز والحسن ابن سرحـان على قبيلـة عصمان وابراهيم بن علي قبيلـة نفيس

---

(61) تحدث عن هذا اللفظ Dozy في كتابه

Supplément [illegible] dictionnaires arabes Leide. 1877 – 80 – I page 679

(62) أنظر نص الكتاب كاملا في المقتبس، الحجى من صفحة 111 إلى صفحة 174.

وخلوف بن عمار على قبيلة ماسواها والقاسم بن نصر على بني معار ونحيل ابن عفي على قبيلة لهيصة وابن جلاد الكتامي على قبيلة بجرمة **وخلاد ابن سعيد على قبيلة مسالمة** إلى آخره.

وقد يشير ابن حيان إلى هذه الطائفة بالمصطلح «اسالمة» كما فعل حين أطلعنا على أخبار نصر الخصي، قال : «وذكر الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم أن نصرا هذا الذي إليه تنسبُ منية نصر ـ الأثير ـ كان عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم. وكان من الفتيان المنتقين الذين خصاهم أبوه الأمير الحكم من أبناء الناس الأحرار الذين تعبدوا ليستخدمهم داخل قصره وأبوه المعروف بأبي الشمول من **أسالمة أهل الذمة** من أهل قرمونة، نال بابنه نصر دنيا عريضة. وكان موته قبيل مهلك نصر ابنه بأيام (63) ـ كما يطلق عليهم في بعض الأحيان المصطلح **«مولدون»** الذي كثيرا ما كان يخصص لسكان الأندلس المنحدرين من آباء مسلمين.

وبهذا يكون «مسالمة» للسكان الذين أسلموا، و«مولد» (64) لأبناء وأحفاد هؤلاء «المسالمة».

أما «العجم» فهم سكان الأندلس من النصارى الذين احتفظوا بدينهم ولم يعتنقوا الإسلام.

(63) المقتبس، مكي، صفحة 156.

(64) بعض من هؤلاء المولدين صار لهم شأن كبير واحتفظوا بأسمائهم القديمة مثل Banu Angelino وBanu Sabarico إلى آخره.

2 ـ الصنف الثاني : السكان الأندلسيون من العرب

يطلق المؤرخون عليهم لفظة «الطلائع». قال ابن الآبار : «وطليعة موسى وبلجها اللتان تعرفان بالأندلس بـ «الجندين» (65).

ومعلوم أن الطلائع فرقتان، فرقة تعرف بـ «بلديين وأخرى تعرف بـ «الشاميين».

ولقد بقي سكان الأندلس من العرب يتميزون، حسب المقري بالتمسك بأصولهم القبلية حتى عصر المنصور بن أبي عامر، يقول المقري، «وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والافخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور» (66).

فإذا ما اعتبرنا فقط التقسيم العربي المعلوم للسكان رأينا أن :

1 ـ **العدنانيين** كانوا موزعين على الشكل الآتي :

أ ـ **القرشيون** : ويكونون المرتبة العليا في دولة بني أمية لا سيا وأن بني أمية قرشيون.

ومعلوم أن رجالات قريش تتقدم دائما عند ابن حيان : «أفناء الناس»، يقول ابن حيان : «ثم أطرد الأذن بالوصول إلى من حضر من أفناء الناس، فتقدمت في أوائلهم رجالات قريش...» (67)، ويقول : «واستعمل فيه كفاته من كتابه وخدمته فانتهى إلى الغاية من تحسينه واستدعى

---

65) أنظر الحلة لابن الابار، طبعة Dozy الصفحتين 46 ـ 47، طبعة 51 ـ 1847.

66) أنظر Analectes sur l'Histoire et la littérature des arabes d'Espagne ed. Dozy, Ducat Krehl et Wright, Leyde 1855–61,II p. 25

67) المقتبس، الحجي، 94.

لمشاهدته طبقات الأصناف من قريش ومن توافق فيها منها يومئذ من رؤساء البرابر...» (68)، ويقول : «وانتظم صفا أهل الخدمة في الجانبين تحتهم على طبقاتهم، فلما استقرت قرارها أذن أولا لرجالات قريش...» (69).

ب ـ الفهريون : وكان من بينهم الحاكم يوسف من ذرية عقبة بن نافع.

ج ـ بنو قاسم : الذين كانوا يقيمون في البونت (70) والذين سيكونون في بداية القرن الحادي عشر الميلادي دويلة محلية.

د ـ بنو كنانة : كان الجم الغفير منهم يسكن بطليطلة (71). ولهذه القبيلة ينتسب الرحالة المشهور ابن جبير.

هـ ـ بنو هذيل : كانوا يسكنون منطقة أريولة (72) التابعة للقنت (73) قبل أن يستقروا في غرناطة.

و ـ التميميون : وكان عددهم كبيرا جدا.

ز ـ القيسيون : وكانوا يقطنون بكثرة في اشبيلية وبلنسية (74)، وعنهم تفرعت عشائر محترمة مثل : بنو سليم، بنو بكر، بنو نمير، الاشجعيون، الثقافيون.

---

68) نفس المصدر، الصفحتان : 109 ـ 110.

69) نفس المصدر، الصفحة 136.

70) Alpuente.

71) Toledo.

72) Orhuel.

73) Alicante.

74) Valencia (Valence).

ح ـ **بنو عطية** : الذين كانوا يسكنون غرناطة وينتسبون إلى بني أسد.

ط ـ **بنو عبد البر وبنو حمديس** : وكانوا يقطنون بقرطبة.

ي ـ **بنو بكر** : الذين سيكونون ملوك ولبة (75) وشلطيش (76) وإليهم ينتسب الجغرافي المشهور البكري.

ل ـ **بنو زهر** : أصحاب اشبيلية، وكانو يدعون أنهم ينتسبون إلى بني اياد.

2 ـ القحطانيون :

كانوا يكونون نسبة كبيرة جدا من سكان دولة بني أمية. كان منهم أغلبية أبناء الأنصار الذين هم من أصل أزدي. وكانوا يتواجدون بكثرة في طليطلة. يمكن أن نوزع هؤلاء القحطانيين على الشكل الآتي :

أ ـ بنو أبي عامر في قرطبة.

ب ـ بنو عباد باشبيلية وهم من عرق كهلان.

ج ـ بنو هود في طليطلة.

د ـ بنو مردنيش في مرسية وهم (77) من عرق جذمي.

هـ ـ الحميريون أرباب قلعة يحصب (78).

---

75) Huelva.

76) Saltes.

77) Murcia.

78) تسمى الآن Alcala la Real.

3 ـ الصنف الثالث : العنصر البربري :

يخبرنا ابن خلدون أن أربع فرق بربرية هي التي كانت توجد في الأندلس في هذه الحقبة التي تهمنا، هم : مدغرة، ومديونة، ومكناسة وهوارة (79).

أما ابن عذاري فإنه يرى أن هذه الفرق كانت تسكن خارج السهول في مرتفعات (80)، يصعب على العنصر العربي أو غيره الهجوم عليه.

ويوضح لنا الجغرافي الاصطخري في كتابه مسالك الممالك (81) مكان وجود هذه الفرق على تراب الأندلس. تنتسب هذه الفرق كلها بالنسبة إليه إلى التجمع البربري الكبير.

أما مدغرة ومكناسة فقد استقر بها الأمر بين قرطبة وبلاد الجلالقة وأما هوارة ومديونة فسكنت في مقاطعة سنتبرية (82).

وهكذا نجد العنصر البربري على مرتفعات جنوب اسبانيا وفي فحص البلوط (83) وعلى مرتفعات قرمونة وغيرها.

---

79) أنظر ابن خلدون Histoire des Berbéres, traduction de slane I,237

80) البيان، ج 2 : 56، 85، 86 نشر ليدي 1848 ـ 1841.

81) الجزء الأول، صفحة 44.

82) Santaver.

83) Las Pedroches

2 ـ الأطر الإداريـة

وأول وظيفة حسب هذا الترتيب الألفبائي الذي ارتأينا أتباعه هي :

1 ـ الأمانـة

تحدث ابن حيان عن ثلاثة أنواع منها، هي :

ـ أمانة الاهراء.
ـ أمانة الطراز.
ـ أمانة العطب والنزائل.

وأشار إشارات خفيفة وعابرة إلى أمور فرعية تتعلق بها قد نتعرض لبعضها إن سنحت الفرصة.

وطبعـا يكـون على رأس الأمـانـة «أمين» ويسمى أيضـا «مشرف». والأمين، كما هو معلوم، ينتسب، في قرطبة، إلى ما يعرف عندهم بـ **«خدمة الخلافة»**. وكان يمثلها، عادة، كاتب الدولة يساعده عدد كبير من الأعوان ومدير للحسابات مسؤول عن التـدبير المـالي العمومي وعن مراقبـة الـدخل والخرج، كان هؤلاء الموظفون الكبـار يحملون إسم **«كاتب»** ولهم الحق في أن يحملوا لقب **«وزير»**، ويتقاضون الأجر المناسب لهذا المنصب.

هـذه الكتـابـة أو هـذه «الخطـة» كانت، حسب ابن سعيـد تتفرع إلى فرعين.

الفرع الأول، وهو الأسمى، يعرف ب «**كاتب الرسائل**» الذي كان الأندلسيون يطلقون عليه اسم «الكاتب» فقط. وكان عليه هو وجميع مساعديه أن يكونوا من المتخصصين الكبار في تحرير الرسائل.

أما الفرع الثاني فكان يعرف بـ «**كاتب الزمام**» وهو الشخص السامي الذي كان يدير سجلات المدخولات والمصروفات. ولذا كان يعرف أيضا «**بصاحب الأشغال الخراجية**».

لنا عن الفرع الأول معلومات إضافية، ذلك أن عبد الرحمن الثالث أسند وظيفة «الكتابة الخاصة» لابن حاجبه بدر في سنة 301 هجرية (913 م) أسند هذا المنصب لابن آخر لبدر.

وفي سنة 344 هجرية (955 م) أدخلت تعديلات مهمة على هذه الخطة كان القصد منها الزيادة في الضبط. وهكذا أصبحت كتابة الدولة تحت إمرة أربعة موظفين كبار، هم :

1 ـ جوهر بن أبي عبدة الذي كلف بـ «النظر في كتب جميع أهل الخدمة.

2 ـ عيسى بن فطيس الذي أصبح مكلفا بـ «النظر في كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف».

3 ـ عبد الرحمن الزجالي الذي أصبح مسؤولا عن قضايا «تنفيذ» عقود المعاهدات، وعن «التوقيعات» التي يمضيها الأمير بالقبول.

4 ـ محمد بن حدير الذي كان مسؤولا عن المكاتب الداخلية، وبهذه الصفة كان عليه أن يسهر على «إنجاز التوقيعات» المتعلقة بها (84).

84) أنظر تفصيل هذا كله في البيان لابن عذاري، الجزء الثاني، الصفحات 165، 172، 236، 265، إلى 266.

ويحسن بنا، قبل أن نتحدث عن «الأمناء» أن نثير الإنتباه إلى أن «الخزينة العامة» كانت في عهد بني أمية تشتمل كما هو معلوم على الثروة الخليفية، كما أنها تشتمل أيضا على «ثروة الوقف» التي كانت مخصصة لصيانة المؤسسات الدينية ولتسديد أجور موظفيها، ولتشييد البنايات ذات المصلحة العمومية، إلى آخره. أما المال العمومي، فقد كان يودع في خزانة داخل القصر، وأما الوقف فقد أودع في بيت بالجامع الكبير بقرطبة. فسمي هذا البيت بـ «**بيت المال**». ولذا ستجد في عهد بني أمية بالأندلس بيتين للمال. أولهما هذا الذي يوجد في قرطبة، والآخر الذي كان مقره قصر الخليفة، وكان يحمل إسم «**خزانة المال**» (85).

كان على رأس خزانة المال موظف سام يعرف بـ «**خازن المال**» على غرار «خازن الأسلحة» الذي كان في نفس درجته إلا أنه كان يدير «مخازن الأسلحة».

ومعلوم أن مدخول بيت المال كان يتكون من :

أ ـ الصدقات والأعشار.

ب ـ الخراجات.

ج ـ الجوالي.

د ـ الجبايات.

هـ ـ الأموال المرسومة على المراكب والواردات والصادرات.

و ـ الرسوم على البيوع والأسواق.

ز ـ أموال المواريث الحشرية.

---

85) أنظر مزيدا من التفصيل عن بيت المال في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الفرنسية، الجزء الأول، صفحة 611.

أمـا الجبـايـات التي لم ينص عليهـا الشرع والتي كانت تحمـل عـادة الأسماء :

أ ـ مغرم.

ب ـ وظيفة.

ج ـ قبالـة التي كان يستخلصهـا موظف عرف بـاسم «متقبـل». وعلى العمـوم، فـإن استخـلاص هـذه الأمـوال كلها كان يعـود عـادة إلى أمين أو مشرف.

أما الأمناء الآخرون الذين تحدث عنهم ابن حيان في مقتبسه فهم :

1) أمانة الاهـراء

قال ابن حيان عن أمانة الاهراء : «وفيه (86) قدم محمد بن أبي قـادم وأحمد بن قاسم بن قلزم إلى أمانة الاهراء (87).

يسقـط ابن حيـان في بعض الأحيـان لفظـة «الأمين» أو «الأمنـاء» ويسميـه بـ «الاهرائيـون»، قـال (88) «ثم دعـا بـأصحـاب الشرطـة العليـا والـوسطى وأصحـاب المخـزول والعراض وأصحـاب الحشم والكتـاب والاهرائيين...»

86) أي في هذا التاريخ أي في سنة 361 هجرية.

87) المقتبس، الحجي، صفحة 72.

88) نفس المصدر، صفحة 198.

2 ـ أمانة الطراز، صاحب البرد والطراز

كان صاحب الطراز (89) في عهد بني أمية بالأندلس مسؤولا عن المعامل الكبرى حيث كانت تنسج أجمل ثياب الحرير والذهب المعروفة في ذلك الوقت. وكانت هذه القطع الرائعة الجمال تحمل اسم الخليفة (90) ومنها كانت تفصل «الخلع» التي كانت تمنح لرجالات الدولة جزاء لهم على خدماتهم وعربونا على الرضى الذي كان يكنه الخليفة لهم (91). أما الأمين الذي كان يسكن، عادة، خارج قرطبة فقد كان يستخلص الضرائب على الثياب.

ومعلوم أن هذه الوظائف كانت في منتصف القرن العاشر الميلادي في يد الصقالبة المعروفين **بالفتيان** أو **بالخلفاء** يرأسهم موظفان ساميان صقلبيان أيضا يطلق عليهما **«الفتيان الكبيران»**.

يقول عنهما ابن عذاري : «... الفتيان الأكابر، صاحب الطراز وخواص أكابر العبيد كمظفر وذويه» (92).

ولا بد أن نتذكر أن أول من قدم الولاء للحكم المستنصر في يوم تربعه على العرش كان هو جعفر، رئيس الطراز.

نلاحظ ـ أن ابن حيان الذي يعتبر هذا المنصب مهما ينص في كثير من الأحيان على من تولاه وعلى من يكون مسؤولا عن الكتابة فيه.

---

89) أنظر المقال الرائع الذي كتبه A. Grahmann في دائرة المعارف الإسلامية (النص الفرنسي).

90) أنظر قطعة من نص ورد في إسم هشام الثاني مكتوبا بخط مذهب على طراز موجود الآن بأكاديمية التاريخ بمدريد.

91) أنظر مزيدا من التفصيل عن هذا في كتاب Levi-Provençal بعنوان Inscriptions arabes d'Espagne.

92) البيان، الجزء الثاني، صفحة 370.

يقول : «وفي ذي القعدة منها (93) قدم عبد الله بن أحمد المعروف بابن الأفليلي إلى أمانة الطراز، وقدم فيه محمد بن الوليد إلى كتابة الطراز، اختير لها، وكان من متقدمي الكتاب وتحاريرهم ومن أهل الكفاية والبصر بالعمل» (94).

يؤكد ابن حيان ما نقلناه عن ابن عذاري من أن هذه الوظيفة كانت في يد الصقالبة الذين كانوا، كما قلنا، يعرفون بالفتيان الكبار. يقول ابن حيان عن هذا ناصا على إسم أمين الطراز : (95) «وفي صدر المحرم منها رحل الخليفة الحكم خليفته المتقدم في خصوصيته فائقا الفتى الكبير الصقلبي صاحب البرد والطراز من داره بالمصاف الشرقي من قصر الزهراء إلى دار الحاجب جعفر بن عثمان بن عبد الرحمن الصقلبي المتوفى سنة ستين قبلها، الجليلة القدر بالمصاف الغربي قربه، عندما اعتلت منزلته لديه، تنويها به وتشريفا له».

ومعلوم أن «صاحب الطراز» هو أعلى مرتبة من أمين الطراز. الأول، مسؤول، كما سبق أن قلنا عن كل ما يتعلق بالطراز : معامل، تسويق، موظفين، اتصال بالخليفة، إلى آخره.

أما الأمين، الذي كان يسكن خارج قرطبة فقد كان مسؤولا عن جمع الضرائب المستحقة على البرد، والتي لم ينص عليها الشرع. ولذا يأتي الأمين في مرتبة متأخرة عن صاحب الطراز حسب ما تركه لنا ابن حيان الذي

---

93) من سنة 361 هجرية.

94) المقتبس، الحجي، صفحة 91.

95) نفس المصدر السابق، صفحة 66.

يقول : «وافى يوم السبت غرة شوال منها (96) وقعد لـه (97) أمير المؤمنين على السرير في المجلس الموفى على الريـاض بقصر الـزهراء أفخم قعـود وأكملـه ترتيبا وأبهاه تزيينا وأذن للناس، فتوصل أولهم الأخوة...» وصار ابن حيـان يعدد المنـاصب، إلى أن قـال : «... ووقف على جـانبي السـرير من الفتيـان الأكابر عن ذات اليمين صاحب البيازة والصياغـة جوذر، الفتى الكبير وتحتـه مرسن الفتى الكبير وعن ذات اليســار صــاحب البرد والطراز فـائـق الفتى الكبير...»

يعدد ابن حيان، بعد هذا، الوظـائف المواليـة الموجودة في المرتبـة بين صاحب الطراز وأمينه، فيذكر بالتتابع :

- الحاجب الوزير صاحب المدينة بقرطبة (98).
- صاحب الشرطة العليا (99).
- صاحب الشرطة العليا والحشم (100).
- صاحب الشرطة الوسطى والموارث (101).
- الحاجب صاحب الخيل والحشم (102).
- صاحب الشرطة العليا (103).
- صاحب الشرطة الوسطى (104).

---

96) أي من السنة الهجرية 362.

97) «قعد له»، أي لعيد الفطر الكائن في هذه السنة.

98) وهو جعفر بن عثمان.

99) وكان على رأسها يحي بن عبد الله بن يحي بن ادريس.

100) قاسم بن محمد بن طملس (بضم فسكون).

101) قاضي اشبيلية محمد بن عبد الله بن أبي عامر.

102) وكان على رأسها في هذه السنة زياد بن أفلح.

103) أحمد بن عيسى بن فطيس.

104) عبد الرحمان بن محمد بن هاشم التجيبي.

فرجة ليس فيها أحد، ثم طبقات أهل الخدمة من :

- أصحاب المخزول والخزان.
- أصحاب العراض.
- الكتاب.
- الأمناء على طبقاتهم، إلى آخر المراتب (105).

فأنت ترى أن بين صاحب الطراز وأمين الطراز مراتب عديدة.

وقد يكلف صاحب الطراز بمهمة أخرى أعلى مما توحي به وظيفته إن اقتضى الحال لا سيا إن كان بينها وبين المأمورية الموقتة الجديدة صلة، مثل ما فعل الفتى الكبير، فائق الصقلبي، صاحب الطراز حين قام (106) بتكليف من الخليفة بإطلاق سراح جعفر ويحي ابني علي من سجن الدويرة (107) بمنية الزهراء والاتيان بها إلى قصر قرطبة. يقول ابن حيان موضحا هذا الدور الجديد لصاحب الطراز (108) : «... فحضرا وقعد لهما الفتى الكبير، صاحب البرد والطراز، فائق بسقيفة دار الحصى، وشهده أكابر الفتيان والوصفاء فأوصل إلى نفسه جعفرا ويحي فقرب مجلسهما وعدد عليهما ما كان من هفواتهما وزلتهما فاعترفا بالخطأ وأقرا بالذنب...»

---

105) المقتبس، الحجي، صفحة 119.

106) بمساعدة صاحب الخيل والمدينة زياد بن افلح.

107) «سجن الدويرة» تصغير للفظة الدار يخبرنا ابن حوقل الذي كان موجودا بالأندلس في عصر بني أمية أنه كان بقرطبة حبسان كبيران الأول، رآه على مقربة من المسجد الجامع والثاني هو سجن الدويرة الذي كان يعرف أيضا بـ «المطبق» وفيه سجنا الإخوان جعفر ويحي والشيء الذي لم أستطع معرفته هو لماذا سجنا في هذا الحبس مع أنه كان مخصصا للمحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة.

108) المقتبس، الحجي، صفحة 173.

3 ـ أمانة العطب والنزائل

«النازلة» ضريبة كان يدفعها لبيت المال صاحب إقطاعه، الغاية منها تسديد نفقات الخليفة وبلاطه حين يمر على أرضه قاصدا مكانا يقتضي الأمر وجوده فيه.

كانت «النازلة» إذن ضريبة موقتة تدفع في ظروف خاصة ثم أصبحت، مع مرور الأيام، ضريبة ثابتة.

يشير ابن حيان إلى هذه الوظيفة فيقول : (109) «وفي عقب ذي القعدة منها (110) أمر الخليفة الحكم الوزير، صاحب المدينة بقرطبة جعفر ابن عثمان بأن يتقدم إلى مغيث بن محمد بن مغيث وأحمد بن عبد الله بن أبي عبدة وياسر الفتى **أمناء العطب والنزائل** بالوقوف يوما من كل جمعة يعينونه لا يتعدونه بدور أولاد أخوته الأموات لتعرف أحوال أبنائهم وأهليهم وامتحان أخبارهم وإنهاء ذلك إليه ليقابل بما يستحقه ولا يخلون به فأتمروا بذلك (111).

4 ـ أهل الشورى

لا شك أن أهل الشورى هم الفقهاء المبرزون في العلوم الدينية ذوو رأى سديد، وإن كان محقق كتاب المقتبس الذي يتحدث فيه ابن حيان عن خمس سنوات من أيام الحكم المستنصر، أي من سنة 360 هـ إلى 364 هـ (970 ـ 974 م) أثبت واو العطف بين «الفقهاء» و«أهل الشورى» مما

(109) المقتبس، الحجي، صفحة 92.

(110) من سنة 361 هجرية.

(111) نفس المصدر السالف.

قد يوهم أنها مرتبتان مستقلتان، جاء في المقتبس : «فتقدمت في أوائلهم رجالات قريش ثم الموالي ثم حكام وقضاة الكور ثم الفقهاء وأهل الشورى» (112) بواو العطف.

لكن النصوص الأخرى الخاصة بهذه الخطة وردت صحيحة دائما على هذا الشكل : «الفقهاء أهل الشورى» (113)، ثم تليهم مرتبة مطلق الفقهاء، قال : «والفقهاء أهل الشورى ثم لمن بعدهم من الفقهاء والعدول...» (114).

5 ـ البريد والفرانقون

«الفرانق» القائمون بأمر البريد الذين يحملون الأخبار. يذكر لنا ابن حيان اسمي الفرانقين الذين أوصلا كتاب صاحب الشرطة العليا وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله يخبره فيه باسترجاع طنجة إلى الطاعة وفزار حسن بن قنون خارجها، فقال (115).

«... وأنفذ كتابه (116) من مكانه بالفتح عليه يوم الخميس المؤرخ مع فحلون ابن هذيل ومسعود بن محمد **الفرانقين** من وقته ذلك، فوصلا إلى الزهراء يوم السبت..»

كما أنهم يحملون أيضا، زيادة على إبلاغ الرسائل النفقات. يقول ابن حيان في هذا المعنى : «وفي يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي الحجة (117)

---

112) المقتبس، الحجي، 94.

113) أنظر المصدر السابق في الصفحات 82 و136 و156 و206 و231.

114) المقتبس، الحجي، صفحة 136.

115) المصدر السابق، صفحة 90.

116) كتاب صاحب الشرطة العليا وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس.

117) من السنة الهجرية 361.

منها سير بإحمال الأموال والكسي إلى الوزير القائد بالعدوة محمد بن قاسم ابن طملس للنفقات على الحروب المشبوهة هناك وكان عددها خمسة وعشرين حملا توجه بها ثقاة من رجال الصيديين وعرفاء أصحاب الرسائل الخصيان وكتاب الفرانقين» (118).

كما يخبرنا ابن حيان عمن كلف من قبل الخليفة بدفع أجور الفرانقين، الموجودين بناحية طنجة وأصيلا وقت انتظار الوزير القائد الأعلى غالب ابن عبد الرحمن على جيش حسن بن قنون وصهره محمد بن حنون وعلي بن خلوف، فيقول : «...فتعجل باتخاذ الدواب لها، وتعهد إلى الخارجين بالعسكر عنه بدفع أجر خدمته لكل شهر وإلى الخازن بإجراء العلوفة على الدواب والنفقة على الفرانقين والخدمة إن شاء الله» (119).

وقد يقوم هؤلاء الفرانقون بمساعدة عرفاء المجلس والشرط لإلقاء القبض على مغضوب عليه وسوقه إلى السجن.

يخبرنا ابن حيان عن ذلك فيقول : «... وسوقه مهانا (120) إلى السجن، فمضى نحوه (121) وبين يديه عرفاء المحارس وعدة من الفرسان والفرانقين والشرط، فقبض عليه وأقبل به إلى باب السدة بقصر الزهراء، وقد أحضر له القيد فقيد...» (122).

---

118) المقتبس، الحجي، صفحة 91.

119) المصدر السابق، صفحة 136.

120) يعود الضمير هنا على محمد بن سعيد ابن خان أبي الخليفة.

121) يعود الضمير هنا على صاحب الشرطة العليا هشام بن محمد.

122) المقتبس، الحجي، صفحة 153.

6 ـ البوابـون

هذا صنف من الموظفين الصغار يـذكرهم ابن حيـان ويحـدد مرتبتهم، فيقول : «وكان في فصلان (123) بـاب جرا إلى دويرات البرطلات : (124) الـدولتـان (125) من البوابين والعبيـديين والغلمـان والـوكـلاء بـدار الخيـل وغيرهم...» (126).

ويظهر أن مكان البوابين هـو دائمًا داخـل الاقبـاء يليهم من الخـارج المماليـك أهل الصنـاعـات السلطـانيـة»، ومن الـداخل أعـوان دور الطراز» «فأعوان دور البريد»، فـ «الرماة الأحرار» (127).

7 ـ بيـاض

أعتقـد أن ابن حيـان يطلـق لفظـة «بيـاض» على مـا يعرف عنـدنـا بالأعيان. فعنده :

أ ـ **بيـاض أهـل السـوق** الـذين يقـول عنهم : «واستـدعى لمشاهدته (128) طبقات الأصناف من قريش ومن توافى فيهـا منهـا يوميـذ من رؤسـاء البربر وفرسانهم وجمهرة من وجوه أهل قرطبـة و **بيـاض أهـل السوق** فطعموا..»

123) أنظر معنى هذا في التعليق 15 م.

124) أنظر تفصيل ذلك في التعليق رقم 23.

125) علق الدكتور إحسان عباس على هذه اللفظة فقال : الدولتان الجماعتان أو الفئتان.

126) المقتبس، الحجي، صفحة 50.

127) نفس المصدر، صفحة 197.

128) يقصد به غالب بن عبد الرحمن.

ب ـ **بياض أهل قرطبة** الذين يأتون في الترتيب قبل البربر والنزّاع من أهل العدوة ووفود الأمصار، وقبل طبقات الجند على مختلف مراتبهم (129).

ج ـ **بياض الرعية** يستعمل هذا التركيب عندما يختلط وجهاء قرطبة بوجهاء الكور الأخرى، وفي هذه الحال يضطر إلى إضافة «أهل كور الأندلس» فيقول : (130)، وعم الإنذار طبقات الاجناد والأولياء بالإستعداد للركوب لتلقي الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن والإقبال بين يديه وتجويز الجند بالإنذار إلى بياض الرعية من أهل كور الأندلس...»

■ ـ **بياض الكور** وقد يحضر الحفل أعيان من خارج قرطبة فقط، ففي هذه الحال ترى ابن حيان يكتفي بقوله : «بياض الكور» :... وقد صار في مصاطب تلك «الفصلان» بياض الكور المستدعون لحضور المشهد ومعهم مشيختهم من طوائف الأجناد المعفين من الركوب وهم في أحسن زى على رؤسهم القلانس الموشية قد تقلدوا السيوف الحالية (131).

■ ـ **الجنـد**

اعتقد أن «إطار» الجند، في الحقبة التي يؤرخ لها ابن حيان معقد للغاية، وذلك لأسباب كثيرة لعلنا نشير إليها إن وفقنا إلى ذلك.

وأرى أن أحسن وسيلة يمكن أن تتبع في هذه النقطة للوصول إلى مرادنا هو التصدى للألفاظ المستعملة في هذا الباب فعسى أن نحل من خلالها وبفضلها اللغز أو جزء منه على الأقل.

---

129) أنظر مثالا عن ذلك في المقتبس، الحجي، صفحة 120. (النزاع بتشديد الزاي).

130) المصدر السابق، صفحة 195.

131) نفس المصدر السابق، الحجي، صفحة 199.

أ ـ المصلح : المدونة قال ابن حيان نقلا عن كتاب معاوية بن هشام الشبينسي : (132) «حدثني أبي هشام (133)، قال : (134) سمعت الفقيه أصبغ بن خليل يقول :

خرج الأمير عبد الرحمن بن الحكم غازيا إلى بعض أهل الخلاف بالغرب الأقصى وعقده على ألا يدخل إلى دار الحرب سنته، فلم يستنفر أهل الموسطة، واقتصر على مدونته، فلما تهيأ له مراده في عصاة أهل الغرب وأصلحه بدا له في القفول إلى الحضرة».

كانت القوة المسلحة في عهد عبد الرحمن الثالث تتكون من ثلاثة عناصر يصعب في بعض الأحيان التميز بينها.

أ ـ عنصر قار يتقاضى أجرة، ولقد كان الحكم الأول أول من نظم في الأندلس هذا النوع من الجند. يقول بعض المؤرخين : (135) «جند الاجناد المرتزقة». كان مقر هذا الجند بقرطبة.

ب ـ عنصر مكون من الشباب الذي يؤدي الخدمة العسكرية.

ج ـ عنصر مكون من جنود نودي عليهم بسبب الحملات الكبرى التي كانت تقوم بها الدولة (الحشد).

يقصد ابن حيان بـ «المدونة» الجنود النظامية المسجلين في «ديوان الجند» تمييزا لهم، من جهة عن **«الحشم»** ومن جهة أخرى عن **«المطوعة»**.

---

132) كتب معاوية، هذا الذي يعرف أيضا بـ «ابن الشبانية» تاريخا في قومه بني مروان ترجمته في تكملة ابن الأبار تحت رقم 1078.

133) توفي هذا سنة 300 هجرية (912 ميلادية).

134) المقتبس، مكي، صفحة 180.

135) ابن عذارى في **البيان**، ج 2، صفحة 81، المقري، النفح 220/1.

لكن هناك طوائف أخرى من الجنود المساعدين كانوا، هم يضافون، في بعض الأحيان للعنصر الأول. ولـذا كان يطلق عليهم «ملاحيق الديوان» (136).

ب ـ المصطلح : «حشم»

كان الحشم مكونا من المرتزقة الذين كانوا، في أغلبيتهم من العبيد لذا كانوا يعرفون بـ «المماليك» أو بـ «الصقالبة». فالفرق بين «الجنود» و«الحشم» أن «الحشم» هم المرتزقة الذين كانوا يشاركون في الحملات التي كانت تجرى في شمال الأندلس أو في افريقيا.

كان هـذا الحشم لا يمثل إلا جزءا من الجيش الخليفي. أما السواد الأعظم منه فكان يتكون من «الجند» ومن «الحشد» لذا كثيرا ما نسمع العبارة «الجند والحشود» من المؤرخين الأندلسيين» (137).

وطبعا فإن صاحب الحشم هو الذي كان يدير هـذا النوع من الجيش، وأما مرتبته فتأتي، حسب ابن حيان، على الشكل الآتي :

1 ـ أخوة الخليفة.
2 ـ الوزراء.
3 ـ جعفر ابن علي.
الفتيان الأكابر.
4........ ـ صاحب البيازة والصاغة جؤذر الفتى الكبير.
5........ ـ مرسن الفتى الكبير.

---

136) بين DOZY أن لفظة «ملاحق» كانت تطلق أيضا على رتبة عسكرية، أنظر Supplement.
137) أنظر Levi Provença تاريخ الأندلس ج 3، صفحة 67.

6........ ـ صاحب البرد والطراز.

7 ـ الوزير الكاتب، صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان.

8 ـ صاحب الشرطة العليا يحي بن عبد الله بن يحي بن ادريس.

10 ـ صاحب الشرطة العليا والحشم قاسم بن محمد بن طملس.

11 ـ صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح.

12 ـ صاحب الشرطة العليا أحمد بن عيسى بن فطيس،

13 ـ صاحب الشرطة الوسطى عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبي.

14 ـ طبقات أهل الخدمة، منهم :

- الخزان.
- أصحاب المخزول.
- أصحاب العراض.

15 ـ الكتاب والأمناء.

16 ـ الخلفاء الأكابر.

17 ـ الكتاب من الخصيان الأكابر.

18 ـ أصحاب الركاب (138).

9 ـ الحجابة

يقول ابن خلدون : «وأما دولة بني أمية بالأندلس فأبقوا إسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا، فجعلوا لحساب المال وزيرا وللترسيل وزيرا وللنظر في أحوال أهل الثغور

138) أنظر تفصيل ذلك في المقتبس، الحجي، الصفحتين 119 و120.

وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيا جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم أرتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم **الحاجب** ولم يزل الشأن هذا إلىآخر دولتهم...» (139).

والحجابة، كما يظهر بوضوح من نصوص ابن حيان، منصب سام جدا يتنافس عليه الوزراء ويتطاحنون، وهو آخر مطمح يمكن أن يطمح إليه إنسان. قال ابن حيان متحدثا عن الحاجب سفيان بن عبد ربه : «...كان من أكابر رجال أهل الخدمة الكفاءة المستقلين بأعبائها ممن جمع إلى الغناء والكفاية والعفة والأمانة، قد تولى خدمة الخزانة الكبرى أيام الأمير الحكم، وهو أول من استخزن بالأندلس وحمل هذا الإسم الذي اعتور من عمل عمله إلى اليوم، شركه في ذلك مرتيل المعروف بابن عفان، جد هؤلاء الباقين اليوم إلى جانب باب القصر الأكبر المدعو باب السدة، ولم يزل يتنقل في مراتب الخدمة إلى أن نال الحجابة...» (140).

هذا التدرج في المناصب الذي أدى بسفيان بن عبد ربه من مرتبة الخزانة إلى الحجابة هو الذي أتبعه خلفه عيسى بن شهيد. قال ابن حيان عن هذا الارتقاء : (141) «فلما أفضى الأمر إليه (142) أزلفه به وقدمه في علية خاصته، وصرفه في علي مراتبها، فولاه خطة الخيل ثم استوزره وولاه النظر في المظالم وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة ثم استحجبه

---

139) المقدمة، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، بدون تاريخ، الصفحتين 239 و240.

140) المقتبس، مكي، صفحة 165.

141) نفس المصدر السابق، صفحة 166.

142) أي الأمير عبد الرحمن.

مكان سفيان بن عبد ربه واستخصه دون أصحابه وكان أهلا لا يشاره، إذ كان من أعيان رجال الموالي في الدولة...»

لكن هذا الحاجب كان محط حسد كبير من لدن نصر الخصي الذي استطاع أن يزيل عنه الحجابة ويسندها إلى عبد الرحمان ابن رستم عندما اعتل الأمير علته الطويلة (143).

10 ـ الخازن

وضعت دولة بني أمية في الأندلس على رأس خزانة المال موظفا ساميا ذي مكانة رفيعة في إدارة الدولة وسمته «خَازِناً». كما وضعت موظفا ساميا بنفس درجته على مصانع ومخازن الأسلحة، سمته بنفس الإسم. فكان عندنا بالنسبة للوظيفة الأولى **«خازن المال»** وبالنسبة للثانية **«خازن الأسلحة»**.

نحن نعلم الآن مما تركه لنا ابن حوقل أن خازن المال في زمن عبد الرحمن الثالث، وبالضبط في سنة 340 هجرية (951 م) كان يدير خزانة بها 20.000.000 دينارا من الذهب أو 340.000.000 دينارا من فضة وهو قدر ضخم للغاية بالنسبة لذلك الزمن (144). لكننا نعرف أن القدر المالي الذي كان مودعا في خزانة المال بالأندلس وقت تحرير ابن حوقل لكتابه كان يصل إلى ضعف ما ذكر (145).

---

143) المقتبس، مكي، الصفحتان 166 و167.

144) كتاب المسالك والممالك، طبعة ليدى 1873 ج 2 ص 77.
Ed. de goeje dans B. G. A.

145) أنظر L'Espagne Musulmane au.X Siecle - Levi-Orovençi I. صفحة 73.

يحدثنا ابن حيان عن «الخازن» دري الأصغر فنلمس الثروة الهائلة التي توفرت عنده، يقول : (146) «وفي النصف الثاني من شعبان منها اقترب الفتى الكبير دري الأصغر، الخازن الصقلبي إلى الخليفة مولاه بإهدائه إليه منيته الغراء بوادي الرمان المنسوبة إليه...» إلى أن يقول : «... هدية إليه بجميع ما كان فيها داخلها وخارجها من البساتين المسقية والأراضين المزدرعة وما كان له بها من عبد وأمة وثور ودابة. اشتمل ذلك على اعداد متوالية وأموال وافرة ونعم مؤثلة، تقبلها منه الخليفة...»

وهو الذي كان يحمل الأموال لمن سيتقاضاها. قال ابن (147) حيان : «وفي يوم السبت لعشر بقين من ربيع الآخر منها (148) خرج الخازن عبد الرحمن بن أحمد بن الياس بالأموال إلى العسكر بالعدوة». وكثيرا ما يسمى هذا الخازن الذي«يبلغ»الأموال إلى الأجناد خارج قرطبة ـ **«خازن السفر»** يقول ابن حيان : «وفي عشر ذي الحجة يوم جلوس الخليفة لهما (149)، يوم دخلا إليه، وصل إلى الزهراء مروان بن أحمد ابن عبد المالك بن شهيد خازن السفر منصرفه من العسكر بالمغرب، قد بلغ الأموال وأعطاها الاجناد المتخلفين بها...» (150).

وطبعا فإن لخازن السفر خزانة تسمى «خزانة السفر» التي كان على رأسها سنة 364 هجرية خلفا للخازن المذكور عبد الرحمن بن أحمد ابن محمد ابن الياس. يقول ابن حيان عن توليته من طرف الخليفة :.... وولي عبد

146) المقتبس، الحجي، صفحة 107.

147) المصدر السابق صفحة 149.

148) من سنة 363 هـ.

149) يقصد بهما رسول اسقف جرنس ورسول فرد لندين الشور.

150) المقتبس، الحجي، صفحة 183.

الرحمن بن أحمد بن محمد بن الياس «خزانة السفر» : وأمر بإخراج المال المرسل إلى الوزير القائد ذي السيفين (151) فنفذ لوجهه...» (152).

11 ـ الرجالة

عنصر من الجيش يمشي على رجليه لا راكبا. وطبعا فإن هذا الفريق يأخذ مكانه حيث يقام الترتيب التام الذي يحضره الخليفة. قال ابن حيان : «وتقدم جميعهم في موكبه إلى أن وصل إلى قنطرة قرطبة وقد قام بها الترتيب التام والتعبئة الكاملة من الرجالة على صفين بأيديهم الترسة والرماح...» (153).

وفي الرجالة أنواع يحدثنا عنها ابن حيان، فيقول عن «رجالة الأرباض» : «...فساروا من باب المنية بين صفين مصطفين من رجالة الأرباض بقرطبة المسلحين من عند السلطان» (154).

كما يحدثنا عن «رجالة الرماة» (155) وعن «رجالة فرسان الرياضة» (156) وعن «رجالة قرطبة» (157) وعن «الرجالة المسددين» (158).

151) القائد ذو السيفين هو القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن. وأما تقليده سيفين فقد كان ذلك بمناسبة ابتداء حملته على حصن غرماج من شهر شعبان من سنة 364 هـ.

152) المقتبس، الحجي، صفحة 228.

153) نفس المصدر، الصفحتين 195 و196.

154) نفس المصدر، ص.50 و198.

155) الحجي، 199/51.

156) الحجي، صفحة 47.

157) الحجي، صفحة 197/49.

158) 49 ـ 197.

12 ـ الرد

الرد خطة من الخطط القضائية. يحدد لنا ابن سهل، وهو مؤرخ يكاد يكون معاصرا لابن حيان هذه الخطة، فيقول (159) : «وإنما كان صاحب الرد يحكم فيما استرابه القضاة وردوه عن أنفسهم. كان صاحب الرد متصلا مباشرة بالقصر الخليفي يتلقى من المتخاصمين الشكوى ضد القضاة ويرفعها إلى مولاه الذي يستشير فيها حقوقيين مشهورين، ثم حسب ما بدا له، يلغي الحكم الصادر سابقا وينطق بحكم جديد أو يرد القضية إما إلى قاض **الجماعة وإما إلى قاضي الكور.**

إن وظيفة صاحب الرد هي التي أعطتنا، نحن هنا في المغرب في القرن التاسع عشر «وزير الشكايات».

يخبرنا ابن الابار في الحلة (160) أن أحمد بن ذكوان كان صاحب الرد قبل أن يكون قاضيا، كما كان أبوه صاحب الرد كذلك حسب ما يخبرنا به ابن بشكوال (161).

نستخلص من هذا أن صاحب الرد أدنى منزلة من قاضي الجماعة. وهذا ما نلاحظه من النص الذي تركه لنا ابن حيان في مقتبسه (162) حيث يرد فيه صاحب الرد بعد ثلاث مراتب من قاضي الجماعة، هي :

ـ قاضي الجماعة.

ـ أصحاب الشرطة والسوق.

---

159) الحاشية رقم 154 من المقتبس، مكي، صفحة 288.

160) الحلة، صفحة 155.

161) الصلة، الترجمة رقم 63، صفحة 35.

162) المقتبس، الحجي، صفحة 198.

ـ صاحب الشرطة.

ـ صاحب الرد.

فلم يكن صاحب الرد مسؤولا فقط عما استرابه القضاة وردوه عن أنفسهم، وإنما كان يعهد إليه الخروج إلى الكور : «لمطالعة رعاياها والكشف عن سير عمالها والتحقيق في شكاياهم» (163).

13 ـ الركاب (صاحب)

وردت الإشارة إلى هذه الوظيفة عند ابن حيان، قال : «ثم الكتاب منهم ثم الوصفاء ثم أصحاب الركاب على مراتبهم إلى آخر المجلس» (164).

يظهر من هذا النص أن هذه الوظيفة متأخرة جدا في الرتبة ولا أدري بالضبط ما هي :

14 ـ الراشدة

جاء في التعليق رقم 79 الذي كتبه الأستاذ محمود علي مكي على مقتبس ابن حيان ما يلي : (165) «كانت وظيفة» «الراشدة» من وظائف الخلافة في ظل بني أمية وقصور كبار رجالات الدولة. وقد أشار ليفى بروفنسال في حديثه عن وظائف القصور وطبقات أهل الخدمة فيها إلى أنه يبدو من بعض نصوص المقتبس (القطعة التي لا تزال مخطوطة والخاصة بعهد الأمير ابن الحكم بن هشام وابنه الأمير عبد الرحمن وهي المتصلة بالقطعة التي

---

163) المقتبس، مكي، الحاشية رقم 154، صفحة 288.

164) المقتبس، الحجى، صفحة 119.

165) المقتبس، المكي، صفحة 259.

ننشرها، ورقة 194 وجه) إن قصر الأمير كان يشتمل على عدد كبير من القائمات بالخدمة من النساء ترأسهن «قهرمانة» وتتلوها الوصيفات والطاهيات و«الراشدات» أي المدبرات. ويبدو من هذا النص أن الراشدات كن ذوات الصلة المباشرة بالأمير القائمات على رأسه وأنه كانت لهن الرياسة على من يدعوهن المؤرخ «الخزانات» (بتشديد الزاي) أى الأمينات اللاتي يعهد اليهن بحفظ الخزائن المختلفة مثل «خزانة الكوة» المذكور هنا (أنظر ليفى بروفنسال تاريخ 400/3، حاشية (166) رقم 3) انتهى تعليق الدكتور مكي.

15 ـ السكة (صاحب)

يقول الأستاذ ليفى بروفنسال : يعطينا الكتيب الصغير، المجهول المؤلف ذو العنوان «كتاب الزهرات المنثورة في الأخبار المأثورة» معلومات قيمة عن السكة الخليفية بالأندلس، لم يكن، حسب هذا المؤلف، لسكان اسبانيا المسلمة من الفتح حتى خلافة الأمير عبد الرحمن الثاني سكة وطنية حقيقية. كانوا يستعملون، بأعداد قليلة جدا قطعا من الدينار والدرهم التي كان يحملها معهم المسافرون المسلمون. كانت السكة إذن نادرة جدا، وكل المعاملات تقريبا كانت تجري على أساس التبادل. فبقيت هذه الحالة على هذا الشكل مدة قرن وربع قرن إلى أن قرر عبد الرحمن الثاني بنصيحة من الحارث بن أبي الشيب أن يضرب السكة في قرطبة. لكن الاصدار كان ضعيفا للغاية ولذا استمر تداول السكتين معا الأندلسية والشرقية.

لقد رأينا أن مقر خزانة المال كان هو القصر أما دار السكة فلم تدخل القصر أبدا، بل أن المصانع التي كانت تصنع السكة بقيت خارج القصر طيلة العهد الأموي.

---

166) أنظر الحاشية رقم 2 في كتابه L'Espagne Musulmane au X Siecle صفحة 75.

كان الذي يدير دار السكة هو صاحب السكة الذي كان يختار من عائلات مشهورة، وكان اسمه يطبع تحت اسم الخليفة على وجه جميع القطع.

وفي سنة 336 هجرية (48 ـ 947 م) نقلت دار السكة من قرطبة إلى مدينة الزهراء (167).. ونعلم من صاحب كتاب «مختصر كتاب البلدان» أن دار السكة كانت قبل نقلها إلى مدينة الزهراء في حي باب العطارين.

وأشهر من كان على رأس دار السكة هو قاضي اشبيلية وصاحب المواريث محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافرى، الملقب بالمنصور. يقول ابن حيان : «فلما أن كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة خلت من ذي القعدة منها خرج صاحب السكة والمواريث وقاضي اشبيلية محمد بن أبي عامر فتى الدولة لتلقى جعفر ابن علي...» (169) يخبرنا ابن حيان أن هذه الخطة أزيحت عنه سنة 361 هجرية (170)، فتقلدها صاحب الشرطة العليا القائد بجيان يحي بن ادريس الذي قال عنه ابن حيان : «فلم يستقل يحي بأمر السكة ولا تهيأ له قعود فيها ولا ضرب دينارا ولا درهما. إلى أن صرف عنها بأحمد بن حدير في صدر رمضان من هذه السنة...» (171).

16 ـ الشرطة (صاحب)

أورد الدكتور محمود على مكي معلومات قيمة عن هذه الخطة في التعليق رقم 151، صفحة 285 من تحقيقه لكتاب المقتبس، نقتبس منها ما

---

167) ابن عذارى، البيان، الجزء الثاني، صفحة 231.

168) ليفي بروفنسال، اسبانيا الإسلامية في القرن العاشر صفحة 76.

169) المقتبس، الحجى، صفحة 41.

170) وقد كان تقلدها منذ سنة 356 هـ. حسب ما يخبرنا به ابن عذارى.

171) المقتبس، الحجى، صفحة ـ 72. مع الإنتباه إلى أن ابن حيان سيخبرنا ثانية عن ازاحة هذه الخطة من ابن أبي عامر ويقلدها من بعده يحي بن عبد الله بن ادريس وهو أمر غريب ولا شك ـ أنظر المقتبس الحجى، صفحة 170، 187.

يلي : «يبدو من نص ابن حيان الوارد هنا أن خطة الشرطة كانت معروفة في الأندلس قبل عبد الرحمن الأوسط، ولكن إلى هذا الأمير يرجع الفضل في ادخال تعديلات جديدة مهمة على هذا النظام. فابن سعيد يقول في المغرب (46/1) أنه هو الذي ميز ولاية السوق من أحكام الشرطة المسماة بولاية المدينة، فأفردها وصير لواليها ثلاثين دينارا في الشهر ولوالي المدينة مائة دينار». ثم يقول بعد ذلك : غير أن المراجع لم تفدنا في التعريف على تحديد اختصاصات كل منها وواجباته وكل ما يبدو لنا هو أن صاحب المدينة كان أعلى مكانة من صاحب الشرطة وأوسع اختصاصا... على أن المشكلة في التعرف على حقيقة خطة الشرطة لا تنتهي عند هذا الحد. بل أن لدينا ذلك التجديد الذي أدخله عليها عبد الرحمن الأوسط نفسه، إذ هو الذي فرع الشرطة إلى نوعين الشرطة العليا والشرطة الصغرى...

«غير أن خطة أخرى ظهرت على وجه التحديد في سنة 317 (929 م) فأضافت تعقيدا جديدا على المسألة، تلك هي خطة **الشرطة الوسطى** (تولاها في بداية أمره ابن أبي عامر). لكننا لا نعرف شيئا عن واجبات الشرطة الوسطى واختصاصاتها، وإن كان ليفي بروفنسال قد حاول أن يبين أن الطبقة الوسطى المكونة من «الأعيان» والتجار وصغار الموظفين والمتقلدين لبعض الخطط هي التي كانت السبب في أحداث هذه الشرطة ولكن ليس هناك من المراجع ما يؤيد رأي بروفنسال على وجاهته.

ولا شك أن هذه الخطط تحولت إلى ألقاب تشريفية، وطبعا فإن العليا أعلى مكانا من الوسطى والوسطى أعلى من الصغرى في نسق هذه الألقاب التشريفية.

17 ـ الصلاة (صاحب)

صاحب الصلاة هو إمام صلاة الجمعة والعيدين والذي يؤم بالناس في صلاة الإستسقاء عند الاقتضاء. قاضي قرطبة الكبير هو الذي يكون عادة مسؤولا عن الصلاة. فإذا ما جمعت الخطتان خطة القضاء وخطة الصلاة في يد شخص واحد فإن هذا الشخص يصبح ذا مكانة مرموقة جدا لأن خطة القضاء تعطى لمن يتولاها قوة لا توصف فإن أضيفت إليها خطة الصلاة وصلت القوة منتهاها، يقول عنها ابن سهل : «لا سيا إذا اجتمعت إليهما الصلاة» (172).

18 ـ الطراز (صاحب)

أنظر أمين الطراز.

19 ـ العرض (صاحب العرض)

لم يكن صاحب العرض موظفا خاصا بالأندلس بل كان يوجد في جميع أنحاء العالم العربي وهو الذي يراقب عتاد الجنود.

وإننا لنستطيع أن نتصور مرتبة هذا الموظف بكل دقة من نصوص عديدة موجودة في المقتبس، فهو مثلا يوجد بالضبط بين «الخزان» و«طبقات أهل الخدمة» (173)، إنها ليست مرتبة عالية جدا، ولكن يمكن لمن أخلص العمل فيها أن ينتقل إلى درجة التي هي أعلى منها وهي الخزانة أو حتى إلى التي فوقها فيصبح صاحب المخزول. قال ابن حيان عمن ترقى هذه الترقية : «وفي يوم الاثنين لخمس خلون من رمضان منها توصل إلى الخليفة المستنصر

---

172) الحاشية رقم 2 من الصفحة 84 من «اسبانيا الإسلامية لليفي بروفنسال».

173) المقتبس، الحجى، الصفحات 200 و210 و230.

بالله فائق مولاه، خال الأمير ابن الوليد هشام، فقدمه من خطة العرض إلى خطة المخزول وأوصل إلى نفسه أصحاب المخزول وأعلمهم بما رآه من انهاض فائق هذا إلى المخزول مشركا معهم» (174).

ومعلوم أن هذه الخطة تأتي دائما عند ابن حيان على هذا الشكل.

- الشرطة العليا والوسطى.
- أصحاب المخزول.
- الخزان.
- العراض (175).

وبما أن درجته دون صاحب الشرطة فإن هذا الأخير يستطيع إن كلف من طرف من اله الأمر أن يجرى عليه تفتيشا ويرفع به تقريرا، قال ابن حيان : «وفيه (176) خرج صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر قاضي كورة حيان لامتحان ما رفع به أهلها على العارض عبد الرحمن بن جهور عاملهم...» (177).

وقد لا يرتقي العارض إلى مرتبة عليا ولكن تضاف إليه مهمة أخرى هو بها أهل دون سواه، لقد أضيفت، مثلا، مهمة «الكتابة» إلى العارض أحمد بن أبان بن سيد أبو القاسم، التلميذ النجيب للعالم اللغوى أبي علي القالي. قال ابن حيان : «وفي هذا الوقت خرج الوزير محمد بن فطيس

---

174) المصدر السابق، صفحة 77.

175) أنظر هذا في المقتبس، الحجي، الصفحات 30، 51، 59 حيث يضيف الشرطة الصغرى قبل أصحاب الخزول.

176) أى في شهر جمادى الأخرة من سنة 362 هجرية.

177) المقتبس، الحجي، صفحة 300.

إلى اشبيلية واستخلف على الكتابة العارض الكاتب أحمد بن أبان بن سيد» (178).

أخذت اسبانيا المسيحية هذه الخطة وأدخلتها في جيوشها وسمتها بـ Mestre racional (179).

وقد احتفظ المغرب إلى أوقت قصير بهذا المنصب في جيشه لكنه كان يسميه بـ «العلاف» وكان من مهمته مراقبة أداء الأجور لأفراد الجيش، وأنها لم تكن لا منقوصة ولا مختلسة.

20 ـ العريف

هذا منصب غير محدد تحديدا دقيقا لأنه يطلق على خطط لا على خطة واحدة. ولهذا ترى ابن حيان يقول : «صنوف العرفاء» (180) مما يدل على اختلافهم وتنوعهم، وهكذا ذكر ابن حيان :

1 ـ العرفاء المحارس (181).

2 ـ العرفاء المدرعين (182).

3 ـ العرفاء أصحاب الرسائل (183).

ويخبرنا ابن عذارى أنه كان يوجد على رأس «النقابين» الذين كانت مهمتهم فتح فجوات في أسوار العدو رئيس يسمى «عريف» (184).

---

178) المصدر السابق، صفحة 150.

179) أنظر .Gonzalez Palencia de la Espana Musulmana الطبعة الثانية، صفحة 199.

180) المقتبس، الحجى، صفحة 196.

181) المصدر السابق، الصفحتين، 153، و196.

182) المصدر السابق، الصفحتين 45، 49.

183) المصدر السابق، الصفحة 76.

184) البيان، الجزء الثالث، الصفحتين 22 و227.

كما يوجد على رأس كل أربعين جنديا عريفا يميز بحزام من الذين يؤطرون الجيش على الشكل الآتي :

الفريق المكون من	يقسم على	يوجد على رأس كل	يميز بـ
5000		5000 أمير	راية
	5	1000 قائد	علم
1000	5	200	لواء
200	5	40 عريف(185)	حزام
40	5	8 ناظر	عقده

إلا أننا نجد في كتاب أخبار مجموعة (186) لمؤلف مجهول أن العريف يرأس مائة من الخيالة لا أربعين.

كما أن العريف كان يطلق أيضا على فرقة من الجنود الذين كانوا يركبون البغال. كان يعرف أيضا بـ «**صاحب البغال**» وهو طبعا غير صاحب الخيل (187).

21 ـ الفرانق

أنظر البريد، صاحب البريد.

22 ـ الفرسان

هذه مثل العريف تطلق على طوائف من الجند كثيرة، منها :

---

185) استعارت اللغة الإسبانية المفهوم من المسلمين وأطلقت عليه نفس الدال. فقال «Larife» وهو اليوم يطلق فقط على رئيس البنائين.

186) نشر La fuente y Alcantara الصفحتين 129 و130.

187) أنظر ابن الأبار، الحلة، صفحة 78 ولقد خصص ابن حيان هذه الخطة بتفاصيل مفيدة.

1 ـ الفرسان أصحاب التجافيف (188).

2 ـ الفرسان أصحاب الجواشن (189).

3 ـ فرسان الخمسين.

4 ـ فرسان الرياضة.

5 ـ فرسان العبيد.

6 ـ الفرسان المدرعون (وفيهم أنواع).

23 ـ القاضي

اعتقد أن هذه خطة معروفة جدا، ورغم تشعبها فلا أرى فائدة في عرضها لشهرتها.

24 ـ قائد البحر (صاحب البحر)

يحدثنا ابن حيان في مقتبسه عن صاحب البحر الذي قلد أيضا الشرطة العليا عبد الرحمن بن رماحس في الخمس سنوات من عهد الحكم المستنصر التي امتدت من سنة 360 هجرية (970 م) إلى 364 فيقول عنه : «أكبر قواد الخليفة المستنصر بالله المتكاملين بالعدة» (190).

25 ـ قائد الصائفة

يقول الدكتور محمد على مكي معلقا على قول ابن حيان (191) : «...وكان أهلا لإيثاره (192)، إذ كان من أعيان رجال الموالي في الدولة،

188) هي من التجفاف وهي آلة للحرب يتقى بها كالدرع للفرس والإنسان.

189) الجوشن، الدرع، ربما هذه لا تهم إلا بالدروع التي كان يلبسها الجندي في حين أن الآخرين كانوا يهتمون أيضا بلباس الفرس.

190) المقتبس، الحجي، صفحة 96.

191) المقتبس، مكي، صفحة 166.

192) يقصد به الحاجب عيسى بن شهيد.

وهم متوافرون ومن أشهرهم بالحلم والوقار والحصافة والعلم والمعرفة والحزم والجزالة، وقد قاد بالصوائف (193) فأحمدت سياسته، وكانت له في التدابير آراء صائبة، وفي الحروب مقاوم كريمة وتهيأت له على العدو وقائع مثخنة» :

«الصوائف» جمع «صائفة» مشتقة من الصيف، هي الحملات التي جرت عادة أمراء بني أمية وخلفائها على توجيهها إلى «دار الحرب» خلال فصل الصيف، وقد استقر تقليد هذه الحملات حتى أصبحت وظيفة ثابتة يعهد بها إلى أحد القواد الكبار أو إلى واحد من أفراد الأسرة الحاكمة. وكثيرا ما كان الأمير أو الخليفة نفسه هو الذي يضطلع بقيادتها. وكان الإستعداد لها يبدأ في شهر يونيه. وكانت قيادة الجيش تتكتم دائما أخبار الطريق الذي ستنهجه حملة الصائفة حتى تكون ضرباتها مفاجئة للعدو، وقد وافتنا المراجع الأندلسية بكثير من التفاصيل حول هذه الحملات».

إننا نلاحظ أن في سنة 361 هجرية كان صاحب الشرطة العليا هشام ابن محمد قائدا للصائفة أيضا (194).

26 ـ المحارس

أنظر في «العريف».

27 ـ المخزول (صاحب المخزول)

كان صاحب هذه الخطة مسؤولا عن الأموال المخصصة للنفقات والأغطية.

---

193) أنظر التعليق رقم 107، صفحة 267.

194) المقتبس، الحجي، صفحة 92.

يقول ابن حيان موضحا ما يقوم به صاحب الخزول : «وخرج بخروجه أحمد بن محمد بن حدير بثمانين ألف دينار درهم لقطائع الأجناد المشتهرين بطنجة وأصيلا لشهر رمضان منها وما بعده، وخوطب صاحب المخزول سلمة بن الحكم العفرى بقبضها وتوزيعها» (195). كما ينص على نوع المال الذي يوزعه فيقول : (196) «وفي يوم الثلاثاء لسبع خلون من رجب منها خرج صاحب المخزول سلمة بن الحكم إلى العدوة وبين يديه عدة أحمال من المال العين لإعطاء مصاريف المجهزين بها».

كما يصف القدر الموزع فيقول (197) : (وفي يوم السبت لأربع بقين منه خرج صاحب المخزول ناجيت بن محمد (198) إلى العسكر بالعدوة بأحمال جمة من الأموال والنفقات والأعطية.

28 ـ المخلف (على الشرطة، على المدينة)

ذكر ابن حيان هذين الموظفين مرارا في مقتبسه ولم يوضح عملها بالضبط فلا أدرى حقيقة دورهما.

29 ـ المدينة (صاحب)

كان صاحب المدينة مسؤولا عن الأمن العام في مدينته، بمعنى أنه كان «عاملا» على المدينة كما نقول نحن هنا في المغرب. لقد كان إذن أكبر شخصية

195) المصدر السابق، صفحة 106.

196) المصدر السابق، صفحة 104.

197) المصدر السابق، صفحة 139.

198) اعتقد أن هذه الخطة كانت بين يدي شخصين هما سلمة بن الحكم المذكور سابقا والمذكور هنا ناجيت بن محمد لنا ذكرهما معا في نفس السنة (362 هـ) على أنهما معا صاحبا الخزول، شيء واحد يمكن أن أؤكده هو أن سلمة بن الحكم بقي على رأس هذه الخطة إلى سنة 364 حيث سخط عليه الخليفة وأدخله السجن ثم صفح عنه وأعاده إلى وظيفته (المقتبس الحجى، 202) وعلى كل فالأمر يحتاج إلى مزيد من البحث.

في المدينة وكان يسمى في بعض الأحيان «حكيم» أو «حكيم المدينـة» (199)، وفقط «الصاحب» (200) أو «متقلد المدينـة». لقـد كانت لـه مهمـة أعظم في هذا. ذلك أن الخليفة كان يترك، في العاصمة عندما يخرج غازيا أحد أبنائـه نائبا عنه (201)، يبقيه تـارة مع الحـاجب ولكن دائمـا وبـدون استثنـاء مع «صاحب المدينة». ولقـد كان يجوز، في هـذه الأحوال لصـاحب الشرطـة أن يتغيب عن المدينة. ولم يكن ليجوز لصاحب المدينة أن يفعل مثله أبدا. لقد كان مسؤولا عما يجرى في المدينة وفي القصر أيضا.

لقد أثر هذا النظام المحكم كغيره طبعا في ملوك اسبانيـا المسيحيـة التي استعارت من المسلمين الوظيفة واسمها، لذا كنا نجد في النظام المسيحي الذي تلا مباشرة غزو الأندلس الإسلامية الوظيفة Zalmedinas «لصاحب المدينة» وzavasordas لـ «صـــاحب الشرطـــة» وAlguaciles «للـوزير» وAlcalde «للقـاضي» وAlmajarife «للعريف» وAlcabala للقبـالـة الـذي أعطى في الفرنسيـة ganama, Gabelle «غرامـة» و Alfardas للفرض وAzaques للـزكاة وAzofras لـلسخرة وAlbaqu'as للبقيـــة وAlmoktalo للمختلف وAlmotacens للمحتسب (202).

نعلم أن صاحب المدينة هو دون الحاجب، ذلك أن موسى بن محمـد بن حدير الذي كان يشغل في عهـد الأمير عبـد اللـه «خطـة القطوع أصبح في عهد عبد الرحمن الثـالث صـاحب المـدينـة وزيرا، وفي سنـة 309 هـ (22 ـ

---

199) ابن عذاري، البيان، الجزء الثالث، صفحة 54.

200) المصدر السابق، صفحة 58.

201) ليس من الضروري أن يكون وفي عهده.

202) أنظر مزيدا من التفصيل في هذا الموضوع، زيادة على ذيل Dozy Gonzalez palencia. Historia de la Espana Musulmana. من صفحة 196 إلى صفحة 199.

921 م) عين في أعلى منصب وهو الحجابة الذي احتفظ به إلى وفاته سنة (320) (932 م).

نعرف الآن أصحاب المدينة الذين تولوا هذا المنصب في سنة 300 هجرية (912 م) أي من بداية عبد الرحمن الثالث إلى سنة 320 هـ (932 م) وهم كما يلي :

من 300 إلى 302.......... موسى بن حدير.
من 302 إلى 314.......... محمد بن عبد الله الخروبي.
من 314 إلى 316.......... عيسى بن أبي عبدة.
من 316 إلى 319.......... أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف.
في 319.......... يحيى الغبرصي وعبد الحميد بن باسل.
في 320.......... فطيس بن أصبغ.

يقول الدكتور محمود علي مكي «.... وكان أصحاب الشرطات الثلاث الشرطة العليا والوسطى والسفلى يخضعون له ويأتمرون بأمره، وإن كنا لم نستطع حتى الآن أن نميز تمييزا واضحا بين اختصاصات صاحب المدينة وأصحاب الشرط المذكورة» (203).

30 ـ **المظالم** (صاحب)

يقول الدكتور محمود على مكي عن هذه الخطة : «خطة النظر في المظالم» أو «أحكام المظالم» من الخطوط القضائية التي كان لها في الأندلس وضع خاص ليس مماثلا تماما لما جرى به العمل في المشرق.

(203) أنظر التعليق رقم 126. صفحة 275 من المقتبس الذى حققه.

وإذا كانت هذه الخطة قد ظهرت في عصر مبكر في دولة بني أمية بالأندلس فإن معالمها لا تتضح وواجباتها لا تتحدد إلا في القرن الرابع الهجري في ظل الخلافة المروانية. ويبدو من استقراء النصوص حولها أن صاحبها كان في مرتبة أدنى من قاضي الجماعة (الذي يقابل قاضي القضاة في المشرق)، وأنه على الرغم من ذلك كان ينظر في القضايا العاجلة التي لا تحتمل بطء الإجراءات القضائية العادية وتعقيدها، وتصور لنا حدود هذه الوظيفة قصة يرويها ابن عذارى (البيان 310/2) يذكر فيها أن رجلا من العامة وقف عليه بمجلسه فاستصرخه على أحد الفتيان والصقالبة الذين كانوا يقفون على رأسه، فقال : إنه ظلمه في معاملة كانت بينهما وأنه دعاه إلى القاضي فلم يأت (وكان القاضي هو عبد الرحمن بن فطيس) فغضب المنصور ولام قاضي الجماعة على تهاونه ثم أمر فتاه بأن ينزل ويساوى خصمه الشاكي في المقام، وأمر صاحب شرطته بأن يحمل الرجلين إلى «صاحب المظالم» حتى ينظر في القضية وينفذ فيها حكمه. وكثيرا ما كان النظر في المظالم يضم إلى اختصاص قاضي الجماعة كما نستخلص من بعض تراجم القضاة (وانظر في هذه الخطة كتاب ليفي بروفنسال : تاريخ 145/3 - 147) (204).

أما دور «صاحب المظالم» فقد أوضحه بشكل يشفي الغليل العلامة Ribera (205).إن هذه الخطة هي التي أحدثها المسيحيون وسموها بـ Justicia Mayor

---

204) أنظر تعليقه رقم 106 في المصدر السابق، صفحة 266.

205) أنظر : Origines del justicia de Aragon P.P. 127 – 134

31 ـ المواريث (صاحب)

كانت هذه الخطة، في الجزء الذي يتحدث فيه ابن حيان عن أيام الحكم المستنصر، وهي خمس سنوات تقريبا في يد محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري. وكثيرا ما كان يجمع إليها إما خطة السكة والقضاء (206)، وأما هذه الخطط مضاف إليها خطة الشرطة الوسطى. قال ابن حيان عن هذه الإضافة : (207) «وقدم محمد بن عبد الله ابن أبي عامر إلى خطة الشرطة الوسطى مجموعا له إلى ما في يده من خطة المواريث بالقضاء باشبيلية ووكالة الأمير أبي الوليد هشام (208)، أو أنه يضيف إليها خطة قاضي القضاة مما يدل على رضى الخليفة عليه. قال ابن حيان : (209) «وفي صدر شوال المؤرخ (210) أرسل الخليفة الحكم ثقته محمد بن عبد الله بن أبي عامر إلى العدوة بإحمال مال وحلي وخلع لِقيّتها على النزاع والمستمالين من أكابر البرابر إلى الطاعة والإمتحان ما أمر به بالجهة. وولاه في هذا الوقت **قضاء القضاه** بالعدوة مجموعا إلى ما يتقلد من خطتي الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء كورة اشبيلية فارتفع قدره في الدولة وبلا منه السلطان نصيحة وكفاية مكنتا لديه الحظوة».

32 ـ الوزير

كانت الوزارة في أغلب الأحيان منصبا «ترتيبيا» تضع صاحبه في المكان الذي يستحقه عند الخليفة، لذا نرى من قراءتنا لكتاب ابن حيان أن

206) المقتبس، الحجي، صفحة 41.

207) المصدر السابق، صفحة 72.

208) ولكن أزيلت عنه خطة السكة التي تقلدها منذ عام 356 هـ حسب ما يخبرنا به ابن عذارى، وانظر كذلك المقتبس، الحجي، صفحة 106.

209) المقتبس، الحجي، صفحة، 123.

210) أي من السنة الهجرية 362.

الشخص الذي يحمل لقب الوزير يحتفظ عادة به عند ما يقلد خطة أخرى، أنه فقط يرفع أجرته المالية إلى قدر محترم. كان الوزير في الشرق العربي ينوب عن الخليفة، لكنه صار في الأندلس مجرد منصب تشريفي قد يحمله كاتب أديب أو حتى قائد قرية كما نلاحظ ذلك من قراءتنا لقلائد العقيان لابن خاقان.

وهكذا كان مثلا قاضي القضاة يحمل اسم «الوزير القاضي» (211) ونرى قائد سرقسطة أحمد بن يعلى وزيرا (212).

33 ـ وصيف

الوصيف هو الذي بلغ أوان الخدمة ويحسن القيام بها. لكن يظهر أن الوصافة لا تمنح إلا لمن أحرز على رضى الخليفة أو لمن له الأمر بعده. لذا نرى أن الوصفاء يقومون هم أيضا في «الترتيب» شأنهم في ذلك شأن أصحاب الخطط الذين فوقهم مباشرة مثل الكتاب والفقيان الأكابر (213)، والوصفاء أصحاب الركاب (214).

34 ـ وكيل

منهم وكلاء بدار الخيل ووكلاء (215) دور دواب السلطان (216).

الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

---

211) أنظر الأحكام الكبرى اللوحة 209 من مخطوط الرباط.

212) المقتبس، الحجي، صفحة 68.

213) المصدر السابق، الصفحات 51، 77، 119، 173، 184.

214) المصدر السابق الصفحتين 198 و230.

215) المصدر السابق، الصفحتين 50 و151.

216) المصدر السابق، صفحة 198.

العلاقات المغربية الأندلسية
من خلال "المقتبس" لابن حيان

د. عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية
عن كتابه "التاريخ الدبلوماسي للمغرب".

كان ابن حيان كثير الإهتام بالحديث عن السياسة الخارجية لبني أمية، سواء إزاء المالك المسيحية أو الإمارات الإسلامية...

وإذا كان المؤرخ القرطبي أكتفى بالإشارة فيا يتعلق بالذين يجاورونه عن كثب، فإنه كان يجد قابلية للتفصيل فيا يتعلق بصلة الدولة الأموية بالعدوة المغربية...

وهكذا وجدناه يولي عنايته لسائر الإمارات التي انفصلت عن الخلافة في المشرق وانشأت لها كيانات خاصة بها من أمثال امارة نكور وبني مدرار في سجلماسة وبني رستم في تاهرت، بل والبرغواطيين في تامسنا.. على نحو ما اهتم ابن حيان إلى جانب ذلك بالصلات مع الأغالبة والعبيديين...

نحن إمام عشرات من السفراء المعروفين بالإسم والصفة، وأمام ضعف هذا العدد ممن اكتفى ابن حيان بالإشارة إليهم، ونحن من جهة أخرى أمام

عشرات الوثائق الهامة التي كانت تتمثل في شكل خطابات أو توجيهات أو تعيينات.

لقد أمدنا ابن حيان في هذا الصدد بأزيد من مائة وخمسين وثيقة تمتد عبر السنين الطوال التي شهدتها دولة بني أمية وعاشتها الإمارات المغربية... كان جل الوثائق على مستوى القمة، وفيها الكثير مما كان يتبادل بين العمال والوزراء فيما بينهم.

وقد ظهر جليا أن علاقة بني أمية بإمارات العدوة المغربية لم تكن تهدف لشيء في البداية غير كسب الصداقات، أو بالحرى التزود بالكثير من الأخبار التي تفيد الدولة.

لقد كان بنو أمية يشعرون بعقدة إزاء النبأ... فإنهم ضيعوا دولتهم الأولى بالمشرق بسبب إهمالهم لأهمية الأخبار!!.

لقد سئل بعض المؤرخين : «ما الذي أذهب ملك بني مروان ؟ فقال تحاسد الاكفاء وإهمال الأنباء... فعلا كان يزيد بن عمر بن هبيرة يحب أن يضع من قدر منافسيه نصر ابن عامر، فكان لا يمده بالرجال ولا يرفع إلى السلطان ما يرد عليه من أخبار خراسان... فكان العباسيون يؤسسون دولتهم ولا تصل أخبارهم إلى سلطان بني أمية حتى استفحل أمرهم وضعف أمر بني أمية !

لقد كنا في معظم وثائق ابن حيان نشهد مدى اهتمام بني أمية بأخبار المغرب والمشرق وقد ورد في صك تكليف العمال، وجوب «التزامهم بإنهاء الأخبار على وجهها واستطلاع الرأي فيما أظلهم فيها...» وقد ورد في

خطاب للقائد الأعلى الوزير غالب «الإلحاح» على إقامة البرد وتنظيم الرجال المتخصصين في الركض بالأخبار وتعهدهم بدفع الأجور السخية.

لقد ظل ابن حيان يبرز أهمية الأنباء بالنسبة للدولة حتى تظل هذه على صلة بما يبرم وراء ظهرها...

☆ ☆ ☆

وقد اكتفى بنو أمية بذلك النوع من الإستطلاع وظل موقفهم من الإمارات موقف التواد... وحتى عندما ظهرت الشيعة الإمامية، اكتفى بنو أمية بنوع ذلك الإتصال، ولم يتغير الموقف الأموي إلا عندما تأكد أن الشيعة يعملون على **تصدير** مذهبهم لداخل ديار المغرب، فهنا فقط بدأ رد الفعل الأندلسي !!! وقد ظهرت معالم ذلك (التصدير) في الانقضاض على سجلماسة : باب الصحراء، على نكور : باب المتوسط، بل وفي الاستيلاء عام 305 = 918 على فاس عاصمة دولة بني ادريس !

وبهذا نفسر اقدام عبد الرحمن الناصر على مبادرتين اثنتين، الأولى : اتخاذه لقب أمير المومنين عام 310 = 922، الثانية : حملته الدبلوماسية المكثفة لاستقطاب الزعماء المغاربة ودعوتهم لزيارة قرطبة لبسط الخطر الشيعي الذي يهدد البلاد، وهكذا وجدنا بالعاصمة الأندلسية محمد بن خزر أمير زناتة وابن أبي العافية صاحب فاس وصالح بن سعيد صاحب نكور وغير هؤلاء، ومن هنا أخذ عبد الرحمن يضع الخطط المحكمة لمواجهة الفواطم، ويدبر النزول في العدوة المغربية.

وفي هذه الأثناء جد في المشرق حدث خطير عجل تنفيذ خطة الناصر القاضية بالعبور إلى المغرب، ويتعلق الأمر بجرأة القرامطة على اقتلاع الحجر الأسود من جدار الكعبة المشرفة عام 317 = 929.

إن الشيعة ضالون ومضللون وأن العباسيين لم يعودوا حماة للحرمين ! وأكثر من هذا فإن للقرامطة في الشرق صلة بالشيعة في المغرب...

وليس هناك من منقذ للإسلام من هؤلاء غير أن تأخذ الجيوش الأندلسية والمغربية طريقها نحو المشرق لاسترجاع التراث على حد تعبير الرسائل الرسمية...

لقد ظل بنو أمية متعلقين بوطنهم الأول... ومن ثمت شاهدنا إقبالهم على إعطاء الأسماء المشرقية للمدن الأندلسية استحضارا واستذكارا، بل رأيناهم يطلقون تلك الأسماء على كتائب الجيش، فهؤلاء «جند فلسطين» والآخرون «جند الأردن» الخ.

وهكذا ظهرت في المعالم السياسية الخارجية الأندلسية، وفي الرسائل الرسمية فكرة الإستعداد لقصد بلاد المشرق عن طريق المغرب، وعبر المتوسط كذلك...

ومن هنا نزل الأسطول الأموي مدينة سبتة عام 319 = 931، الأمر الذي فاجأ طائفة من بني ادريس ممن كانوا يحكمون شمال المغرب، حيث رأيناهم يقاومون النزول الأموي في سبتة...

ويتساءل عن عدم اهتمام عبد الرحمن بمخاطبة بني ادريس على نحو ما فعل مع الزعماء الآخرين ؟ لقد كانت العاصمة قد سقطت منذ عام 305،

وأن الأدارسة الذين كانوا يعتصمون بقرون الجبال، كانوا مختلفين على نفوسهم، ولهذا نعتقد أن ذلك الإستسلام وهذا الموقف المتضارب من الأدارسة هو الذي جعل الناصر يهمل مخاطبتهم، وهو الذي دفع بابن حيان لأن يعد فصلا خاصا ببني ادريس : أصولهم وطموحهم ومصيرهم...

وقد تجلى نفس ابن حيان واضحا إلى جانب بني أمية، وهكذا فبالرغم من تنصل بني ادريس في خطاباتهم من التشيع، وأنهم إنما كانوا يدارون العبيديين تقية على نحو ما فعل نبي الإسلام مع صفوان بن أمية الجمحي، بالرغم من ذلك فقد ظل ابن حيان يتهم بني محمد بن ادريس بالتعصب للشيعة، حيث إن هؤلاء يدعون الإمامة...

وقد قام عدد من السفراء الأندلسيين بدور بارز في الاتصال بزعماء المغرب وأمرائه، وإصلاح ذات البين فيما بينهم لاستئلافهم لبني أمية... توسطوا بين بني محمد وبني عمر.. وبين ابن خزر وابن أبي العافية...

وكان على رأس السفراء الذين قاموا بهذه المهمة ابن أبي عيسى الذي شاهدناه يتردد عددا من المرات بين عدوة الأندلس وعدوة المغرب، ويستطيع الحصول من بعض بني ادريس على شجب مقاومة بني عمهم الآخرين للنزول الأموي بسبتة !

لقد كانت البنود التي شرطها الأمير ابراهيم بن محمد بن ادريس على حاكم سبتة الجديد أن لا يمد الأمويون عيونهم إلى ما وراء سبتة، وأن لا يربطوا لهم صلة بأهل العدوة ونحن نعلم أن الناصر كان قد برر نزوله في المغرب بقصده المشرق لحماية بيت الله... بعد أن يجهز على الشيعة الذين

غيروا من معالم الدين، وبعد ـ وهذا مهم ـ أن أخذ وفاق الزعماء المغاربة الذين بيدهم زمام الأمر !!

لقد وصف الناصر الإمام الشيعي بنعوت ثلاثة : **بأنه يتنبأ تارة ويتأله تارة أخرى وينتحل لنفسه النعوت التي لا تجوز !! وفي طائفة من الرسائل الرسمية وفي نصوص البيعات يعرض الناصر بمسلك الشيعة في سنة الأذان، وفي منهجهم عند الإفطار والصيام، ويدعو الناصر للتقيد بمذهب مالك بن أنس.**

وقد كان من جملة ما وصم به ابن أبي العافية خصومه الشيعة وأنصارهم... أنهم يمارسون نكاح المتعة الدورية... وهي منكر في الدين لا يقل إثما وجرما عن الفاحشة، والمتعة الدورية تعني أن يعقد عدد من الرجال على امرأة لمدة معينة يتداولونها فيما بينهم على نحو ما شرحه الشيخ الألوسى !.

«إن ابن أبي العافية في رسالة منه إلى الخليفة يقول «والله إن عندهم اليوم في عسكرهم وأخبيتهم بنات من (صدينة) وغيرها من قبائل البربر يعبثون بهن، وبلغني أنه يكون في الخباء ثلاثة رجال أو أكثر يتداولون امرأة واحدة، فأي قربى أدنى إلى الله من جهاد هؤلاء ؟ والله إن الجهاد في الشيعة أولى من الجهاد في الروم !!».

وقد كانت مثل هذه التهم مما يزيد في تأليب أصحاب السنة على أصحاب الشيعة، ومن ثمت أخذ بنو ادريس يلاحظون أن وقوفهم إلى

جانب الأمويين مما يبعدهم عن تلك التهم وهكذا كنا نجدهم بين الحين والآخر يحاولون أن يكسبوا الأمويين، بيد أن هؤلاء لم يكونوا مستعدين في أي وقت من الأوقات للتسليم في أصدقائهم التقليديين من الزعماء البربر.

إن الأمويين بمرور الزمن أصبحوا يعتبرون أن المغرب جزء لا يتجزأ من الأندلس! وقد تمكنوا بفضل أسطولهم القوي من الهيمنة على الثغور الشمالية للمغرب، وبذلك أحكموا القبضة على البلاد... بل أنهم عادوا يفكرون في أمر توحيد مداخل الشهور في العدوتين... لقد كان الذين يعودون من المغرب ينقلون أنهم احتفلوا بالعيد يوم الخميس ويستغربون أن تحتفل الأندلس بالعيد يوم الثلاثاء !!! لقد طرح المشكل منذ ذلك التاريخ !

نتحدث كثيرا عن فاس وهي تهيمن سياسيا على طرابلس وتونس، بل وعلى اشبيلية وتخوم افريقيا، ولكننا نهمل الحديث عن فاس وهي تابعة لعجلة قرطبة في الأندلس أو عجلة المهدية في تونس..! نهمل الحديث عن فاس وعدوتها الغربية تابعة لبني أمية بينما عدوتها الشرقية تابعة للفاطميين..! وكان اهتمام ابن حيان بهذا الموضوع بالغا حيث وجدناه يتقفاه بالأعوام والأيام...

وفيما نرى ابن حيان يعالج مثل هذه المواقف من تاريخ العلاقات بين الجهتين، نراه يهتم بجانب المجاملة واللياقة التي كانت تربط بين بلاط بني أمية وبين الأمراء الأدارسة... لنستمع إلى خطاب يرد على العاصمة الأندلسية يطلب إرسال بعثة طبية لمعالجة الأمير أبي العيش وأخيه ابراهيم... فيقوم الناصر بإيفاد الطبيب سليمان ابن عبد الملك المعروف بابن باج، مع صيدلية

كاملة الدواء للسهر على علاج الأمراء. تماما على نفس المنوال الذي سلكه مع الأمير أحمد بن ابراهيم عندما أعلن هذا عزمه على زيارة الناصر في قرطبة فقرن هذا الأخير بناء عشرات القصور بآلاف المثاقيل على طول المراحل التي يقطعها الشريف من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة !.

وعلى نحو ما سمعناه أيضا من قيام الخليفة بتحمل جميع تكاليف حفلات إعذار الأمراء الأدارسة الصغار من الذين كانوا يقيمون بالأندلس شبه رهائن سياسية لدى البلاط الأموي !!.

كانت إفادات ابن حيان حول هذه المرحلة القلقة من تاريخ المغرب تعكس الأسباب التي كانت تقف وراء السلام الهش الذي عرفه التاريخ بين بني ادريس وبين بني أمية.. توالي الوشايات، نوازع الطموح... تربص كل للآخر...

وتدخل العلاقات مرحلة حاسمة عام 344 = 955 عندما صدر الأمر بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة من أعالي المنابر، جوابا على المبادرة المماثلة التي اتخذها أئمة الشيعة في الطرف الآخر، وبلغت الأزمة ذروتها عندما تمكن أنصار الشيعة من أسر عامل فاس أحمد بن بكر في أعقاب استنزاله اللعنات بمنبر جامع القرويين على الإمام الشيعي...

وقد أهمل ابن حيان هنا لقطة فريدة في التاريخ لا ندري لها سببا... فهو مع حرصه على كل ما يمس العلاقات السياسية لبني أمية، ومع حديثه ـ كما أسلفنا ـ عن الصداقات التي كانت تربطه بإمارات المغرب بما

فيهم الأغالبة... وجدناه يلوذ بالصمت المطلق فيما يتعلق بمحاولة الناصر إقامة صلح مع خصومه الشيعة حقنا لدماء المسلمين على ما يفيده القاضي النعمان في كتابه (المجالس والمسايرات).

وليس بعيدا في نظرنا أن تتم مثل تلك المحاولة، فإن السياسة تبرر كل شيء، أفلم تقرأ عن الصلات الودية التي جمعت بين البلاط الأموي السني المالكي وبين الإمارات الإباضية في المغرب، بل ومع البرغواطيين المارقين.؟!

مهما يكن فإنه بعد أن يئس الناصر من السلام الذي ينشده، قرر العزم على مواصلة المقاومة، إلى أن يصفو له الجو في بلاد المغرب...

ولم يكن في الإمكان أن تتغير السياسة الأندلسية إزاء المغرب بعد وفاة الناصر وتولي ابنه الحكمَ مكانه، لأن الأمير الجديد كان نسخة طبق الأصل من والده، فقد رأيناه يحتفظ بأصدقاء الأمس ويظل حذرا ممن كان والده يحذر منه، وهكذا فبالرغم من ظن بني ادريس أن موت الأشخاص قد يحل المشاكل على نحو ما كانوا يتوقعونه أيضا بعد وفاة ابن أبي العافية، إلا أنهم لم يلبثوا أن اقتنعوا بأن علاقاتهم مع الأمويين محكوم عليها، وهنا وجدنا الحسن ابن كنون يوجه ضربات موجعة للجيش الأندلسي، بل وجدناه يجهز على عدد من أهم القادة الذين كانوا محل اعتزاز من لدن المستنصر بالله !

لقد اشتدت ضراوة القتال حتى لأخذ الخليفة يتحسس باسترجاع الحسن بن قنون لسبتة وطرد الأمويين من جميع المغرب، حيث وجدناه أي الخليفة ينصح القائد الأعلى بالإلتجاء إلى الجزيرة الخضراء طالبا إليه من

جهة أخرى، تقوية لعزمه : «أن لا يؤمل العودة للأندلس حيا دون تحقيق الإنتصار» !. أي أن يحرق مراكبه على نحو ما فعل طارق ابن زياد !

ومن هنا كانت الحركة الواسعة لتنصيب العمال المغاربة الجدد عام 362 = 973.

لقد شهدت قرطبة تجمعا ضخما لرجال السلطة، حيث تسلم العمال سجلات التعيين وزودوا بالتعليمات اللازمة، وعهد إلى القائد الأعلى الوزير (غالب) بالإشراف على العمليات.

ومن الطريف أن نجد القيادة العليا إزاء عرض طلباتها للذخيرة الحربية والمواد الإستراتيجية لا تستغني عن طلب الشعراء لمتابعة التحركات وتسجيل الإنتصارات وإلهاب الحماس.

لقد عهد إلى القائد الجديد بتحقيق هدفين اثنين : أولهما تركيع الحسن ابن قنون حتى لا يعود لمضايقة الخليفة في المناطق الخاصة به.. ثانيهما مقاومة الولاء لدعوة الشيعة في كل أطراف المغرب وتشهد العلاقات المغربية الأندلسية ظروفا في منتهى الإثارة، حيث كان البريد يتجدد يوميا إن لم نقل ساعة ساعة بين العدوتين إلى أن انتهى الأمر بتخريب ثغور بني ادريس، وكان من بينها (البصرة) المغربية، هناك مثل عربي في العراق يردد عند إرادة الحديث عن فوات الأوان، يقول المثل : (بعد خراب البصرة)، يقصدون بها البصرة الشرقية، واعتقد أن هذا المثل ينطبق أيضا على البصرة المغربية التي ذهبت معالمها أدراج الرياح !! لقد استسلم الحسن وأخذ القائد الأعلى إلى قرطبة، حيث أقيمت الحفلات وتليت الأشعار.. وشاهدنا المستنصر يتفرج على ملامح ذلك الشريف الشهم وهو على قيد الحياة، وكأننا بالخليفة

يستعيد ذكرى سابقة عام 61 ـ 680 عندما كان يزيد ابن معاوية ينكت بقضيبه على ثغر الحسين وقد وضع رأسه بين يديه !!

ولسبب أواخر وجدنا الحسن بن كنون يلتحق بالمشرق ويتصل بالفاطميين ثم يعود إلى المغرب مرة أخرى ليجدد ثورته من أجل استرجاع الحكم في ظروف جد مثيرة، ولكنها تنتهي بالغدر به في (بريد الثنية) عام 375 = 985 وهو في الطريق إلى الأسر !

☆ ☆ ☆

لقد اعتقد الأمويون أنهم حلوا المشكل، لكن المشكل الأكبر كان يكمن في هذا الذي اعتقدوه حلا، وهكذا نرى ابن حيان نفسه وبما أوتيه من مقدرة على التعبير... **يؤكد أن أبرز أسباب انهيار الدولة الأموية كان هو هؤلاء المغاربة الذين استقدموا إلى الأندلس وأصبحوا يعيشون على مسمع ومرأى من نقاط الضعف عند الحاكمين...**

بين ابن حيان وابن صاحب الصلاة

كان الزميل الأستاذ كُرسية كُوميز، على حق، عندما لا حظ أن المؤرخ ابن صاحب الصلاة (ت 594 = 1198) تأثر بابن حيان في استبلاغه لوصف حياة البلاط الموحدى، وخاصة وصف استقبال الوفود والبعثات...

ولكن الزميل كَوميز أهمل ملاحظة أن ابن صاحب الصلاة اعتمد فعلا على ابن حيان في بعض المعلومات الجغرافية التي أوردها في تاريخه (المن

بالإمامة)، بل إنه أي ابن صاحب الصلاة تعمد ذكر ابن حيان بالإسم عندما كان بصدد الحديث عن غرناطة وأنها منذ أن أفلتت من يد الصنف الأندلسي أواخر دولة آل محمد بن أبي عامر، استمرت تحت سيطرة المغاربة، كما أن ابن صاحب الصلاة اقتدى بابن حيان عندما كان يحرص على أن يذكر التاريخ القمرى مقرونا بالتاريخ الجولياني في كثير من المرات، وقد استمر ابن صاحب الصلاة في ذكر هذه الموافقات إلى أواخر كتابه على نحو ما انتهجه ابن حيان.

ومن جهة أخرى فإن ملاحظة الزميل الدكتور محمود علي مكي على إفادة الأستاذ ميلتشور أنطونية، المتعلقة بالمؤرخين المستفيدين من ابن حيان كانت ملاحظة صائبة، لأن ما نشر إلى الآن من مخطوطاته وما ظهر من دراسات جعل إفادة ميلتشور انطونية متجاوزة...

وإلى جانب هذا فإن كلا من الزميلين أهملا ملاحظة تمس عمق الفرق بين ابن حيان وابن صاحب الصلاة...

ويتعلق الأمر بالروح القومية الأندلسية عند ابن حيان التي جعلته - كما يلاحظه الذين علقوا عليه - يكن للمغاربة سواء أكانوا من أصل بربري أو عربي شعورا تستشف منه روح الكراهية، فهو يندد كما يلاحظ بحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية.!!

وفي مقابلة هذا نجد أن ابن صاحب الصلاة كان يتميز **بالروح القومية المغربية**... فقد دأب على ملاحقة هفوات العرب وهو ينعتهم

بالفوضى واللا مبالاة، وأنهم لا يحترمون نظاما ولا ترتيبا، ولا يهابون أحدا من الناس، وهو أحيانا ينسب إليهم الجبن في ساحات الوغى بحجة أن حربهم يحتاج إلى انفساح في الأرض !!

هناك جوانب يتلقى فيها المؤرخان بيد أن هناك نواحي أخرى يختلف فيها الجانبان...

ولكن الملاحظة البارزة هي أن ابن صاحب الصلاة كان من أقرب المؤرخين تأثرا بابن حيان شكلا ومحتوى وهو الأمر الذي يحتاج إلى دراسة أكثر عمقا وأوفر حجما..

د. عبد الهادي التازي

ابن حيان وأهل العدوة

عبد القادر زمامة
كلية الآداب / فاس

عند النظرة الشمولية المعمقة في تاريخ الفتوح الإسلامية التي واجهت عدة شعوب وأقاليم وملل ونحل. نجد أن الامتداد الإسلامي في القارة الأوربية من جهة الأندلس تم لأول مرة في التاريخ على يد جيش موفق في قيادته، ناجح في خطته جل كتائبه ووحداته من رجال أهل العدوة المغربية المعروفين باسم البربر..

وتلك ظاهرة تاريخية فريدة في بابها تحتاج إلى المزيد من بحث الباحثين. ودراسة الدارسين. فإننا استنادا على الاستقراء والتتبع. لا نجد في تاريخ هذه الفتوح الممتدة من الشرق إلى الغرب ظاهرة كهذه يتم فيها فتح إقليم شاسع الأطراف كالأندلس على يد جيش مكون أساسا من رجال قبائل حديثة عهد بالإسلام والعربية..

ومهما كانت التفسيرات التي أعطيت وتعطى لهذه الظاهرة عند السابقين واللاحقين من المؤرخين والباحثين والمفكرين المهتمين بالتركيب والتحليل لقضايا التاريخ. فإننا نعتقد على ضوء النصوص الباقية والملابسات المحتفة بهذه الظاهرة ، أن القائد العظيم موسى بن نصير ما كان ليقدم على هذا العمل لو لم يكن على ثقة تامة بهذا الجيش. وإخلاص قيادته وكفاءة رجاله في الحروب. ومعرفتهم بطبيعة أرض الميدان. والجيوش التي سيواجهونها...

وعندما تم النصر فتحت الأندلس أبوابها لاستقبال الأفواج البشرية من جيوش وقبائل. وعشائر. وأسر. وجماعات. وأفراد من الحجاز واليمن. والعراق. والشام. ومصر. وبلاد العدوة المغربية. وغيرها من أقاليم الأرض...

وكانت هذه العناصر الوافدة عسكرية ومدنية. تلابس في السكنى والمعاش أهل الأندلس. وتكون مع المسلمين منهم في البادية والحاضرة المجتمع الأندلسي المسلم الذي اتخذ العربية لغة حضارة وثقافة. والإسلام دين اعتقاد وعبادة...

وكان هذا المجتمع في طريقه إلى الإنسجام والتعايش والتأقلم يمارس تجاربه. فيسعد ويشقى. ويتفق ويختلف. ويسالم ويحارب. ويخضع للنظام ويثور. وتلك حركات في المجتمع البشرى الناشيء. ضرورية ليتم الانصهار الإقليمي والإمتزاج الإجتماعي...

والمصادر التاريخية التي نمارس مادتها. ونستخلص أحكامنا وأفكارنا مدعمة بنصوصها. تحدثنا أن الأندلس عرفت منذ البداية في تاريخها الإسلامي قصة القبلية والإقليمية ونزعات أخرى لا داعي لذكرها الآن...

فهناك أهل العدوة. وما لهم هنـاك من وحـدات قبليـة يرجع بعضها إلى البرانس. كما يرجع بعضهـا الآخر إلى البتر. وهنـاك قبـائل العرب من مضر وقحطـان ـ وهنـاك طـلائـع أهـل الشـام من دمشقيين وحمصيين. وقسطينيين. وأردنيين. وغيرهم...

وليس من الطبيعي المعتاد في تاريخ المجتمعات البشريـة أن تمحي في مـدة وجيزة جميع الفروق والمميزات التي تكون عـادة بين العنـاصر البشريـة المتعددة كما هو الشأن بالنسبة إلى الأندلس...

كما أنه ليس من السهل أن تدور دواليب الحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية بين هذه العنـاصر دون أن تخلف صراعـات بين الأهواء والمطـامح على جميع المستويات الفردية والجماعية. فيكون هناك قوي وضعيف وغـالب ومغلوب. وتابع ومتبوع...

فالقبلية. والإقليمية. والنزعات الأخرى نشأت في الأندلس كما نشأت في أقاليم أخرى من العالم الإسلامي كفارس. والعراق. والشام وغيرها. وأخـذت على ممر العصور وملابسـات الحضـارة صورا وأشكالا شتى من الحـدة والفتور والخفاء والظهور...

فصورها وأشكالها في الأندلس على عهـد الولاة وعهـد بني أميـة ليست هي نفس الصـور والاشكال التي ظهرت بها في عهـد الطـوائف. والمرابطين والموحدين وبني مرين...

وعرف المعجم الإصطلاحي الأندلسي نتيجة لقضية النزعات فيه. عـدة أسماء معبرة نجـد منهـا : أهـل العـدوة. والبلـديين. والشـاميين. والقيسيين. والكلبيين. زيادة على الصقالبـة والمسـالمـة والمولـدين... ولكل اسم من هـذه

الأسماء مفهوم خاص يعينه الوضع الإجتماعي حسب الظروف والأحوال السائدة في البلاد. وكان من المألوف في التاريخين : الأندلسي والمغربي أن يتبادل المغاربة مع جيرانهم. التعبير بأهل العدوة فكل فريق يسمى جاره بأهل العدوة... فهذه عدوة مغربية. وتلك عدوة أندلسية وهما عدوتان. ومن هنا جاءت الإقليمية. التي بدأت في شكل تنافس واحتكاك وتسابق إلى الاستئثار بالجاه والنفوذ. وانتهت إلى المغالبة والمفاخرة. والمنافرة باللسان والقلم والشعر. والنثر وتحبير الرسائل في المحاسن والمساوى. واستعمال اللمز والهمز والتعريض أثناء الحديث عن الشخصيات في كتب التاريخ والطبقات...

والدليل العملي والبحث الاستقرائي في كتب وآثار المفكرين والمؤرخين والكتاب والشعراء الأندلسيين ممن لهم صلة بقضية الإقليمية والتعصب لها... شاهدان على أن هؤلاء كانت لهم تصورات ومفاهيم ومزاعم عن العدوة المغربية وأهلها. سجلوها بأقلامهم وألسنتهم في جدهم وهزلهم. وقصصهم وأمثالهم. ورسائلهم. وأشعارهم. وكتبهم. منها ما يتعلق بالأعلام. ومنها ما يتعلق بالبقاع والمدن. ومنها ما يتعلق بأشياء أخرى أدخلوها بالجد والهزل ، في موضوع المحاسن والمساوى والمناقب والمثالب...

ومن الثابت تاريخيا أنه إلى جانب هؤلاء الذين تورطوا في قضية الإقليمية والتعصب لها. كان هناك من اجتنب الخوض فيها لعوامل شتى في طليعتها سعة الصدر. واتساع الأفق. ونزاهة القصد...

ومؤلفات المؤرخين : ابن الفرضي 403 هـ = 1013 م، والحميدي 488 هـ = 1095 م، الحافلة بتراجم اعلام من أصول مغربية عاشت في الأندلس ونالت الحظ الوافر من الشهرة. والتقدير. والجاه فلا نشعر ونحن

نقرأ ما كتبـه هـذان المؤرخـان عنها أن هنـاك اقليميـة تعطي وتمنع وترفع وتضع...

على أن الرواجف والروادف والمآسي. التي حلت بـالخـلافـة الأمـويـة والحجابة العامريـة. بسبب الفتنـة القرطبيـة. كانت ظهيرا وسنـدا. لكل من أراد أن يلحق بالبربر وحدهم مسؤوليتها استجابة لما في صدره من حقد على أهل العدوة. فكال لهم بالحق والبـاطل، مـالا يليق بنزاهـة المؤرخ ومنطقيـة المفكر... بل إننـا نجـد من يريـد أن يغـالـط التـاريخ ويستغفل المؤرخين فيسمى الفتنـــة التي دامت مــا يقرب من ربــع قرن وكانت أســاســا بين العـامريين والأمـويين. وتـولى ايقـاد نيرانهـا أهـل قرطبـة... بـاسم الفتنـــة البربرية...

وليس معنى هذا أننا أردنا الدفاع عن هؤلاء وتبرئة أفرادهم وجماعـاتهم من مسؤلية هذه الفتنة. وإنما أردنـا = والنصوص التـاريخيـة تؤيـدنـا = أن تكون أحكامنـا موضوعية ومنطقية حسـب الإمكان، فالفريقـان المتصـارعـان في قرطبة ذهبا في سبيل تحقيق أهدافهما إلى أبعد حد في الاستنجاد بـالعـدو والصديق. والقريـب والبعيد...

وابن بسـام في الـذخيرة ينقـل عن مـؤرخنـا ابن حيـان مـا قـام بــه المتصارعون من استعانة بالقشتاليين والقطلونيين والأفرنجيين(1)...

كما استعانوا بفرق الجيش التي كونها العامريون من البربر...

فالمسؤول الأول عن تدمير قرطبة بزهرائها وزاهرتهـا ورصـافتهـا وكل معالم الحضارة والجمال فيهـا هم المتصـارعون فيهـا الـذين استعـانوا على هـذا التدمير بالأفرنج والقشتاليين والقطلونيين. والصقالبة والبربر...

---

1) ابن بسام : (الذخيرة) ج ا ق 1 ص 36 بيروت 1979 م.

والفتنة إذن قرطبية وأهلها هم الذين أوقدوا نيرانها ثم عجزوا وعجزت الأندلس كلها عن إطفائها، ولا معنى أساسا لنسمي هذه الفتنة بغير اسمها الحقيقي...

وهناك من مفكري الأندلس من الجيل الذي عاصر هذه الفتنة زيادة على مؤرخنا ابن حيان ـ من كتب عن أهل العدوة من البربر كابن حزم 456 هـ = 1063 م (2) وابن عبد البر 463 هـ = 1070 م (3) والبكري 487 هـ = 1094 م (4) فكل من هؤلاء الاعلام أمدنا بمادة من المعلومات التاريخية المتنوعة عن تاريخ البربر في القرون الأولى وأصولهم وفروعهم وقبائلهم وبيوتاتهم واعلام رجالهم في الأندلس والعدوة. وقد صارت هذه المعلومات مصدرا لمن جاء بعدهم كابن سعيد 685 هـ = 1294 م وابن عذارى بعد 712 هـ = 1312 م وابن الخطيب 776 هـ = 1374 م وابن خلدون 808 هـ = 1405 م وغيرهم.

فالمؤرخ أو المفكر أو الأديب أو الكاتب في الأندلس عندما يحاول أن يستوعب في نظرة شمولية خطوات المجتمع الأندلسي في العلم والأدب والسياسة والحكم والجد والهزل والاستقرار والفتنة يجد نفسه أمام عناصر من أهل العدوة لها أثر واضح في كل ما يتناوله وما يجعله مادة علمية أو أدبية تستحق التسجيل والدرس والبحث. وتبقى إذ ذاك قضية التجرد والتحيز والرواسب الإقليمية والأهواء النفسية تعمل عملها... وهذا ما فعل هؤلاء.

وفي هذا الإطار الذي رسمناه لهذا الموضوع نريد أن نعرف حظ (أهل العدوة) من قلم مؤرخنا ابن حيان القرطبي الذي حمل قلمه أكثر من نصف

---

2) ابن حزم : (الجمهرة) ص 495 تحقيق عبد السلام هرون الطبعة الرابعة ـ القاهرة 1977 م.

3) ابن عبد البر : (القصد والأمم) ص 24. ط. القاهرة 1350 هـ.

4) البكري : (المغرب في ذكر افريقية والمغرب) عدة فصول.

قرن وأراد بعزم واصرار أن يجعل منه أداة يستقرى بها ويتتبع ما رسمته الأحداث والأهواء والمواهب في الأندلس وما تصارعت حوله المطامع والأغراض وما خلقته عهود النظام والفتنة من أوضاع وما خلفته من أصداء...

فابن حيان بمقروءاته ومسموعاته ومشاهداته ومواهبه الذاتية وأساليبه الفنية المتمثلة في هذه الأقسام الباقية من كتاب = المقتبس = وهذه النقول المتعددة التي نقلها من كتبه الأخرى المؤرخون المغاربة والأندلسيون. هو في الحقيقة قمة مثالية شيدتها في الميدان التاريخي عوامل شتى لا نعرف عنها إلا الشيء القليل.

ولقد تحدث ابن حيان في مناسبات وبصيغ مختلفة عن أهل العدوة وما شيدوه في بلادهم من دول وإمارات كانت على صلة بالأندلس قبل الصراع مع الفاطميين وبعده. وسجل في حولياته تطورات هذه الصلة وما كان الأمويون ثم العامريون يخططونه للاحتفاظ بما اكتسبوه من نفوذ بين زعماء البربر وقادتهم وقبائلهم.

وإذا نحن درسنا حديث ابن حيان فيما بقي لنا من نصوص في أجزاء المقتبس وكذلك في تلك النصوص التي نقلها صاحب كتاب = مفاخر البربر = الذي كان يؤلفه حوالي سنة 712 هـ = 1312 م فإننا نجد مؤرخنا جمع مادته التاريخية من مقروءاته ومسموعاته بعناية ودقة وموضوعية = باستثناء بعض النعوت التي نعت بها بعض خصوم الأمويين والعامريين = ثم رتبها ترتيبه المعهود فكانت بذلك مادة تاريخية فريدة في بابها مفيدة لدارسها وقد كتبت أساسا لتسجيل النفوذ الأندلسي في بلاد العدوة ومقاومة النفوذ

الفاطمي إلا أنها تقدم لنا جوانب من المعلومات العامة التي تتعلق بتاريخ العدوة في هذه الحقبة على المستوى السياسي والحضاري والقبلي.

والذي يزيدنا اهتماما وتقريرا لتلك النصوص التي كتبها ابن حيان عن أهل العدوة ونقلها مؤلف كتاب مفاخر البربر في أوائل القرن الثامن الهجرى عن ابن حيان. ان هذا المؤلف كان يبحث عن مفاخر قومه وما لهم من اعلام في الحرب والحكم والسياسة والعلم والأدب فنقل في كتابه ما وجده عند ابن حيان وعند غيره مما يتعلق بموضوعه الذي اختاره للتأليف...

فمن خلال ما نقله هذا المؤلف عن ابن حيان في موضوع أخبار المنصور بن أبي عامر مع البربر نجد استيعاب ابن حيان المعهود بذكر السوابق واللواحق وعوامل التحركات القبلية والأموية والفاطمية والإدريسية وأسباب المواقف التي تتخذها الأطراف المعنية في الأندلس والمغرب مع نظرات نقدية لسياسة الأمويين والعامريين والأدارسة والفاطميين وقادة قبائل أهل العدوة...

ولا ينسى ابن حيان النصوص الشعرية الأندلسية التي قيلت في مناسبات تسجل آراء أصحابها فيا تحقق في العدوة من أعمال على يد الأمويين والعامريين وأنصارهم...

والذي يظهر حسب ما نعلمه من موضوعات كتب ابن حيان والمقارنة بين ما بقي منها هو أن هذه النصوص التي عند مؤلف مفاخر البربر هي أشبه شيء بأن تكون مأخودة من كتابه في أخبار الدولة العامرية...

أما إذا نحن تجاوزنا هذه النصوص التي عند مؤلف مفاخر البربر إلى النصوص الواردة في أخبار أهل العدوة من أقسام كتاب = المقتبس = الباقية فإننا نجد ابن حيان وهو يسير على طريقته في التقصي والاستيعاب لكل ما يتعلق بتاريخ بلاده داخليا وخارجيا يتحدث عن العدوة وأهلها وما نشأ فيها من دول وإمارات كانت لها صلات مع قرطبة فيها كثير من المجاملة وحسن المعاملة مع اليقظة والحذر...

وعندما ضعفت دولة الأدارسة وجاءت المطامع الفاطمية أصبح لساسة قرطبة موقف سياسي معين لعبت فيه العصبيات القبلية الدور الأساسي بين المتصارعين...

وما كتبه ابن حيان عن سياسة عبد الرحمن الناصر مع قادة القبائل وأمراء الأدارسة والسليمانيين، واستيلائه على مدينة سبتة سنة 319 هـ = 931 م لدرء مطامع الفاطميين كان وما يزال من النصوص التاريخية المحصة عن حقبة غامضة من تاريخ العدوة. والذي يزيد في قيمة هذه النصوص أنها تحتفظ بعدد كبير من الرسائل الرسمية المتبادلة بين الأدارسة وقادة أهل العدوة من جهة وبين عبد الرحمن الناصر من جهة أخرى...

ولغة هذه الرسائل التي كتبت بالعدوة. وأسلوبها يعطيان صورة عن حياة اللغة العربية ودرجة تقدمها ونمو ما غرسه أساتذتها الأولون في ألسنة وأقلام أهل العدوة في الجهات المختلفة...

ومضمون هذه الرسائل التي احتفظ لنا بنصوصها المؤرخ ابن حيان يسجل حقائق غريبة ومفيدة عن تاريخ الأدارسة وسياستهم ومشاعرهم

الخاصة نحو العدوة وأهلها... (5) كما يسجل الشيء الكثير عن حركة موسى ابن أبي العافية وأنجاله والقبائل التي كانت تنقاد إليه. والارتباط الذي كان بينه وبين الأمويين في ظروف مختلفة...

أما ما كتبه ابن حيان عن سياسة الحكم المستنصر مع قادة القبائل وأمراء الأدارسة وما بعثه إلى العدوة المغربية من خبراء وقواد فإنه يصور حدة الصراع الذي كان يدور بين التيارات المتعاكسة داخلية وخارجية فابن أبي عامر ـ قبل أن يتولى الحجابة ـ أرسله الحكم المستنصر إلى العدوة لتنفيذ تعليمات سرية وعلنية. وكان إذ ذاك يشغل منصب صاحب الشرطة الوسطى والمواريث وقاضي اشبيلية (6) وأرسل معه جماعة من الخبراء أدوا الواجب المنوط بهم. ولما رجعوا إلى قرطبة استقبلهم الحكم بحفاوة بالغة...

ويقول ابن حيان :

«إنه أحمد سعيهم، وسكن إليهم، وإلى صحة أخبارهم وأثنى عليهم...» (7).

وبالطبع شجع هذا النجاح الحكم ليرسل ابن أبي عامر مرة ثانية إلى العدوة بأحمال مال وحلي وخلع ليوزعها على من يستحقها من أنصار السياسية الأموية... وولاه قضاء القضاة بالعدوة مع احتفاظه بمنصبه في خطتي الشرطة الوسطى والعليا... (8).

ويزيدنا المؤرخ ابن عذارى إيضاحا عن عمل ابن أبي عامر بالعدوة فيقول :

---

5) ابن حيان : (المقتبس) الجزء الخامس. ص 288 ـ 242 ط. مدريد 1979.

6) ابن حيان : (المقتبس) ص 106 القسم الذي حققه عبد الرحمن الحجي. بيروت 1965.

7) المصدر السابق ص 118.

8) المصدر السابق ص 123.

«إن الحكم قلد ابن أبي عامر قضاء القضاة بالمغرب وجعله عينا على العسكر، وأوعز إليه في مهماته، فسار ابن أبي عامر إلى هنالك. فحمدت سيرته وصحب حينئذ وجوه العسكر وأشياخ القبائل وملوكهم فكانت تلك الحركة أول ظهوره. وبعد رجوعه منها لم يزل يزداد نبلا. ويرتقي منزلة» (9).

ولا شك أن عمل ابن أبي عامر أفاد السياسة الأموية وفي الوقت ذاته جعل ابن أبي عامر على إطلاع واسع بأحوال العدوة وأهلها الشيء الذي استفاد منه أيام الحجابة. واستبداده بالسلطة والنفوذ...

ويحدثنا ابن حيان أنه في عهد الحكم تدفقت على الأندلس الجماعات من أهل العدوة لتلبي رغبة ساسة قرطبة في تكوين فرق عسكرية من جيش الخلافة الأموية...

ويعلق على هذا التدبير الذي كان في الغالب من تخطيط ابن أبي عامر بقوله :

«اجتبائه لفرسان البرابرة العدويين، عقب اجتوائه إياهم، راكبا سبيل سلفه بني مروان في اجتوائهم...» (10).

وكان تعليق ابن حيان على سياسة الحكم في جلب أهل العدوة وضمهم إلى جيش قرطبة. مطرزا بتلميحات وتصريحات عن المساوى والمحاسن والسوابق واللواحق التي يعلمها عن هؤلاء، وكأنه يريد أن يقول أن هؤلاء هم الذين أوقدوا = الفتنة = يوم انفجرت براكين الاحقاد في قرطبة بين الأمويين والعامريين...

---

9) ابن عذارى : (البيان المغرب) ج 2 ص 256.

10) ابن حيان : (المقتبس) ص 189 القسم الذي حققه الحجي. (الاجتواء في النص يعني الكراهية).

وابن حيان متأثر في ذلك بأندلسيته وقرطبيته، ولو تجرد منها لعلم أن الحقيقة التاريخية بجانب الذين يدققون في عناصر الفتنة ويربطون كل عنصر بمسؤوليته التاريخية مدعمة بالبرهان من غير جزافية ولا أهواء دفينة...

على أننا نجد ابن حيان في نصوص متعددة من كتاب المقتبس يتعمق في الأسباب والنتائج التي كانت لفتنة قرطبة. ويملك زمام قلمه، ويعطي للموضوع كامل اهتمامه. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى النص الذي نقله عنه ابن بسام في شأن استمانة المتصارعين بعناصر قشتالية وقطلونية وافرنجية عملت عملها في التدمير والتخريب... (11).

ولا يسع الباحث المستوعب لنصوص ابن حيان إلا أن يقدر هذه الموهبة المثالية والمنهاجية المتكاملة التي ربطت بين الوسائل والأهداف وقدمت للأجيال تاريخ الأندلس وكان لوحة فنية تعددت ألوانها وتناسقت أشكالها مصورة حياة الإنسان هناك في جده وهزله واستقامته وانحرافه وتعامله مع المبادىء والآراء والمطامع والأهواء...

كما لا يسع هذا الباحث إلا أن ينظر بعين الإكبار لهذه المادة التاريخية التي احتفظ لنا بها ابن حيان عن تاريخ العدوة المغربية وأهلها الأبطال. وأن يردد مع الخليفة الحكم المستنصر قوله وهو يتابع بإعجاب محفلا من محافل فروسيتهم : (12)

انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله :

فكأنما ولدت قياما تحتهم ... وكأنهم ولدوا على صهواتها

---

11) انظر رقم 1 من هذه الإحالات.

12) المقتبس ص 193.

عبد القادر زمامة

مأساة الأندلس
في رأي ابن حيان

د. عبد السلام الهراس
كلية الآداب / فاس

تظل مأساة الأندلس فريدة في سلسلة المآسي التي حلت بالعالم وحضارته، ومن حسن حظ هذه الحضارة أن آثارا ثقافية وعلمية استعصت على الهجمات الابادية التي انقضت على الأندلس الإسلامية، وقد شغلت تلك البقايا والشذرات اهتمام الدارسين والباحثين من مختلف التخصصات والأذواق ولكن قضية واحدة من قضايا الدرس والبحث كان يجب أن تتصدر عنايتنا نحن بالأندلس وتلك هي ضياعها، ذلك الضياع الذي قد يمثل ظاهرة غريبة وشاذة في تاريخ الإسلام إذ لم يحدث أن اندثرت حضارة من بلد ترعرعت فيه ترعرعها بالأندلس مثلما وقع في هذا الصقع، نعم ثمة بعض الأعمال في هذا المجال ولكنها لم تبتعد نطاق البدايات وفي إطار غير هذا الإطار الذي ترمي إليه هذه المحاولة التي تتناول الأندلس متتبعة جذور المأساة من الفتوح إلى النزوح.

غني عن البيان أن ضياع الأندلس لم يقع إلا بتوفر جملة من الشروط الموضوعية التي كان الأندلسيون صانعيها بأيديهم فلم يكن عليها آثار استيراد بل انها نشأت من صميم المجتمع الأندلسي وانبثقت من جبلته وكيانه عبر تطوراته.

ويمكن تلمس هذه الشروط وتلك الأسباب في مجالين :

1) المجال الأول : فيما أدلى به أصحاب هذه الحضارة من ملاحظات وآراء وما صدر عنهم من اعترافات ونقد ذاتي لما لذلك من قيمة هامة في الموضوع لأن الشهادة صدرت عمن شاهد وعاين وعانى.

2) المجال الثاني : الحياة السياسية والإجتماعية والأدبية وغيرها مما تعكسه النصوص والآثار المتبقية ففيما لدينا من ذلك عن الأندلس ما يساعد على التوصل إلى جملة حقائق في هذا الموضوع.

ولعل ابن حيان ـ فيما نعرف ـ هو أول من يقدم لنا المجالين معا لأنه لم يكن همه سرد الوقائع وسوق الأخبار والحوادث فقط وإنما كان إلى جانب ذلك يدلي بالرأي الصريح وينفعل للخبر ويعلق على الحادثة ويعلل الظاهرة بل نجده أحيانا كثيرة يمعن في إيراد بعض التفاصيل لحادثة ما قد لا تحتاج إلى تلك العناية والتفصيل في نظر البعض، غير أننا قد نستشف من خلال ذلك أنه يعرض علينا مادة القضية بتمامها أي بأسبابها ونتائجها دون أن يصرح هو بذلك، ومن ميزة ابن حيان في تاريخه أنه صريح ومكشوف الرأي عموما، بطريق مباشر أو غير مباشر ولذلك قلما سلم من

لسانه أحد مما جعل ابن بسام يصفه بالهجاء وتلك الصراحة هي احدى سمات الصدق الذي التزمه في تاريخه دون محاباة أو خوف كما يقول.

وهو إذ ينعى على من سبقه زهدهم في تدوين تاريخهم يتصدى هو للإستفادة مما قد وصله عن بعض سلفه الأندلسي كالرازي وللإهتمام بحاضره الذي لم يكد يغادر منه كبيرة أو صغيرة إلا ما قد ند عنه مما ليس في مقدوره الإحاطة به كبشر،وقيمة شهادة ابن حيان أنها جاءت عن مشاهدة منه أو مشافهة لثقة أو نقل عن موثق لذلك كانت الشهادة مقبولة وصالحة لتكون مادة للتحليل والإستنتاج والتقنين ويقول ابن حيان ان التزامه لبسط الخبر وتفصيله كان اتباعا لبعض المشارقة وركوبا لسفنهم كابن القواس والفرغاني ونظائرهم من أعلام الفقهاء الذين لحقوا الفتنة الحادثة عندهم بالمشرق بعد الثلاثمائة فقد صرحوا بأخبار اقرانهم المتوثبين علىالمملكة عند وهن متقلدي الخلافة فيهم، فلأمر ما اعتنوا بذكر الأعاجم هناك من الديلم والأتراك مع عدم الفائدة فيها وكان الدافع لهم إلى ذلك هو استغرابهم للمصير المحزن الذي آلت إليه الخلافة على يد هؤلاء، فيقول ابن حيان :

فركبت سنن من تقدمنى فيما جمعته من أخبار هذه الفتنة البربرية ونظمته وكشفت عنه وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة وسياستهم المنفرة وأسباب كبار الأمراء المنتزين في البلاد عليهم وسبب انتقاض دولهم حال فحال بأيديهم ومشهور سيرتهم وأخبارهم وما جرى في مددهم وأعصارهم في الحروب الطوال والوقائع والملاحم إلى ذكر مقاتل الاعلام والفرسان ووفاة العلماء والأشراف، وكلا التابع والمتبوع والرائد والمقتفي أثره كان هدفه الإشارة إلى أن الفتنة أو الفتن :

(طرقت هادمة لما بنته الدنيا مغيرة لمحاسنها مزهدة فيها مؤذنة لانقطاعها كي يكون البقاء لمن تفرد بجبروته ويدوم البهاء لمن لا تتسلط الغير على ملكوته).

وفي الحقيقة ان ابن حيان لم يكن في حاجة إلى قدوة في ركوبه سنن أولئك لأنه جبل على تتبع الخبر واستقصاء الوقائع وتسجيل مآثر بلده وأحداثه غير أنه أسر حسوا في ارتغاء إذ أحب أن يسوغ السبيل الذي سلك والميدان الذي اختار الجري فيه تأييدا لفكرته وتزكية لمذهبه على نحو ما رأينا بعضهم يفصل عندما يعلن أن عمله هذا كان محتذيا فيه مشرقيا، كان إمامه فيا قال وألف لذلك قد نظن أن إعلانه للإقتداء لم يكن إلا وسيلة لينطلق في البحث والإستقصاء باحثا وراء الأحداث عن أسبابها ليبين أبعاد المأساة وخلفياتها المرتبطة بنفسية وأحوال العناصر التي ساهمت في الفتنة من قريب أو بعيد، وقد يجعلنا نعثر على تلك الأسباب في ثنايا تلك التفصيلات المسهبة التي يكثر من إيرادها. وقد تنبه أخونا الدكتور محمود مكي إلى نزعة ابن حيان النقدية فيقول (ص 113)«وما أكثر ما ترد في ثنايا تاريخ ابن حيان من ملاحظات وتعليقات تنفذ بها إلى الكشف عن العيوب الدفينة في نظام الدولة الأندلسية، هذه العيوب التي أدت شيئا فشيئا إلى تحللها وتصدعها وكأنه السرطان الخفي الذي يستشرى في باطن جسد ظاهره الصحة والقوة وهي عيوب بدأت منذ أيام الحكم المستنصر...».

وقد يلاحظ على ابن حيان حملاته على الحموديين والعناصر البربرية الطارئين على الأندلس أيام العامريين ولكنه مع ذلك لم يكن محابيا لكثير من الأمراء الأندلسيين والقرطبيين منهم بل ربما كان قاسيا على بعض الشخصيات الأندلسية سياسية كانت أو علمية، وقد نال القرطبيون من

لسانه ما لا يستطيع غيره قوله وفيا نظن أن كل ذلك لم يكن فقط يهدف التنفيس عما كان يعتصر قلبه من ألم واسى وهو يشاهد انهيار حضارة وتقويض مدنية وتفكك خلافة وتمزق وحدة وإنما كان يمازج ذلك الهدف التنبيه إلى خطورة الأوضاع وتبيين الأسباب والدواعي التي ساهمت في إيجادها...

إن أهم ما يميز تلك التنبيهات والملاحظات أنها كانت واضحة قوية ومتكررة تتخلل كتابات الرجل عن فترة الفتنة والطوائف، وأن ما نظر إليه أنه ثلب للأعراض وهجو للأعلام ربما يكون من جانبه هو تعرية لأخلاق كثير ممن كان لهم الحظ الأوفى في تردى الأوضاع واستفحال الأخطار والإسراع بالأحداث إلى الإنفجار.

كما أن اليسر ينبثق كالفجر أثناء العسر فكذلك العسر ينبثق من خلال اليسر عندما يكون هذا اليسر غفلة وتبذيرا وفرط هوى وسقوطا في حمأة النزوات. ولذلك فإن الكوارث الإجتماعية والفتن والقوارع ليست سوى النتائج الطبيعية لتجمع أسباب وتوفر دواع خلال التصرفات والأعمال والعلاقات وان عقلاء القوم لا يفاجؤون بالهول الإجتماعي لأنهم يحسون قبل وقوعه بالأعراض والتي تنذر به فيتوقعونه عندما يظن الآخرون أنهم قادرون عليها إذ أخذت الأرض زخرفها وازينت وتبرجت.

ولعل أول خلل واضح ولافت لنظر العقلاء دخل على كيان الدولة الأموية بالأندلس كان في ذروة مجدها وقوتها وقد لاحظ ابن حيان أن جعفرا المصحفي كان وراء حدوث هذا الخلل إذ ما كاد يسمع بخبر أن جارية الحكم قد حدث لها حمل حتى سارع إلى قريحته يحثها فأنشأ قصيدة في

الموضوع وليته اقتصر على البشرى والتهنئة بل أوحى إلى الحكم بصريح العبارة بأن يولي عهد الخلافة لهذه النطفة فقال :

هنيئا للإمام وللانام كريم يستفيد على كرام
مرجى للخلافة وهو ماء ومأمول للآمال كرام

وإني لألحظ أن مؤامرة كبيرة كانت تحاك بقيادة المصحفي ليكون الأمر لولد صبح التي لم تدخر وسعا في الإنقياد لأهوائها والتجاوب مع المصحفي ثم مع ابن أبي عامر والقصد من ذلك هو تحقيق نزوات مختلفة ولو تهدمت الخلافة وحدث الطوفان.

صادف اقتراح المصحفي هوى في نفس الحكم وكان ما كان ولذلك يقول ابن حيان (1/4 ص 40) عن الحكم وعن هذا الحادث :

كان مما استهواه حب الولد وافرط فيه وخالف الحزم في توريثه الملك في سن الصبا دون مشيخة الأخوة وفتيان العشيرة ومن يكمل للإمامة بلا محاباة فرط هوى ووهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته.

ولشدة حرص العصابة بقيادة جعفر على الإحتفاظ بالسلطة فإنه سارع إلى ارتكاب سلسلة من الجرائم السياسية انتهت أخيرا بالقضاء عليه وعلى غيره من قادة الأندلس ومن هنا بدأ التدهور رغم الست والخمسين غزوة التي قادها ابن أبي عامر بنفسه وما انكسر له فيها علم. لذلك يرى ابن حيان أن ما حل بالمصحفي لم يكن سوى انتقام سماوي منه يقول :

«وكانت لله عند جعفر في ايثاره هشاما بخلافته وأتباعه **شهوة نفسه** وخظ دنياه وتسرعه إلىقتل المغيرة لأول وهلة دون قصاص ـ جريرة

استدركته دون إملاء فسلط عليه من كان قدر أنه يتسلط على الناس باسمه» وإن كان المصحفي يعتقد أنه استجيبت فيه دعوة مظلوم كان قد عسفه فدعى عليه في قصة محكية (انظر البيان المغرب 270/2).

ولكن آراء ابن حيان كانت أكثر وضوحا وصراخا عندما عاين أركان الحضارة الأندلسية تتقوض بشكل مفزع حتى أن بعض الكوارث أو الكائنات الكبرى كانت تتم في يوم واحد، فقد حلت الفتنة المبيرة التي نشأت أساسا من تلك المؤامرات الأولى التي استهدفت عن قصد أو غير قصد النيل من هيبة الخلافة والإستبداد على الخليفة والتحكم فيه حتى أصبحت هذه الخلافة وأصحابها مسخرة في الأفواه ومتى سقط التقدير وتزعزع الإحترام سهل بعد ذلك فتح أبواب الفتن واندفع المغامرون ليصولوا ويجولوا وحدهم في الميدان.

فما هي تلك الدواعي والأسباب التي آلت بالأندلس إلى ما آلت إليه.

إن من أهم الأسباب التي هزت كيان هذه الدولة بل خربت هذه الحضارة ببطء هي ما يلي :

1) سياسة جعفر المصحفي ثم محمد بن أبي عامر التي نالت من مقام الخلافة وعرضتها للإهانة والإزدراء والجرأة عليها، وقد بدأت هذه السياسة بترجي انهاء للخلافة وانتهت بمحاولة عبد الرحمن سنجول لاحتلال مركز الخلافة.

2) فساد الأمراء والحكام واعوجاج سلوكهم واختلال نواياهم وتسلطهم على الحكم وتمزيقهم للوحدة وتطاولهم على مقام الخلافة ونزوعهم للشر الداخلي وحشد الإمكانات الحربية والسياسية وتوجيهها للتخريب الداخلي

مع مصانعة العدو المتربص ومدافعته بل التعاون معه على تحطيم الخصم المسلم ولو بالتنازل عن المعاقل والحصون مع دفع الإتاوات وتقديم التنازلات وأداء الالتزامات المختلفة المفروضة من لدن أعدائهم الحقيقيين.

3) السياسة الداخلية لهؤلاء الحكام التي تتخلص في استنزاف المسلمين وتسليط الشرطة عليهم وتوكيل الضغاط بهم وإحاطتهم بجو من الإرهاب والإستعانة بعصابات من الزعانف والصعاليك ـ حسب تعبير ابن حيان ـ واتخاذهم بطانة سوء، وكان هؤلاء على قلتهم يقومون بدور كبير في إيقاد نار الفتن وتأريث الشر بين الأمراء وملوك الطوائف.

4) تولية المسؤوليات الكبرى لمن لا يستحقها مما يجعل ظاهرة القلاقل والفتن والإضطرابات في الإمارة الواحدة أو في البلد الواحد أمرا عاديا و«قديما استعاذ الناس من وزراء الظلة».

5) سكوت الفقهاء وصدوفهم عما أكد الله عليهم من التبيين للحكام إما لكونهم يأكلون من حلواتهم ويخوضون في أهوائهم أو لكون بعضهم مستشعرا مخافتهم آخذا بالتقية في صدقهم وهم قلة.

6) فساد طما في أوساط قرطبة، فقد وصفهم ابن حيان بفساد أخلاقهم واجتثاث أعراقهم وسفاهة أحلامهم وخبث ضمائرهم وسوء طوياتهم واستحواذ الجهل عليهم إلى انكباب على الشهوات والإنحراف في الملذات والتنافس في البذخ والتبذير وبخاصة في أوساط الأمراء والحكام.

7) اغطاط فكري ونفسي لبعض المراكز التي كانت مسؤولة مسؤولية كبرى على صنع القرار واتخاذ الإجراء.

8) انفصام عرى العلاقة وروح المسؤولية الجماعية التي كانت تسوق الجميع بقيادة الخليفة إلى الحفاظ على التوازن والقوة وذلك ناتج عن الإستكثار من عناصر شتى واصطناعهم وإهمال تربيتهم التربية التي تضمن بقاء الدولة عزيزة الجانب مما ظهرت آثاره عند ضعف السلطة العليا. إلى أسباب أخرى ستذكرها معززة بالشواهد والنصوص، إن أدبيات النكبة الأندلسية الكبرى لا تكاد تخرج عما أدلى به ابن حيان من آراء وليس معنى هذا أنهم كانوا يستقون من معينه وإنما كانت الأسباب هي هي تفعل فعلها في ذلك الصرح العظيم الذي أراد في القرن الرابع أن ينقض ورغم محاولات العقلاء الأندلسيين والمرابطين والموحدين والمرينيين فإنه انقض بالفعل لأن جذور البلاء كانت تترعرع وتتنخر في أسسه المتينة منذ أمد بعيد ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

د. عبد السلام الهراس

المُستخرج من تاريخ ابن حيّان

د. ابتسام مرهون حسن الصفار
كلية التربية/ بغداد

ما سأتحدث عنه الساعة لا يصلح أن يكون مادة محاضرة عامة، بل هو أقرب إلى الملاحظات التي سجلتها خلال عملي الذي سأقدمه ـ إن شاء الله ـ إلى وزارة الثقافة، وهو المستخرج من تاريخ ابن حيان، وليس الممتزج كما هو مطبوع خطأ في البرنامج.

والمستخرج هذا قائم على فكرة معروفة لدى الباحثين الأفاضل وهي أن ابن حيان خلف تراثا ضخما، وسجل تاريخا عظيما هو خلاصة آرائه ومشاهداته، ومراسلاته مع معاصريه بالإضافة إلى قراءاته ونقوله... هذا التاريخ الذي وصف قسم منه ـ وهو المتين ـ وصف بأنه يقع في ستين مجلدة (نفح الطيب 181/3) والمقتبس الذى يقع في عشر مجلدات (نفح الطيب 167/4) ولم يصل إلينا عن هذه المجلدات إلا القليل ويمثل أقساما وقطعا من المقتبس فقط، ولم يبق من المتين أو التاريخ الكبير إلا نقول تطول أو تقصر عند المؤرخين المتأخرين.

فرأيت أن أستخرج هذه النصوص المنقولة عن ابن حيان، وأحاول ترميمها وجمع شتاتها وتلفيق بعضها مع البعض الآخر مما يرد مجموعا أو متناثرا في المؤلفات التي تلت كتاب ابن حيان، وهو عمل قد لا يقدم صورة واضحة عن جزء من تاريخ ابن حيان، ولكنه على أية حال - يكون ويقدم مادة مجموعة ميسرة في كتاب واحد ييسر للباحثين تتبع نصوص تاريخ ابن حيان في كتاب واحد بدل مراجعتها في كتب المؤرخين الذين نقلوا عنه، وهي مادة مؤقتة ريثما يغنينا الله عنها بظهور جزء أو قطع من تاريخ ابن حيان، وإلى أن يعثر الباحثون على هذا الجزء - يكون المستخرج - إذا هيأ له أن يتم ويرى النور - مادة تفيد المختصين والباحثين من المولعين بابن حيان المؤرخ أو بتاريخ الأندلس بوجه عام.

إن عملي في جمع هذا المستخرج يشبه إلى حد بعيد عمل الباحثين والمحققين في صنعة شعر الشعراء الأقدمين في حالة ضياع دواوينهم الشعرية، فنجد المحقق يتصفح كتب الأدب والتاريخ والأخبار جامعا كل ما يقع تحت ناظريه من أشعار منسوبة إلى الشاعر الذي يهتم بجمع أشعاره ومع وجود فرق كبير بين صنعة ديوان شعر قديم وجمع شتات كتاب في التاريخ!

الفرق بين العملين هو بحد ذاته فرق بين طبيعة الشعر والتأليف في التاريخ فجامع ديوان الشعر لا يحتاج إلا إلى الصبر والاناة والتدقيق في تتبع المؤلفات القديمة مع معرفة لغوية وثقافة شعرية تؤهله لاستخراج الأشعار منها ثم تبويبها حسب فنونها وأغراضها أو حسب قوافيها مع تحقيق صحة نسبتها إلى قائلها.

أما جامع شتات كتاب ضائع في التاريخ فإنه يحتاج بالإضافة إلى الصبر والتدقيق يحتاج إلى خطة عمل تعينه على الخروج من مآزق كثيرة وأوهام وأخطاء قد يقع فيها إذا لم يعنه الله ولم تعنه البصيرة في تمييز نهاية النص المنقول عن المؤرخ عن نص المؤلف الناقل فمثلا نجد مؤرخا متأخرا ينقل عن ابن حيان خبرا في سياق حادثة تاريخية معينة... ويستمر في النقل بطريقة يصعب التمييز فيها بين نهاية نص ابن حيان وتعقيب المؤلف الناقل عليها، نعم يسهل هذا التمييز إذا نص الناقل على أن ما سيورده من قوله هو أو إذا كان أسلوبه مخالفا لأسلوب ابن حيان.

إن عمل المستخرج قائم على منهج جمع النصوص المنسوبة إلى ابن حيان المنقولة عنه، ثم إدراجها في مواضعها من الأحداث أو الأسر كأن تجمع كل النصوص التي يتحدث فيها ابن حيان عن دولة بني جهور من جميع الكتب التي نقلت عنه مع إضافة ما يمكن إضافته من تراجم العلماء أو الأدباء الذين ذكر سني وفاتهم أو ذكر صلاتهم مع أمراء عصرهم مما يعين على إدراجهم في فترة تاريخية معينة، وهكذا أخبار دولة ابن عباد وأخبار بني عامر ومواليهم وغير ذلك...

أما مقدمة كتابه التاريخ الكبير فلحسن حظنا وجدناها أو وجدنا صدرا منها منقولا في الذخيرة بدء بالتحميد وفاتحة الكتاب وانتهاء بحديث ابن حيان عن كتابه التاريخ الكبير وتفصيله لمنهجه قال :

الحمد لله الذي علا في سمائه وتفرد ببقائه، وتسمى الجبار بجبروته وكبريائه فله الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، خلق الإنسان علمه البيان، وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشأن، فعلمه ما لم يعلم وأشهده ما لم يحضر،

وكرر عليه نبأ ما لم يلحق من القرون الماضية. والأمم البائدة، وأراه سبيل منقلبهم عن هذه الدنيا الفانية التي استعمرهم فيها قرنا بعد قرن ليبلوهم فيما آتاهم، فتهافتوا في شهدها وتهالكوا كالأذبة عليها، لا الآخر بما انتهى إليه عن الأول معتبر، ولا الغابر بما مر على الماضي مزدجر، حكمة بالغة. فما تغنى النذر، إذ كل مقدر كائن، وكل مربوب مسخر.

ومنها يبين منهجه في كتابه.

وبعد فإني امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر، واقتفاء هذا الأثر أحرص شارده، وأقيد نافره، وأبيت بأبوابه، وأنصب لطلابه، فشغلت به دهرا، وفجرت منه نهرا، صيرني تربا لعدنان، وزماما على الحدثان، أقص أبناءه، وأضرب أمثاله، وأحصي وقائعه وأحترز مواعظه، وانسأتني المدة إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية، ففاضت أهوالها تعاظما أدهلني عن تقييدها، ووهمي ألا مخلص منها، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها نفس الخناق، وبلل الرماق، فاستأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها فأنعمت البحث عن ذلك عند من بقي يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له، لزهد من قبلنا قديما وحديثا في هذا الفن، ونفيهم له عن أنواع العلم، وانثنيت خائبا خجلا ألوم نفسي على التقصير وأحدوها بالأمل، وأعذر من قال : هممت ولم أفعل، وشرعت في التقييد غب ذلك التفنيد، غير مخل به، ووصلت القول فيما فاتني قبل من ذكر إنبعاث تلك الفتنة، وأخبار ملوكها ومشهور حروبها، مما أصبت به عندى تذكرة، أو أخذته عن ثقة أو وصلتني

به مشاهدة، أو جاشته إلي مذاكرة حتى نظمت أخبارها إلى وقتي مكملة، وجئت بها على وجوهها...

وهكذا يستمر في الحديث عن منهجه في كتابته لتاريخ هذه الفترة وتتبعه لأخبار ملوكها وطوائفها وما جرى فيها من الحروب والوقائع لينتهي إلى إهداء كتابه إلى الأمير المأمون ذي المجدين يحي بن ذى النون :

وكنت اعتقدت الإستئثار به لنفسي، وخبأه لولدى، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادي به إلى ذمي ومنقصتي، طويت على ذلك كشحا، وأوجبته عزما إلى أن رأيت زفافه إلى ذي خطبة سنية أتتني على بعد الدار أكرم خاطب وأسنى ذي همة الأمير المؤثل لإمارة المأمون ذي المجدين الكريم الطرفين يحي بن ذي النون (الذخيرة ق 1 ج 2 : 577 ـ 578).

ونعود إلى مادة المستخرج فنقول بأنه يحمل جوانب سلبية، وأخرى إيجابية فالسلبية تعرقل سيره وإخراجه بشكله المرضي الذي يمكن أن يحقق فائدة، والجوانب الإيجابية تشجع على إخراجه وبذل الجهود في إكماله...

فمن المسائل السلبية التي تحيط هذا العمل ما يلي :

1 ـ إن بعض المؤرخين اعتمدوا تاريخ ابن حيان في كتابة فصول طويلة من كتبهم ولكنهم لم يصرحوا في كثير من المواضع باسم ابن حيان أو كتابه، واكتفوا بالإشارة إليه في مواضع أخرى، كما هو معروف في بعض نقول صاحب نفح الطيب.

2 ـ إن واحدا من أهم الذين نقلوا عن ابن حيان وهو ابن بسام قد تعمد حذف الكثير من نقوله عن ابن حيان وأخباره وأوصافه، وهذا يعني

أنه تلاعب بالنص الأصلي الذي نقل عنه وإن كان قد برز ذلك بوجهة نظره الأخلاقية تجاه منهج ابن حيان وأسلوبه في الكتابة حين قال : ممهدا نقوله عن ابن حيان ومن كتابه التاريخ الكبير بالذات قال :

(وكنيت عن أكثر من به صرح، وأعجمت باسم من به أعرب وأفصح، رغبة بكتابي عن الشين، وبنفسي عن أن أكون أحد الهاجيين، إلا في بعض أخبار ملوك الطوائف...) الذخيرة ق 1/ج 586/2.

وبغض النظر عن صحة وجهة نظر ابن بسام أو خطئها مما تناوله الباحثون فإن عمل ابن بسام هذا أدى إلى تحريف بعض نقوله عن ابن حيان أو فلنقل شل النص ـ نص ابن حيان ـ وقصر الفائدة المرتجاة من إيراده.

لقد أصبح تاريخ ابن حيان بالنسبة إلينا تاريخا نحاول الإطلاع عليه وعلى الحقبة التي سجل تاريخها من خلاله، فإذا رجعنا إلى من نقل عنه أو إلى أهم من نقل عنه وجدناه يصرح بأنه لم يقم بعملية النقل بأمانة وصدق تحفظ لابن حيان نهجه وطريقته. وتحفظ الحقيقة التاريخية التي سجلها ابن حيان سواء صدق أو لم يصدق وإن كان قد وصف بالصدق في مروياته والثقة في أخباره.

مثال ذلك أن ابن بسام ذكر تهنئة لابن حيان لبعض العمال بخلاصه من نكبة وقد حذف ابن بسام إسم العامل المنكوب، واكتفى بايراد التهنئة التي يفهم منها أن هذا العامل كان من المنتسبين إلى الفضل المنتمين إلى علو الشرف المتسمين بالنبل.

(على حين بلغت قلوب الأوداء الحناجر، وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمت فيك بأساءتها إليك كل منتسب إلى فضل، متسم باسم نبل، وإن كانت قد أصابت فيك سواد ناظرها الذي تضوء به وتتجمل، وسخت منك بحلي جيدها الذي يحق به أن تبخل...) الذخيرة ق 2/1 ص 584.

إلى أن يقول : (فلم تورد الأيام عليك من حوادثها المجهول النكر، ولا وردت عليك بالفتكة البكر، ولا هاضت منك بما جنته، ولا هدت من ركنك بما أتته، بل صادفت منك الابريز الذي لا يزيده السبك إلا تخليصا، والمبرز الذي لا يعقبه حؤول الأحوال نكوصا) الذخيرة ق 1 ج 585/2.

فمن هذا العامل المنكوب ؟ وما أسباب نكبته، وما ظروف خلاصه من هذه النكبة ؟؟ لقد أدخل ابن بسام الحيف على هذا النص حين اقتطعه من سياقه وحذف إسم صاحبه.

هذا النص وما يماثله مشكلة أخرى من مشاكل المستخرج... فإذا كان إسم العامل الذي يتحدث عنه ابن حيان في هذه التهنئة محذوفا وسنة نكبته غير موجودة، فأين تضع هذا النص بين النصوص الأخرى من تاريخ ابن حيان...

وهذا المثال واحد من نصوص كثيرة تجاوزت الثلاثين أوردها ابن بسام متعمدا حذف أسماء أصحابها، وهي بين وصف لسيرة مترجيه إلى نعي مشتمل على وصف ونقد، وفي كلا الحالين تقرأ هجاء نثريا، وثلبا لسيرة من يترجم لهم ابن حيان، ومع ذلك فإنه يصعب تقسيم هذه النصوص أو

إدراجها في فصل معين، لأن ابن بسام اقتطعها من جذورها وبترها عن سياقها حين حذف أسماء أصحابها، ولو أبقى على هذه الأسماء لابانت لنا النصوص بعض الحقائق التاريخية المتعلقة بتاريخ الأندلس... ولعله أوردها في بداية ترجمته لابن حيان ظنا منه وهو الأديب المنشىء أن هذه الفصول التي كتبها ابن حيان تمثل أدبه وأسلوبه فتمثل بها من هذا الباب وليس من جانب الإقتباس التاريخي خاصة إذا تذكرنا أن ابن بسام أبدى إعجابه بأسلوب ابن حيان الفذ ـ ووصف قدرته على الهجاء التي تمكنه من وضع كبير قوم تحت طائلة لسانه وهجوه فيسلبه ما يمكن أن يفاخر به الناس، ومع هذا الإحتال الذي وضعناه فإن ابن بسام نفسه ذكر سبب احجامه عن التصريح كما مر بنا من قبل وهو احجام أفقد النصوص قيمتها التاريخية لا الأدبية.

فهذا فصل ينقله ابن بسام يتحدث فيه ابن حيان عن عودة رجل كان قد بعث ضمن وفد من الرسل، فثلب ابن حيان سيرته لأنه كان (أحرص الوفد ـ زعموا ـ على قش ذلك السحت، وأغوصهم على استخراجه، وأشرهم إلى التعرض بطلبه، فلان منهم الولي اللوام، العاطل من كل حلية جيلة تدل على فضلية، فإنه حملت عنه في ذلك أخبار إلى زيادة مساو فيه غضت ممن أرسله وصرفه.

قال ابن حيان : ولولا أن أكون لهم مغتابا، ولرسل نفذوا عن البيضة ثلابا، لشرحت من مساوىء أخبار هذا الوفد أكثر مما وصفته).

أقول ان ثلب ابن حيان هذا واعتذاره عن الزيادة فيه أثار سخرية ابن بسام فعلق عليه (حاشاك أبا مروان من الثلب والإغتياب). هذا الثلب

ليس شتية شخصية ولا طعنا بسيرة ذاتية فحسب بل هو لو نقل لنا ـ كا ذكر ابن حيان ـ مادة مهمة توضح حدثا خطيرا بشأن وفد رسمي نفذ عن البيضة، ولم يقم أحد أفراده بواجبه كرسول. بل استغل وفادته للإثراء غير المشروع، فن هو هذا الرسول ؟ ولأي مهمة بعث الوفد ؟ ومن هو الأمير الذي أوفده بحيث أن ابن حيان يبدى تحرجه من الإطالة في بيان مساويه، لأن ذلك يغض من شأنه ؟؟.

وبعض هذه التراجم التي حذفت أسماء أصحابها مهمة جدا، لأنها تقدم مادة ثرة عن طبيعة أحداث عصر ابن حيان، وتقدم صورة لتركيب المجتمع آنذاك فهذا فصل في الذخيرة، مقتطع عن موضعه حذف إسم المترجم فيه يقول :

(وكان حجة الله في القسم، ومحنته لذوي الفهم، إذ كان من الأمية والعامية، وخمول الأصل ونذالة الفرع، ولؤم الأطراف، ودخلة الأعراف على شبج عظيم، وبمكان مقعد مقيم، وعفو الله لا يبعد عمن جاءه بقلب سليم) الذخيرة ق 1 ج 2 ـ 599.

فن هذا الذي أعده ابن حيان حجة الله في قسمة الأرزاق، والذي كان مقدما على غيره مع جهله وأميته.

ومثله ذاك الذي ينعاه ابن حيان غير مفقود، ويثلب سيرته ويشتم عرضه لأنه كان مصاحبا للظلمة من أمراء الفتنة خواضا في دولهم المدلهمة.

والنصوص التي نقلها ابن بسام في أول حديثه عن ابن حيان تتراوح بين نعي لشخصية معينة أو ثلب ووصف لسيرة كاتب أو فقيه أو تحميد أو رسالة بعثها ابن حيان وتلقى جوابها، وقد نقلها ابن بسام بطريقة توهم

حقيقة نقله فتهنئة ابن حيان لابن عباد بمناسبة ظهوره على ابن ذي النون من الممكن أن تكون جزء من تاريخه الكبير ضمن حديثه عن ابن عباد، ومن الممكن أيضا أن تكون نقلا عن مصدر آخر غير كتاب ابن حيان في التاريخ (557/204) ومثلها رسالة ابن حيان التي يعاتب فيها ابن زياد صاحب الصلاة.

والغريب في الأمر أن ابن بسام الذي نص في بداية فصله بأن ما سيذكره من كلام وفصول عن ابن حيان مأخوذ من تاريخه قال : (وهذه فصول مقتضبة من طويل كلامه في تاريخه، وكنيت عن أكثر من به صرح) نراه يورد بعدها رسالة لابن حيان بعث بها إلى ابن عبد الغفور، وقد أعاره سفرا من تاريخه يقول فيها : ليس يخفى عليك مكان هذه الصحف المستملاة من الصدور المستمراة من النظير، من أنفس مؤلفيها وقلوب مصنفيها..) فهل نقل ابن بسام هذه الرسالة من مجموع آخر غير تاريخ ابن حيان وتوهم في إيرادها أول نقوله عن التاريخ المذكور ؟.

أم أنه نقلها من تاريخ ابن حيان نفسه، وفي هذه الحالة نفترض أن ابن حيان ذكرها في إحدى نسخ تاريخه من باب تقريضه لكتابه !

على أية حال يمكن إدراج مثل هذه النصوص في ملحق المستخرج لكي نثبت في المستخرج النصوص التي اقتبسها المؤلفون في سياق الحوادث التاريخية التي كتبوا فيها (وهي تمثل جمهرة كبيرة من النصوص).

هناك قضية أخرى تمثل جانبا سلبيا آخر يقف بوجه المستخرج من تاريخ ابن حيان وهي أن بعض النصوص التي نقلت عن تاريخ ابن حيان لم تنقل كما هي ليس من ناحية ذكر أسماء المترجم لهم والذين حذفت أسماؤهم

بعدا عن الثلب والشتيمة، وإنما لأن بعض المؤرخين المتأخرين عمدوا إلى اختصار نصوص ابن حيان، ويكون الأمر هينا في حالة تصريحهم بالإختصار، لأنه يكفي أن ننبه بأن النص المنقول هو مختصر عن كلام ابن حيان اعتمادا على تصريح الناقل باختصاره.

وقد عمد بعض المؤرخين إلى دمج ما ينقله عن ابن حيان مع ما ينقله عن غيره فيقول قال ابن حيان وغيره من المؤرخين.

هذا القول قال ابن حيان وغيره، لا يمكن أن ينقل على أنه مستخرج من تاريخه لأن ناقله أوضح بأنه أدمج أسلوب ابن حيان مع روايات غيره، وصاغها بصياغته وروايته هو، مما لا يمكن أن يثبت في المستخرج على أنه من كلام ابن حيان.

أما النصوص التي ينص المؤرخون الذين نقلوها على أنها من اختصارهم لكلام ابن حيان فأمرها أيسر، وقبولها في المستخرج أمر يستدعي الثقة... لأننا من خلال مراجعتنا النصوص التي نص الناقلون لها على أنها من تلخيصهم، يتبين لنا أنها نقلت من نص كلام ابن حيان مع حذف بعض الفقرات اختصارا، ونذكر لهذا أمثلة :

ففي أخبار مظاهرة غالب مولى الناصر لمحمد بن أبي عامر، ومظاهرته للمصحفي إلى أن أسقطه، ينقل ابن بسام جملة أخبار هنا عن ابن حيان، ويأتي بين الفينة والأخرى بعبارة قال ابن حيان... ولكنه حين ينتهي من سرد هذه الأخبار يقول : انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان (الذخيرة ق 4 ج 62/1).

مما يفهم منه أن ابن بسام قد نقل النصوص في هذه الصفحات الطويلة بجذ افيرها عن ابن حيان، ولكنه حذف بعضا منها، فنبه إلى اختصاره لها ليس من باب تغيير الأسلوب، أو إيراد الخبر بفحواه وإنما من باب الإختصار عن طريق حذف بعض التفصيلات.

وفي مجموعة الأخبار التي يتحدث فيها ابن حيان عن الأحداث الكبيرة بالدولة العامرية نجد ابن بسام ينقل فصولا طويلة عنه تتخللها عبارة قال ابن حيان مع تثبيت نقول ابن حيان عن مصادره الشفوية مثل قوله قال ابن حيان أخبرني ولد الخال من بعض ما كانت تفعله السيدة صبح (الدخيرة ق 4/ج 71/1) وقال ابن حيان قال لي أبي خلف بن حسين (ق 2/4 ص 75) أو أخبرني أبي قال :

ومثل هذا الحديث الطويل ما نقله ابن بسام عن ختان حفيد المأمون ابن ذي النون إذ نقله بنصه عن ابن حيان الذي نقل تفاصيل الحفلة عن الأديب ابن جابر مع تصرف ابن حيان برسالة ابن جابر لأنه يعلق بعد انتهاء وصف الحفل بقوله (انتهى تلخيصي ووصفي وهو جلل عند قرانه بموصوفاته، ووشل عند إضافته إلى مغموضاته، وأبرأ من عهدة التقصير فيه، وأنهجه لمن تعاطى الإقتدار على الإبداع في وصفه)، القول لابن حيان.

ثم يصف مجلس الأنس حتى إذا انتهى منه أورد عبارة (هذا آخر خطاب ابن جابر إلي بوصف ذلك الاعذار، وجمله التي بسطتها من ادماجه، وسبكتها من نقده خلا أنه سامني ذكر مقطوعات حشا بها كتابه إلي من صنعة صديقه عبد الله بن خليفة المصرى، تعاور المغنون في تلك الليلة الغناء بها).

وبعد إيراد ابن بسام لفصل ابن حيان هذا الطويل ينهي نقله بعبارة (انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان).

مما يستدل منه أنه تلخيص لم يتجاوز حذف بعض المقاطع دون ادخال الحيف على أسلوب ابن حيان وطريقة سرده، لذلك يمكن إيراد مثل هذه الفصول وهي كثيرة ضمن المستخرج من تاريخ ابن حيان... لأنها تمثل حقا بعض فصوله وكتاباته...

وهناك نصوص ونقول عن ابن حيان تحمل في سياقها دواعي الثقة بها في وضعها يقينا في المستخرج من تاريخ ابن حيان لأن المؤرخين الذي نقلوها نصوا في بداية نقلهم على عبارة قال ابن حيان... وحين ينتهي النص تقرأ عبارة انتهى كلام ابن حيان...

وهذا يعني النقل الحرفي دون اختصار أو حذف أمثلة (الذخيرة ق 2 ج 21/1) قال ابن حيان قال لي المحدث... وحين ينتهي النقل يقول ابن بسام انتهى كلام ابن حيان (ق 2/ج 23/1 ـ 24) نقل ابن بسام وصف ابن حيان لمجاهد فتى ابن أبي عامر وحين انتهى النص قال انتهى كلام ابن حيان... (ق 2/ج 42/1). أخبار الوزير الاجل أبي بكر ابن عبد العزيز... انتهى كلام ابن حيان (ق 2/ج 111/1). فصل في ذكر ذي الرياستين أبي مروان بن عبد الملك ابن رزين قال أبو مروان... انتهى كلام ابن حيان وهناك توثيق من نوع آخر للنصوص المنقولة عن ابن حيان حين ينص المؤرخون المتأخرون على إسم الكتاب الذي نقلوا عنه كقولهم قال ابن حيان في المقتبس (أنظر المغرب 121/1 في ترجمة أبي الأجرب جعونة الكلابي) ج 124/1 ـ ج 122/1 في ترجمة مؤمن بن سعيد مولى الأمير عبد الرحمن)

ج 38/1 في أخبار ترجمة أبي العاصي الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية) وفي هذه الحالة يمكن مراجعة النصوص ومقارنتها مع ما وصل من أجزاء المقتبس وحذف ما ذكر منها في المطبوع وإثبات ما لم يصل منها...

وكذا نصهم على عبارة قال ابن حيان في المتين (مثلا ترجمة أبي عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني).

وقولهم إشارة إلى تاريخ ابن حيان : مثل ترجمة القاضي أبي بكر الباقلاني في كتاب تاريخ قضاة الأندلس ص 40 حيث نص على أنها من تاريخ ابن حيان.

وترجمة أبي عثمان سعيد بن الفرج المعروف بالرشاش المأخوذة عن تاريخ ابن حيان أيضا في كتاب المغرب 114/1.

وأخبار ملوك الطوائف في الذخيرة والمأخوذة كما صرح ابن بسام عن التاريخ الكبير.

على أن النصوص التي نقلت عن ابن حيان سواء كانت من المقتبس أو التاريخ الكبير قد اختلف ورودها عند المؤرخين الذين نقلوا عنها، وتفاوتت طولا وقصرا فمن فصول طويلة كاملة إلى فقر وعبارات قصيرة... ومع كثرة هذه النصوص المقتبسة من تاريخ ابن حيان فإنها قليلا ما كررت - وهذا لحسن الحظ - يزيد من كثرة النصوص التي يمكننا جمعها على أنها من تاريخ ابن حيان... وعند المقارنة بين ما توافق وتشابه من هذه النقول يتبين لنا أن أوجه المطابقة بينها أكثر من أوجه الإختلاف الذي لا يتجاوز الخلاف بين نسخة وأخرى للكتاب الواحد.

فمثلا إذا قارنا أخبار مبارك ومظفر العامريين التي وردت عن ابن حيان في كتاب الذخيرة وعن ابن حيان أيضا في كتاب البيان المغرب وجدنا أن معظم الخلاف بين الروايتين لا يتجاوز الإختلاف البسيط في قراءة كلمة أو رسمها.

الذخيرة : ثم اتفق أن صرفا عنها.

البيان : واتفقا أن صرفا عنها.

ثم بلغ من سياسة هذين العبدين (الذخيرة).

ثم ظهر من سياسة هذين العبدين (البيان).

إلى أن تقارضا في صحة الألفة فيها (الذخيرة).

إلى أن تعاملا في صحة الألفة بيها (البيان).

ومثلها أخبار ابن صمادح الواردة عنه ابن بسام وابن عذاري.

واستخلف فيها صهره ووزيره معن بن صمادح (الذخيرة).

وترك واليا عليها من قبله صهره معن بن صمادح (البيان).

خلفـــه (الذخيرة).

خلفهـــا (البيان).

تملاهـــا (الذخيرة).

تملكهـــا (البيان).

إلى أن أخنى عليه الدهر (الذخيرة).

إلى أن جرت عليه الدهر بضرباته (البيان).

وهذه الإختلافات البسيطة قد تساعد على تصويب أحد النصين بترجيح إحدى الروايتين ففي الذخيرة مثلا :

ورضاه بكل فعله على زيادة مظفر ـ زعموا ـ عليه (الذخيرة).

وفي البيـان على زيـادة، مظفر عليـه ؛وهي الروايـة الأصـوب لأن المقصود بالقول تقدم مبارك (زيـادة) على مظفر في مخاطبـة الملوك ورسوم الإمارة.

وقد يصحح نص ما سقط في نفس النص في رواية أخرى.

فقد سقطت كلمة من البيان تركت بشكل نقاط (ببعض... وفروسية) ويمكن تصويبها في الذخيرة الذي لم تسقط منه الكلمة (ببعض كتابة ساذجة وفروسية).

ومثلها إضافـة عبـارة (من نضـار الخشب ورفيع العمـد، ونفيس المرمر مجلوبـا من مظـانـة، وجلب إليهم سني الفرش من سـائر الحلي، فنفق سـوق المتاع وبعثر عن ذخائر الأملاك...) هذا النص ورد في الـذخيرة وسقـط من البيان المغرب واخل سقوطه بـالنص المـذكور لـذا يمكن تصويـب النص من خلال الجمع بين الروايتين.

وأخيرا نقول إنه مع هـذه الملاحظـات التي ذكرنـاهـا بشـأن المستخرج من تاريخ ابن حيان فإننا إذا تجاوزنا نقـاط الضعف فيهـا أمكننـا أن نعـد مادة مهمة مما كتبه ابن حيان ليس من الناحية التـاريخية ـ وهي مهمـة ـ فحسب، بل من النـاحيـة الأدبيـة أيضـا، فـإذا وجـدت بعض نصوص هـذا التاريخ مجموعا أمكننا أن نبحث علة بعض المآخذ والمظـاهر التي عـدت من عيوب كتابات ابن حيان، لأن وجودهـا مجتمعـة، ومقـارنتهـا بعضهـا ببعض

يؤدى بنا إلى التريث في إصدار الأحكام وذلك بعقد المقارنات وبحث العلل، فمثلا إذا تتبعنا المأخذ الذي حسب على ابن حيان في كثرة ثلبه لسير من يترجم لهم، هذا المأخذ إذا حاولنا تتبعه من خلال نصوص عديدة مع إلقاء نظرة تحليلية لها قد نجد تبريرات تنسجم مع نفسية ابن حيان، وما عرف به من حبه للجماعة الإسلامية، وكراهيته للفرقة، وحبه للخلافة رمز الوحدة والجماعة.

فما أنكره ابن بسام من نعي ابن حيان للأشخاص قوله ناعيا رجلا وصفه ابن حيان باللؤم والإلتحاف بالشؤم ودناءة الأصل، وتنكب السداد، مما يوهم أول وهلة أنه ثلب شخصي، وطعن في سيرة ذاتية لأحد الأشخاص، ولكن الإستمرار في قراءة النص يوضح لنا نفسية ابن حيان وفكره السياسي من جهة ومنهجه في تسجيل السير من جهة أخرى، إذ هو ثلب سياسي تمثل بهذا الشخص وبمن ولاه النظر في قصور بني أمية، فهذا الرجل الذي يذمه ابن حيان (بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة، ودرست آثارهم البديعة، وحطت أعلامهم المنيعة، وصار من البديع أن قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة وقت النظر في جميع آلات ما تهدم من القصور المعطلة، فاغتدى عليها أعظم آمنة، يبيع أشياء جليلة القدر، رفيعة القيمة في طريق الأمانة ولم يك مأمونا على باقة بقل...).

هذا الرجل الذي يشتمه ابن حيان لم يكن أمينا على الأمانة التي عهدت إليه، ولا راعيا للواجب الذي أوكل به لأنه عاث في القصور عياث النار في يبس العرفج (الذخيرة ق 1/ج 600/2) فإذا أضفنا هذا الثلب إلى آخر ورد في نص عن ابن حيان أيضا في ظاهرة ثلب لسيدة عجوز غفل،

وشتيمة لزوجها النكرة البعيد عن أطراف المجد، تبين لنا سبب ولوع ابن حيان بالنعي المقترن بإظهار مفاسد الغير.

فهذه العجوز الغفل من بني كوثر حضر جنازتها كبار الناس وتقدم ابن جهور لهم ماشيا على قدميه في موكب عظيم... ثم يتحدث عن هذه المرأة التي كانت من حثالة العامة، ولم يكن بينها وبين النباهة من كلا طرفيها نسبة في الدولة قريبة أو بعيدة ولا ظفرت ببعل مثر ولا ذرية نبيهة.. ثم يصف زوجها بأنه كان أحد سماسرة قرطبة يروح يومه كهش الازار، أعظم أفراحه ظفره بقوت يومه، وكان مع ذلك كثيرا ما ينتاب الحانات على قله... هذا النعي ليس نعيا شخصيا، ولم يقصد به ابن حيان الطعن في سيرة المرأة أو زوجها لشخصيهما ولكنه قصد الثلب السياسي وانتقاص سيرة ابن جهور، ويدلنا على هذا تعقيب ابن حيان على الخبر. (فسبحان الكبير المتعال ناقل الأحوال مبدل العسر يسرا).

ومرة أخيرة نقول أن جمع شتات التاريخ الكبير لا يفيد في دراسة القضايا التاريخية فحسب بل هو مهم جدا في دراسة الأدب الأندلسي فكثيرا ما ينقل ابن حيان رسائل من يترجم لهم أو يتحدث عن سيرتهم وهذه الرسائل المتبادلة إذا ضم بعضها إلى بعض أفادت في دراسة النثر الفني في الأندلس من خلال إنشاء بعض الكتاب إضافة إلى ورودها في مصادر أخرى كالرسائل التي نقلها ابن حيان عن أحمد ابن عباس والتي كتب بعضها إلى أبي المغيرة ابن حزم أو إلى أهل غرناطة أو إلى أهل قرطبة، وكلها رسائل إنشائية عالية الأسلوب لها قيمتها الأدبية إضافة إلى قيمتها التاريخية.

بالإضافة إلى هذا فإن النقول ستطلعنا على جانب من جوانب شخصية ابن حيان الأدبية، ولا أقصد بها كتابته التاريخية بأسلوب أدبي، ولكن أقصد به وقفات ابن حيان الأدبية في نقده لبعض الأشعار والنصوص التي يوردها خلال النص التاريخي وإلى أن يهدينا الله ويوفقنا في إكال هذا المستخرج نامل الإستفادة من ملاحظات علمائنا الأفاضل. وأساتذتنا الأجلاء.

د. ابتسام مرهون حسن الصفار

الفهرس